أدب إنجليزي حديث

# الحكاية الثالثة عشر

رواية



دايان ساترفيلد
ترجمة: محمود علي

المحروسة

إهداء لـ ..

(NOURA) $^2$



الحكاية الثالثة عشرة

عنوان الكتاب: الحكاية الثالثة عشرة

The Thirteenth Tale

المؤلف: دايان ساترفيلد Diane Setterfield

ترجمة: محمود على

مراجعة لغوية: محمد حمدي أبو السعود

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف:- 002 02 28432157

 mahrousaeg

 almahrosacenter

 almahrosacenter

 www.mahrousaeg.com

 info@mahrousaeg.com

 mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٨٧٥٠/ ٢٠١٩

الترقيم الدولى: 978-977-313-798-4



First published by Orion Publising Group Ltd, 2006

# الحكاية الثالثة عشرة

## دايان ساترفيلد

ترجمة
محمود على

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

الطبعة الأولى 2020



دار الكتب والوثائق القومية

**بطاقة فهرسة**

**فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية**

ساترفيلد، دايان

الحكاية الثالثة عشرة/ دايان ساترفيلد ؛ ترجمة محمود علي.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2019

533 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-798-4

1 - القصص الأمريكية

أ-علي، محمود (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2019/28750

ينسج الأطفال أساطير عن مولدهم، إنه فعل شائع، فإن أردت الاطلاع على قلب وعقل وروح أحد، اسأله عن مولده، ما سيقوله لن يكون الحقيقة، بل قصة، ولا شيء أكثر تعبيرًا عن البشر من القصص.

حكايات التغيير واليأس، "فيدا وينتر".

# البداية

# الرسالة

إنه نوفمبر، ومع أن الوقت لم يكن متأخرًا، كانت السماء مظلمة حين دخلت ممر "لاندريس"، أنهى والدى عمل اليوم وأطفأ أنوار المتجر وأغلق شيش النوافذ، لكنه ترك ضوء السلالم مضاءً لأهتدى به حين عودتى إلى الشقة، يسقط عبر المستطيل الزجاجى بالباب ضوءٌ باهت على الرصيف المبتل، وبينما أنا واقفة فوق مستطيل الضوء، انتبهت للمرة الأولى إلى الرسالة، مستطيل أبيض آخر، مُلقى على الدرجة الخامسة صعودًا، حيث لا يمكن ألا أراها.

أغلقت الباب ووضعت مفتاح المتجر فى مكانه المعتاد وراء كتاب "المبادئ المتقدمة فى الهندسة" لمؤلفه "بايلى"، يا له من مسكين "بايلى"، لم يطلب أحد كتابه الرمادى السميك لمدة 30 عامًا، أحيانًا أتساءل عما يستفيد من حراسته لمفاتيح متجر الكتب، كذا لا أفترض أن هذا المصير هو ما خطر بباله حين أمضى عقدين يؤلف تحفته هذه.

أرسل أحد رسالة إلىَّ، وهذا حدث مميز فى حد ذاته، كُتب العنوان على ظرف أطرافه متجعدة، سميك المحتويات رغم طيها، كُتب العنوان بخط أرهق عينى ساعى البريد بلا شك، ومع أن أسلوب الكتابة يبدو قديم الطراز، بحروفه الكبيرة المنمقة للغاية وزخارفه الملتوية، كان انطباعى الأوَّلى أن الكاتب طفل، فالحروف بدت غير ناضجة، وجرات القلم غير المتساوية إما متلاشية إلى نهايتها وإما محفورة داخل الورقة، كذا لم يبد تتالى حروف اسمى سلسًا، بل رُسم كل حرف منفصلاً كمغامرة جديدة شاقة، لكن حياتى بلا أطفال، لذا افترضت أنها يد شخص معتل.

أثار ذلك لدىّ شعورًا غريبًا، فبالأمس أو أول أمس، وبينما أنا منهمكة فى عملى بهدوء وعلى انفراد، كبّد شخص ليس بصديقى نفسه عناء رسم اسمى على هذا الظرف، تُرى من ذا الذى حدّق إلىَّ بعين عقله فى غفلة منى؟

لم أنتظر حتى أخلع معطفى وقبعتى، بل جلست على درجة السُلم لقراءة الرسالة، (لا أقرأ أبدًا دون التأكد من أننى فى موضع آمن)، تعلمت هذا منذ كانت سنى سبعة أعوام، إذ كنت أجلس على حائط مرتفع أقرأ كتاب "ذا ووتر بيبيز"، وأغوانى وصف الحياة تحت المياه لدرجة أنى أرخيت عضلاتى بلا وعى منى، وبدلاً من أن أطفو على المياه التى أحاطت بى بمنتهى الوضوح فى بالى، هويت مصطدمة بالأرض، لا أزال حتى الآن أشعر بندبة تلك الواقعة تحت رمشى، (القراءة قد تؤذى أحيانًا).

فتحت الظرف وسحبت منه نصف دستة من الأوراق، كلها مكتوبة بخط اليد المجهد للعينين نفسه، وبفضل عملى فإنى خبيرة فى قراءة ما استعصى من المخطوطات، لا ينطوى الأمر على سر عظيم للمهنة، بل يؤتى الصبر والممارسة كل المطلوب، ومعهما بصيرة الخبير، فعندما

تقـرأ مخطوطـة خربتهـا المياه أو النـار أو الضـوء أو مـرور الزمـن، فـإن عينيـك لا تحتاجـان إلى دراسـة أشـكال الحـروف فقـط، بـل والبصـمات الأخـرى للكاتـب، ذلـك مثـل سرعـة القلـم، والإمسـاك والإفـراج فى سريانـه، ومقـدار ضغـط اليـد عـلى الصفحـة، ولكـن بالأسـاس يجـب أن تسـترخى وتصفـى عقلـك، إلى أن تصحـو فى حلـم تكـون فيـه قلـمًا يحلـق فـوق ورقـة، وتكـون أنـت الورقـة حـين تداعبـك لمسـة الحـبر، حينهـا سـتتمكن مـن قـراءة المخطوطـة، ستسـتقرئ نيـة الكاتـب، وأفـكاره، ومـدى تـردده، ومـا يشـتاق إليـه، ومـا يقصـده، سـتقرؤها بوضـوح كـما لـو كنـت ضـوء الشـمعة المطلـة عـلى الصفحـة فى حـين يمـد القلـم خطـوط الحـبر عليهـا.

ليـس الأمـر أن هـذه الرسـالة تضاهـى بعـض المخطوطـات صعوبـة، لقـد بـدأت باقتضـاب فـظ: "السـيدة ليـا"، ومـن ثـمَّ بـدأت الطلاسـم بتفكيـك نفسـها سريعًـا إلى حـروف ثـم كلـمات ثـم جمـل.

وهذا ما قرأته:

يومًـا مـا أجريـت مقابلـة مـع صحيفـة "بانـبرى هيرالـد"، يجـب أن أبحـث عـن تلـك المقابلـة لتسـاعد فى كتابـة سـيرتى الذاتيـة، أرسـلوا إلىَّ شـابًا غريبًـا، بـل فى الواقـع، كان فتـى طولـه طـول رجـل، لكـن جسـده ممتلـئ كالأطفـال، بـدا محرجًـا ببذلتـه الجديـدة البنيـة القبيحـة، كانـت أكـبر مـن سـنه كثـيراً وتفاصيلهـا كلهـا غـير مناسـبة، ياقتهـا، وتصميمهـا، ونسـيجها، كانـت أشـبه بـشيء قـد تشـتريه أم لولـد ينهـى تعليمـه ويبـدأ عملـه الأول، متصـورة أن طفلهـا سـينمو بداخلهـا بطريقـة مـا، لكـن الصبيـان لا يخلعـون صبيانيتهـم حـين يخلعـون زيهـم المـدرسى للمـرة الأخـيرة.

شيء مـا ميـز طريقـة تصرفـه، درجـة مـا مـن الحـدة، ففـى اللحظـة التـى اسـتقرت فيهـا عينـاى عليـه قلـت لنفـسى: "آه، تُـرى عـمَّ يبحـث؟"

لا أحمـل ضغينـة تجـاه مـن يحبـون الحقيقـة، بـصرف النظـر عـن أن صحبتهـم مملـة، مـا دامـوا لا يشرعـون -مثلـما يفعـل بعضهـم- فى الحديـث

عن السرد القصصى والحقيقة، فهذا عادةً ما يزعجنى، ولكن إن تركونى وشأنى، لن أوذيهم.

لا أتذمر بشأن محبى الحقيقة، بل الحقيقة نفسها، فماذا تقدم الحقيقة من عون وعزاء إن قارنًاها بقصة؟ وما نفع الحقيقة فى ظلام منتصف الليل، حين تسمعين صدى الرياح فى المدفأة مثل الدب؟ وحين يضرب ضوء البرق حائط غرفة نومك، وينقر المطر النافذة بأظفاره الطويلة؟ حين يصنع الخوف والبرد منك تمثالاً على سريرك، لا تنتظرى من الحقيقة الجوفاء الهزيلة أن تهرع لإنقاذك، بل إن الراحتين الغضتين للقصة هما ما تحتاجين إليه، إنها السلامة المريحة المهدهِدة التى تقدمها الكذبة.

بالتأكيد لا يحب بعض الكتاب المقابلات، يضيق صدرهم بها ويتذمرون قائلين: "إنها الأسئلة المكررة نفسها"، ولكن ماذا يتوقعون؟ فالمراسلون مبتذلون، لكن نحن -الكُتاب- أصحاب القيمة الحقيقية، وإن طرحوا دائمًا الأسئلة نفسها، فهذا لا يعنى أننا يجب أن نقدم الإجابات نفسها، أليس كذلك؟ أقصد بهذا اصطناع القصص، إنه ما نفعله لكسب العيش، لذا فإننى أُجرى عشرات المقابلات سنويًا، وأجريت مئات المقابلات على مدار حياتى، لأننى لم أصدق قط أن العبقرية يجب أن تُخفى لتتقد، فعبقريتى ليست بالشىء الهش لدرجة أن ينكمش خوفًا من أصابع الصحفيين القذرة.

فى الأعوام المبكرة من مسيرتى اعتادوا محاولة اللحاق بى، فيتحرون ويأتون بجزء بسيط من الحقيقة فى جيوبهم، ويبسطونه فى لحظة مواتية آملين إدهاشى حتى أكشف المزيد، اضطرنى ذلك إلى الحذر، فكنت أسوقهم ببطء نحو الاتجاه الذى أريده لهم، وأستخدم طُعمى لأستدرجهم بلطف نحو قصة أجمل من التى تطلعوا إليها، إنها عملية دقيقة، وفى نهايتها تبدأ أعينهم فى اللمعان، وترتخى قبضتهم

على قصاصة الحقيقة، إلى أن تسقط من أيديهم إلى بئر التجاهل، لم يفشل هذا الأسلوب قط، فالقصة الجيدة دائمًا أكثر إبهارًا من قصاصة الحقيقة.

بعد ذلك وبمجرد أن أصبحت مشهورة، أصبحت مقابلة "فيدا وينتر" على نحو ما تعميدًا للصحفى، فقد عرفوا ما يجب أن يتوقعوه، وكانوا يحبطون إن غادروا دون قصة، يمرون سريعًا بالأسئلة العادية (ما مصادر إلهامك؟ هل تبنين شخصيات قصصك على أشخاص حقيقيين؟ كم بطلاً من رواياتك يمثلونك شخصيًا؟) وكلما كانت إجاباتى على تلك الأسئلة أقصر، أعجبتهم أكثر (عقلى: لا، لا أحد منهم)، ثم يأتى الجزء الذى كانوا ينتظرونه وما أتوا من أجله بالأساس، تعلو وجوههم نظرة حالمة منتظِرة، كانوا مثل الأطفال فى موعد نومهم، فيقول أحدهم: "وأنت يا سيدة (وينتر)، أخبرينى بشأنك".

فأخبرهم، كانت قصصًا بسيطة صغيرة حقًا، لا تعنى الكثير، فقط بعض الخيوط المنسوجة معًا لتشكل تصميمًا جميلاً، فآتى بعنصر مميز من هنا، وقطعتى ترتر من هناك، إنها مجرد بقايا فى قاع كيس أقمشة قديمة، ولدى مئات غيرها، إنها قصاصات من روايات وقصص وحبكات لم أُنهها، وشخصيات ولدت ميتة، وأماكن رائعة لم أجد لها استخدامًا من قبل، وصدف ونهايات حذفها المحررون، حينئذ يصبح كل المتبقى ترتيب الحواف، وحياكة النهايات لتصبح جاهزة، إنها سيرة ذاتية جديدة تمامًا.

غادروا فرحين، تتشبث أياديهم بدفاترهم كفعل الأطفال بالحلوى فى نهاية حفل عيد ميلاد، سيحكون هذا لأحفادهم: "فى يوم من الأيام قابلت (فيدا وينتر)، وحكت لى قصة".

ولكن الفتى من صحيفة "بانبرى هيرالد" قال لى: "سيدة وينتر، أخبرينى الحقيقة"، وتعجبت لهذا الرجاء! لقد رأيت أشخاصًا يدبرون

جميع أشكال الحيل لخداعي حتى أحكي، وأستطيع كشف هؤلاء من بُعد كيلومترات، لكن ما هذا؟! إنه مثير للضحك، ماذا توقع أن يسمع؟!

هذا سؤال جيد، ماذا توقع أن يسمع؟ كانت عيناه تلمعان بما يقصد، لقد راقبني من كثب باحثًا متحققًا، كان يسعى وراء شيء محدد جدًّا، كنت متأكدة من ذلك، رطّب العرق جبينه، ربما كانت تلك بداية إعياء، لكنه طلب مني أن أخبره الحقيقة.

راودني شعور داخلي غريب، كأنه الماضي يحيا مجددًا، كأن أشباح حياة ماضية تعبث ببطني، تُحفز موجة لتجتاح عروقي، وترسل مويجات باردة لتحتضن رأسي، الأمر يبث بي حماسًا مخيفًا.

لكنني فكرت في طلبه، قلّبت الأمر في بالي وحسبت العواقب المحتملة، لقد أزعجني هذا الفتى بوجهه الشاحب وعينيه المتقدتين.

قلت: "حسنًا".

بعد ساعة كان قد رحل، كان وداعًا باهتًا بعقل شارد وبلا التفات إلى الوراء.

لم أخبره الحقيقة، كيف يمكنني ذلك؟ لكنني حكيت له قصة، كانت قصة صغيرة فقيرة تعاني سوء التغذية، بلا بريق ولا قطع ترتر، لا شيء بها سوى رقع باهتة ومملة، مثبتة معًا بأطراف بالية، إنه نوع القصص الذي يشبه الحياة الحقيقية، أو ربما ما يتخيل الناس أنه الحياة الحقيقية، والاختلاف بينهما كبير، ليس من السهل على شخص بموهبتي أن يأتي بقصة مثل هذه.

راقبته من النافذة، كان يجر قدميه مبتعدًا، وكتفاه منحنيتان ورأسه يتدلى ويخطو الخطوة بجهد بالغ، اختفت كل تلك الطاقة

والحماس والحيوية، لقد قتلتها، ليس الأمر أننى أتحمل كل اللوم، فقد كان حريًا به ألا يصدقنى.

لم أره مجددًا أبدًا.

الشعور الذى راودنى، والموجة التى ببطنى، والمويجات برأسى وأطراف أصابعى، كل ذلك لازمنى لفترة بعدها، هاج الشعور وهدأ بتذكرى لكلمات الفتى، أخبرينى الحقيقة، قلت: "لا" مرارًا وتكرارًا، لكنه لا يهدأ، كنت ألهى نفسى فقط، وكان هذا الشعور راية حمراء، وفى النهاية عقدت اتفاقًا، قلت: "ليس بعد"، تنهد الشعور، وتململ، لكنه فى النهاية هدأ وسكن، هدأ للغاية لدرجة أنى ظننت نفسى نسيته.

كان ذلك منذ زمن بعيد، منذ ثلاثين عامًا؟ أربعين؟ ربما أكثر، الوقت يمر أسرع مما تتصورين.

جال ذاك الفتى ببالى مؤخرًا، "أخبرينى الحقيقة"، وراودتنى مؤخرًا هذه التقلبات الداخلية الغريبة، هناك شىء ينمو بداخلى وينقسم ويتكاثر، أشعر به فى بطنى، إنه دائرى وصلب وبحجم ليمونة، يسحب الهواء من رئتى، وينخرعظامى، لقد غيَّره السكون الطويل، من الوداعة والانصياع إلى التسلط، إنه رافض لكل أشكال التفاوض ويصد النقاش، ويصر على نيل حقوقه، لن يقبل بالرفض إجابةً، إنها الحقيقة تنادى على الفتى ويتردد صداها، وتراقب ظهره المبتعد، ثم تلتفت إلى، فتطبق بثقلها على أحشائى وتَقود انقلابًا، لقد عقدنا اتفاقًا، أتذكرين؟

والآن، لقد حان الوقت.

تعالى يوم الاثنين، سأرسل سيارة لتقلك من محطة "هاروجيت" حين وصولك فى الرابعة والنصف.

كـم بقيـت جالسـة عـلى السـلم بعـد قـراءة هـذه الرسـالة؟ لا أعـرف، لأننـى كنـت مأسـورة بسـحر مـا، شىء مـا يتلبّـس الكلـمات، فهـى تـأسرك حـين تنظمهـا يـدان خبيرتـان بالتلاعـب، تلتـف حـول أطرافـك كخيـوط العنكبـوت، وحـين تكـون مأسـورًا بالسـحر لدرجـة العجـز عـن الحركـة، تخـترق جلـدك، وتـسرى بدمـك، وتخـدر أفـكارك، وتبـث تعاويذهـا داخلك، لمـا انتبهـت لنفـسى أخـيراً، لم يسـعنى إلا أن أدرك مـا كان يـدور فى ظـلام لاوعيـى، مـاذا فعلـت بى الرسـالة؟

أعـرف القليـل عـن "فيـدا وينـتر"، كنـت عـلى علـم بالألقـاب العديـدة التـى تلحـق عـادة باسـمها: الكاتبـة الأكـثر شـعبية فى إنجلـترا، و"ديكنـز" القـرن الحـالى، وأوسـع المؤلفـين الأحيـاء شـهرة فى العـالم، ومـا إلى ذلـك، كنـت أعـرف بالتأكيـد أن لهـا شـعبية كبـيرة، ومـع ذلـك تفاجـأت حـين بحثـت لاحقًـا عـن أرقـام مبيعاتهـا، نـشرت سـتة وخمسـين كتابًـا فى سـتة وخمسـين عامًـا، وتُرجمـت كتبهـا إلى تسـع وأربعـين لغـة، وحصلـت عـلى لقـب مؤلفـة الكتـب الأكـثر اسـتعارة فى مكتبـات إنجلـترا سـبعًا وعشريـن مـرة، وبُنيـت أحـداث تسـعة عـشر فيلـمًا عـلى رواياتهـا، والسـؤال الأوسـع إثـارة للجـدل مـن الناحيـة الإحصائيـة هـو: هـل باعـت نسـخًا أكـثر مـن الكتـاب المقـدس؟ ولا تكمـن الصعوبـة كلهـا فى حسـاب عـدد النسـخ التـى باعتهـا (فهـو رقـم بالملايـين دائـم التغـير)، بـل فى اسـتحالة تحديـد عـدد مؤكـد لنسـخ الكتـاب المقـدس المبيعـة، فأيًّـا كان موقفـك مـن كلـمات الـرب، تفتقـد بيانـات مبيعاتهـا أى أسـاس قـوى، ولكـن الرقـم الـذى ربمـا اعتبرتـه أكـثر أهميـة فى أثنـاء جلـوسى عـلى درجـة السـلم الأخـيرة كان اثنـين وعشريـن، هـذا عـدد كُتّـاب السـير الذاتيـة الذيـن قنعـوا بالكـف عـن محاولـة كشـف حقيقتهـا، تنوعـت الأسـباب بـين غيـاب المعلومـات، أو غيـاب الشـجاعة، أو بسـبب الإغـراءات أو التهديـدات مـن جانـب السـيدة "وينـتر" نفسـها، لكننـى لم أكـن أعلـم أيًّـا مـن هـذا حينهـا، لقـد عرفـت

حقيقـة واحـدة حينهـا، وبـدا أنهـا الأكـثر أهميـة: كـم مـن كتـب "فيـدا وينـتر" قـرأت أنـا "مارجريـت ليـا"؟ صفـر.

انتابتنـى القشـعريرة وأنـا جالسـة عـلى السـلم، وتثاءبـت ومـددت جسـدى، لأعـود إلى ذاتى وأجـد أن أفـكارى أُعيـد ترتيبهـا فى غيبتـى، وقـد بـرز مشـهدان وسـط البقايـا المهمَلـة التـى غطـت ذاكـرتى.

كان الأول مشـهدًا قصـيرًا مـع والـدى فى المتجـر، كنـا نفـرغ صنـدوق كتـب وَرد إلينـا بعـد تصفيـة مكتبـة خاصـة، وقـد حـوى عـددًا مـن أعـمال "فيـدا وينـتر"، لا نتعامـل فى متجرنـا بكتـب الخيـال المعاصر، فقلـت لوالدى: "سـآخذها إلى المتجـر الخـيرى فى سـاعة الغـداء"، وتركتهـا بجانـب المكتـب، لكـن قبـل انقضـاء الصبـاح كانـت ثلاثـة مـن الكتـب الأربعـة قـد اختفـت، لقـد بيعـت، واحـد بيـع لقـس، والثـانى لرسـام خرائـط، والثالـث لمـؤرخ عسـكرى، بـدت وجـوه زبائننـا -بالشـحوب الخارجـى والتوهـج الداخـلى المعتاديـن لـدى محبـى الكتـب- متقـدة حـين رأوا الألـوان الغنيـة لأغلفـة الكتـب، وبعـد الغـداء، حـين انتهينـا مـن التفريـغ والتصنيـف والتعليـق عـلى الرفـوف، وانقطـع تدفـق الزبائـن، جلسـنا نقـرأ كالعـادة، إنهـا أواخـر الخريـف والسـماء تمطـر والنوافـذ ضبابيـة ونحـن نسـمع فى الخلفيـة حسـيس مدفـأة الغـاز، نسـمع الصـوت ولا ندركـه، ونجلـس متجاوريـن وبيننـا أميـال، كل منـا مسـتغرق فى كتابـه.

أصحو من استغراقى لأسأل: "هل أعد الشاى؟"

ولا أجد إجابة.

فأعد الشاى على أيِّة حال، وأضع الكوب بجواره على المكتب.

بعـد سـاعة كان الشـاى الـذى لم يمسسـه قـد بـرد، فأعـد إبريـق شـاى جديـدًا وجلـب كوبـًا آخـر تعلـوه الأبخـرة إلى جانـب والـدى عـلى المكتـب، إنـه غـير واع بـأى مـن حـركاتى.

أميـل الكتـاب الـذى بـين يديـه برفـق حتـى أرى الغـلاف، إنـه كتـاب "فيـدا وينـتر" الرابـع، فأعيـد الكتـاب إلى موقعـه الأصلى، وأتمعـن فى وجـه والـدى، لا يسـمعنى ولا يـرانى، إنـه فى عـالم آخـر، وأنـا شـبح.

كانت تلك الذكرى الأولى.

أمـا الثانيـة فكانـت صـورة، صـورة جانبيـة لوجـه، منحوتـة بكثافـة بالظـل والنـور، ويطـل الوجـه عـلى المسـافرين المنتظريـن المتقزمـين تحتـه، إنهـا مجـرد صـورة دعائيـة ملصقـة عـلى لوحـة إعلانـات بمحطـة القطـار، ولكـن عقـلى يـرى فيهـا الفخامـة المثيرة للإعجـاب لـدى الملـكات المنسـيات، والآلهـة التـى نحتتهـا الحضـارات القديمـة فى الصخـر، الرسـم الفاتـن للعينـين، والامتـداد الواسـع والسـلس لعظمتـى الوجنتـين، ورسـم عظمـة الأنـف بنسـب لا يشـوبها خطـأ، لا يـؤدى تأمـل كل هـذا إلا إلى الاندهـاش مـن أن عشـوائية التنـوع البـشرى يمكـن أن تنتـج شـيئًا بمثـل هـذا الكـمال الخـارق، مثـل هـذه العظـام، التـى سيكتشـفها علـماء الآثـار فى المسـتقبل، وسـتبدو لهـم مـن صنـع الإنسـان، إنهـا قمـة السـعى الفنـى الإنسـانى، وهـى ليـس نتيجـة لطبيعـة تُزخـرف بـلا حـس، أمـا البـشرة التـى تغلـف هـذه العظـام المميـزة، فـإن لهـا لمعانًـا عاتمًـا كالمرمـر، ومـع ذلـك فإنهـا تبـدو باهتـة إلى جـوار خصـلات الشـعر النحاسـية الملتويـة، المرتبـة بهـذه الدرجـة مـن الدقـة عنـد الصدغـين وصـولاً إلى الرقبـة القويـة الأنيقة.

وفـوق كل هـذا الجـمال المفـرط توجـد العينـان، كأنـه غـير كاف، لونهـما مكثـف بفعـل حيلـة تصويريـة مـا ليكـون أخـضر غـير بـشرى، إنهـا درجـة الأخـضر التـى تراهـا فى زجـاج الكنائـس، أو الزمـرد، أو حلـوى السـكر، أرى العينـين تحملقـان بعيـدًا أعـلى رءوس المسـافرين عـلى نحـو مثـالى مـن اللاتعبير، لا أجـزم بـأن المسـافرين الآخريـن شـعروا بمـا أثارتـه الصـورة بداخـلى، لقـد قـرؤوا الكتـب وربمـا تكـون لديهـم رؤيـة مختلفـة، لكـن مـن منظـورى، وأمـام هاتـين العينـين الخضراويـن الكبيرتـين، لم يسـعنى سـوى

تذكر التعبير الشائع عن أن العينين بوابة الروح، وأتذكر أننى حينها، وأنا أحملق فى العينين الخضراوين اللتين لا تريان، فكرت فى أن هذه المرأة بلا روح.

كان هذا هو مدى معرفتى بـ"فيدا وينتر" حتى ليلة الرسالة، لم أعرف الكثير عنها، لكن عند التفكير في الأمر، ربما هذا هو كل ما يعرفه الآخرون أيضًا، ومع أن الكل عرف "فيدا وينتر" -اسمها، ووجهها، وكتبها- لم يعرفها أحد حقًّا، فهى مشهورة بأسرارها مثلما هى مشهورة بقصصها، إنها لغز مثالى.

إن كنت سأصدق الرسالة، فإن "فيدا وينتر" تريد الآن أن تحكى حقيقتها، وهذا، فى حد ذاته، أمر مثير للفضول، لكن الأكثر إثارة منه كان فكرتى التالية: لماذا تريد أن تحكيها لى؟




# قصة "مارجريت"

أصعد السلم وأخطو نحو ظلام المتجر، لم أحتج إلى الضوء لأجد طريقى، إذ أعرف خريطة المتجر مثلما تحفظ أماكن طفولتك، تبث رائحة الجلد والأوراق القديمة السكينة على نحو لحظى، أمرر أطراف أصابعى بامتداد كعوب الكتب كعازف البيانو، لكل كتاب نوتته الخاصة المميزة: الكعب المحبب المغلف بالكتان لكتاب "تاريخ رسم الخرائط" لـ"دانيلز"، والجلد المشروخ لمحضر اجتماع أكاديمية رسامى الخرائط بسان بطرسبرج لكاتبه "لاكيونين"، ومغلف متهالك يحوى خرائطه المرسومة والملونة باليد، يمكنك أن تعصب عينى وتتركنى بأى مكان فى أدوار المتجر الثلاثة، وسأعرف مكانى بتمرير أصابعى على الكتب.

نرى بضعة زبائن فى متجر الكتب الخاص بـ"ليا"، نصف دستة هزيلة من الزبائن يوميًا فى المتوسط، لكن سبتمبر يجلب موجة من النشاط حين يأتى الطلاب لشراء نسخ من النصوص الدراسية للعام الجديد، ويشهد مايو موجة أخرى حين يردون تلك النسخ بعد

الاختبارات، يصف والدى تلك الكتب بالمرتحِلة، وفى أوقات أخرى من العام يمكن أن تمر أيام بلا زبون واحد، أما الصيف فيجلب لنا السائح الغريب الذى ساقته قدماه إلى خارج طريقه وداخل متجرنا، والذى يدفعه فضوله إلى الخروج عن أشعة الشمس ودخول متجرنا، حيث يقف لبرهة ويرمش لتتكيف عيناه مع الضوء الداخلى، وقد يبقى فى متجرنا من أجل بعض من الظل والهدوء أو لا، حسب مدى ضجره من تناول المثلجات ومراقبة القوارب فى النهر، أما الزوار الأكثر ترددًا علينا فهم من سمعوا عنا من صديق، حين يجدون أنفسهم قرب "كامبريدج" فيميلون عن قصد إلى عطفتنا، هؤلاء يعلو وجوههم الترقب مع دخولهم المتجر ويعتذرون قليلاً لإزعاجنا، إنهم لطفاء وهادئون وودودون كالكتب نفسها، ولكن فى غالب الأوقات يكون الوالد وأنا والكتب، فقط.

فكيف تلبى الكتب احتياجاتنا؟ قد يدور ببالك هذا السؤال إن لاحظت قلة عدد الزبائن المترددين، ولكن المتجر من الناحية المالية لا يمثل إلا عملاً إضافيًا، والعمل الأساسى يحدث فى مكان آخر، فنحن نكسب عيشنا اعتمادًا ربما على ست معاملات تجارية سنويًا، هكذا يتم الأمر: الوالد يعرف جميع جامعى الكتب العظماء فى العالم، ويعرف أعظم مجموعات الكتب فى العالم، إن رأيته فى المزادات أو معارض الكتب التى يحضرها بانتظام، ستلاحظ تكرار أن يقترب منه أشخاص هادئو الصوت والملبس ليطلبوا كلمة على انفراد، أعينهم تشى بكل ما هو غير هادئ، فيسألونه إن كان على علم بشىء ما، أو إن كان قد سمع من قبل بكذا، عند ذلك يذكرون كتابًا، يجيب الوالد بغموض، الأمر غير مبشر، وعادة لا تثمر هذه المقابلات شيئًا، لكن على الجانب الآخر، إن كان قد سمع عن كتاب السائل، وإن كان لا يملكه بالفعل، فإنه يسجل عنوان السائل فى دفتر أخضر صغير، ثم لا يحدث شىء لفترة، لكن لاحقًا -بعد أشهر قليلة أو كثيرة، لا نعلم

تحديدًا- فى مزاد أو معرض آخر، يرى شخصًا آخر، ويسأل مجددًا عن الكتاب بأسلوب متردد جدًّا، وفى الغالب ينتهى الأمر هنا، لكن أحيانًا بعد تلك المحادثات قد يحدث تبادل للرسائل، إذ يقضى الوالد وقتًا طويلاً فى كتابة الرسائل بالفرنسية والألمانية والإيطالية أو حتى باللاتينية أحيانًا، وفى تسع مرات من كل عشرة، يكون الرد رفضًا مهذبًا من سطرين، لكن أحيانًا -ست مرات سنويًّا- يكون الرد مقدمة لرحلة يستلم فيها الوالد كتابًا من هنا، ويسلمه هناك، نادرًا ما يسافر لمدة تزيد على 48 ساعة، هذه المرات الست هى سبيل معاشنا.

لا يحقق المتجر نفسه أى أموال تقريبًا، إنه مكان للكتابة واستقبال الرسائل، مكان لانتظار المعرض الدولى المقبل، يرى مدير المصرف الذى نتعامل معه فى هذا تساهلاً، لكنه تساهل استحقه والدى بفضل نجاحه، لكن فى الواقع -واقع والدى وواقعى، فلا أدعى أن الجميع يرى الواقع نفسه- يمثل المتجر قلبًا لعلاقتنا، إنه مستودع للكتب، ومكان آمن لجميع الكتب، التى كُتبت سابقًا بحب شديد، لكن يبدو ألا أحد يريدها الآن.

وهو مكان للقراءة.

تعلمت الأبجدية فى هذا المتجر، (أ) أوستن، (ب) برونتى، (ج) جاسكل، (د) ديكنز، يتجول والدى بطول الرفوف، وأنا بين ذراعيه، يشرح لى الأبجدية فى حين يعلمنى النطق، تعلمت الكتابة هناك أيضًا، إذ كنت أنسخ أسماء مؤلفين وكتب على بطاقات الفهرسة، والتى لا تزال موجودة فى صندوق الإيداع لدينا حتى الآن بعد 30 عامًا، كان المتجر بيتى وعملى، ومدرسة لى أفضل من أى مدرسة ارتدتها، وبعدها كان جامعتى الخاصة جدًّا، لقد كان حياتى.

لم يدسس والدى قط أى كتاب فى يدى، ولم يمنعنى عن أى كتاب، بل كان يدعنى أتجول وأحملق لأقرر تفضيلاتى الخاصة الملائمة إلى حد

ما، قرأت حكايات دموية عن البطولة التاريخية التى أعتبرها آباء القرن التاسع عشر مناسبة للأطفال، وقصص الأشباح القوطية التى بالتأكيد لم تكن مناسبة للأطفال، قرأت حكايات عن رحلات شاقة عبر أراض غادرة قامت بها عوانس يرتدين تنانير منتفخة، وقرأت كتيبات عن اللياقة والإتيكيت موجهة للشابات ذوات الحسب والنسب، وقرأت كتبًا بها صور، وكتبًا بلا صور، وكتبًا بالإنجليزية والفرنسية، وكتبًا بلغات لم أفقهها، فكنت أختلق قصصًا بناء على بضع كلمات أخمن معانيها، كنت غارقة وسط الكتب.

طوال أعوام دراستى أبقيت كل قراءة المتجر هذه لنفسى، فقد وجد بعض الفرنسية المهجورة التى تعلمتها من كتب القواعد القديمة طريقه إلى مقالاتى المدرسية، لكن المعلمين اعتبروه أخطاءً إملائية، ومع ذلك فإنهم لم يتمكنوا أبدًا من إلغائها من عقلى، أحيانًا قد يمس درس تاريخ إحدى طبقات المعرفة العميقة، والعشوائية أيضًا التى راكمتها عبر القراءة غير المنظمة فى المتجر، يمر أمامى الملك "شارلمان"، فأتعجب سرًا قائلة: "(شارلمان)؟ (شارلمان) الذى عرفته بالمتجر؟"، فى مثل هذه الأوقات كنت ألتزم الصمت، مذهولة من التصادم اللحظى لعالمين لم يكونا ليلتقيا أبدًا.

أساعد والدى فى عمله بين جولات قراءتى، ففى سن التاسعة، سمح لى بتغليف الكتب بورق بنى وكتابة عناوين زبائننا الأبعد، وفى العاشرة، سمح لى بأخذ هذه الطرود إلى مكتب البريد، وفى الحادية عشرة أرحت والدتى من دورها الوحيد فى المتجر: التنظيف، فكنت أتدرع بغطاء للرأس ورداء منزلى فى مواجهة الأوساخ والجراثيم، والكراهية الكامنة فى الكتب القديمة، لقد اعتادت أن تمر على الرفوف بريشة إزالة الأتربة شديدة الحساسية، وتزم شفتيها بشدة محاولة عدم استنشاق الأتربة، وبين الحين والآخر تثير الريشة سحابة تخيلية من الأتربة، فكانت ترتد عن الرفوف وهى تسعل، بالطبع مزقت

صناديق الكتب جواربها الطويلة، إنه أمر متوقع نظرًا إلى الشر الكامن فى بعض الكتب، لكن السبب الحقيقى هو أن تلك الصناديق كانت موجودة خلفها فقط، فعرضت عليها أن أتولى تنظيف الأتربة، وقد امتنت لتخلصها من تلك المهمة، فلم تعد بحاجة إلى الخروج إلى المتجر بعد ذلك.

حين بلغت الثانية عشرة، كلفنى الوالد بالبحث عن الكتب المفقودة، وقد اعتبرنا الكتب مفقودة عندما تكون متوافرة فى السجلات، لكنها غير موجودة فى مكانها الصحيح على الرفوف، ربما سُرقت، لكن المرجح أكثر، أن متصفحًا شارد الذهن تركها فى المكان الخطأ، فقد كانت بالمتجر سبع غرف، تصطف الكتب بها من الأرض إلى السقف، إنها آلاف الكتب.

قال الوالد: "وأنتِ تقومين بذلك، تفقدى الترتيب الأبجدى".

كانت تلك مهمة قد تستغرق أبد الدهر، أتساءل الآن ما إذا كان جادًا تمامًا فى إيلائى مثل هذه الثقة حينها، ولكن الحقيقة أن الإجابة بالكاد تهمنى لأننى كنت جادة فى تولى المهمة.

استغرقنى الأمر صباحات صيف كامل، لكن فى مطلع سبتمبر حين بدأت الدراسة كانت الكتب الضائعة كلها قد رُدت، وعاد كل كتاب تائه إلى موضعه، ليس هذا فقط، بل ولامست أصابعى كل كتب المتجر، وإن كانت لمسة سريعة، وحين أتأمل الآن، أرى أن هذا أهم ما فى الأمر.

كنت أقدم لوالدى الكثير من المساعدة بحلول مراهقتى، لدرجة أن فى عصر بعض الأيام الهادئة بالكاد تبقى لدينا عمل حقيقى لننهيه، فبمجرد انتهاء عمل الصباح، وتسكين الكتب الجديدة بالرفوف، وكتابة الرسائل، وبمجرد تناولنا لشطائرنا عند النهر وإطعام البط، كنا نعود إلى المتجر للقراءة، وبالتدريج أصبحت قراءتى أقل عشوائية، ووجدت

نفسى أعرج أكثر فأكثر على الطابق الثانى، إنه طابق أدب القرن التاسع عشر، والسير الذاتية بأقلام أصحابها أو غيرهم، والمذكرات، واليوميات، والرسائل.

لاحظ والدى اتجاهى فى القراءة، فكان يعود من المعارض ومواسم التخفيضات إلى المنزل ومعه كتب ظن أنها قد تثير اهتمامى، إنها كتب صغيرة مهترئة، غالبها مطبوع بالآلة الكاتبة، وصفحاتها مصفرة ومربوطة معًا بشريط أو خيط، وأحيانًا تكون مربوطة يدويًّا، كتب عن الحياة العادية لأشخاص عاديين، فلم أقرأها فحسب بل كنت أفترسها، ومع أن شهيتى للطعام أخذت فى الضعف، كانت شهيتى للكتب فى ازدياد، كانت تلك بدايات إدراكى لحبى لهذه المهنة.

لست كاتبة سير ذاتية لها اعتبار، فى الواقع أنا بالكاد أعتبر كاتبة سير ذاتية من الأساس، فقد كتبت من أجل متعتى الشخصية عددًا من دراسات السير الذاتية القصيرة عن شخصيات غير بارزة فى تاريخ الأدب، واهتممت دائمًا بكتابة السير الذاتية للخاسرين، الذين عاشوا طوال حياتهم فى ظل الشهرة، وغرقوا فى بئر الغموض بعد موتهم، أحب أن أنبش حياة دُفنت فى دفتر يوميات مهجور لمئة عام أو أكثر على رفوف الأرشيف، وغاية سعادتى أن أبث الحياة فى مذكرات شخصية لم تُطبع منها نسخ جديدة منذ عقود.

بين الحين والآخر تكون كتاباتى مهمة كفاية لتثير اهتمام ناشر أكاديمى محلى، لذا نُشر باسمى عدد قليل من الكتابات، ليست كتبًا وليست شيئًا عظيمًا بل مجرد مقالات، بضع صفحات من الكتابة الرديئة مُدبسة بغلاف ورقى، إحدى مقالاتى عنوانها "إلهام أخوى"، عن الأخوين "لانديير"، "إدموند" و"جول"، واليوميات التى كتباها معًا، لفتت عين محرر تاريخ، وضمها إلى مجموعة مقالات مغلفة بورق مقوى عن الكتابة والأسرة فى القرن التاسع عشر، لا بد أن هذا المقال

هـو مـا لفـت انتبـاه "فيـدا وينـتر" إلىَّ، لكننـى أعتـبر وجـود هـذا المقـال وسـط تلـك المجموعـة شـيئًا مضلـلاً، فهـو محـاط بأعـمال أكاديميـين وكتـاب محترفـين، وكأننـى كاتبـة سـير ذاتيـة ذات اعتبـار، رغـم أنى فى الواقـع محبـة للكتابـة، مجـرد هاويـة موهوبـة.

تمثـل قصـص الحيـاة -المنتهيـة- هوايـة لى، إنهـا عمـلى الحقيقـى فى المتجـر، فعمـلى ليـس بيـع الكتـب -هـذه مهمـة والـدى- بـل العنايـة بهـا، وبـين الحـين والآخـر أُخـرج مجلـدًا وأقـرأ منـه صفحـة أو اثنتـين، ففـى النهايـة تمثـل القـراءة طريقـة للعنايـة إن جـاز التعبـير، وهـذه الكتـب ليسـت قديمـة كفايـة لتكتسـب أهميتهـا لقدمهـا فقـط، وليسـت مهمـة كفايـة ليسـعى وراءهـا جامعـو الكتـب، لكنهـا عزيـزة عـلىَّ حتـى وإن كان محتواهـا -كـما هـى الحـال فى غالبهـا- ممـلاً كغلافهـا، لا يهمنـى مـدى ابتـذال المحتـوى، فالكتـب دائمًـا بهـا مـا يمسـنى، لأن أحدهـم ظـن فى وقـت مـا أن هـذه الكلـمات مهمـة كفايـة لدرجـة أن يدوّنهـا.

يختفـى النـاس حـين يموتـون، وتذهـب معهـم أصواتهـم وضحكاتهـم ودفء أنفاسـهم ولحمهـم وشـحمهم، وفى النهايـة عظامهـم، وتنتهـى ذاكرتهـم الحيـة، وهـذا مخيـف وطبيعـى فى آن واحـد، ولكـن هنـاك اسـتثناء للبعـض مـن هـذا الفنـاء، لأنهـم يعيشـون فى مـا أنتجـوه مـن كتـب، فيمكـن أن نعيـد اكتشـافهم، واكتشـاف حسـهم الفكاهـى ونـبرة أصواتهـم وأمزجتهـم، وبكلماتهـم يمكنهـم إغضابـك أو إسـعادك أو طمأنتـك، أو حتـى إربـاكك، يمكنهـم التأثـير فيـك، كل هـذا عـلى الرغـم مـن أنهـم أمـوات، ومثلـما تُحفـظ حـشرة داخـل قطعـة كهرمـان، أو تُحفـظ الجثـث فى الثلـج، ويُفـترض وفـق قوانـين الطبيعـة أنهـا بذلـك قـد رحلـت، تحفـظ معجـزة الحـبر عـلى الـورق أصحابهـا، ذلـك مـن ضروب السـحر.

ومثلـما يرعـى أحدهـم قبـور المـوتى أرعـى أنـا الكتـب، أنظفهـا وأصلـح هيكلهـا قليـلاً وأحفظهـا فى حالـة جيـدة، وأفتـح يوميًـا مجلـدًا أو اثنـين،

أقرأ بعض السطور أو الصفحات وأتيح لأصوات الموتى المنسيين بعض الصدى داخل عقلى، أيشعر هؤلاء الموتى المنسيون بكتبهم حين تُقرأ؟ أيمد ذلك شعاع ضوء ليؤنس وحشتهم؟ أتحرك نسمة أرواحهم حين يقرأ عقل آخر ما دار بعقولهم؟ آمل ذلك، فلا بد أن فى الموت أشد الوحشة.

مع أننى تعرضت هنا لبعض مما يشغل بالى على نحو سرى للغاية، ما زلت أرى أننى أتجنب الأمر الأهم، فأنا لست معتادة على تعرية أفكارى، بل يبدو أننى حتى أدفع نفسى إلى تجاوز تحفظى المعتاد، كتبت كل وأى شىء لأتجنب كتابة الأمر الوحيد المهم.

ومع ذلك فإننى سأكتبه، "الصمت ليس البيئة الطبيعية للقصص"، بحسب ما أخبرتنى السيدة "وينتر"، "إنها بحاجة إلى الكلمات، ومن دون الكلمات تزداد القصص شحوبًا وتمرض وتموت، ثم تطاردك".

إنها محقة، لذا إليكم قصتى.

كانت سنى عشرة أعوام حين اكتشفت السر الذى كانت أمى تخفيه، وسبب أهميته هو أنه لم يكن متعلقًا بها، بل بى.

كان والداى خارج المنزل فى ذلك المساء، لم يعتادا الخروج، لكن حينما يخرجان، كانا يبعثاننى لأجلس فى مطبخ جارتنا السيدة "روب"، كان منزل جارتنا مثل منزلنا تمامًا لكنه معكوس، وذلك الانعكاس كان يشعرنى بدوار البحر، لذا كنت كلما أراد والداى الخروج مساءً أجادلهما بأننى كبيرة وواعية كفاية ليتركانى فى المنزل بلا جليسة أطفال، لم تكن توقعاتى للنجاح كبيرة، لكن فى تلك المرة وافق والدى، وسمحت والدتى لنفسها بالاقتناع، فقط على شرط أن تأتى السيدة "روب" لتطمئن علىَّ فى الساعة الثامنة والنصف.

تركا المنزل فى الساعة السابعة، واحتفلت بصب كوب من الحليب وشربه على الأريكة، وكلى إعجاب بعظمتى، أصبحت "مارجريت ليا"

كبيرة كفاية لتبقى فى المنزل بلا جليسة، وبعد شرب الحليب شعرت بملل غير متوقع، ماذا أفعل بهذه الحرية؟ فانطلقت فى جولة لأحدد مساحة حريتى الجديدة، غرفة الطعام، الممر، مرحاض الطابق السفلى، كل شىء كان مثلما كان دائمًا، وبلا أى سبب محدد، تذكرت أحد مخاوف طفولتى المرتبطة بحكاية "الذئب والخنازير الثلاثة"، فكان الذئب يقول: "سأنفخ بقوة وسأهدم منزلكم!" وما كان الذئب ليواجه أى مشكلة فى أن ينفخ ويهدم منزل والدىّ، فالغرف الفسيحة الباهتة أضعف من أن تقاوم، والأثاث الهش سينهار مثل كومة من عيدان الثقاب إن فكر ذئب فى هذه الخطوة، نعم، ذلك الذئب سيهدم المنزل بنفخة فقط، وسيصبح ثلاثتنا وجبة له فى الحال، حينها بدأت أتمنى لو كنت فى المتجر، حيث لم أخف أبدًا، يمكن للذئب أن ينفخ بكل ما أوتى من قوة، فبوجود كل هذه الكتب التى تضاعف سمك الجدران، سأكون ووالدى بمأمن كما لو كنا فى حصن.

أمعنت النظر فى مرآة الحمام بالطابق العلوى، كان ذلك من أجل الاطمئنان، لأرى كيف سأبدو حين أكون بالغة، أملت رأسى يسرة ويمنة، ودرست انعكاسى من جميع الزوايا، منتظرة أن أرى شخصًا آخر، لكننى لم أرَ غيرى يحملق إلى انعكاسى.

لم تبث غرفتى أى أمل فى إنقاذ الموقف، فأنا أعرف كل تفاصيلها وهى تعرفنى، جعلنا ذلك رفيقتين مملتين، لذا فضّلت أن أدفع باب غرفة الضيوف، بدت خزانة الثياب معدمة التفاصيل وطاولة الزينة العارية مؤيدتين لفكرة أننى يمكننى تمشيط شعرى وتغيير ملابسى هنا، لكننى عل نحو ما أدرك الخواء الكامن وراء هذه الأبواب والأدراج، كذا لم يبد السرير مرحِّبًا، بملاءته المشدودة للغاية وبطانياته المطوية بعناية، وبدت الوسادات الضئيلة كما لو أن الحياة قد مُنعت عنها، أطلقنا على هذه الغرفة دائمًا "غرفة الضيوف"، لكننا لم نستقبل قط أى ضيوف، بل كانت والدتى تنام بها.

وأمام تحيرى انسحبت من الغرفة ووقفت على السُلم.

هـذا يكفـى، إنـه طقـس التعميـد، أن أبقـى فى المنـزل وحـدى، فأنـا أنضـم بهـذا إلى صفـوف الأطفـال البالغـين، وغـدًا فى سـاحة اللعـب يمكننـى القـول إننـى بالأمـس لم أحتـج إلى جليسـة، وبقيـت فى المنـزل وحـدى، ستُذهل الفتيـات الأخريـات، لقـد أردت هـذا منـذ زمـن، والآن بعدمـا بلغتـه، لم أعـرف مـاذا أفعـل بـه، توقعـت أننـى سأنبسـط تلقائيًّـا إلى أن تلائمنـى التجربـة، وأننـى سـأرى لمحـة عـن الشـخص الـذى قُـدر لى أن أكونـه، توقعـت مـن العـالم أن يتخلى عـن مظهـره الطفـولى المألـوف، وأن يرينـى أسراره ووجهـه الآخـر الخـاص بالبالغـين، ولكـن بـدلاً مـن ذلـك، كان استقلالى الجديـد أكـبر منـى، شـعرت بأننـى أصغـر مـن أى وقـت مـضى، أكان بى خطـب مـا؟ هـل سـأعرف قـط كيـف أكـبر؟

غازلتنـى فكـرة أن أمـر بالسـيدة "روب"، لكـن لا، لـدى مـكان أفضـل، زحفـت إلى أسـفل سريـر والـدى.

تقلصـت المسـاحة بـين الأرض وهيـكل السريـر منـذ آخـر زيـارة لى، وتصلبـت حقيبـة الإجـازات أمـام إحـدى كتفـى، وكان لونهـا فى تلـك الظلمة رماديًّـا مثلـما هـو فى ضـوء النهـار، وقـد حملـت كل لوازمنـا الصيفيـة: النظـارات الشمسـية، وفيلـمًا إضافيًّـا للكامـيرا، وملابـس السـباحة التـى لم ترتدهـا والـدتى قـط، لكنهـا لم تتخلـص منهـا، وعـلى الجانـب الآخـر يوجـد صنـدوق مـن الـورق المقـوى، تحسسـت يـداى جـدران الصنـدوق المموجة، ووجـدت طريقهـا لتنقـب بداخلـه، إنهـا أسـلاك أضـواء شـجرة عيـد الميـلاد المتشـابكة، ويغطـى ريـش المسـند الأرضى الخـاص بالشـجرة، أتذكـر أن فى آخـر زيـارة لى هنـا كنـت أصـدق وجـود "سـانتا"، لكننـى أقلعـت عـن ذلـك، أهـذا نـوع مـن البلـوغ؟

وأنـا أتلـوى فى طريقـى للخـروج مـن تحـت السريـر، حركـت صفيحـة بسـكويت قديمـة، إنهـا أمامـى تطـل بنصفهـا مـن تحـت كشكشـة سـتارة

قصيرة، تذكرت علبة القصدير، لقد كنت هناك دائمًا، إنها صعبة الفتح وعلى غطائها صورة لصخور وأخشاب التنوب الإسكتلندية، حاولت بشرود أن أرفع الغطاء، فأستسلم سريعًا لأصابعى بعدما أصبحت أكبر وأقوى حتى إننى ذُهلت قليلاً، وجدت بالداخل جواز سفر والدى وأوراقًا متنوعة مختلفة الأحجام، واستمارات أجزاء منها مطبوعة وأخرى مكتوبة، وتوقيعات هنا وهناك.

أن أرى شيئًا معناه أن أقرأه، هكذا اعتقدت دومًا، نفضت الغبار وأنا أتصفح الوثائق، إنها وثيقة زواج والدىّ، وشهادتا ميلادهما، وشهادة ميلادى، وكتابة حمراء على ورقة صفراء وعليها توقيع والدى، طويتها مجددًا بعناية ووضعتها مع الوثائق الأخرى التى قرأتها وانتقلت إلى الوثيقة التالية، لكنهما كانتا متطابقتين، ما حيرنى بعض الشىء، لماذا استخرجا لى شهادتى ميلاد؟

قرأتها، تتطابق الشهادتان فى اسم الأب واسم الأم وتاريخ ومحل الميلاد، لكن الاسمين مختلفان.

ماذا حدث لى فى تلك اللحظة؟ تفكك رأسى وتشابك مجددًا بشكل مختلف، كان ذلك أشبه بحركة المشكال.

أنا لى أخت توأم.

تجاهلت الجلبة الواقعة بدماغى، وفتحت أصابعى الفضولية ورقة ثانية.

إنها شهادة وفاة.

ماتت توأمى.

الآن فقط عرفت ما عابنى.

مع أن هذا الاكتشاف أشعرنى بالخدر، فإننى لم اتفاجأ، لقد راودنى دائمًا شعور ما، وعرفت دائمًا أن هناك خطبًا ما، وقد بدا الاكتشاف مألوفًا جدًّا لدرجة أننى لم أحتج إلى أن يُقال لى، إنها صفة متغيرة فى

الهـواء المحيـط بى، إنــه تكتــل للضــوء، شىء بــدا لى مميــزًا جعــل الخــواء ينبـض بالحيـاة، إنــه ظـلى الشـاحب.

ضغطــت بيــدى عــلى جانبــى الأيمــن، وأدرت رأسى حتــى كاد أنفــى يلمـس كتفـى، إنهـا حركـة قديمـة لى، دائمًـا تحـدث لى حـين أكـون متأملـة أو فى حـيرة أو تحـت أى مـن صـور الإكـراه، لكنهـا كانـت مألوفـة للغايـة لدرجـة أنى لم أتأملهـا قبـل الآن، وقـد كشـف لى مـا عرفتـه للتـو معناهـا، كنـت أبحـث عـن توأمـى، حيـث يُفـترض أن تكـون، بجانبـى.

حـين رأيـت الورقتـين، وهـدأ العـالم وعـاد إلى دورانـه البطـىء، فكـرت فى أن هاتــين الورقتــين تفـسران كل شىء، الخســارة، والحــزن، والوحــدة، هنـاك شـعور يبعـدنى عـن الآخريـن -ويؤنسـنى- طـوال حيـاتى، والآن بعـد اطلاعــى عــلى الشــهادتين، عرفــت حقيقــة هــذا الشــعور، إنهــا أختــى.

بعــد وقــت طويــل ســمعت انفتــاح بــاب المطبــخ بالطابــق الســفلى، وعـلى الرغـم مـن تنميـل سـاقى، ذهبـت إلى طـرف السـلم ورأيـت السـيدة "روب" بالأســفل.

"أكل شىء بخير يا (مارجريت)؟"

"نعم".

"أينقصك أى شىء؟"

"لا".

"عظيم، مرى بى إن احتجت إلى أى شىء".

"حسنًا".

"لن يتأخر والداك".

وغادرت.

أعـدت الوثيقتـين إلى العلبـة، وأرجعتهـا إلى تحـت السريـر، وتركـت الغرفـة وأغلقـت البـاب خلفـى، وأمـام مـرآة المرحـاض، شـعرت بالذهـول إذ حملقـت عينـاى إلى عينـين أخريـين، اضطـرب وجهـى أمـام حملقتهـا حتـى شـعرت بعظامـى تحـت جلـدى.

لاحقًا، شعرت بخطوات والدى على السلم.

فتحت الباب وعانقنى والدى أمام السلم.

وقال: "أحسنتِ، يبدو أنك أحسنت صنعًا".

بـدت والـدتى شـاحبة ومتعبـة، فالخـروج مـن المنـزل يمكـن أن يصيبهـا بالصـداع.

لكنها اتفقت معه وأردفت: "فتاة صالحة".

"كيف كان الأمر يا حلوتى؟ أن تكونى وحدك بالمنزل؟"

"لا بأس به".

فقـال والـدى: "هـذا مـا توقعتـه"، ثـم عانقنـى مجـددًا كأنـه رد فعـل لا إرادى، كان عناقًـا سـعيدًا دافئًـا، وقبّـل قمـة رأسى، وتابـع: "حـان وقـت النـوم، لا تقـرئى كثـيرًا".

"لن أفعل".

لاحقًـا سـمعت أصـوات اسـتعدادات والـدى للنـوم: يفتـح والـدى خزانة الأدويـة ويمـلأ كوبًـا بالمـاء، سـمعت صوتـه يقـول كالعـادة: "ستشـعرين بتحسـن بعـد نـوم هانـئ"، ثـم أُغلـق بـاب غرفـة الضيـوف، وبعـد دقائـق، سـمعت صريـر سريـره فى الغرفـة الأخـرى، ثـم صـوت إطفـاء الضـوء.

كنـت أعـرف بشـأن التوائـم، جوهـر الأمـر أن خليـة يجـب حسـب المعتـاد أن تصبـح شـخصًا واحـدًا، لكنهـا لسـبب غـير مفهـوم تصبـح شـخصين متطابقـين.

أنا أخت توأم.

وتوأمى ميتة.

تُرى ماذا أكون فى هذه الحالة؟

تحـت الأغطيـة ضغطـت بيـدى عـلى الهـلال الفـضى الـوردى الموجـود عـلى جذعـى، إنـه الظـل الـذى خلفتـه أختـى، ومثـل عالمـة آثـار، أنقـب فى جسـدى وعـلى جلـدى عـن أدلـة عـلى وجودهـا التاريخـى، كان جسـدى بـاردًا كالجثـة.

لا تـزال الرسـالة فى يـدى، وقـد تركـت المتجـر وصعـدت السـلم إلى شـقتى، يضيـق السـلم عنـد كل مـن طوابـق المتجـر الثلاثـة، وأنـا أصعـد وأطفـئ الأنـوار خلفـى، أبـدأ فى اسـتحضار جمـل لأكتبهـا بخطـاب رفـض مهـذب، فأنـا بحسـب مـا يمكـن أن أخـبر السـيدة "وينـتر"، مـن النـوع الخطـأ مـن كتـاب السـير الذاتيـة، فأنـا لسـت مهتمـة بالكتابـة المعـاصرة، ولم أقـرأ أيًّـا مـن كتبهـا، وأشـعر بالألفـة فى المكتبـات وبـين السـجلات، ولم أجـر مقابلـة مـع كاتـب عـلى قيـد الحيـاة مـن قبـل، كنـت مرتاحـة أكـثر مـع الأمـوات، ولأكـون صادقـة، يوتـرنى الأحيـاء.

لكن آخر معلومة لم تكن ضرورية فى الرسالة.

لم أقدر على إعداد وجبة، فكان كوب من الكاكاو كافيًا.

وأنـا أنتظـر أن يسـخن الحليـب، نظـرت إلى الليـل عـبر النافـذة، وفى زجـاج النافـذة رأيـت وجهًـا شـاحبًا للغايـة لدرجـة أنـك تمكنـك رؤيـة ظـلام السـماء عـبره، ضغطـت خـدى بخدهـا الزجاجـى البـارد، ولـو رأيتنـا لعرفـتِ أنـه لـولا هـذا الزجـاج، مـا كان أحـد ليفـرق إحدانـا عـن الأخـرى.

# ثلاث عشرة حكاية

أخبرينى الحقيقة، كلمات الرسالة كانت محبوسة فى دماغى، تبدو محبوسة تحت السقف المائل لشقتى التى بالعليّة، مثل طائر سقط عبر المدخنة، كان طبيعيًّا أن تؤثر بى مناشدة الفتى، أنا التى لم تُخبَر بالحقيقة من قبل، بل تُركت لأكتشفها بنفسى فى السر، لكن لا بد لصوته أن يسكت.

لكننى قررت أن أُخرج الكلمات والرسالة من عقلى.

لقد حان الوقت تقريبًا، فتحركت سريعًا، غسلت وجهى بالصابون وأسنانى فى المرحاض، وقبل الثامنة بثلاث دقائق كنت مرتدية ملابس النوم ومنتعلة خفى القدمين وأنتظر غليان المياه فى الغلاية، وسريعًا، وقبل الثامنة بدقيقة، كانت زجاجة المياه الساخنة خاصتى جاهزة، وملأت كوبًا بمياه الصنبور، كان الوقت شديد الأهمية، لأن فى الساعة الثامنة ينتهى العالم، فذلك وقتى المخصص للقراءة.

كانت الساعات بين الثامنة مساءً والواحدة أو الثانية صباحًا دائمًا ساعاتى السحرية، على غطاء السرير الأزرق الذى رُسمت عليه فتيلة شمعة، وتحت ضوء مصباح دائرى، كانت بوابتى إلى عالم آخر، لكن فى تلك الليلة فشل السحر، فخيوط الحبكة التى تركتها مشدودة بالتشويق منذ الليلة الماضية أصبحت بدرجة ما مرتخية خلال النهار، ووجدت أننى لم أعد مهتمة بما سيؤول إليه الأمر فى النهاية، بذلت جهدًا لأوصل نفسى إلى إحدى محطات الحبكة، لكن بمجرد أن بلغتها، اعترضنى صوت "أخبرينى الحقيقة" والذى فك عقدة الحبكة وتركها فضفاضة تتخبط مجددًا.

لذا حامت يدى حول مفضلاتى القديمة: "ذات الرداء الأبيض"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"جين أير"...

لكن بلا فائدة، أخبرينى الحقيقة...

لم تخذلنى القراءة من قبل، بل كانت دائمًا المرتكز الوحيد، فأطفأت الضوء، وأرحت رأسى على الوسادة وحاولت النوم.

صدى صوت وقصاصات قصة، سمعتها كلها بصوت أعلى فى الظلام، أخبرينى الحقيقة...

فى الساعة الثانية صباحًا نهضت من سريرى وانتعلت جوربى، وفتحت باب الشقة مرتدية ثوب النوم، وهبطت السلم نحو المتجر.

فى مؤخر المتجر لدينا غرفة ضئيلة، لا تزيد مساحتها كثيرًا على مساحة خزانة، نستخدمها حين نريد تغليف كتاب لنرسله بالبريد، تحتوى الغرفة على طاولة، وعلى رف يوجد ألواح من الورق البنى، ومقصات وبكرة خيط، بها أيضًا خزانة خشبية بسيطة المظهر تضم نحو دستة من الكتب.

نـادرًا مـا تتغـير محتويـات الخزانـة، لـو تفقدتهـا اليـوم سـتجد فيهـا مـا رأيتـه فى تلـك الليلـة: كتابًـا بـلا غـلاف يسـتقر عـلى جانبـه، وبجـواره مجلـد سـيئ التغليـف، وكتابـان باللاتينيـة منتصبـين، ونسـخة قديمـة مـن العهـد القديـم، وثلاثـة مجلـدات عـن علـم النباتـات، واثنـان عـن التاريـخ، وكتـاب وحيـد مهـترئ عـن علـم الفلـك، وكتـاب باليابانيـة، وآخـر بالبولنديـة، وبعـض القصائـد بالإنجليزيـة القديمـة، لمـاذا نبقـى تلـك الكتـب بعيـدة؟ لمـاذا ليسـت موجـودة مـع رفيقاتهـا مـن الكتـب عـلى رفوفنـا المعنونـة بعنايـة؟ هـذه الخزانـة هـى مسـتقر الكتـب النـادرة القيِّمـة محـدودة الجمهـور، تسـاوى قيمـة تلـك المجلـدات كامـل بقيـة محتويـات المتجـر، أو ربمـا أكـثر.

كان الكتـاب الـذى أبحـث عنـه فى غـير مكانـه، وبجانـب كل هـذه التحـف، وهـو كتـاب لـه غـلاف مقـوى وأبعـاده عـشرة سـنتيمترات فى خمسـة عـشر سـنتيمترًا، وعمـره خمسـون عامًـا أو نحـو ذلـك، ظهـر هـذا الكتـاب قبـل شـهرين، وأتصـور أنـه وصـل إلى هنـاك بسـهو مـن الوالـد، أردت أن أسـأله عـن الكتـاب وأن أعلقـه عـلى رف مـا، لكـن عـلى سـبيل الاحتيـاط، ارتديـت قفازيـن أبيضـين، فنحـن نبقـى القفـازات فى الخزانـة لنرتديهـا حـين نتعامـل مـع الكتـب لأن -بفعـل معضلـة طريفـة- بقـدر مـا تحيـا الكتـب بقراءتنـا لهـا فـإن الزيـوت عـلى أطـراف أصابعنـا تدمرهـا مـع طيِّنـا للصفحـات، عـلى أىّ حـال فبالنظـر إلى أن غلافـه سـليم وزوايـاه حـادة، فـإن الكتـاب فى حالـة جيـدة، إنـه واحـد مـن سلسـلة معروفـة أُنتجتهـا عـلى مسـتوى عـالٍ دار نـشر لم تعـد موجـودة، إنـه مجلـد جـذاب وهـذه طبعـة أولى، لكنـه ليـس مـن نـوع الكتـب التـى قـد تجدهـا بـين كنـوز الكتـب، ففـى الأسـواق والمعـارض الخيريـة يمكـن أن تجـد مجلـدات أخـرى مـن السلسـلة نفسـها مقابـل ثمـن بخـس.

كان لـون الغـلاف أصفـر وأخـضر: تشـكلت الخلفيـة مـن نمـط منتظـم مـن أشـكال تشـبه قشـور الأسـماك، وتُـرك مسـتطيلان بـلا لـون، أحدهـما

مـن أجـل رسـم خطـى لعـروس بحـر، والآخـر لعنـوان الكتـاب واسـم المؤلفـة، "ثلاثـون عامًـا مـن التغيـير واليـأس"، لـ"فيـدا وينـتر".

أغلقـت الخزانـة، وأعـدت المفتـاح والكشـاف إلى مكانيهـما، وصعـدت السـلم متجهـة إلى سريـرى، والكتـاب فى يـدى مرتديـة القفـاز.

لم أنـوِ القـراءة، ليـس كثـيراً، بـل كل مـا أردتـه هـو بضـع جمـل، أردت كلـمات جريئـة وقويـة كفايـة لأسـكّن كلـمات الرسـالة التـى ظلـت تـتردد فى عقـلى، سـأحارب النـار بالنـار مثلـما يقولـون، سـأقرأ جملتـين، أو ربمـا صفحـة، ثـم سـأتمكن مـن النـوم.

أزلـت عـن الكتـاب الغـلاف الـذى يحميـه مـن الغبـار، وتركتـه مـن بـاب الأمـان فى درج خصصتـه لمثـل هـذه الأغـراض، فحتـى إن ارتديـت القفـازات لـن أكـون حريصـة كفايـة، تنشـقت وأنـا أفتـح الكتـاب، إن رائحـة الكتـب القديمـة حـادة جـدًّا وجافـة جـدًّا لدرجـة أنـك تسـتطيع اسـتطعامها.

وجدت المقدمة كلمات قليلة فقط.

لكن عينىّ كانتا قد أغويتا بالفعل وهما تمسحان السطر الأول.

ينسـج الأطفـال أسـاطير عـن مولدهـم، إنـه فعـل شـائع، فـإن أردت الاطـلاع عـلى قلـب وعقـل وروح أحـد، اسـأله عـن مولـده، مـا سـيقوله لـن يكـون الحقيقـة، بـل قصـة، ولا شىء أكـثر تعبـيراً عـن البـشر مـن القصـص.

أحسست كأننى غطست فى ماء بارد.

الفلاحـون والأمـراء، حجـاب المحاكـم وأولاد الخبازيـن، والتجـار وحوريـات البحـر، شـعرت فى الحـال بالألفـة تجـاه شـخصيات الحكايـات، لقـد قـرأت تلـك القصـص مئـات، بـل آلاف، المـرات، كلهـا قصـص يعرفهـا الجميـع، لكـن بالتدريـج، ومـع تقدمـى فى القـراءة، سـقطت عنهـا ألفتهـا، أصبحـت غريبـة، أصبحـت جديـدة، هـذه الشـخصيات ليسـت تلـك المانيكانـات الملونـة التـى أتذكرهـا مـن كتـب طفولتـى المصـورة، التـى

تـؤدى القصـة بشـكل ميكانيـكى فى كل مـرة، بـل هـم أشـخاص حقيقيـون، فالـدم الـذى سـقط مـن إصبـع الأمـيرة عندمـا لمسـت إبـرة المغـزل أصبـح مبلـلاً، وتـرك طعـمًا معدنيًـا عـلى لسـانها حـين لعقـت إصبعهـا قبـل أن تـروح فى سـبات عميـق، وحـين جُلبـت الابنـة الغارقـة فى سـباتها إلى والدهـا الملـك، تركـت دمـوع الملـك ملوحـة حارقـة عـلى وجهـه، رأيـت أحـداث القصـص بمنظـور غـير مألـوف، حقـق الجميـع كل مـا تـاق إليـه: اسـتعاد الملـك ابنتـه بقبلـة مـن شـخص غريـب، وجُـرد الوحـش مـن فـروه وتُـرك عاريًـا كأنـه إنسـان، واسـتطاعت الحوريـة أن تمـشى، لكنهـم لم يدركـوا إلا بعـد فـوات الأوان الثمـن الـذى يجـب أن يدفعـوه لأنهـم تجنبـوا أقدارهـم، أصبحـت "عاشـوا فى سـعادة للأبـد" ملوثـة، والمصـير الـذى بـدا فى البدايـة قابـلاً جـدًّا للتغيـير، ومنطقيًـا جـدًّا، ومتاحًـا جـدًّا للتفـاوض، انتهـى بـه الأمـر بفـرض انتقـام قـاسٍ مـن أجـل السـعادة.

كانت الحكايات قاسية وحادة وحابسة للأنفاس، لقد أحببتها.

حـين وصلـت إلى "حكايـة حوريـة البحـر" -الحكايـة الثانيـة عـشرة- شـعرت برجفـة قلـق غـير مرتبطـة بالقصـة نفسـها، لقـد كنـت مشـتتة، كان إبهـام وسـبابة يـدى اليمنـى يرسـلان إلىّ رسـالة: لم يتبـق الكثـير مـن الصفحـات، ظلـت هـذه الفكـرة تلـح عـلىّ بـإصرار أكـثر حتـى طويـت الكتـاب لأتحقـق مـن صحتهـا، ولقـد كنـت محقـة، لا بـد أن الحكايـة الثالثـة عـشرة كانـت قصـيرة للغايـة.

تابعت القراءة، وأنهيت الحكاية الثانية عشرة وطويت الصفحة.

إنها بيضاء.

طويت ذهابًا وعودة ولم أجد شيئًا.

لا توجد حكاية ثالثة عشرة.

حدثـت فجـأة جلبـة مفاجـأة فى رأسى وشـعرت بغثيـان غطّـاسى أعـماق البحـار حـين يصعـدون إلى السـطح سريعًـا.

عـادت زوايـا الغرفـة إلى مجـال رؤيتـى واحـدة تلـو الأخـرى، غطـاء سريـرى، والكتـاب الـذى بيـدى، والمصبـاح الـذى لا يـزال يـضىء ولكـن بشـحوب بسـبب ضـوء الصبـاح الـذى بـدأ يتسـلل عـبر السـتائر الرقيقـة.

إنه الصباح.

وليست هناك حكاية ثالثة عشرة.

***

فى المتجـر كان والـدى جالسًـا عنـد مكتبـه ورأسـه بـين يديـه، سـمعنى أهبـط السـلم فتطلـع إلىّ شـاحبًا.

اندفعت إلى الأمام: "ماذا بك؟"

كانـت الصدمـة تمنعهمـن الـكلام، رفـع يديـه فى تعبـير صامـت عـن اليـأس، قبـل أن يحركهـما ببـطء عـلى عينيـه المذعورتـين، وتـأوه.

مسـدت كتفـه لكننـى لم أكـن معتـادة عـلى ملامسـة النـاس، لـذا سـقطت يـدى عـلى السـترة الصوفيـة التـى علقهـا عـلى ظهـر الكـرسى.

سألته: "هل من شىء يمكننى فعله؟"

حـين تكلـم كان صوتـه حزينًـا مرتعشًـا: "يجـب أن نتصـل بالشرطـة خـلال دقيقـة، خـلال دقيقـة..."

"الشرطة؟ يا أبى.. ماذا حدث؟"

"أحد اقتحم المتجر"، كان وقع صوته كأنه نهاية العالم.

تفحصت المتجر حولى متحيرة، كان كل شىء مرتبًا ومنظمًا، وأقفال الأدراج غير مكسورة، والرفوف غير منهوبة، والنافذة غير مكسورة.

فقال: "إنها الخزانة"، وحينها بدأت أفهم.

أردفت: "تقصد (الحكاية الثالثة عشرة)، إنها فى شقتى، لقد استعرتها".

تطلع إلىّ والدى، واعتلى وجهه مزيج من الارتياح والدهشة التامة، وأردف: "استعرتها؟"

"نعم".

"أنت استعرتها؟"

"نعم"، كنت مرتبكة، فدائمًا ما أستعير أشياء من المتجر، مثلما يعرف.

"لكن، (فيدا وينتر)...؟"

وأدركت أن الموقف بحاجة إلى بعض التوضيح.

أنا أقرأ الروايات القديمة، والسبب بسيط: أننى أفضّل النهايات اللائقة، الزواج والموت، والتضحيات النبيلة والإحياء الإعجازى، والفراق المأسوى ولم الشمل بعد اليأس، والسقطات العميقة وتحقيق الأحلام، هذه كلها فى نظرى تمثل نهايات تستحق الانتظار، يجب أن تحدث بعد المغامرات والمخاطر والمعضلات، وأن تغلف إلى النهايات بشكل لطيف ومنمق، هذه النهايات أجدها أكثر شيوعًا فى الروايات القديمة مقارنة بالجديدة، لذا أقرأ الروايات القديمة.

لم أعرف الكثير عن عالم الأدب المعاصر، ولقد أنبنى والدى مرات عديدة خلال أحاديثنا اليومية عن الكتب، إنه يقرأ كثيرًا مثلى، لكن على نطاق أوسع، وأنا أحترم آراءه للغاية، لقد وصف بكلمات دقيقة ومدروسة الأسى الجميل الذى يشعر به عند نهاية الروايات التى تحمل رسالة أن المعاناة الإنسانية بلا نهاية، بل يجب تحملها، كما تحدث

عن النهايات الصامتة التى يبقى صداها فى الذاكرة أعلى وأقوى من أى استنكار منطوق، وشرح سبب مس هذا الغموض لقلبه أكثر من أسلوب النهاية بالموت والزواج الذى أفضله.

خلال تلك الأحاديث، أستمع بأشد درجات الاهتمام وأومئ برأسى، لكننى دائمًا أستمر على عاداتى القديمة، لا أقصد أنه يلومنى على نحو ما، فهناك شىء اتفقنا عليه: العالم به كتب أكثر من أن نستطيع قراءتها فى حياة واحدة، لذا يجب أن ترسم حدودًا ما لاهتماماتك.

أخبرنى والدى فى مرة عن "فيدا وينتر": "هناك كاتبة على قيد حياة قد تناسب اهتماماتك".

لكننى لم أقرأ أيًّا من كتبها، ولماذا قد أفعل وهناك الكثير جدًّا من الكتاب الأموات الذين لم أكتشفهم بعد؟

لكننى نزلت فى منتصف الليل لآخذ كتاب "الحكايات الثلاث عشرة" من الخزانة، تساءل والدى عن السبب، وكان سؤاله منطقيًّا.

أوضحت: "تلقيت رسالة بالأمس".

أومأ برأسه.

"رسالة من (فيدا وينتر)".

رفع والدى حاجبيه، لكنه انتظر منى أن أُتابع.

"يبدو أنها دعوة لى لزيارتها بغية كتابة سيرتها الذاتية".

ارتفع حاجباه بضع مليمترات أخرى.

"لم أستطع النوم، لذا هبطت لأُحضر الكتاب".

انتظرت ردًّا من والدى، لكنه لم يعقب، بل كان يفكر، فبدا عليه بعض العبوس الذى جعد جبينه، بعد وهلة تكلمت مجددًا، "لماذا أبقيته فى الخزانة؟ ما الذى يجعله قيمًا إلى هذه الدرجة؟"

قطع والدى حبل أفكاره ليجيبنى، "جزئيًا لأن هذه الطبعة الأولى من الكتاب الأول للكاتبة باللغة الإنجليزية الأوسع شهرة، لكن فى المقام الأول، لأنها معيبة، فكل نسخة لاحقة من الكتاب عُنونت بـ(حكايات التغيير واليأس)، دون ذكر الرقم "ثلاث عشرة"، ألاحظت أن الكتاب يضم اثنتى عشرة حكاية فقط؟"

أومأت.

"يُحتمل أن عدد الحكايات كان يُفترض أن يكون 13، لكن الكاتبة قدمت 12 فقط، لكن حدث خلط فى تصميم الغلاف وطُبع الكتاب بعنوانه الأصلى وبـ12 قصة فقط، فاضطروا إلى سحبه من المكتبات".

"لكن نسختك هذه..."

"أفلتت من أيديهم، فإحدى الدفعات أُرسلت بالخطأ إلى متجر فى (دورست)، حيث اشترى زبون نسخة قبل أن يتلقى المتجر رسالة سحب الكتاب، وأدرك الزبون قبل ثلاثين عامًا القيمة المحتملة للكتاب وباعه لجامع كتب نادرة، وعُرضت ممتلكات جامع الكتب للبيع بالمزاد فى سبتمبر الماضى فاشتريته بإيرادات صفقة (أفينيون)".

"صفقة (أفينيون)؟" لقد استغرق عقد هذه الصفقة عامين من التفاوض، لقد كان واحدًا من أكثر نجاحات والدى إدرارًا للأرباح.

سألنى بخجل: "ارتديت القفازات أليس كذلك؟"

"ماذا تظننى؟"

ابتسم قبل أن يردف: "كل هذا الجهد ذهب هباءً".

"ماذا تقصد؟"

"سحب كل تلك النسخ بسبب خطأ فى العنوان، فالناس لا يزالون يسمونه (ثلاث عشرة حكاية)، مع أنه نُشر بعنوان (حكايات التغيير واليأس) لمدة نصف قرن".

"لماذا؟"

"هـذا مـا يفعلـه مزيـج مـن الشـهرة والسريـة، فالمعلومـات الحقيقيـة عنهـا قليلـة للغايـة، لـذا تصبـح قصاصـات المعلومـات مثـل قصـة الطبعـة الأولى المسـحوبة ذات أهميـة تتجـاوز حقيقتهـا، لقـد أصبحـت جـزءًا مـن أسـطورتها، إنـه لغـز الحكايـة الثالثـة عـشرة، وهـذا يتيـح للنـاس مسـاحة لبسـط نظرياتهـم".

سـاد صمـت وجيـز، ثـم وجّـه نظـره إلى الفـراغ غـير البعيـد، وغمغـم بصـوت خفيـض لأختـار أن أرد عـلى كلامـه أو أتجاهلـه، وهـو مـا فعلتـه: "والآن سـتكتب سـيرة ذاتيـة.. كـم هـذا مفاجـئ".

تذكـرت الرسـالة، وخـوفي حيـال أن الكاتبـة ليسـت محـل ثقـة، وتذكـرت إصرار الفتـى: "أخبرينـى الحقيقـة"، وتذكـرت "الحكايـات الثـلاث عـشرة" التـى تملكتنـى بكلماتهـا الأولى وأسرتنـى بطـول الليـل، أردت أن أُوسر مجـددًا.

قلت لوالدى: "لا أعرف ماذا أفعل".

"الأمـر مختلـف عـما فعلتـه مـن قبـل، (فيـدا وينـتر) كائـن حـى، وسـتضطرين إلى إجـراء المقابـلات بـدلاً مـن التنقيـب فى السـجلات".

أومأت.

"لكـن يجـب أن تعـرفى الشـخصية التـى كتبـت (الحكايـات الثـلاث عـشرة)".

أومأت مجددًا.

وضـع والـدى يديـه عـلى ركبتيـه وتنهـد، إنـه يعـرف مـا تفعلـه القـراءة، ويعـرف كيـف تـأسر الكتـب القارئ.

"متى تريدك أن تذهبى؟"

أجبت: "يوم الاثنين".

"سأوصلك إلى المحطة، موافقة؟"

"شكرًا لك، و..."

"ماذا؟"

"أيمكنني الحصول على إجازة؟ يجب أن أقرأ أكثر قبل أن أذهب إليها".

رد: "نعم"، بابتسامة لم تخفِ قلقه، "نعم، بالتأكيد".

حينئذ بدأت واحدة من أكثر فترات حياتي تألقًا، فللمرة الأولى في حياتي توجد على الطاولة بجوار سريري كومة من الكتب الجديدة اللامعة التي اشتريتها من متجر للكتب العادية، كلها تحمل اسمًا واحدًا: "فيدا وينتر"، وأغلفتها، التي رسمها فنان واحد، تبث الحرارة والقوة بألوان الكهرمان والقرمزي والذهبي والأرجواني الداكن، واشتريت أيضًا نسخة من "حكايات التغيير واليأس" الذي بدا عنوانه عاريًا من دون كلمتي "ثلاث عشرة" التي تجعل نسخة والدي قيّمة للغاية، ورددت نسخته إلى الخزانة.

بالطبع حين يقرأ المرء لكاتب جديد فإنه يتطلع دائمًا إلى شيء مميز، وقد بثت السيدة "وينتر" فيّ درجة الحماس نفسها التي سيطرت عليّ حين اكتشفت يوميات "لانديير" مثلاً، بل وأكثر من ذلك، كنت دائمًا قارئة، قرأت في جميع مراحل حياتي، ولم أمر بوقت لم تكن فيه القراءة مصدر أعظم فرحتي، ومع ذلك، لن أدعي أن قراءتي كبالغة تضاهي قراءات طفولتي في تأثيرها في روحي، فأنا لا أزال أومن بالقصص، لا أزال أنسى نفسي حين أستغرق في كتاب جيد، لكن هناك اختلافًا، يجب أن أوضح أن الكتب في نظري هي الشيء الأهم، وما لا أنساه أن في فترة من حياتي كانت الكتب أكثر عادية وأكثر أهمية في الوقت ذاته بالمقارنة بالفترة الحالية، فحين كنت طفلة، كانت الكتب

هـى كل حياتى، لـذا يوجـد بداخـلى دائمًـا حنـين متقـد نحـو تلـك المتعـة المفقـودة، ليـس الحنـين الـذى يمكـن توقـع إشـباعه أبـدًا، خـلال هـذه الفـترة التـى قـرأت فيهـا طـوال اليـوم ونصـف الليـل، حـين نمـت تحـت لحـاف مـن الكتـب، حـين كان نومـى بـلا ملامـح ولا أحـلام ويمـر كالـبرق لأصحـو وأقـرأ مجـددًا، عـادت إلىَّ مباهـج القـراءة المفقـودة، أعـادت إلىَّ السـيدة "وينـتر" السـمات العذريـة للقـارئ المبتـدئ، ثـم أسرتنـى بقصصها.

بـين الحـين والآخـر، قـد يطـرق والـدى البـاب أعـلى السُـلم، يحـدق إلىَّ، بالتأكيـد يعلـو وجهـى ذلـك الذهـول الناتـج عـن القـراءة المكثفـة، فيعلـق والـدى: "لـن تنسـى أن تـأكلى، أليـس كذلـك؟" وهـو يسـلمنى كيـس البقالـة أو كـوب حليـب.

كنـت لأود أن أبقـى فى شـقتى إلى الأبـد مـع تلـك الكتـب، لكـن إن كنـت سـأذهب إلى يوركشـاير للقـاء السـيدة "وينـتر"، فهنـاك مهمـة أخـرى يجـب تنفيذهـا، توقفـت عـن القـراءة لمـدة يـوم وذهبـت إلى المكتبـة، وفى غرفـة الصحافـة، تصفحـت صفحـات الكتـب فى جميـع الصحـف الوطنيـة خـلال الأيـام التاليـة لإصـدار روايـات السـيدة "وينـتر" الأخـيرة، لأن مـع إصـدار كل كتـاب جديـد، كانـت تسـتدعى عـددًا مـن الصحفيـين إلى فنـدق فى هاروجيـت، حيـث تلتقيهـم واحـدًا تلـو الآخـر وتعطـى كلاً منهـم، عـلى حـدة، مـا تطلـق عليـه قصـة حياتهـا، لا بـد أن هنـاك العـشرات مـن تلـك القصـص، بـل ربمـا المئـات، لقـد وجـدت عشريـن منهـا دون جهـد شـديد.

بعـد نـشر كتابهـا "بـين بينـين" كانـت الابنـة السريـة لكاهـن ومعلمـة، وبعـد عـام فى الصحيفـة نفسـها أشـهرت روايـة "مسـكون" بحكايـة أنهـا كانـت طفلـة هاربـة لمومـس باريسـية، أمـا بعـد روايـة "مـسرح الدمـى"، توضـح صحـف عـدة أنهـا كانـت يتيمـة نشـأت فى ديـر سـويسرى بعدمـا كانـت طفلـة شـارع بأزقـة الطـرف الشرقـى مـن لنـدن، والفتـاة الوحيـدة المكبوتـة بعائلـة مـن عـشرة أولاد صاخبـين، أعجبتنـى عـلى نحـو خـاص

تلك القصة التى تقول فيها إنها إثر انفصالها بلا قصد عن والديها المبشرين الإسكتلنديين فى الهند، شقت طريقها بنفسها وسط شوارع بومباى، حيث كسبت عيشها برواية القصص، وحكت قصصًا عن أشجار الصنوبر التى بدت رائحتها مثل الكزبرة المقطوفة للتو، وجبال تضاهى تاج محل جمالاً، وأطباق الهاجيس الإسكتلندية الألذ من أى باكورة هندية تُباع فى الشارع، وعن مزمار القربة الإسكتلندى، ويا لجمال صوت ذاك المزمار! جماله يفوق الوصف، وحين عادت إلى إسكتلندا بعد أعوام كثيرة -وهو بلد تركته وهى طفلة صغيرة- أُحبطت بشدة، فأشجار الصنوبر لم تفح منها أى رائحة للكزبرة، والثلوج باردة، وأطباق الهاجيس بلا طعم.

ساخرة وعاطفية، مأساوية وحادة، فكاهية وماكرة، كل واحدة من تلك القصص مثلت تحفة فنية مصغرة، ولو كانت كاتبة من نوع آخر، لكانت تلك القصص قمة إنجازاتها، لكن فى نظر "فيدا وينتر"، كانت تلك مجرد بقايا، ولا أعتقد أن أحدًا قد يصدق أنها الحقيقة.

كان الأحد اليوم السابق على مغادرتى، وقد قضيت فترة العصر فى منزل والداى، ذلك المنزل لا يتغير أبدًا، نفخة واحدة من الذئب يمكنها أن تحيله أنقاضًا.

ابتسمت أمى ابتسامة متوترة وتحدثت ببهاء ونحن نحتسى الشاى، تحدثت عن حديقة الجيران، وأعمال صيانة الطريق فى البلدة، والعطر الجديد الذى أصابها بطفح جلدى، إنها محادثة خفيفة خاوية من أجل إبعاد الصمت، الصمت الذى تعيش فيه شياطينها، وقد كانت مسرحية جيدة: تجنبت فيها ذكر أى شىء يكشف أنها بالكاد يمكنها تحمل مغادرة المنزل، وأن أتفه الأحداث غير المتوقعة يصيبها بصداع نصفى، وأنها لا تستطيع قراءة أى كتب خوفًا من المشاعر التى قد تجدها فيها.

انتظـرت ووالـدى حتـى ذهبـت والـدتى لإعـداد الشـاى السـاخن لنتحـدث عـن السـيدة "وينـتر".

قلـت: "هـذا ليـس اسـمها الحقيقـى، فلـو كان هـذا اسـمها الحقيقـى، لـكان مـن السـهل تعقبهـا، وكل مـن حـاول استسـلم لنقـص المعلومـات، لا أحـد يعـرف ولـو حقيقـة بسـيطة عنهـا".

"كم هذا مثير للفضول".

"كأنهـا جـاءت مـن الفـراغ، كأنهـا قبـل أن تصبـح كاتبـة لم تكـن موجـودة، كأنهـا كتبـت شـخصيتها وكتابهـا الأول معًـا".

عقّـب والـدى: "نحـن نعـرف الاسـم الـذى اختارتـه لتنشر بـه كتبهـا، لا بـد أن يكشـف هـذا شـيئًا".

"(فيـدا)، مـن كلمـة (فيتـا) اللاتينيـة التـى تعنـى (الحيـاة)، ولا أسـتطيع تجاهـل التفكـير فى معناهـا الفرنـسى أيضًـا".

فكلمـة "فيـدا" الفرنسـية تعنـى الفـراغ، الخـواء، العـدم، لكننـا لا نسـتخدم كلـمات مثـل هـذه فى منـزل والـدى، فتركـت الاسـتنتاج لـه.

أردف: "بالفعل"، وتابع: "وماذا عن (وينتر)؟"

إنـه الشـتاء، بحثـت فى النافـذة عـن الإلهـام، رأيـت وراء شـبح أختـى الأغصـان عاريـة ممتـدة بطـول السـماء المعتمـة، وحدائـق الأزهـار خاليـة، والتربـة سـوداء، لم يـقِ الزجـاج مـن الـبرد، فعـلى الرغـم مـن نـار المدفئـة، بـدت الغرفـة معبـأة باليـأس الحالـك، مـاذا يعنـى الشـتاء لى؟ يعنـى شـيئًا واحـدًا: المـوت.

سـاد الصمـت، وحـين أصبـح ضروريًـا أن أقـول شـيئًا حتـى لا أضيـف إلى المحادثـة السـابقة ثقـلاً لا يُطـاق، قلـت: "إنـه اسـم ذو نهايـات مدببـة بسـبب حـرف الـ(فـى) والـ(دابليـو) البادئـين للاسـمين (فيـدا وينـتر)، إنـه مدبـب الأطـراف جـدًّا".

عـادت أمـى، وهـى تضـع الأكـواب عـلى الأطبـاق، وتصـب الشـاى، تحدثـت باسـتفاضة، بـدا صوتهـا متحـركًا بحريـة فى رقعـة حياتهـا ذات الحـدود الصارمـة، وكأن مسـاحتها شاسـعة جـدًّا.

تجولـت بعينـى فى الغرفـة، عـلى الـرف أعـلى الموقـد يوجـد الـشىء الوحيـد الـذى قـد يُعتـبر زينـة، صـورة فوتوجرافيـة، تقـترح والـدتى بـين الحـين والآخـر حفظهـا مـن الأتربـة فى أحـد الأدراج، لكـن والـدى يحـب أن يراهـا، وبمـا أنـه نـادرًا مـا يعـارض والـدتى، فقـد تراجعـت إذعانًـا لـه، فى الصـورة يوجـد عريـس وعـروس، شـابين، يبـدو والـدى مثلـما يبـدو دائمًـا: وسـيم بـلا تكلـف بعينـين داكنتـين عميقتـين: لا يغـيره مـرور السـنين، لكـن المـرأة بالـكاد يبـدو شـكلها مألوفًـا، لهـا ضحكـة عفويـة بعينـين ضاحكتـين تحدقـان إلى والـدى بـدفء، تبـدو سـعيدة.

لكن المأساة تغير كل شىء.

لقد وُلدت، واختفت المرأة التى فى صورة الزفاف.

تطلعـت إلى الحديقـة الميتـة، ولاح ظـلى فى الزجـاج أمـام الضـوء المتـلاشى، متطلعًـا إلى الغرفـة الميتـة، سـألت نفسى، مـاذا فعلـت بنـا؟ مـا رأيهـا بمحاولاتنـا لإقنـاع أنفسـنا بـأن هـذه هـى الحيـاة وأننـا نعيشـها حقًّا؟

# الوصول

غادرت المنزل فى يوم شتاء تقليدى، وقطع القطار بى أميالاً تحت سماء شفافة، ثم بدّلت القطار واحتشدت السحب، أصبح أكثف وأدكن وأكثر امتلاءً مع تقدمى نحو الشمال، توقعت فى أى لحظة أن أسمع أولى قطرات المطر على زجاج النافذة، لكن السماء لم تمطر.

فى هاروجيت، كان سائق السيدة "وينتر" غير راغب فى الكلام، وهو رجل ملتح داكن الشعر، امتننت لهذا، فقد أتاح لى الصمت مساحة لدراسة المناظر غير المألوفة التى تكشفت على جانبى الطريق ونحن نغادر البلدة، فأنا لم أزر الشمال من قبل، وقد قادتنى أبحاثى إلى لندن، وعبرت بى مرة أو مرتين قناة المانش إلى مكتبات وسجلات باريس، لكن يوركشاير مقاطعة عرفتها من الروايات فقط، روايات من قرون سابقة على سبيل الدقة، وبمجرد أن خرجنا من البلدة تراجعت علامات العالم المعاصر، فأصبح ممكنًا أن أصدق أننى أسافر عبر الزمن مثلما أسافر إلى عمق الريف، كانت القرى عتيقة وغريبة بكنائسها وحاناتها وأبنيتها الحجرية الصغيرة، وكلما تقدمنا، أمست

القرى أصغر وزادت المسافة بينها إلى أن باتت بيوت المزارعين المنعزلة الشيء الوحيد الذى يزين الحقول العارية فى الشتاء، وفى الأخير لم نعد نرى حتى بيوت المزارعين فى حين أن الليل يهبط، أرتنى مصابيح السيارة الأمامية مساحات شاسعة من المناظر الطبيعية عديمة الألوان والملامح، بلا أسيجة ولا جدران ولا حدود ولا أبنية، بل مجرد طريق بلا حواف تمتد على جانبيه تضاريس مظلمة غامضة.

سألت: "أهذه هى الأراضى البور؟"

رد السائق: "نعم"، فملت لأقترب من النافذة، لكن كل ما استطعت رؤيته كان السماء المعبأة بالمياه التى وطدت إلى الأرض والطريق والسيارة، على نحو خانق، وبعد مسافة معينة، خبا حتى ضوء سيارتنا.

وعند تقاطع طرق بلا ملامح، انحرفنا عن الطريق وتقدمنا بحذر لثلاثة كيلومترات تقريبًا على طريق حجرى، وتوقفنا مرتين حتى يفتح السائق بوابة ثم يغلقها وراءنا، وتابعنا طريقنا، نرتج ونهتز لمسافة كيلومتر آخر.

يقع بيت السيدة "وينتر" بين مرتفعين متدرجين فى الظلام، أشباه تلال تبدو كأنها متداخلة، ولا تكشف عن سهل وبيت إلا عند الانعطاف الأخير للطريق، السماء تسطع بأطياف أرجوانية ونيلية ورمادية، ويجثم المنزل تحتها بطوله وانخفاضه وظلمته الشديدة، فتح السائق باب السيارة من أجلى، وهبطت لأجده قد أنزل حقيبتى، كان جاهزًا للانطلاق، تاركًا إياى وحدى أمام شرفة المدخل غير المضاءة، وقد حجب شيش النوافذ ذات القضبان ما وراءها، بلا أى علامات على سكن البشر، يبدو المكان منفرًا للزوار بانغلاقه على نفسه.

رننـت الجـرس، وكان رنينـه خافتًـا عـلى نحـو غريـب فى الهـواء الرطـب، تطلعـت إلى السـماء منتظـرة، وتسـلل الـبرد عـبر فتحـات أصابـع حـذائى، رننـت الجـرس مجـددًا، لكـن لم يجـب أحـد.

كنـت عـلى وشـك رن الجـرس للمـرة الثالثـة حـين فُتـح البـاب عـلى نحـو مفاجـئ وبـلا أى صـوت.

ابتسـمت السـيدة عنـد المدخـل ابتسـامة متحفظـة واعتـذرت لإبقـائى منتظـرة، بـدت السـيدة مـن أول نظـرة تقليديـة للغايـة، شـعرها القصـير الأنيـق لـه لـون بشرتهـا الشـاحبة، عيناهـا ليسـتا زرقاويـن ولا رماديتـين ولا خضراويـن، ولكـن ليـس غيـاب اللـون هـو مـا يجعلهـا تبـدو عاديـة، بـل غيـاب أى تعبـير فى عينيهـا، أظـن أن وجـود بعـض دفء التعبـير فى عينيهـا يمكـن أن يجعلهـما تلمعـان بالحيـاة، وبـدا لى وهـى تبادلنـى النظـرة المتفحصة نفسـها أنهـا لم تبـقِ عـلى تلـك النظـرة الجافـة مـن أى تعبـير إلا عـن قصـد.

قلت: "مساء الخير، أنا (مارجريت ليا)".

"كاتبة السير الذاتية، كنا بانتظارك".

مـا الـذى يمكّـن البـشر مـن استشـفاف حقيقـة الآخريـن وراء أقنعتهـم؟ لأننـى فهمـت بوضـوح جـدًا فى تلـك اللحظـة أنهـا كانـت قلقـة، ربمـا للمشـاعر رائحـة أو طعـم، ربمـا نبثهـا بـلا وعـى منّـا عـبر اهتـزازات فى الهـواء، أيًـا كانـت الوسـيلة، أدركـت تمامًـا أن مـا يقلقهـا ليـس أنـا تحديـدًا، بـل حقيقـة أننـى جئـت وأننـى غريبـة.

أرشـدتنى إلى الداخـل وأغلقـت البـاب ورائى، دار المفتـاح داخـل القفـل بـلا صـوت، ولم تُحـدث الترابيـس المزيَّتـة جيـدًا أى صريـر وهـى تعـود إلى مكانهـا.

وقفـت فى الممـر مرتديـة معطفـى، حينهـا اختـبرت للمـرة الأولى الصفـة الأغـرب فى المـكان، بيـت السـيدة "وينـتر" صامـت تمامًـا.

أخبرتنـى السـيدة أن اسـمها "جوديـث" وأنهـا مدبـرة المنـزل، سـألتنى عـن رحلتـى وأخبرتنـى بأوقـات الوجبـات وأفضـل الأوقـات لأجـد المياه الساخنة، تفتـح فمهـا وتغلقـه، وبمجـرد أن تخـرج الكلـمات مـن بـين شـفتيها، تختنـق بغطـاء الصمـت الـذى هبـط وأخمدهـا، ابتلـع الصمـت أصـوات خطواتنـا وكتـم أصـوات فتـح وإغـلاق البـاب خـلال جولـة تعريفى بالغـرف واحـدة تلـو الأخـرى، غرفـة الطعـام، والمرسـم، وغرفـة الموسـيقى.

مـا مـن سـحر وراء ذلـك الصمـت: بـل السـحرُ سـحرُ المفروشـات الناعمـة، فالأرائـك متخمـة ومكدسـة بالوسـائد المخمليـة، عليهـا مسـاند ممتلئـة للقدمـين، ومقاعـد للتمـدد ومقاعـد بذراعـين، مُـدت الأنسـجة على الجـدران واستُخدمت كأغطيـة للأثـاث المحشـو بالقطـن، غطـى السـجاد كل الأرضيـات، وكل سـجادة تغطيهـا البُسُـط، وبـدا الدمقـس الـذى كسـا النوافـذ كأنـه يمـوه الجـدران، ومثلـما يمتـص الـورق الحـبر، امتـص كل هـذا الصـوف والمخمـل الصـوت، باختـلاف واحـد: فالـورق يمتـص الحـبر المكثـف فقـط، أمـا تلـك الأنسـجة فإنهـا تمتـص كل أثـر لمـا ننطقـه مـن كلـمات.

تتبعـت مدبـرة المنـزل، انعطفنـا يـسرة ويمنـة، ثم يمنـة ويـسرة، وصعدنا وهبطنـا سـلالم حتـى أصبحـتُ حائـرة تمامًـا، وسريعًـا فقـدت كل إحسـاس بتوافـق الداخـل المعقـد مـع البسـاطة الخارجيـة للمنـزل، وافترضـت أنـه قـد تغير بمـرور الوقـت، فأضيفـت التفاصيـل هنـا وهنـاك، عـلى الأرجـح كنـا فى جنـاح أو ملحـق مـا لا يُـرى مـن الواجهـة، قالـت المدبـرة حـين رأت وجهـى: "سـتعتادين عليـه"، وفهمتهـا كأننـى أقـرأ الشـفاه، وأخـيرًا توقفنـا بعـد انعطـاف فى السُـلم، فتحـت بابًـا أدخلنـا إلى صالـون، وجـدت بالصالـون ثلاثـة أبـواب، قالـت لى وهـى تفتـح أحدهـا: "هـذا المرحـاض"، وفتحـت آخـر معقبـة: "وهـذه غرفـة النـوم"، وفتحـت الأخـير: "وهـذه غرفـة الدراسـة"، تمتلـئ الغـرف بالوسـائد والسـتائر والمعلقـات كحـال سـائر المنـزل.

سألتنى: "هل ستأكلين وجباتك فى غرفة الطعام أم هنا؟" قاصدة الطاولة الصغيرة والكرسى المنفرد بجوار النافذة.

لم أعرف إن كان تناول الوجبات فى غرفة الطعام يعنى تناولها مع مضيفتى، ولم أكن متأكدة من وضعى فى المنزل (هل أنا ضيفة أم موظفة؟) ترددت، فكرت فى ما إذا كان الأكثر تهذبًا أن أقبل أم أن أرفض، علقت المدبرة التى بدا أنها خمنت سبب ترددى، كأنها تحاول تجاوز عادة التكتم: "السيدة (وينتر) تأكل وحدها دائمًا".

"إذا كانت الأمور سواء، فسآكل هنا".

"سأحضر لك الحساء والشطائر فى الحال، حسنًا؟ لا بد أنك جائعة بعد رحلة القطار، لديك ما يلزم لإعداد القهوة والشاى هنا"، وفتحت خزانة فى زاوية غرفة النوم لتكشف بداخلها عن غلاية والأدوات اللازمة لإعداد المشروبات، بل وثلاجة صغيرة أيضًا، وأضافت: "سيوفر هذا عليك عناء الصعود والهبوط إلى المطبخ"، وألقت ابتسامة خجلة، أظنها على سبيل الاعتذار لأنها لا تريدنى فى مطبخها.

وتركتنى لأفرغ حقيبتى.

فى غرفة النوم استغرق الأمر دقيقة لأُفرغ ملابسى القليلة وكتبى ومستلزمات المرحاض، وأزحت أدوات الشاى والقهوة إلى جانب ووضعت مكانها كيس الكاكاو الذى جلبته معى من المنزل، ثم تبقى لى فقط الوقت الكافى لتجربة السرير العتيق المرتفع قبل أن تعود المدبرة بالطعام، السرير المغطى بترف بالغ بالوسائد لدرجة أن من الممكن أن يوجد أى شىء تحتها وما كنت لأعرف.

"تدعوك السيدة (وينتر) للقائها بالمكتبة فى الساعة الثامنة".

بذلت ما بوسعها لتجعل الأمر يبدو كدعوة، لكننى فهمت أن هذا أمر، وهو ما قصدته بلا شك.

# لقاء السيدة "وينتر"

لست متأكدة إن كان من قبيل المصادفة أم الحظ أننى وجدت طريقى إلى المكتبة قبل عشرين دقيقة كاملة من موعدى، ولكنها لم تكن مشكلة، فأى مكان أفضل من المكتبة لقتل الوقت؟ وبنظرى، أى طريقة لمعرفة شخص أفضل من اختياراته من الكتب ومعاملته لها؟

تشكل انطباعى الأول عن الغرفة بالكامل، وقد أدهشتنى باختلافها الملحوظ عن بقية المنزل، فالغرف الأخرى مثقلة بجثث كلماتنا المختنقة: لكن هنا فى المكتبة تستطيع التنفس بسلاسة، إنها غرفة مصنوعة من الأخشاب، بدلاً من الأقمشة، أرضيتها عبارة عن ألواح، ويغطى الشيش نوافذها الطويلة، وجدرانها مخططة برفوف من البلوط الصلب.

الغرفة مرتفعة السقف، أكثر بكثير من كونها عريضة، فى أحد جوانبها امتدت خمس نوافذ من السقف إلى الأرض تقريبًا وتعلوها أقواس، صُفَّت عند قاعدتها مقاعد تجاه النافذة، وفى الجهة المقابلة

رُصَّت خمس مرايا تشبه النوافذ شكلاً لتعكس المشهد الخارجى، لكن فى تلك الليلة كانت تعكس ألواح شيش النوافذ ذات النقوش، امتدت رفوف الكتب من الجدران إلى عمق الغرفة، مشكلة ما يشبه الخلجان، وفى كل مساحة مواتية وُضع مصباح أصفر الضوء على طاولة صغيرة، تلك المصابيح هى مصدر الإضاءة الوحيد، بخلاف الموقد الذى فى الطرف الآخر من الغرفة، وقد صنعت حولها هالات رقيقة دافئة، عند أطرافها تذوب صفوف الكتب فى الظلام المحيط.

استكشفت طريقى إلى مركز الغرفة، متفحصة خلجان الكتب على يمينى ويسارى، وبعد نظراتى الأولية، وجدت نفسى أومئ إعجابًا، إنها مكتبة لائقة وتحظى بالاهتمام اللازم، المكتبة نظيفة وكتبها مرتبة حسب الأبجدية والتخصص، كأننى رتبتها بنفسى، كل مفضلاتى موجودة، إلى جانب عدد كبير من المجلدات النادرة والقيمة، بخلاف النسخ العادية المستهلكة، لم أجد روايات "جين أير"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"ذات الرداء الأبيض" فقط، بل ووجدت أيضًا "قلعة أوترانتو"، و"سر السيدة أودلى"، و"ذا سبيكتر برايد"، وفُتنت حين صادفت نسخة من رواية "دكتور جيكل ومستر هايد" نادرة جدًّا لدرجة أن والدى تخلى عن الاعتقاد بوجودها.

تحت تأثير ذهولى بالمجموعة المختارة بعناية من المجلدات على رفوف السيدة "وينتر"، استكشفت طريقى نحو الموقد فى طرف الغرفة، وعند الخليج الأخير إلى اليمين تبرز مجموعة معينة من الرفوف حتى ولو من بُعد: فبدلاً من الكعوب العتيقة البنية فى غالبها المميزة للكتب القديمة، تراوحت ألوان تلك المجموعة بين الأزرق الفضى، والأخضر الداكن، والوردى الرملى، ذلك المزيج المميز لكتب العقود الأخيرة، تلك هى الكتب الحديثة الوحيدة فى الغرفة، إنها كتب السيدة "وينتر" نفسها، وقد وضعت مؤلفاتها المبكرة فى الأعلى ورواياتها الأخيرة فى الأسفل، وكل عمل تمثله نسخة من كل

طبعـة، بـل ومـن كل لغـة، لم أرَ "ثـلاث عـشرة حكايـة"، الكتـاب ذا العنـوان الخطـأ الـذى قرأتـه فى المتجـر، لكـن توجـد أكـثر مـن دسـتة مـن الطبعـات تحـت عنوانـه الآخـر "حكايـات عـن التغيـير واليـأس".

اخـترت نسـخة مـن كتـاب السـيدة "وينـتر" الأخـير، فى الصفحـة الأولى، تصـل راهبـة مسـنة إلى منـزل صغـير فى الشـوارع الخلفيـة لبلـدة بـلا اسـم لكنهـا بـدت فى إيطاليـا، ويرشـدها أحـد إلى غرفـة حيـث يحبُّهـا شـاب منتفـخ الـذات، نفـترض أنـه إنجليـزى أو أمريـكى، يبـدو متفاجئًـا بعـض الـشىء، (طويـت الصفحـة، فقـد جذبتنـى الفقـرات الأولى ليـس إلا، مثلـما يحـدث فى كل مـرة أفتـح كتابًـا لهـا، ومـن دون تخطيـط، أشرع فى قراءتهـا بنهـم)، لا يـدرك الشـاب فى البدايـة مـا يفهمـه القـارئ: أن زائرتـه جـاءت مـن أجـل مهمـة خطـيرة، مهمـة سـتغير حياتـه بطـرق لا يُتوقـع أن يتخيلهـا، وتبـدأ الراهبـة فى الـشرح، وتتحمـل بصـبر حـين يعاملهـا هـو بطيـش الشـباب المدلـل، وحـين طويـت الصفحـة، كنـت قـد نسـيت أمـر المكتبـة، والسـيدة "وينـتر"، ونفـسى...

عنـد ذلـك قطـع شىء طريـق قـراءتى وأخرجنـى مـن الكتـاب، إنـه وخـز فى مؤخـر عنقـى.

أحد يراقبنى.

أعـرف أن ذلـك الشـعور فى مؤخـر العنـق شـائع إلى حـد مـا، لكـن هـذه أول مـرة أختـبره، مثـل الكثـير مـن الوحيديـن، حـواسى معتـادة عـلى وجـود الآخريـن، فأنـا معتـادة عـلى أن أكـون المتجسِـسة الخفيـة فى الغرفـة أكـثر مـن كـونى المتجسَـس عليهـا، والآن أحـد يراقبنـى، وليـس هـذا فقـط، بـل وكان يراقبنـى لبعـض الوقـت، لكـم مـن الوقـت ظـل هـذا الشـعور غـير القابـل للشـك يدغدغنـى؟ تأملـت الدقائـق الأخـيرة محاولـة تتبـع ذاكـرة جسـدى مـع أحـداث الكتـاب، أكنـت أراقَـب منـذ أن بـدأت الراهبـة الحديـث إلى الشـاب؟ منـذ أن أُرشـدت إلى داخـل المنـزل؟ أم قبـل ذلـك؟

حاولـت أن أتذكـر مـن دون تحريـك عضلـة واحـدة، كنـت منكبـة علـى الصفحـة كأن شـيئًا لم يحـدث.

ثم أدركت.

شعرت به قبل حتى أن ألتقط الكتاب.

احتجـت إلى دقيقـة لأمسـك بزمـام أفـكارى، فطويـت الصفحـة واسـتمررت فى ادعـاء القـراءة.

"لا تستطيعين خداعى".

سمعتها بنبرة معلنة آمرة لا سبيل لتجاهلها.

لم يكن بوسعى سوى الاستدارة ومواجهتها.

لم تقصـد "فيـدا وينـتر" بمظهرهـا أى شىء سـوى أن تكـون ملحوظـة، كأنهـا ملكـة أو سـاحرة أو معبـودة قديمـة، انتصـب جسـدها المشـدود كأنهـا ملكـة تسـتقر بـين وفـرة مـن الوسـائد الحمـراء والأرجوانيـة المنتفخـة، طيـات الملابـس الخضـراء والفيروزيـة الملتفـة حـول كتفيهـا، والتـى غطـت جسـدها، لم تخفـف حـدة قوامهـا، ورُتـب شـعرها النحـاسى اللامـع فى شـكل خليـط طويـل مـن الثنايـا والتموجـات، ووجههـا، المرسـوم بشـكل محكـم كأنـه خريطـة، يغطيـه مسـحوق أبيـض وبـه لمسـة أخـيرة مـن أحمـر الشـفاه القرمـزى الجـرىء، وفى حجرهـا تسـتقر يداهـا كأنهـا كتلـة مـن الياقـوت والزمـرد والعُقـل البيضـاء النحيلـة، وأظفارهـا، غـير اللامعـة، والقصيرة المربعـة مثـل أظفـارى، هـى الـشىء الوحيـد الـذى بـدا غريبًـا عنهـا.

مـا أفقـدنى شـجاعتى أكـثر مـن كل هـذا هـو نظارتهـا الشمسـية، التـى منعتنـى مـن رؤيـة عينيهـا، لكننـى تذكـرت الحدقتـين الخضراويـن غـير البشريتـين فى الصـورة بمحطـة القطـار، بـدت نظارتهـا السـوداء كأنهـا

تستحضر قوة كشاف ضوئى: تكوَّن لدى انطباع بأن هذه النظّارة تجعل جلدى شفافًا وتمكنها من اختراق أعماق روحى.

شددت غطاءً على نفسى، والتزمت الحياد، واختبأت وراء ملابسى.

أظن أنها للحظة كانت متفاجئة من أننى لست شفافة، وأنها لا تستطيع اختراق روحى، لكنها أمسكت بزمام أفكارها سريعًا، أسرع منى.

قالت بنبرة حادة: "حسنًا"، وابتسمت كأن ابتسامتها لنفسها أكثر مما هى لى، "لنبدأ العمل، فهمت من رسالتك أن لديك تحفظات بشأن النسبة التى عرضتها عليك".

"نعم، هذا..."

جاء ردها كأنه قطار لا سبيل لإيقافه: "أقترح زيادة الراتب الشهرى والأجر النهائى".

عضضت شفتى باحثة عن الرد المناسب، وقبل أن أتكلم، كانت نظارة السيدة "وينتر" الداكنة قد فحصتنى من أساسى إلى رأسى، من قصة شعرى البنية المنبسطة مرورًا بتنورتى المكوية إلى سترتى الزرقاء، وابتسمت ابتسامة شفقة، وعطلت نيتى أن أتكلم، "لكن يبدو واضحًا أن الاهتمام بالمال ليس من طبيعتك، كم هذا طريف"، بنبرة جافة، "لقد كتبت عمَّن لا يهتمون بالمال، لكننى لم أتوقع أن أقابل أحدهم أبدًا"، ومالت إلى الوراء مستندة إلى الوسائد، "وبالتالى أستنتج أن المشكلة تتعلق بالنزاهة، فمن يغيب عن حياتهم التوازن الذى يحققه الحب الصحى للمال يعانون من هوس مروع بالنزاهة الشخصية".

لوحت بيدها، رافضة ردى قبل أن ينطق به لسانى، "تخافين أن تكتبى سيرة ذاتية بإذن صاحبها لأن هذا قد يهدد استقلاليتك، تشكين فى أننى أريد بسط سيطرتى على محتويات الكتاب، تعرفين أننى

قاومـت عـروض كاتبـى السـير الذاتيـة فى المـاضى وتتسـاءلين عـن هـدفى مـن تغيـير رأيـى الآن، وفـوق كل هـذا"، رأيـت مجـددًا ذلـك التحديـق بالنظـارة الشمسـية، "تخافـين أن أتعمـد الكـذب عليـك".

فتحت فمى لأعترض، لكنه لم يجد ما ينطق به، فهى محقة.

"ليـس لديـك رد، أليـس كذلـك؟ أتخجلـين مـن اتهامـى بـأنى أريـد الكـذب عليـك؟ لا يحـب النـاس أن يتهـم بعضهـم بعضًـا بالكـذب، وبحـق السـماء فلتجلـسى".

جلسـت وقلـت بلطـف: "لا أتهمـك بـأى شىء..."، لكنهـا قاطعتنـى عـلى الفور.

"لا تكونى مهذبة، لو أن هناك شيئًا واحدًا لا أتحمله فهو التهذب".

اختلـج جبينهـا، وارتفـع حاجـب أعـلى حـدود نظاراتهـا، كان كقـوس أسـود قـوى ليسـت لـه علاقـة بـأى حاجـب طبيعـى".

"التهـذب، إنهـا فضيلـة المغلـوب عـلى أمـره، هـلا أخبرتنـى، مـا الجديـر بالإعجـاب فى الوداعـة؟ ففـى النهايـة، الوداعـة سـهلة جـدًّا، لا يتطلـب الأمـر موهبـة خاصـة حتـى يكـون المـرء مهذبًـا، بـل عـلى النقيـض، أن تكـونى لطيفـة هـو آخـر مـا يتبقـى لـك بعـد أن تفشـلى فى كل شىء، الطموحـون لا يشـغلهم مـا يظنـه النـاس عنهـم، لا أفـترض أن (ريتشـارد فاجـنر) كان يـؤرق منامـه التفكـير في مـا إذا كان قـد آذى مشـاعر أحـد مـا، لكنـه كان عبقريًـا".

وانطلـق حديثهـا بـلا هـوادة، ذاكـرة المثـال وراء المثـال عـلى العبقريـة ورفيقتهـا الأنانيـة، وطيـات شـالها لم تتزحـزح طـوال حديثهـا، قلـت لنفـسى إنهـا بالتأكيـد مصنوعـة مـن الصلـب.

فى النهايـة اختتمـت محاضرتهـا بقولهـا: "التهـذب فضيلـة ليسـت لـدى، ولا أحـترم وجودهـا لـدى الآخريـن، فـلا حاجـة لنـا لنشـغل بالنـا بهـا"، ثـم سـكتت، كأنهـا قـد حسـمت الأمـر بـلا مجـال للنقـاش.

علقتُ: "أنت من أثار موضوع الكذب، وهذا أمر قد نشغل بالنا به".

"مـن أيَّـة ناحيـة؟" عـبر النظـارة المعتمـة، اسـتطعت رؤيـة حركـة رمـوش السـيدة "وينـتر"، جثمـت وارتجفـت حـول عينيهـا مثلـما تفعـل أرجـل العنكبـوت الطويلـة حـول جسـده.

"لقـد قدمـت تسـع عـشرة نسـخة مختلفـة من قصـة حياتـك للصحفيين خـلال العامـين الماضيـن فقـط، وذلـك عـدد مـا وجدتـه ببحـث سريـع، هنـاك المزيـد، ربمـا المئـات".

هزت كتفيها استهجانًا: "هذا عملى، أنا راوية قصص".

"وأنا كاتبة سير ذاتية، ولا يستقيم عملى إلا بالحقائق".

قلَّبـت رأسـها وتحركـت معهـا تموجـات شـعرها كأنهـا خصلـة واحـدة: "هـذا ممـل حـد البشـاعة، مـا كنـت أبـدًا لأكـون كاتبـة سـير ذاتيـة، ألا تعتقديـن أن الحقيقـة يمكـن أن تُحـكى أفضـل بواسـطة قصـة؟"

"ليس بواسطة القصص التى حكيتها للعالم حتى الآن".

استسـلمت بإيمـاءة وأردفـت بنـبرة أبطـأ: "آنسـة (ليـا)، كانـت لـدى أسـبابى لأحجـب مـاضىّ وراء سـتار، وأؤكـد لـك أن تلـك الأسـباب لم تعـد موجـودة".

"أى أسباب؟"

"الحياة معقدة".

أرمشتُ.

"تظنين أنه شيء غريب أن يُقال، لكنه حقيقي، حياتي وتجاربي كلها، والأحداث التي حلَّت علي، وكل من عرفتهم، وكل ذكرياتي، وأحلامي، وخيالاتي، وكل ما قرأته، كل ذلك رُمي في كومة تحللت بمرور الزمن لتكوِّن سمادًا عضويًا غنيًا داكنًا، وعملية التحلل تجعلها بلا ملامح، يسمي الآخرون هذا الخيال، لكنني أعتبره كومة سماد، فبين الحين والآخر آخذ فكرة وأزرعها في السماد، وأنتظر، إنها تتغذى على الشيء المظلم الذي كان حياتي، وتستمد منه طاقتها، ثم تنبت، وتهبط جذورها، وتمتد أغصانها، وما إلى ذلك، إلى أن أجد أمامي في يوم هادئ قصة، أو رواية".

أومأت معجبة بالتشبيه.

أردفت السيدة "وينتر": "القراء مغفلون، يعتقدون أن الكتابة كلها متعلقة بسيرة الكاتب الذاتية، وهي في الواقع هكذا، ولكن ليس مثلما يظنون، فحياة الكاتب تحتاج إلى بعض الوقت لتنضج قبل أن يستخدمها في إنماء عمل خيالي، يجب أن تُترك لتتحلل، لذا لم أستطع أن أترك الصحفيين وكتاب السير الذاتية يعبثون بماضٍ، مسترجعين أجزاء وقطعًا منه، ومحتفظين بها في كلماتهم، فحتى أكتب كتبي، احتجت إلى ترك الماضي في سلام، حتى يفعل الزمن أفاعيله".

تأملت إجابتها ثم سألتها: "وماذا حدث ليتغير هذا الآن؟"

"أنا مسنة ومريضة، ضعي هاتين الحقيقتين معًا يا كاتبة السير الذاتية وأخبريني علامَ تحصلين؟ أعتقد أنها نهاية القصة".

عضضت شفتي: "ولماذا لا تكتبين الكتاب بنفسك؟"

"لقد تأخرت جدًّا، إلى جانب أن من سيصدقني؟ لقد أرسلت استغاثات كاذبة كثيرة".

سألتها: "وهل تنوين إخبارى الحقيقة؟"

قالـت: "نعـم"، لكننـى سـمعت ترددهـا مـع أنـه اسـتمر لجـزء مـن الثانيـة.

"ولماذا تريدين أن تقوليها لى؟"

سـكتت لبرهـة، "أتعلمـين، ظللـت أسـأل نفـسى هـذا السـؤال طـوال ربـع السـاعة الماضيـة، أى نـوع مـن البـشر أنـت يـا آنسـة (ليـا)؟"

ثبَّـتُّ القنـاع الـذى أخفيـت نفـسى وراءه قبـل أن أرد: "أنـا مسـاعدة فى متجـر، أعمـل فى متجـر للكتـب النـادرة، وأنـا كاتبـة سـير ذاتيـة هاويـة، أفـترض مسـبقًا أنـك قـرأت كتـابى عـن الأخويـن (لانديـر)".

"هـذا ليـس كافيًـا، ألا تتفقـين؟ إن كنـا سـنعمل معًـا، سـأحتاج إلى أن أعـرف المزيـد عنـك، مـن الصعـب أن أفـشى أسرار حيـاتى بالكامـل لشـخص لا أعـرف عنـه شـيئًا، لـذا أخبرينـى عـن نفسـك، مـا كتبـك المفضلـة؟ بـم تحلمـين؟ مـن تحبـين؟"

وفى الحال شعرت بالإهانة لدرجة منعتنى من الإجابة.

"هيـا! أجيبـى! بحـق السـماء! هـل سـأترك غريبـة تعيش تحت سـقفى؟ هـل سـتعمل معـى غريبـة؟ الأمـر غـير معقـول، أخبرينـى، أتصدقـين وجـود الأشباح؟"

حينئذ حركنى شىء أقوى من المنطق، فنهضت من الكرسى.

"ماذا تفعلين؟ إلى أين تذهبين؟ انتظرى!"

خطـوت الخطـوة وراء الأخـرى، محاولـة ألا أجـرى، وسـمعت إيقـاع ضرب خطـواتى عـلى الألـواح الخشـبية، فى حـين نـادت هـى بصـوتِ مَـنْ كاد يسـقط مـن حافـة الذعـر.

فصرخت: "عودى! سأحكى لك قصة، قصة رائعة!"

لكننى لم أتوقف.

"فى يوم من الأيام كان هناك بيت مسكون..."

بلغت الباب، وقبضت يداى المقبض.

"فى يوم من الأيام كانت هناك مكتبة..."

فتحت الباب وكنت على وشك الخروج نحو الخواء، حين قالت بصوت أبحَّه الخوف كلماتٍ جعلتنى أتجمد فى مكانى.

"فى يوم من الأيام كانت هناك توأمتان..."

انتظرت حتى تلاشى صدى كلماتها ثم نظرت إلى ورائى رغمًا عنى، رأيت مؤخر رأسها ويديها المرتجفتين تغطيان وجهها الذى أشاحته عنى.

عدت بخطوة حذرة إلى داخل الغرفة، ومع وقع خطواتى، تحول رأسها ذو الشعر النحاسى إلىّ.

كنت مذهولة، لقد خلعت النظارة، ورأيت عينين خضراوين ساطعتين كالزجاج، تنظران إلىّ بشىء من التوسل، للحظة بادلتها التحديق، ثم قالت بصوت مرتعش: "آنسة (ليا)، هلا تجلسين إذا سمحت"، ولولا أنى رأيتها تتحدث، ما كنت لأصدق أن هذا صوتها.

حركنى شىء يتجاوز قدرتى، فاقتربت من الكرسى وجلست.

قلت بصوت مُتعَب: "لن أعدك بأى شىء".

ردت بصوت ضعيف: "لست فى موضع مناسب لطلب أى وعود".

إنها هدنة إذًا.

سألتها مجددًا: "لماذا اخترتنى؟" وأجابت فى هذه المرة.

"بسبب كتابك عن الأخوين (لانديير)، لأن تجربة الأخوّة ليست غريبة عنك".

"وهل ستخبرينني الحقيقة؟"

"سأخبرك الحقيقة".

كان ردها غير غامض بدرجة كفاية، لكنني سمعت أيضًا الرجفة التى قيَّدتها، إنها تقصد أن تقول الحقيقة، لم أشك فى ذلك، قررت أن تقولها، ربما حتى لم تقرر ذلك فقط، بل أرادته أيضًا، إلا أنها لم تصدق تمامًا أنها ستفعل ذلك، ويأتى وعدها بالصراحة بهذا الوضوح حتى تقنع نفسها مثلما تريد أن تقنعنى، وقد سمعت هى رجفة الشك فى صوتها مثلما سمعتها أنا.

لذا اقترحت شيئًا: "سأطلب منك ثلاث حقائق، حقائق متاحة فى السجلات العامة، وحين أرحل من هنا، سأتمكن من التحقق بشأنها، إن وجدت أنك قلت الحقيقة، فسأقبل بالنسبة التى عرضتها علىّ".

"نعم، قاعدة الثلاثة، الرقم السحرى، ثلاث محاولات قبل أن يفوز الأمير بيد الأميرة الجميلة، ثلاث أمنيات قدمتها السمكة السحرية للصياد، قصة الدببة الثلاثة، وقصة العنزات الثلاث، يا آنسة (ليا)، لو سألتنى سؤالين أو أربعة أسئلة ربما لأتمكن من الكذب، لكن ثلاثة..."

أخرجت قلمى من كعب دفترى وفتحته.

"ما اسمك الحقيقى؟"

ازدردت ريقها وردت: "أمتأكدة من أن هذه أفضل طريقة لنبدأ؟ يمكننى أن أحكى قصة أشباح جيدة، ولا أقول إنها جيدة لأننى من ستحكيها، قد تكون هذه طريقة جيدة لنصل إلى حقيقة الأمور..."

هززت رأسى معترضة: "أخبرينى اسمك".

انتقلت كتلة الياقوت وعُقل الأصابع إلى حجرها، وتوهجت أحجارها فى ضوء النار.

"اسمى (فيدا وينتر)، ولقد اتخذت كل الإجراءات القانونية اللازمة لأحصل على هذا الاسم على نحو قانونى وصريح، ما تريدين معرفته هو الاسم الذى عُرفت به قبل هذا التغير، هذا الاسم هو..."

سكتت للحظة، كانت فى حاجة إلى تجاوز حاجز ما بداخلها، وحين نطقت الاسم اتسمت نبرتها بحيادية ملحوظة، غياب كامل لأى مشاعر، كأنها كلمة من لغة أجنبية لم تجتهد كفاية لتتعلمها: "هذا الاسم هو (آديلاين مارش)".

أردفت بنبرة حادة كأنها تريد تبديد أقل اهتزازة يحدثها هذا الاسم فى الهواء: "آمل ألا تسألينى عن تاريخ مولدى، ففى مثل سنى هذه يصبح عاديًّا أن أنساه".

"لا بأس بذلك إن أخبرتنى بمحل مولدك".

أطلقت تنهيدة منزعجة: "يمكننى أن أخبرك بمعلومات أفضل كثيراً، فقط إن سمحت لى بأن أقولها بطريقتى".

"هذا ما اتفقنا عليه، ثلاث حقائق مسجلة فى السجلات العامة".

زمَّت شفتيها: "ستجدين فى السجلات العامة أن (آديلاين مارش) ولدت فى مشفى القديس بارثولوميو بلندن، من الصعب أن تنتظرى منى تقديم أى ضمانة شخصية على صحة هذه التفصيلة، فمع أننى شخصية استثنائية، أنا لست استثنائية لدرجة أنى أتذكر مولدى".

دونت هذه المعلومة.

والآن السؤال الثالث، يجب أن أعترف بأننى لم أعدّ سؤالاً ثالثًا معينًا، لم ترد أن تخبرنى بسنها، وأنا بالكاد أحتاج إلى سنها، فبناء على تاريخ أعمالها الطويل، وتاريخ نشر أول كتبها، لا يمكن أن تبلغ أقل من ثلاثة أو أربعة وسبعين عامًا، وبناء على مظهرها، مع أنه متغير بسبب المرض ومساحيق التجميل، فإنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت

الثمانين، لكن هذه الضبابية لم تهمنى، فباسمها ومحل ميلادها يمكننى أن أتوصل إلى تاريخ مولدها بنفسى، وبفضل سؤالىَّ السابقيْن، أصبحت لدى المعلومات الكافية لأعرف إن كان أحد باسم "آديلاين مارش" قد عاش قط، عم أسألها إذًا؟ ربما شعرت برغبتى فى أن أسمع السيدة "وينتر" تحكى حكاية، لكن حين لاحت الفرصة لأستخدم سؤالى الثالث كيفما يحلو لى، انتهزتها.

تقدمت ببطء وحذر: "أخبرينى"، فى كل قصص السحرة، دائمًا ما تكون الأمنية الثالثة هى ما يُذهب كل ما كسبه المتمنى هباءً بعدما كابد الخطر، "أخبرينى بشىء حدث لك قبل تغيير اسمك ويمكن العثور عليه فى السجلات العامة". فكرت فى النجاحات التعليمية، أو الإنجازات الرياضية خلال الدراسة، تلك الانتصارات الصغيرة التى تُسجل حتى يفخر بها الآباء وتستلهمها الأجيال القادمة.

خلال الصمت الذى تلى السؤال، بدا أن السيدة "وينتر" تنسحب إلى داخلها، لقد نجحت وهى جالسة أمام ناظرىّ فى أن تكون غائبة، حينها فهمت كيف لم أرها منذ قليل وهى فى الغرفة نفسها، رأيتها أمامى بلا أى تفاعل مع ما يحدث خارج جسدها، أذهلنى فى هذه اللحظة مدى استحالة معرفة ما يدور داخل رأسها.

ثم ارتدت مجددًا.

"أتعلمين لماذا حققت كتبى نجاحًا بالغًا؟"

"لأسباب كثيرة جدًّا".

"يُمكن، فى الغالب، لأن بها بداية ومنتصفًا ونهاية، بالترتيب الصحيح، بالتأكيد لكل القصص بداية ومنتصف ونهاية، ولكن ما يهم هو أن يكون الترتيب صحيحًا، لهذا تعجب كتبى الناس".

تنهدت وتململت بيديها: "سأجيب عن سؤالك، سأحكى لك شيئًا حدث قبل أن أصبح كاتبة وأغير اسمى، وهو مسجل فى السجلات العامة، إنه أهم ما حدث لى فى حياتى، لكننى لم أتوقع أن أجد نفسى أحكيه لك مبكرًا جدًّا هكذا، سأضطر إلى كسر إحدى القواعد التى ألزمت نفسى بها، سأخبرك بنهاية قصتى قبل بدايتها".

"نهاية قصتك؟ كيف يمكن أنها حدثت قبل أن تشرعى بالكتابة؟"

"ببساطة لأن قصتى الشخصية الخاصة جدًّا انتهت قبل أن أبدأ فى الكتابة، ومنذئذ كان حكى القصص مجرد طريقة لملء الوقت بعدما انتهى كل شىء".

انتظرتُ، أخذت هى نفسًا كلاعب شطرنج وجد قطعته الأهم محاصرة.

"ما كنت لأحكى لك هذا بهذه السرعة، لكننى وعدتك، إنها قاعدة الثلاثة الحتمية، قد يستجدى الساحر الفتى لكيلا يتمنى الأمنية الثالثة، لأنه يعرف أنها ستنتهى بكارثة، لكن الفتى سيتمنى الثالثة على أيَّة حال، والساحر مُلزم بتحقيقها لأنها قواعد القصة، طلبت منى أن أخبرك الحقيقة بشأن ثلاثة أشياء، ويجب أن أفعل ذلك، لكن سأطلب منك شيئًا فى المقابل".

"ماذا؟"

"بعد إجابتى، لن أتجاوز ترتيب أيٍّ من مراحل القصة، بدءًا من الغد، سأحكى لك قصتى، بداية من البداية، مرورًا بالمنتصف، وختامًا بالنهاية، كل مرحلة فى وقتها، بلا أيَّة حيل ولا استثناءات ولا أسئلة، ولن تسترقى النظر إلى الصفحات الأخيرة".

هل لها الحق فى فرض شروط على اتفاقنا بعد أن وافقت عليه؟ ليس حقًّا، ولكن مع ذلك أومأتُ موافقة.

"اتفقنا".

لم تتمكن من النظر إلىّ وهى تحكى.

"كنت أعيش فى آنجلفيلد".

ارتجف صوتها إثر نطق اسم ذلك المكان، ثم حكّت باطن يدها بحركة عفوية متوترة.



"كان عمرى ستة عشر عامًا".

أصبح صوتها منقبضًا وهجرته السلاسة.

"وحدث حريق".

كانت تطرد الكلمات من حنجرتها جافة وصلبة، كأنها تقذف حجارة.

"فقدت كل شىء".

ثم هربت صرخة من بين شفتيها أخفقت فى إيقافها: "أوه يا (إيميلاين)!"

يُعتقد فى بعض الثقافات أن الاسم يحتوى على كل قوى الشخص الروحانية، وأن الاسم يجب أن يكون معروفًا للرب ولحامله وللقليل جدًّا من المحظوظين، فنطق مثل هذا الاسم، سواء أكان بلسان صاحبه أو أحد آخر، يمثل دعوة للخطر، وقد بدا أن هذا ينطبق على ذلك الاسم.

ضمت السيدة "وينتر" شفتيها، لكنها تأخرت جدًّا فى ذلك، فقد مرت رجفة تحت جلدها.

الآن أدركت أننى وصلت إلى القصة، لقد عثرت على قلب الحكاية التى كُلفت بروايتها، إنها عن الحب والفقدان، فماذا قد يسبب حزن تلك الصرخة سوى فاجعة الفقد؟ وفى التو رأيت ما وراء قناع

مساحيق التجميل البيضاء والستار الغريب، لمدة بضع ثوانٍ بدا لى أننى أرى ما بقلب السيدة "وينتر"، وما يدور بعقلها، لقد عرفت جوهرها: وكيف أخطئه وهو جوهرى أنا أيضًا؟ كلتانا كانت توأمة وحيدة، بعدما أدركت هذا، ضاق زمام القصة على معصمى، وقطع الخوف فجأة حبل حماستى.

سألتها: "أين أجد هذا الحريق بالسجلات العامة؟" محاولة ألا أبدى مشاعرى المضطربة فى صوتى.

"فى الصحف المحلية، صحيفة بانبرى هيرالد".

أومأتُ، ودونت ذلك فى دفترى وأغلقته.

عقبت: "مع أن هناك سجلاً من نوع آخر يمكن أن أريه لك الآن".

رفعت حاجبى.

"اقتربى".

انتصبتُ واقتربت خطوة حتى أصبحت بمنتصف المسافة بيننا.

رفعت ذراعها اليمنى ببطء، وقرّبت إلى قبضتها المغلقة التى بدت كالجوهرة من أحد جوانبها، وبحركة دلت على جهد كبير، أدارت يدها وفتحتها، كأنها أخفت بداخلها هدية مفاجئة وكانت على وشك تقديمها إلى.

لكن لم تكن هناك هدية، فالمفاجأة هى اليد نفسها.

كان لحم كفها مختلفًا عن أى يد رأيتها من قبل، لم تحمل نتوءاته البيضاء وتجاعيده القرمزية أيّة علاقة بالقاعدة الوردية التى تستقر عليها أصابعى، ذلك السهل الشاحب بكف يدى، أذابت النار جلد كفها، وبرد ليشكل منظرًا بلا أى ملامح مميزة، مثل مشهد تدفقت الحمم البركانية عبره فغيرته للأبد، لم تنفتح أصابعها تمامًا، بل كانت أشبه بالمخلب بسبب تقلص نسيج الندب، وفى قلب كفها، يوجد

ندب داخل ندب، وحرق داخل حرق، إنه أثر بشع للحريق، الندب غائر جدًّا فى قبضتها، غائر لدرجة أننى، وبشعور مفاجئ بالغثيان، تساءلت عما حدث للعظمة التى يُفترض أن توجد هناك، جعل ذلك شكل الوضعية الغريبة ليدها عند المعصم منطقية، كان أثر الحريق على شكل دائرة راسخة فى كفها، وتمتد من الكف بخط قصير نحو الإبهام.

الحرق يشبه حرف "كيو" الإنجليزى، لكن فى لحظتها، وإثر صدمة هذا الكشف المؤلم والمفاجئ، لم يكن شكل الأثر بهذا الوضوح، وأزعجنى مثلما قد يزعجنى ظهور رمز غير مألوف من لغة مفقودة أجهلها وسط صفحة باللغة الإنجليزية.

سيطر علىّ دوار مفاجئ وحاولت الوصول إلى مقعدى ورائى.

سمعتها تقول: "أنا آسفة، يعتاد المرء على أهواله الشخصية وينسى أنها تخيف الآخرين".

جلست وبدأت الظلمة التى حاصرت رؤيتى فى الانحسار.

أغلقت السيدة وينتر أصابعها على كفها المشوه، وأدارت معصمها وجذبت قبضتها المرصعة بالمجوهرات إلى حجرها، وفى حركة تحفظية، غلفت تلك اليد بأصابع يدها الأخرى.

"أنا حزينة لأنك لم تريدى أن تسمعى حكايتى عن الأشباح يا آنسة (ليا)".

"سأسمعها فى مرة أخرى".

وانتهت المقابلة.

فى طريق عودتى إلى غرفتى، فكرت فى رسالتها إلىّ، واليد المرهقة المثابرة التى لم أر مثلها من قبل، حينها أرجعت سبب بدائية الخط إلى الاعتلال، ربما التهاب المفاصل، والآن عرفت السبب، منذ كتابها

الأول وطـوال مسـيرتها كلهـا، كتبـت السـيدة "وينـتر" كل تحفهـا الفنيـة بيدهـا اليـسرى.

فى غرفـة الدراسـة، السـتائر المخمليـة خـضراء، ويغطـى الجـدران السـاتان الذهبـى الباهـت ذو العلامـات المائيـة، وعـلى الرغـم مـن ذلـك الصمـت المبهـم، سررت بالغرفـة، لأن المكتـب الخشـبى العريـض والكـرسى البسـيط الجاثـم تحـت النافـذة يخففـان ثقـل جوهـا العـام، أضـأت مصبـاح المكتـب وأخرجـت رزمـة الـورق التـى أحضرتهـا معـى، وأقلامـى الرصـاص الاثنـى عـشر، تلـك الأقـلام جديـدة تمامًـا: أعمـدة حمـراء غـير مشـحوذة، وهـذا تحديـدًا مـا أود أن أبـدأ مشروعًـا جديـدًا بـه، وآخـر مـا أخذتـه مـن حقيبتـى كان المـبراة، ركَّبتهـا عنـد طـرف المكتـب ووضعـت سـلة الأوراق تحتهـا مبـاشرة.

فجـأة قـررت أن أصعـد فـوق المكتـب وأصـل إلى العارضـة أعلى السـتارة القصـيرة العريضـة، تلمسـت أصابعـى قمـة السـتارة وتحسسـت الكلابـات والغـرز التـى ربطـت بعضهـا ببعـض، لم تكـن تلـك مهمـة شـخص واحـد قـط، فالسـتائر تمتـد بطـول الجـدار، ومحاكـة بطـرق مختلفـة، أمـا وزنهـا فشـعرت بـه حـين هـوى عـلى كتفـى، كان سـاحقًا، لكـن بعـد دقائـق عـدة، كانـت أول سـتارة مطويـة وموضوعـة فى الخزانـة، ثـم الثانيـة، وقفـت فى منتصـف الغرفـة وعاينـت نتيجـة عمـلى.

النافـذة عبـارة عـن امتـداد واسـع مـن الزجـاج الداكـن وفى منتصفـه وقـف شـبحى المظلـم الشـفاف يحـدق إلى، عالمـه ليـس مختلفًـا عـن عالمـى: إطـار شـاحب لمكتـب فى الجانـب الآخـر مـن الزجـاج، وخلفـه يقـع كـرسى بذراعـين بـه أزرار عميقـة فى دائـرة الضـوء الصـادر عـن مصبـاح تقليـدى، لكـن كـرسى أحمـر، وكرسـيُّه رمـادى، وفى حـين اسـتقر كـرسى عـلى سـجادة هنديـة، محاطًـا بجـدران ذهبيـة فاتحـة، لاح كرسـيه كالطيـف

فى ظلمة بلا نهاية ولا معالم بدت فيها أشكال غريبة، تشبه الموج، تتحرك وتتنفس.

بدأنا معًا طقس تحضير مكتبينا سريعًا، قسَّمنا رزمة الأوراق إلى أكوام أصغر ونفضنا كل ورقة منها لنسمح لها بالتنفس، وشحذنا أقلامنا واحدًا تلو الآخر، مديرين يد المبراة ونشاهد الطبقات المتساقطة تلتف حول نفسها وتتدلى فى طريقها إلى سلة الأوراق أسفلها، وحين شُحذ آخر قلم حتى أصبح طرفه مدببًا، لم نضعه جانبًا مع الأقلام الأخرى، بل ظللنا ممسكين به.

قلت لشبحى: "هيا، أنا جاهزة للعمل".

فتحت فمها، بدا كأنها تتحدث معى، لكننى لم أتبين ما تقوله.

لم أمارس الكتابة الاختزالية، فخلال المقابلة، أدون ببساطة واختصار قوائم بكلمات مفتاحية، وآمل أننى إن كتبت مقابلاتنا بعدها على الفور، فإن هذه الكلمات ستكون كافية لتنشيط ذاكرتى، ومنذ اللقاء الأول، كان ذلك الأسلوب ناجحًا، وأنا أسترق النظر إلى دفترى بين الحين والآخر، ملأت أوراقى بكلمات السيدة "وينتر". أستحضر صورتها فى بالى، أستمع إلى صوتها، أرى طريقتها المميزة، وبعد فترة قصيرة، كنت بالكاد أنتبه إلى دفترى، لكن حين أفرغ المقابلة كنت أتلقى الإملاءات من السيدة "وينتر" التى فى عقلى.

تركت هوامش واسعة، فى الهوامش اليسرى أدون السلوكيات والتعبيرات والإيماءات التى بدا أنها تضيف شيئًا للمعنى، وتركت الهوامش اليمنى بيضاء، لاحقًا، حين أعيد قراءة ما دونته، سأكتب فى هذا الجانب أفكارى وتعليقاتى وأسئلتى.

شعرت كأننى عملت لساعات، وقفت لأعد لنفسى كوبًا من الكاكاو، لكنه لم يستغرق الكثير من الوقت ولم يعكر صفو تسليتى، عدت إلى عملى والتقطت حبل أفكارى من حيث تركته.

كتبت أخيراً فى وسط الصفحة: "أنا آسفة، يعتاد المرء على أهواله الشخصية وينسى أنها تخيف الآخرين"، وأضفت إلى اليسار ملحوظة تصف كيف احتضنت قبضة يدها المتأذية المغلقة بيدها الأخرى السليمة.

رسمت خطًا مزدوجًا تحت آخر سطر من النص، وتمددت، وفى النافذة وجدت شبحى يتمدد مثلى، ثم أخذ أقلام الرصاص التى استهلكت رءوسها وشحذها واحدًا تلو الآخر.

كان شبحى فى منتصف تثاؤب حين بدأ شىء فى الحدوث بوجهه، فى البداية رأيت لطخة مفاجئة فى منتصف جبهتها، مثل بثرة، ثم ظهرت علامة أخرى على خدها، ثم تحت عينها، وعلى أنفها، وعلى شفتيها.

كل تشوه جديد يصحبه صوت مكتوم، كان إيقاعًا يتسارع باطراد، وفى خلال ثوان قليلة، بدا أن وجهها بالكامل قد تحلل.

لكن ذلك لم يكن الموت، بل المطر، المطر المنتظَر طويلاً.

فتحت النافذة، وأخرجت يدى لتغتمر بالمطر، ثم مسحت بالمياه وجهى وعينى، اختلجت وشعرت أن وقت النوم قد حان.

تركت النافذة مواربة لأستمع إلى المطر وهو يهطل بنعومة مكتومة ومنتظمة، سمعته وأنا أخلع ملابسى، وخلال القراءة، وخلال نومى، صاحب أحلامى طوال الليل مثل مذياع مهجور غير مضبوط الموجة، يذيع ضوضاء ساكنة غامضة تنتقى أذنى منها همسات بالكاد مفهومة بلغات أجنبية وتختلس منها حديثًا من محطات غير مألوفة.

## وهكذا بدأنا..

فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى بعثت السيدة "وينتر" فى طلبى، فذهبت إليها فى المكتبة.

الغرفة مختلفة جدًّا فى ضوء النهار، فحين يُفتح شيش النوافذ، تفسح النوافذ بكامل ارتفاعها الطريق لضوء السماء الباهتة، والحديقة التى لا تزال أمطار الليلة الماضية تبللها، لمعت تحت شمس الصباح، والنباتات الغريبة قرب مقاعد النافذة بدت كأنها تمد أوراقها لتلمس شقيقاتها القويات المبللات خارج النافذة، والإطار الرقيق الذى ثبت ألواح الزجاج لم يبدُ أصلب من الخيوط اللامعة لشبكة عنكبوت ممتدة بين فروع الأشجار، أما المكتبة نفسها، الأبسط والأضيق مما بدت عليه الليلة الماضية، فبدت كأنها سراب من الكتب فى الحديقة الشتوية المبللة.

على النقيض من السماء الزرقاء الباهتة والشمس البيضاء كاللبن، كانت السيدة "وينتر" تشع طاقة وحيوية، إنها وردة دفيئة غريبة

وسـط حديقـة شـتوية شـمالية، لم ترتـد نظارتهـا الشمسـية اليـوم، لكـن جفنيهـا حمـلا لونًـا أرجوانيًـا، يطوّقـه خـط كحـل عـلى طريقـة كليوباتـرا، ويؤطرهـما الرمشـان الأسـودان الكثيفـان اللـذان رأيتهـا بالأمـس، وفى ضـوء النهـار الصـافى، رأيـت مـا لم أره ليلـة الأمـس: بطـول الفـرق المسـتقيم كالمسـطرة فى شـعر السـيدة "وينـتر" النحـاسى يوجـد هامـش ضيـق مـن الأبيـض النقـى.

قالـت: "تتذكريـن اتفاقنـا"، وأنـا أجلـس عـلى الكـرسى عـلى الجانـب الآخـر مـن الموقـد، "بدايـة مـن البدايـة، مرورًا بالمنتصـف، وختامًـا بالنهاية، كل مرحلـة فى وقتهـا، بـلا أيَّـة حيـل ولا اسـتثناءات ولا أسـئلة، ولن تسـترقى النظـر إلى الصفحـات الأخـيرة".

كنـت متعبـة، نمـت عـلى سريـر غريـب فى مـكان غريـب، واسـتيقظت بلحـن ممـل بـلا نغـم يـرن فى رأسى، قلـت لهـا: "ابـدئى مـن حيـث توديـن".

"سـأبدأ مـن البدايـة، مـع أن بالتأكيـد البدايـة ليسـت حيـث تظنينهـا أبـدًا، فحياتنـا مهمـة جـدًّا لنـا لدرجـة أننا نميـل إلى الاعتقـاد أن قصتهـا تبدأ بمولدنـا، فى البـدء لم يكـن شـيئًا، ثـم ولـدت أنـا، مـع أن هـذا غـير صحيـح، فحيـاة الإنسـان ليسـت خيطًـا يمكـن فصلـه عـن خيـوط الآخريـن ثـم شـده ليكـون خطًـا مسـتقيمًا، فالعائـلات عبـارة عـن شـبكات، ويسـتحيل لمـس جـزء منهـا مـن دون أن تهتـز بقيتهـا، ويسـتحيل فهـم جـزء منهـا مـن دون إدراك الصـورة الكاملـة.

"قصتـى ليسـت خاصـة بى وحـدى، إنهـا قصـة آنجلفيلـد، آنجلفيلـد القريـة، وآنجلفيلـد البيـت، وعائلـة (آنجلفيلـد) نفسـها، (جـورج) و(ماتيلـدا)، وطفليهـما (تشـارلى) و(إيزابيـل)، و(إيميلايـن) و(آديلايـن)، بيتهـم، وثرواتهـم، ومخاوفهـم، وشـبحهم، يجـب عـلى المـرء دائمًـا الانتبـاه للأشـباح، أليـس كذلـك يـا آنسـة (ليـا)؟"

رمقتنى بنظرة حادة، ادعيت أننى لم أرها.

"الميلاد ليس البداية الفعلية، فحيواتنا فى بداياتها ليست ملكنا، بل هى امتداد لقصة شخص آخر، وإليك أنا على سبيل المثال، إن نظرت إلىَّ الآن لاعتقدت أن ميلادى كان بلا شك حدثًا مميزًا، مصحوبًا بالبشائر الغريبة، وحضرته الساحرات والجدات الجنيات، لكن لا، هذا ليس صحيحًا بالمرة، فى الواقع، حين ولدت، لم أكن إلا حدثًا فى حبكة فرعية".

"أسمعك تفكرين، لكن كيف عرفت القصة التى سبقت مولدى؟ ما مصادرى؟ من أين حصلت على المعلومات؟ ولكن السؤال هو: من أين تأتى أيَّة معلومة فى بيت مثل آنجلفيلد؟ إنهم الخدم بالتأكيد، وسيدة خدم المنزل بالتحديد، ليس الأمر أننى عرفت ذلك من فمها مباشرة، أحيانًا حدث هذا، فهى كانت تستغرق فى ذكريات الماضى وهى جالسة تنظف الفضيات، وتبدو كأنها نسيت وجودى وهى تتكلم، وقد عبست حين تذكرت شائعات القرية ونميمتها المحلية، لقد وصلت الأحداث والمحادثات والمشاهد إلى شفتيها لتحدث من جديد على مائدة المطبخ، لكن عاجلاً أو آجلاً، تقودها أحداث القصة إلى أجزاء غير مناسبة للأطفال -وغير مناسبة لى تحديدًا- ثم تتذكر فجأة وجودى، وتقتطع حكايتها فى منتصف جملة، وتبدأ فى فرك أدوات المائدة بشدة كأنها تمسح الماضى، لكن لا توجد أسرار فى بيت به أطفال، فقد جمعت أجزاء القصة بطريقة أخرى، فحين تتحدث سيدة الخدم مع البستانى خلال فقرة شاى الصباح، تعلمت أن أترجم السكوت المفاجئ الذى تخلل ما يبدو كمحادثات بريئة، ودون أن يبدو أننى لاحظت شيئًا، أرى النظرات الصامتة التى تستدعيها كلمات معينة بينهما، وحين كانا يظنان أنهما وحدهما ويمكن أن يتحدثا على انفراد، لم يكونا وحدهما، وبهذه الطريقة عرفت قصة أصولى، ولاحقًا، حين لم تعد سيدة الخدم مثلما كانت من قبل، وحين أربكها سنها وأطلق لسانها، أكدت أحاديثها الممطوطة القصة التى ظللت أخمنها

لسنوات، إنها تلك القصة التى جمعتها من التلميحات والنظرات والسكتات، والتى سأترجمها لك إلى كلمات الآن".

تنحنحت السيدة "وينتر"، واستعدت لتبدأ.

"كانت (إيزابيل آنجلفيلد) غريبة".

بدا أن صوتها يهرب منها، وسكتت متفاجئة، وحين تكلمت مجددًا كانت نبرتها حذرة.

"وُلدت (إيزابيل آنجلفيلد) خلال عاصفة ممطرة".

ثم حدث ذلك الانقطاع المفاجئ للصوت مجددًا.

كانت معتادة جدًّا على إخفاء الحقيقة لدرجة أنها ضمرت بداخلها، فبدأت بداية غير موفقة، ثم حاولت مجددًا، لكن كحال موسيقى موهوب بعد سنوات من هجر الموسيقى، تناولت أداتها الموسيقية مجددًا، ووجدت طريقها.

حكت لى قصة "إيزابيل" و"تشارلى".

***

كانت "إيزابيل آنجلفيلد" غريبة.

وُلدت "إيزابيل آنجلفيلد" فى أثناء عاصفة ممطرة.

من المستحيل معرفة ما إذا كانت ثمة علاقة بين هاتين الحقيقتين أم لا، لكن حين تركت "إيزابيل" البيت للمرة الثانية، بعد عقدين ونصف، تذكر أهل القرية أبدية المطر فى يوم مولدها، تذكر البعض تأخر الطبيب بسبب الفيضانات التى سببها إغراق النهر لضفتيه كأنه حدث بالأمس، وتذكر آخرون بلا أدنى شك أن الحبل السُرى التف حول عنق الطفلة وكاد يميتها خنقًا قبل حتى أن تولد، حسنًا، لقد كانت ولادة صعبة بلا شك، فعندما دقت الساعة السادسة، ساعة

ولادة الطفلة ورن الطبيب للجرس، ألم تنتقل أمها من هذا العالم إلى الحياة التالية؟ تُرى ماذا لو كان الطقس معتدلاً، وحضر الطبيب مبكرًا، ولم يحرم الحبل السُرى الطفلة من الأكسجين، ولم تمت أمها...

وماذا لو، وماذا لو، مثل هذا التفكير عديم الجدوى، فـ"إيزابيل" كانت "إيزابيل"، وهذا كل ما يمكن أن يُقال بهذا الشأن.

كانت الرضيعة أشبه بقطعة صغيرة من الغضب، وبلا أم، وفى البداية، بدا أنها ستكون بلا أب أيضًا، لأن والدها، "جورج آنجلفيلد"، سقط فى بئر من الضعف، فحبس نفسه فى المكتبة، ورفض بكل بصراحة أن يخرج، قد يبدو هذا تصرفًا مبالغًا فيه، فعشر سنوات من الزواج عادة تكون كافية لتقليل المودة الزوجية، لكن "آنجلفيلد" كان رجلاً غريبًا، وهكذا كان حاله، لقد أحب زوجته، "ماتيلدا" الجميلة الكسولة سيئة المزاج، أحبها أكثر مما أحب أحصنته، بل وأكثر من كلبه، أما ابنهما "تشارلى"، وهو ابن التاسعة، فلم يخطر قط على بال "جورج" أن يتساءل إذا ما كان يحبه أكثر أم أقل من "ماتيلدا"، بسبب حقيقة أنه لم يفكر فى "تشارلى" قط من الأساس.

يقضى "جورج آنجلفيلد" يومه كله فى المكتبة، ثاكل ويدفعه الحزن نحو الجنون، لا يأكل شيئًا ولا يرى أحدًا، وبات لياليه هناك أيضًا، على الأريكة التى تُحال سريرًا، لا ينام بل يحملق بعينين حمراوين إلى القمر، استمر هذا لأشهر، وأصبح خداه الشاحبان أكثر شحوبًا، وفقد وزنه، وانقطع عن الكلام، استُدعى الأطباء من لندن لأجله، وجاء القس وراح، ووهن الكلب لغياب المحبة، وبالكاد لاحظ "جورج آنجلفيلد" موته.

وفى النهاية ضاقت سيدة خدم المنزل بكل هذا، فأخذت الرضيعة "إيزابيلا" من سريرها فى الحضانة ونزلت بها إلى الطابق السفلى، خطت خطوات واسعة وهى تمر بكبير الخدم متجاهلة اعتراضاته ودخلت

إلى المكتب دون طرق الباب، وتقدمت حتى المكتب وألقت الرضيعة بين يدى "جورج آنجلفيلد" من دون كلمة، ثم استدارت وغادرت، وأغلقت الباب بعنف وراءها.

همّ كبير الخدم بالدخول حتى يستعيد الرضيعة، لكن سيدة خدم المنزل رفعت إصبعها واستهجنته: "لن تجرؤ!" وقد صدمه ذلك لدرجة أنه أطاعها، تجمع خدم المنزل أمام باب المكتبة، يتبادلون النظرات دون دراية بما يجب فعله، لكن شدة إقناع سيدة خدم المنزل شلت حركتهم، ولم يفعلوا أى شيء.

كانت تلك فترة عصر طويلة، وفى نهايتها ركضت إحدى الخادمات المساعدات نحو الحضانة: "لقد خرج! لقد خرج السيد!"

هبطت السيدة بسرعتها وطريقتها العادية لترى ما حدث.

وقف الخدم متفرجين فى الممر لساعات، يسترقون السمع عبر الباب ويختلسون النظر عبر ثقب المفتاح، فى البداية جلس سيدهم هناك بلا حركة، فقط ينظر إلى الرضيعة وعلى وجهه نظرة فاترة ومتحيرة، تلوَّت الرضيعة وغرغرت، وحين سُمع "جورج آنجلفيلد" يداعبها ضاحكًا، تبادل الخدم نظرات ذهول، لكنهم ذُهلوا أكثر لاحقًا حين سمعوا تهويداته له، فنامت الرضيعة وساد الصمت، وذكر الخدم أن والدها لم يرفع عينيه عن وجه ابنته، ثم استيقظت جائعة وشرعت فى البكاء، أخذت صرخاتها تزداد قوة وحدة إلى أن انفتح الباب.

وقف جدى هناك برضيعته بين يديه.

رأى خدمه يقفون متفرجين، فحدق إليهم وانفجر صوته: "أيُترك الرضع ليجوعوا فى هذا المنزل؟"

ومنذ هذا اليوم، تولى "جورج آنجلفيلد" مسئولية ابنته بنفسه، فكان يطعمها ويحممها وما إلى ذلك، ونقل سريرها إلى غرفته فى حال

بكـت مـن الوحـدة ليـلاً، وصنـع حامـلاً لهـا لتتنقـل معـه، وكان يقـرأ لهـا (رسـائل العمـل، وصفحـات الرياضـة والروايـات الرومانسـية)، وشـارك معهـا كل أفـكاره وخططـه، باختصـار، تـصرف كأن "إيزابيـلا" رفيقتـه العاقلـة اللطيفـة، وليسـت طفلـة جاهلـة جامحـة.

ربمـا كان شـكلها مـا جعـل والدهـا يحبهـا، فـ"تشـارلى"، الطفـل الأكـبر المهمَـل الـذى يكـبر "إيزابيـل" بتسـعة أعـوام، كان ابـن أبيـه: ولـد أحمـر الشـعر، شـاحب الوجـه، أحمـق، بطـىء الحركـة والتعبـير، لكـن "إيزابيـل" ورثـت شـكلها مـن كلا والديهـا، فالشـعر البرتقـالى الـذى تتشـاركه ووالدهـا وشـقيقها كان لامعًـا لدرجـة كسـتنائية غنيـة، وفيهـا امتـدت بـشرة "آنجلفيلـد" الشـاحبة عـلى وجـه فرنـسى الملامـح، وحصلـت عـلى ذقـن أفضـل مـن ذقـن والدهـا، وفـم أفضـل مـن فـم والدتهـا، ونالـت عينـى "ماتيلـدا" الضيقتـين ورموشـها الطويلـة، لكـن حـين تفتحهـما كانـا يكشـفان عـن حدقتـين زمرديتـين مذهلتـين، والتـى كانـت مـن سـمات آل "آنجلفيلـد"، كانـت "إيزابيـل" تجسـيدًا للكـمال، عـلى الأقـل جسـديًا.

تأقلـم المنـزل مـع الحالـة غـير التقليديـة للأمـور، وعـاش سـكانه باتفـاق ضمنـى أن يتصرفـوا كأن الأمـر طبيعـى جـدًا لأب أن يولـع بطفلتـه الرضيعـة، فلـم يُعتـبر مـن غـير الرجـولى، أو غـير اللائـق أو السـخيف أن يبقيهـا بجانبـه دائمًـا.

لكـن مـاذا عـن "تشـارلى" شـقيق الرضيعـة؟ كان طفـلاً غبيًـا يـدور عقله فى دوائـر حـول مكامـن هوسـه واهتماماتـه القليلـة، والـذى لم ينجـح أحـد فى إقناعـه بتعلـم أفـكار جديـدة أو التفكـير بمنطقيـة، تجاهـل "تشـارلى" الرضيعـة، ورحـب بالتغـيرات التـى جلبتهـا إلى المنـزل، فقبـل "إيزابيـل" كان يوجـد والـدان يمكـن لسـيدة الخـدم أن تبلغهـما بمـا يقـدم عليـه "تشـارلى" مـن سـلوك سـيئ، والدان مـن المسـتحيل توقـع ردود فعلهما، كانـت والدته غـير متسـقة فى ردود فعلهـا التأديبيـة، فأحيانًـا تأمـر بـضرب مؤخرتـه لسـوء

سلوكه، وأحيانًا أخرى كانت تكتفى بالضحك، أما والده فمع أنه كان صارم، كان كذلك مشتتًا، والعقوبات التى كان يأمر به عادة ما كانت تُنسى، لكن رؤيته للولد كانت تسبب لديه شعورًا غامضًا بأنه ارتكب مخالفة ما ويجب تصحيحها، فيضرب مؤخرة الولد ظانًا أنه حتى لو لم يرتكب خطأ فإن العقوبة مقدمة من أجل المرة التالية، أدرك الولد درسًا هامًا: من الأفضل ألا يوجد فى مجال رؤية والده.

تغير كل هذا بمجىء الرضيعة "إيزابيل". فقد رحلت الأم، ولم يضف وجود الأب الكثير، الذى انشغل بصغيرته "إيزابيل" أكثر من الشكاوى الهستيرية للخادمات بشأن شواء الفئران مع غداء يوم الأحد، أو دق يدين خبيثتين للمسامير فى قطع الصابون، تصرف "تشارلى" مثلما يحلو له، وما يحلو له هو أن يزيل ألواح الأرضية فى قمة سلم العليا ويشاهد الخادمات وهن يتعثرن وتلوى كواحلهن.

كان بإمكان سيدة الخدم أن توبخه، لكنها ليست إلا سيدة الخدم، وفى هذه الحياة الجديدة الحرة، يستطيع "تشارلى" أن يُقعد الخادمات ويصيبهن ملء سعادته مع علمه بأن ليست لأفعاله عواقب، يُقال إن سلوك البالغين المتسق يفيد الأطفال، وذلك التجاهل المستمر بالتأكيد ناسب هذا الطفل، لأن فى السنوات المبكرة من شبه اليتم الذى عاشه "تشارلى آنجلفيلد"، كان سعيدًا بطول يومه.

استمر شغف "جورج آنجلفيلد" بابنته رغم كل التجارب التى قد تفرضها طفلة على والدها، وحين بدأت الكلام، اكتشف أنها خارقة الموهبة، ومصدر حقيقى للإلهام، وبدأ فى استشارتها فى كل شىء، حتى أصبح المنزل يدار وفق أهواء ابنة الثلاثة أعوام.

نادرًا ما رأى البيت زوارًا، وعندما انزلق المنزل من الغرابة إلى الفوضى، أصبح الزوار أكثر ندرة، ثم بدأ الخدم فى التذمر فيما بينهم، وترك كبيرهم المنزل قبل أن تتم الطفلة عامين، صمدت الطاهية لعام

إضافى فى مواجهة المواعيد غير المنتظمة للوجبات حسب طلب الطفلة، حتى جاء اليوم الذى أعلنت فيه نيتها الرحيل، وحين رحلت، أخذت معها مساعدة المطبخ، وفى النهاية تُرك الأمر لسيدة الخدم أن توفر الكعك وحلوى الهلام فى ساعات غريبة من اليوم، لم تشعر الخادمات بأى التزام تجاه الأعمال المنزلية، فقد اعتقدن أن رواتبهن الضئيلة بالكاد تعوض الجروح والكدمات والكواحل الملوية وآلام المعدة التى جلبتها عليهن تجارب "تشارلى" السادية، وهذا منطقى إلى حد كبير، فرحلن، وحل محلهن سلسلة من المساعدين المؤقتين الذين لم يستمر أى منهم طويلاً، وفى النهاية، حتى المساعدين المؤقتين جرى الاستغناء عنهم.

بإتمام "إيزابيل" لعامها الخامس، كان المنزل قد ضاق إلا بـ"جورج آنجلفيلد"، والطفلين، وسيدة الخدم، والبستانى، وحارس الصيد، ومات الكلب، وخوفًا على القطط من "تشارلى"، أُبقيت خارج المنزل حيث تلجأ إلى كوخ الحديقة حين يصبح الجو باردًا.

لو لاحظ "جورج آنجلفيلد" عزلة القطط وبؤسها، لما كان أسِف عليها، فما دامت لديه "إيزابيل" فهو سعيد.

أكثر من افتقد الخدم هو "تشارلى"، فمن دونهم لا يجد ما يُجرى عليه تجاربه، وهو يتجول باحثًا عن أحد ليؤذيه، وقعت عيناه على أخته، وهو ما كان حتميًا عاجلاً أم آجلاً.

لم يكن "تشارلى" ليتحمل عواقب أن يجعلها تبكى أمام والده، وبما أنها نادرًا ما تبرح جانب والدها، لم يكن الأمر يسيرًا عليه، كيف يُبعدها عنه؟

عبر الإغواء، بالهمس بوعود بالسحر والمفاجآت، قاد "إيزابيل" إلى خارج الباب الجانبى، بطول أحد جوانب الحديقة معقدة التصميم،

بـين حدودهـا الطويلـة، ثـم عـبر الحديقـة التوبياريـة[1] وبطـول طريـق أشـجار الـزان نحـو الغابـة، ثمـة مـكان يعرفـه "تشـارلى"، كـوخ قديـم بـارد وبـلا نوافـذ، مـكان مناسـب لـلأسرار.

كان "تشـارلى" يبحـث عـن ضحيـة، وبالطبـع بـدت أختـه السـائرة وراءه، الأصغـر سـنًا وحجـمًا والأضعـف منـه، ضحيـة مثاليـة، لكنهـا كانـت غريبـة وذكيـة، ولم تـسر التجربـة مثلـما توقـع تمامًـا.

رفـع "تشـارلى" كـم أختـه وجرطـرف قطعـة سـلكيغطيها الصـدأ البرتقـالى بطـول الجـزء الداخـلى الأبيـض مـن سـاعدها، حدقـت "إيزابيـل" إلى كريـات الـدم الحمـراء التـى انبثقـت مـن الخـط المـزرق، ثـم حولـت تحديقهـا إليـه، اتسـعت عيناهـا الخـضراوان مـن المفاجـأة، وشىء مـن اللـذة، وحـين مـدت يدهـا لتحصـل عـلى السـلك، أعطاهـا إيـاه بـلا تفكـير، فرفعـت كمهـا الآخـر، وثقبـت جلدهـا وجـرت السـلك حتـى معصمهـا تقريبًـا، كان الجـرح الـذى أحدثتـه أعمـق مـن ذلـك الـذى أحدثـه أخوهـا بهـا، وسـال منـه الـدم فى الحـال، أخرجـت زفـرة رضـا وهـى تنظـر إلى الجـرح، ثـم لعقـت الدمـاء، وقدمـت لـه السـلك وطلبـت منـه أن يرفـع كمـه.

كان "تشـارلى" متحـيرًا، لكنـه حفـر ذراعـه بالسـلك لأنهـا أرادت ذلـك، وضحـك ليتجـاوز الألم.

بـدلاً مـن أن يجـد لنفسـه ضحيـة، شـعر "تشـارلى" أنـه أغـرب مـن خطـط لـلأذى.

هكـذا اسـتمرت حيـاة آل "آنجلفيلـد"، بـلا حفـلات، بـلا رحـلات صيـد، بـلا خادمـات، وبـلا معظـم مـا يعتـبره معظـم أبنـاء طبقتهـم مـن مسـلمات الحيـاة فى تلـك الأيـام، فولـوا ظهورهـم إلى جيرانهـم، وتركـوا

(1) نـوع مـن الحدائـق تنتـشر بـه الأشـجار المعمـرة وتُقـص وتُهـذب لتكـون أشـكالاً هندسـية أو خياليـة.

إدارة ممتلكاتهـم إلى نزلائهـا، واعتمـدوا عـلى حسـن نيـة سـيدة الخـدم والبسـتانى وأمانتهـما فى إجـراء المعامـلات اليوميـة مـع العـالم، التـى كانـت ضروريـة لاسـتمرار الحيـاة فى المنـزل.

نـسى "جـورج آنجلفيلـد" أمـر العـالم، ولفـترة، نـسى العـالم أمـره، ثـم تذكـره، بسـبب الأمـوال.

ضـم الجـوار منـازل أخـرى كبـيرة، تسـكنها عائـلات أخـرى أرسـتقراطية بدرجـة مـا، وبينهـم كان رجـل يـولى أموالـه رعايـة خاصـة، كان يبحـث عـن أفضـل نصيحـة لزيـادة مالـه، فاسـتثمر مبالـغ كبـيرة حيـث تُمـلى الحكمـة، وضـارب بمبالـغ صغـيرة حيـث المخاطـرة أكـبر والأربـاح فى حـال إثمارهـا أكـبر، فخسر المبالـغ الكبـيرة كلهـا، وأثمـرت المبالـغ الصغـيرة، ولـو بدرجـة معتدلـة، فوجـد الرجـل نفسـه فى مـأزق، كـذا كان لديـه ابـن كسـول مبـذر، وابنـة جاحظـة العينـين سـميكة الكاحلـين، لـذا كان مضطـرًا إلى فعـل شىء مـا.

لم يـر "جـورج آنجلفيلـد" أحـدًا قـط، وبالتـالى لم تُقـدم لـه أيَّـة نصائـح ماليـة، حـين أرسـل إليـه محاميـه توصياتـه تجاهلهـا، وحـين أرسـل إليـه مصرفـه رسـائل لم يردهـا، نتيجـة لذلـك، بـدلاً مـن أن تضاعـف أموالهـا نفسـها وأن تطـارد الصفقـات المتتاليـة بعضهـا البعـض، استرخت أموالـه فى خزانـة البنـك وثقلـت حركتهـا.

الأموال لها حسيس، وهو مسموع.

سـألت زوجـة الجـار الـذى يوشـك عـلى إعـلان الإفـلاس: "أليـس لـ(جـورج آنجلفيلـد) ابـن؟ كـم سـتكون سـنه الآن؟ سـتة وعشريـن؟"

إذا لم يزوجـا الابـن لابنتهـما "سـيبيلا"، فلـم لا يزوجـا الابنـة لابنهـما "رولانـد"؟ أو هكـذا فكـرت الزوجـة، فـلا بـد أن الابنـة قـد بلغـت سـن الـزواج الآن، ومعـروف أن والدهـا يحبهـا حـب الجنـون، أى أنهـا لـن تـأتى خاليـة اليديـن.

قالت: "الجو مناسب لنزهة"، وعلى طريقة الأزواج، لم يبد زوجها مهتمًا.

جثمت الدعوة لأسبوعين على حافة نافذة الصالون، وربما كانت لتظل هناك حتى تبيّض الشمس الحبر عليها، لولا "إيزابيل"، ففى عصر أحد الأيام، وبعدما لم تجد ما تفعله، هبطت السُلم، ونفخت خديها ملأً، وأخذت الرسالة وفتحتها.

علق تشارلى: "ما هذا؟"

"إنها دعوة، إلى نزهة".

نزهة؟ تفكر "تشارلى" فى الأمر، بدا الأمر غريبًا، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة ونسى الأمر.

لكن "إيزابيل" وقفت واتجهت إلى الباب.

"إلى أين تذهبين؟"

"إلى غرفتى".

عمد "تشارلى" إلى تتبعها، لكنها أوقفته، "دعنى وشأنى، لست فى مزاج مناسب".

تذمر، وأمسك ملء قبضته من شعرها ومرر أصابعه على مؤخر عنقها، حيث وجد كدمات أحدثها بها فى المرة الأخيرة، لكنها تلوّت حتى انفكت من بين يديه وصعدت السلم مسرعة وأغلقت الباب.

بعد ساعة، وإثر سماعه صوت هبوطها السلم، ذهب إلى المدخل، "تعالى معى إلى المكتبة".

"لا".

"إذًا تعالى إلى حديقة الغزلان".

"لا".

لاحظ أنها قد غيرت ملابسها، "لِمَ تبدين هكذا؟ تبدين غبية".

كانت ترتدى فستانًا صيفيًا خص والدتها فى الماضى، مصنوع من مادة بيضاء رقيقة ويزينه اللون الأخضر، وبدلاً من حذاء التنس المعتاد برباطيه الباليين، انتعلت صندلاً أخضر أكبر من قدميها بدرجة -يخص والدتها أيضًا- وعلقت وردة فى شعرها بعدما مشطته، ووضعت أحمر شفاه.

أظلم قلبه وسألها: "إلى أين تذهبين؟"

"إلى النزهة".

أمسك بها من ذراعها، وشبث أصابعه بها وجذبها نحو المكتبة.

"لا!"

جذبها بقوة أكبر.

استهجنت: "(تشارلى)، قلت لا!"

حينها أطلق سراحها، فقد عرف أنها حين تقول لا بهذه الطريقة فإنها تعنيها، وهو ما اكتشفه فى الماضى، أنها يمكن أن يسيطر عليها مزاج سيئ لأيام.

أولته ظهرها وفتحت الباب الأمامى.

تطلع "تشارلى" المستشيط غضبًا بحثًا عن شىء يضربه، لكنه كسر سابقًا كل ما يمكن كسره، وكل الأشياء المتبقية كانت لتؤذى قبضته أكثر مما قد يؤذيها هو، فتراخت قبضتيه، وتبع "إيزابيل" عبر الباب إلى النزهة.

جسَّد الشباب عند ضفاف البحيرة صورة جميلة من بعيد بقمصانهم وبفساتينهن البيضاء، وامتلأت الكئوس التى حملوها بسائل تلألأ تحت ضوء الشمس، وبدا العشب تحت أرجلهم ناعمًا كفاية

ليمشوا عليه حفاة الأقدام، ولكن في الواقع، كان المتنزهون يتعرقون بشدة تحت ملابسهم، وكانت الشامبانيا دافئة، ولو فكر أحدهم في خلع حذائه لاضطر إلى أن يتحسس طريقه بين فضلات الإوز، ومع ذلك، كانوا مستعدين للتظاهر بالبهجة، أملاً في أن تستثير ادعاءاتهم بهجة حقيقية.

أحد هؤلاء الشباب يقف عند طرف اجتماعهم، والذي رأى بنظرة خاطفة حركة قرب المنزل، فتاة ترتدي ملابس غريبة ومعها ما يبدو أنه رجل، بدا أن بها خطب ما.

لم يستجب إلى مزحة رفيقه، فتطلع رفيقه ليرى ما جذب انتباهه، وباء بدوره بالصمت، ومجموعة الشابات المنتبهات بلا كلل إلى أفعال الشباب، حتى ولو كانت وراء ظهورهن، التفتن ليتبيَّنَّ سبب هذا الصمت المفاجئ، تلا ذلك نوع من الأثر المتموج، حيث التفتت الوجوه كلها نحو القادمين، وحالما ترى القادمين كانت المفاجأة تسكتها.

على العشب الفسيح كانت "إيزابيل" تخطو.

اقتربت من الجمع، فانفلق الجمع مثلما انفلق البحر لموسى، وتقدمت عبره إلى حافة البحيرة، وقفت على حجر مستوٍ بارز فوق المياه، ولوَّحت بأنها لا تريد حينما اقترب منها أحدهم ومعه كأس وزجاجة، كانت الشمس ساطعة، والتمشية طويلة وتستلزم أكثر من الشامبانيا لتنتعش.

خلعت حذاءيها وعلقتهما على شجرة ومدت ذراعيها وتركت نفسها لتسقط في المياه.

شهق الجمع، وعندنا صعدت إلى السطح تشكلت المياه المتدفقة من "إيزابيل" بطرق تُذكِّر بمولد الإلهة "أفروديت"، فشهقوا مجددًا.

تلك القفزة فى المياه كانت شيئًا آخر تذكره الناس لسنوات لاحقة، بعد أن تركت المنزل للمرة الثانية، لقد تذكروا، وهزوا رءوسهم بمزيج من الشفقة والاستنكار، فما حل بها تبين أنه كان بها طوال الوقت، لكن فى ذلك اليوم تعلق الأمر بالروح المعنوية تمامًا، وكان الناس ممتنون لها، فقد بثت "إيزابيل" بمفردها الحياة فى الحفلة بالكامل.

أحد الشبان أو أجرؤهم، له شعر أشقر وضحكة عالية، خلع حذائيه مسرعًا وربطة عنقه، وقفز إلى البحيرة معها، تبعه ثلاثة من أصدقائه، لم يستغرق الأمر وهلة حتى كان كل الشبان فى المياه، يغوصون ويتصايحون ويتبارون فى الألعاب الرياضية والقفز فى المياه.

بالتفكير سريعًا، لم ترَ الفتيات أمامهن إلا طريقًا واحدًا، فعلقن صنادلهن فى أفرع الأشجار، وأظهرن أقصى درجات الحماس على وجوههن، وقفزن فى المياه، مطلقات صيحات أملن أن تبدو متدللة، ويفعلن ما بوسعهن لتجنب الترطيب المفرط لشعرهن.

لكن جهودهن ذهبت سدى، فقد كان كل أعين الرجال على "إيزابيل".

لم يلحق "تشارلى" بأخته إلى المياه، بل وقف بعيدًا قليلاً يتفرج، بشعره الأحمر ووجهه الشاحب، كان مخلوقًا من أجل المطر والمطاردات داخل المنزل، فقد تحول وجهه إلى اللون الوردى تحت الشمس، واحمرت عيناه إثر هبوط العرق من جبينه إليهما، لكنه كان بالكاد يرمش، إذ لم يتحمل أن يرفع عينيه عن "إيزابيل".

كم ساعة مرت حتى وجد نفسه معها مجددًا؟ بدا كأن دهرًا قد مر، استمرت النزهة لوقت أطول كثيرًا مما توقع الجميع بعدما بثت "إيزابيل" بها الحياة، ومع ذلك فقد شعر الضيوف الآخرون أن الوقت مر بلمح البصر، وكانوا ليظلوا لوقت أطول لو استطاعوا، تفرق الجمع

وببالهـم أفـكار مواسـية عـن النزهـات التاليـة، وبجولـة مـن الدعـوات الموعـودة والقُبـل الرطبـة.

حـين اقـترب منهـا "تشـارلى"، كانـت "إيزابيـل" تغطـى كتفيهـا بسـترة أحـد الشـبان، والشـاب نفسـه فى راحـة يدهـا، وعـلى مسـافة غـير بعيـدة، كانـت فتـاة تتسـكع، غـير واثقـة مـا إذا كان وجودهـا مرغـوب فيـه أم لا، كانـت أنثـى بدينـة عاديـة الجـمال، ومـع ذلـك فـإن الشـبه الـذى تشـاركته والشـاب أوضـح أنهـا أختـه.

"هيا"، قالها "تشارلى" بخشونة لأخته.

"سريعًا هكذا؟ ظننت أننا سنتمشى، مع (رولاند) و(سيبيلا)".

ابتسـمت بلطافـة لأخـت "رولانـد"، وردَّت "سـيبيلا" الابتسـامة متفاجئة باللطـف غـير المتوقع.

يبلـغ "تشـارلى" مـراده مـن "إيزابيـل" فى البيـت -أحيانًـا- عـبر إيذائهـا، لكنـه لا يجـرؤ عـلى ذلـك فى العلـن، لـذا استسـلم.

مـاذا حـدث خـلال تلـك التمشـية؟ لم يكـن هنـاك شـهود عـلى الأحداث التـى وقعـت فى الغابـة، وبسـبب غيـاب الشـهود لم يُـثر القيـل والقـال، أو عـلى الأقـل ليـس فى البدايـة، لكـن الأمـر لا يتطلـب عبقريًـا ليسـتنتج مـن الأحـداث التاليـة مـا حـدث تحـت أوراق الأشـجار الصيفيـة فى ذلك المسـاء.

يمكن تخيل الأمر كالتالى:

ستجد "إيزابيل" ذريعة لتُبعد الرجال.

"حـذائى! لقـد تركتـه عـلى الشـجرة!" وسترسـل "رولانـد" ليبحـث عنـه، و"تشـارلى" أيضًـا، بحثًـا عـن شـال "سـيبيلا" أو أى غـرض آخـر.

اسـتقرت الفتاتـان عـلى بقعـة مـن الأرض اللينـة، وانتظرتـا عـودة الرجلـين فى الظلمـة المتزايـدة، ناعسـتين بتأثـير الشـامبانيا، وتتنفسـان مـا تبقـى مـن حـرارة الشـمس ومـع أنفاسـهما يـزداد الظـلام، ظـلام الليـل

وظـلام الغابـة، بـدأ دفء جسـديهما فى امتصـاص رطوبـة فسـتانيهما، وفى حـين جفـت ثنايـا النسـيج، انفصلـت عـن الجلـد تحتهـا وبثـت شـعورًا مدغدغًـا.

عرفـت "إيزابيـل" مـا تريـده: أن تقـضى وقتًـا مـع "رولانـد" وحديهـما، لكـن لتحصـل عـلى ذلـك، عليهـا التخلـص مـن أخيهـا.

بـدأت بالحديـث، فى حـين اسـترختا مسـتندتين إلى شـجرة: "إذًا فمـن منهـم حبيبـك؟"

أكدت "سيبيلا": "ليس لى حبيب حقًّا".

"لكـن يجـب أن يكـون لـك حبيـب"، تقلبـت "إيزابيـل" إلى جانبهـا، وأخـذت ورقـة شـجر السرخـس الريشـية الشـكل ومررتهـا عـلى شـفتيها، ثـم مررتهـا عـلى شـفتى رفيقتهـا.

تمتمت "سيبيلا": "هذا يدغدغنى".

فعلتهـا "إيزابيـل" مجـددًا، وابتسـمت "سـيبيلا" بعينـين نصـف مغلقتين، ولم توقفهـا حـين مـررت "إيزابيـل" ورقـة الشـجر الناعمـة عـلى رقبتهـا وحـول رقبـة فسـتانها، موليـة اهتمامًـا دقيقًـا لـبروز صدرهـا، أطلقـت "سـيبيلا" ضحكـة شـبه أنفيـة.

حين بلغت الورقة خصرها وما تحته، فتحت "سيبيلا" عينيها.

وتذمرت: "لقد توقفت".

ردت "إيزابيـل": "لم أتوقـف، لكنـك لا تشـعرين بمـا أفعله عبر فسـتانك"، فرفعـت حاشـية فسـتان "سـيبيلا" وتلاعبـت بالورقـة بطـول كاحليهـا، "هـذا أفضل؟"

أغلقت "سيبيلا" عينيها مجددًا.

وجـدت الورقـة الخـضراء طريقـة مـن الكاحـل السـميك بدرجـة مـا إلى الركبـة المكتنـزة المميـزة، هربـت همهمـة خفيفـة مـن بـين شـفتي "إيزابيـل"، مـع أنهـا لم تتحـرك حتـى بلغـت الورقـة قمـة رجليهـا، ولم تزفـر حتـى اسـتعانت "إيزابيـل" بأصابعهـا الرقيقـة بـدلاً مـن النبتـة.

لم تفـارق عينـا "إيزابيـل" الحادتـينِ وجـه الفتـاة الأكـبر منهـا سـنًا، ولحظـة أن أظهـر جفنـا الفتـاة أول دليـل عـلى الحركـة، جذبـت يدهـا بعيـدًا.

أكدت: "بالفعل، الحبيب هو ما تحتاجين إليه".

اسـتيقظت "سـيبيلا" مرغمـة مـن نشـوتها غـير المكتملـة وفهمـت ببـطء، اضطـرت "إيزابيـل" للتوضيـح: "مـن أجـل الدغدغـة، الأمـر أفضـل كثـيراً مـع الحبيـب".

وحـين سـألت "سـيبيلا" صديقتهـا الجديـدة: "كيـف تعرفـين ذلـك؟" كانـت إجابتهـا جاهـزة: "بسـبب (تشـارلى)".

وبعـودة الفتيـان وبأيديهـما الحـذاء والشـال، كانـت "إيزابيـل" قـد حققـت غرضهـا، تأملـت "سـيبيلا" فى "تشـارلى"، بمظهـر غـير مرتـب واضـح عـلى تنـورة فسـتانها وحشـوته، وبنظـرة تـشى بالاهتـمام الدافـئ.

أما "تشارلى" غير المبالى بنظراتها، فكان يتطلع إلى "إيزابيل".

سـألت "إيزابيـل" بـلا مبـالاة: "هـل لاحظـت مـدى الشـبه بـين اسـمى (إيزبيـل) و(سـيبيلا)؟" حـدق إليهـا "تشـارلى" بغضـب، "أقصـد وقـع الاسـمين، إنهـما قابلـين للتبـادل تقريبًـا، ألا تـرى ذلـك؟" أرسـلت نظـرة حـادة إلى أخيهـا، مرغمـة إيـاه عـلى فهـم نواياهـا، "سـأذهب و(رولانـد) لنتمـشى قليـلاً، لكـن (سـيبيلا) متعبـة، ابـق معهـا"، وجذبـت "إيزابيـل" ذراع "رولانــد".

نظـر "تشـارلى" بـبرود إلى "سـيبيلا"، وانتبـه إلى بعـثرة فسـتانها، حدقـت هـى إليـه بعينـين متسـعتين، وبفـم مفتـوح مشـدوه قليـلاً.

وحـين أعـاد النظـر إلى حيـث ذهبـت "إيزابيـل"، كانـت قـد اختفـت بالفعـل، لم يسـمع إلا ضحكتهـا قادمـة مـن الظـلام، ضحكتهـا وهمهمـة منخفضـة بصـوت "رولانـد"، لكنـه سـيحصل عـلى مـا يريـده لاحقًا، سـتدفع "إيزابيـل" ثمـن هـذا مـرارًا وتكـرارًا.

وإلى أن يحدث ذلك، اضطر إلى التنفيس عن مشاعره على نحو ما.

التفت إلى "سيبيلا".

كان الصيـف مليئًـا بالنزهـات، ومـن جهـة "تشـارلى"، كان مليئًـا بالـ"سـيبيلات"، لكـن مـن جهـة "إيزابيـل"، لم يكـن لديهـا إلا "رولانـد" وحيـد، فكانـت تتسـلل يوميًـا بعيـدًا عـن أنظـار "تشـارلى"، وتهـرب مـن قبضتـه وتختفـى عـلى دراجتهـا، لم يسـتطع "تشـارلى" أبـدًا معرفـة مـكان التقائهـما، وكان أبطـأ مـن أن يلحـق بهـا حـين تـدور عجلتـى دراجتهـا تحتهـا ويحلـق شـعرها وراءهـا، فى بعـض الأحيـان كانـت لا تعـود إلا بحلـول الظـلام، وأحيانًـا تتأخـر عـن ذلـك، وحـين وبخهـا، ضحكـت بوجهـه وأولتـه ظهرهـا كأنـه ببسـاطة غـير موجـود، حـاول إيذاءهـا، وتشـويهها، لكنهـا أفلتـت منـه مـرة تلـو الأخـرى، وتسربـت مـن بـين أصابعـه مثـل الميـاه، فـأدرك إلى أى مـدى اعتمـدت لعبتهـما عـلى موافقتهـا، فبـصرف النظـر عـن مـدى قوتـه، كانـت سرعتهـا وذكاؤهـا يعنيـان أنهـا سـتنجح فى الفـرار منـه فى كل مـرة، وكخنزيـر بـرى سـاخط بسـبب نحلـة، كان عاجـزاً.

فى مـرة بـين الحـين والآخـر، وفى محاولـة للتهدئـة، كانـت تستسـلم لتوسـلاته، لمـدة سـاعة أو سـاعتين، كانـت تطـوع نفسـها لرغبتـه، سـامحة لـه بالاسـتمتاع بوهـم أنهـا عـادت لـه للأبـد وأن كل شىء بينهـما عـاد مثلـما كان دائمًـا، لكنـه كان وهـمًا، مثلـما عـرف "تشـارلى" سريعًـا، بـل وكان غيابهـا المتجـدد بعـد تلـك الاسـتراحات أكـثر إيلامًـا.

ينسى "تشارلى" ألمه لحظيًّا فقط مع الـ"سيبيلات"، ظلت أخته تمهد الطريق له معهن لفترة، لكن فى حين تصبح هى أكثر سعادة باطراد مع "رولاند"، تركت "تشارلى" ليتولى أمر نفسه، لكنه افتقد أسلوب أخته الرقيق: وفى مرة كادت طريقته تؤدى إلى فضيحة، فأخبرته "إيزابيل" المغتاظة أنه إن كانت نيته هكذا فى تصريف أموره، فإنه سيضطر إلى اختيار نوع آخر من النساء، فتحول من فتيات الأرستقراطيين الصغار إلى فتيات البيطاريين والمزارعين والحراجيين، هو شخصيًّا لم يشعر بفرق، ويبدو أن أحدًا لم يمانع ذلك التحول.

لكن الفتيات مانعن، والنسيان لم يدم طويلاً، تلك العيون المصدومة، والأذرع المكدومة، والأفخاذ الدامية، كانت تُمسح من ذاكرته فى اللحظة التى يبعد نظره عنها، فلا شىء يمكنه أن يمس الوله الأعظم فى حياته: مشاعره تجاه "إيزابيل".

فى أحد الصباحات قرب نهاية الصيف، طوت "إيزابيل" الصفحات الخاوية فى دفتر يومياتها وعدت الأيام، ثم أغلقت الدفتر وأعادته إلى الدرج وبالها منشغل، وحين حسمت قرارها، هبطت السلم إلى مكتب والدها.

تطلع والدها: "(إيزابيل)!" كان مسرورًا لرؤيتها، فمنذ اعتادت الخروج من المنزل أكثر، كان ممتنًا على نحو خاص لمجيئها إليه هكذا.

ابتسمت له: "عزيزى بابا!" لمح فى عينيها بريقًا ما.

"أثمة خطب ما؟"

سافرت عيناها إلى زاوية السقف وابتسمت، ودون أن تحول عينيها عن الزاوية المظلمة، أخبرته أنها سترحل عن المنزل.

فى البداية وجد صعوبة فى فهم ما قالته، وشعر بنبضه فى أذنيه، وغُشِّى بصره، أغلق عينيه، لكن داخل عقله كانت هناك براكين

ونيـازك هابطـة وانفجـارات، وحـين خمـدت ألسـنة اللهـب، لم يتبـق شيء بداخلـه سـوى مشـهد مدمـر وصامـت، ففتـح عينيـه.

ماذا فعل؟

وجـد في يـده خصلـة شـعر وفي طرفهـا قطعـة جلـد داميـة، "إيزابيـل" هنـاك وظهرهـا إلى البـاب ويداهـا وراءهـا، إحـدى عينيهـا الخضراويـن محتقنـة بالدمـاء، وبـدا أحـد خديهـا أحمـر ومتورمًـا قليـلاً، تسـيل بعـض الدمـاء مـن جمجمتهـا، ووصلـت إلى حاجبهـا وانحرفـت بعيـدًا عـن عينهـا.

كان مذعـورًا مـن نفسـه ومنهـا، وأعـرض عنهـا صامتًـا وغـادرت هـي الغرفـة.

جلـس بعـد ذلـك لسـاعات، يـبرم الشـعر الكسـتنائي الـذى وجـده في يـده، ويبرمـه أكـثر ويضيقـه عـلى إصبعـه، حتـى حفـر بعمـق في جلـده، وحتـى تعقـد لدرجـة اسـتحالة فكـه، وأخـيراً، حـين أكمـل الشـعور بـالألم رحلتـه البطيئـة مـن إصبعـه إلى وعيـه، بـكى.

غـاب "تشـارلى" عـن المنـزل في ذلـك اليـوم، ولم يعـد حتـى منتصـف الليـل، وبعدمـا وجـد غرفـة "إيزابيـل" خاويـة، تجـول في المنـزل، وهـو يدرك بحاسـة سادسـة مـا أن كارثـة قـد وقعـت، ولمـا لم يجـد أختـه بـأى مـكان، ذهـب إلى مكتـب والـده، ونظـرة واحـدة إلى وجـه الرجـل المذعـور أخبرتـه بـكل شيء، تأمـل الأب والابـن بعضيهـما للحظـة، لكـن حقيقـة أنهـما يتشـاركان الخسـارة لم توحدهـما، فـلا شيء يمكـن لأحدهـما أن يفعلـه للآخـر.

جلـس "تشـارلى" في غرفتـه عـلى الكـرسى المقابـل للنافـذة، جلـس هنـاك لسـاعات، بـدا كشـبح أمـام مسـتطيل مـن ضـوء القمـر، وفي لحظـة مـا، فتح الـدرج وأخـرج المسـدس الـذى حصـل عليـه عـبر ابتـزاز شـخص يصطـاد دونَ إذن في الأنحـاء، ورفعـه إلى صدغـه مـرة أو اثنتـين، وفي كل مـرة، كانـت قـوى الجاذبيـة تعيـده إلى حجـره.

فى الرابعة صباحًا أبعد المسدس، وأخرج بدلاً منه الإبرة الطويلة التى اختلسها من صندوق الحياكة الخاص بسيدة الخدم قبل عقد، والتى استُخدمت كثيرًا منذ حينها، رفع ساق بنطاله، وأنزل جوربه، وأحدث ثقبًا فى جلده، اهتزت كتفاه، لكن يده كانت ثابتة وهو ينقش على ساقه كلمة واحدة: "إيزابيل".

فى ذلك الوقت كانت "إيزابيل" قد رحلت منذ وقت طويل، إذ عادت إلى غرفتها لدقائق معدودة وغادرتها، وهبطت عبر السلم الخلفىّ إلى المطبخ، حيث عانقت سيدة الخدم عناقًا قويًا وغريبًا، وهو ما لم يتسق مع شخصيتها مطلقًا، ثم تسللت عبر الباب الجانبى واندفعت عبر حديقة المطبخ نحو باب الحديقة الذى هو جزء من جدار حجرى، كان نظر سيدة الخدم يخفت منذ فترة طويلة، لكنها طورت قدرة على إدراك حركات الأشخاص عبر استشعار اهتزازات الهواء، وكان لديها انطباع بأن "إيزابيل" ترددت لأقصر وهلة ممكنة قبل أن تغلق باب الحديقة خلفها.

حين أصبح واضحًا لـ"جورج آنجلفيلد" أن "إيزابيل" قد رحلت، ذهب إلى مكتبته وأقفل الباب، رفض الطعام والزائرين، لم يتبق سوى القس والطبيب، ولقى كلاهما منه معاملة سيئة، فكانت جملتا "قل لإلهك أن يذهب إلى الجحيم" و"هلا تركت حيوانًا مصابًا يموت فى سلام!" أقصى ترحاب حصلا عليه.

بعد أيام قليلة عادا ودعيا البستانى لكسر باب المكتبة، حيث وجدا "جورج آنجلفيلد" ميتًا، وكان الفحص السريع كافيًا للتأكد من أن الرجل مات بالتسمم الدموى الناتج عن لفافات الشعر البشرى التى كانت منغرسة بعمق فى لحم خنصره.

لم يمت "تشارلى"، مع أنه لم يفهم لماذا لم يمت، هام على وجهه فى المنزل، وأحدث سلسلة من آثار الأقدام على الغبار، وتتبعها كل

يـوم، بداية مـن قمـة المنـزل ونـزولاً، وغـرف نـوم العليـا غـير المسـتخدمة لأعـوام، وغـرف الخـدم، وغـرف العائلـة، والمكتـب، والمكتبـة، وغرفـة الموسـيقى، والمرسـم، والمطابـخ، كان بحثًـا يائسًـا بـلا كلـل ولا نهايـة، وفى الليـل كان يخـرج ليطـوف بأملاكـه، تدفعـه قدمـاه بـلا تعـب، وفى أثنـاء ذلـك، ضرب إبـرة سـيدة الخـدم التـى فى جيبـه بإصبعـه، مـا أغـرق أطـراف أصابعـه فى فـوضى داميـة مقرفـة، لقـد اشـتاق إلى "إيزابيـل".

عـاش "تشـارلى" عـلى هـذه الحـال خـلال سـبتمبر، وأكتوبـر، ونوفمـبر، وديسـمبر، وينايـر، وفبرايـر، وفى مطلـع مـارس عـادت "إيزابيـل".

كان "تشـارلى" فى المطبـخ يتتبـع آثـار أقدامـه حـين سـمع صـوت حوافـر وإطـارات تقـترب مـن المنـزل، فذهـب متجهـمًا نحـو النافـذة، فهـو لم يـرد أى زوار.

هبطت من العربة شخصية مألوفة، وعندها توقف خفقان قلبه.

ركـض مـن البـاب إلى السـلم إلى العربـة فى لحظـة واحـدة، وكانـت "إيزابيـل" هنـاك.

حملق إليها.

ضحكـت "إيزابيـل"، "إليـك، خـذ هـذه"، وسـلمته صرة ثقيلـة تغطيهـا قطعـة قـماش، وبلغـت مؤخـر العربيـة وأخرجـت شـيئًا: "وهـذه أيضًـا"، أخذهـا مستسـلمًا ووضعهـا تحـت ذراعـه، "والآن، أكـثر مـا أريـده فى العـالم هـو كأس برانـدى كبـيرة جـدًّا".

تبـع "تشـارلى" المذهـول "إيزابيـل" إلى داخـل المنـزل وإلى المكتـب، ذهبـت مبـاشرة إلى خزانـة المشروبـات وأخرجـت كأسـين وزجاجـة، وصبـت منهـا جرعـة سـخية وتجرعتهـا عـلى مـرة واحـدة، مظهـرة بيـاض عنقهـا، ثـم مـلأت كأسـها مجـددًا والـكأس الثانيـة التـى عرضتهـا عـلى أخيهـا، ووقـف هـو هنـاك، عاجـزًا عـن الـكلام والحركـة، يـداه ممتلأتـان بالـصرة المغطـاة

بإحـكام، دوت ضحكـة "إيزابيـل" فى أذنيـه مجـددًا وكان الأمـر أشـبه بالوقـوف قريبًـا جـدًّا مـن جـرس كنيسـة ضخـم، بـدأ رأسـه فى الـدوران وانطلقـت الدمـوع مـن عينيـه، أمرتـه "إيزابيـل": "اتركهـا، سـنشرب نخبًـا"، أخـذ منهـا الـكأس واستنشـق رائحـة الكحـول: "نخـب المسـتقبل!" وابتلـع البرانـدى عـلى مـرة واحـدة وسـعل بسـبب لذعتـه غـير المعتـادة.

سألته: "لم ترهما حتى، أليس كذلك؟"

عبس وجهه.

"انظـر"، وتحولـت "إيزابيـل" نحـو الـصرة التـى وضعتهـا عـلى المكتـب، وجذبـت الغـلاف الخفيـف وابتعـدت حتـى يـرى، وببـطء حـول رأسـه ونظـر، كانـت الـصرة عبـارة عـن رضيعتـين توأمـين، رمـش بعينيـه ولاحـظ بغبـاء أن الموقـف يتطلـب منـه اسـتجابة مـا، لكنـه لم يعـرف مـا يفـترض بـه أن يقـول أو يفعـل.

"اسـتيقظ يـا (تشـارلى) بحـق السـماء!" وأخـذت أختـه كلتـا يديـه بيديهـا وجذبتـه إلى رقصـة جنونيـة حـول الغرفـة، أدارتـه بدوامـة اسـتمرت طويـلاً، حتـى بـدأ الـدوار فى تصفيـة عقلـه، وحـين توقفـا أخـذت وجهـه بـين يديهـا وتحدثـت معـه، "مـات (رولانـد) يـا (تشـارلى)، لم يتبـق إلا أنـا وأنـت الآن، أتفهمنـى؟"

أومأ برأسه.

"جيد، والآن أين بابا؟"

حـين أخبرهـا، أصابتهـا هسـتيريا شـديدة، وسـيدة الخـدم، التـى أيقظتهـا فى المطبـخ الصرخـات الصاخبـة، جـاءت لتضعهـا فى سريرهـا بغرفتهـا القديمـة، وحـين عـادت لهدوئهـا مجـددًا أخـيراً سـألتها: "هاتـان الرضيعتـان، مـاذا تدعيـان؟"

أجابت: "مارش".

لكن سيدة الخدم عرفت ذلك، فأخبار الزواج بلغتها قبل شهور، وأخبار الولادة (لم تحتج إلى عد الشهور على أصابعها، لكنها فعلت ذلك على أيَّة حال وزمت شفتيها)، لقد عرفت بشأن وفاة "رولاند" نتيجة الالتهاب الرئوى قبل أسابيع قليلة، وعرفت أيضًا أن السيد والسيدة "مارش" المسنين، المحطمين بسبب وفاة ابنهما الوحيد والمشمئزين بسبب اللامبالاة الطفولية التى لدى زوجة ابنهما الجديدة، قد نبذا "إيزابيل" وطفلتيها، بلا أيَّة رغبة إلا فى أن يحزنا.

"ماذا عن اسميهما الأولين؟"

ردت بصوت نعس: "(إيميلاين) و(آديلاين)".

"وكيف تميزين إحداهما عن الأخرى؟"

لكن الطفلة الأرملة كانت قد نامت بالفعل، وهى مستغرقة فى أحلامها بسريرها القديم، كانت قد نسيت مغامرتها وزوجها، وعاد إليها اسمها العذرى، وحين استيقظت فى الصباح، كان الأمر كأن زواجها لم يحدث قط، كأنها ليست أم هاتين الرضيعتين -لم تُظهر ولو ذرة شعور بالأمومة- بل كأنهما مجرد روحين فى المنزل.

نامت الرضيعتان أيضًا، وفى المطبخ، مالت سيدة الخدم والبستانى نحو وجهيهما الناعمين الشاحبين وتحدثا بصوت خفيض.

سأل: "ما اسم كل منهما؟"

"لا أعرف".

ظلا يتفرجان على الرضيعتين بعدما وضعا كل واحدة فى جانب من سرير الأطفال، زوجا رموش أشبه بنصفى قمر، وفمان غضان، ورأسان أملسان، رفرف أحد جفنى طفلة منهما سريعًا وفتحت عينها نصف فتحة، حبس البستانى وسيدة الخدم أنفاسهما، لكن العين أُغلقت مجددًا وغطت الرضيعة فى النوم.

همست سيدة الخدم: "هذه يمكن أن تكون (آديلاين)"، أخذت منشفة شاى مخططة من أحد الأدراج وقصت منها شريطين، وصنعت من الشريطين ضفيرتين، وربطت الشريطة الحمراء حول رسغ الرضيعة التى اضطربت، والبيضاء حول رسغ الأخرى.

ظلت السيدة والبستانى يتفرجان، وكل منهما يضع يدًا على سرير الرضيعتين، حتى نظرت إليه بنظرة ممتنة وحنونة وتحدثت مجددًا.

"رضيعتان، حقًّا يا (ديج)، فى سننا هذه!"

حين رفع عينيه عن الرضيعتين، رأى الدمعة التى غشت عينيها الدائريتين البنيتين.

مد يده الخشنة عبر سرير الطفلتين، مسحت دموعها وارتباكها وابتسمت، ووضعت يدها الصغيرة السمينة بيده، شعر ببلل دموعها على أصابعه.

تحت القوس الذى شكلاه بعناق يديهما، وتحت الخط المرتجف لتحديقهما المتبادل، كانت الرضيعتان تحلمان.

***

كان الوقت قد تأخر حين انتهيت من تفريغ قصة "إيزابيل" و"تشارلى". السماء مظلمة والمنزل نائم، كنت منكبة على المكتب طوال فترة العصر والمساء وجزء من الليل، فى حين تُحكى القصة وتُعاد فى أذنى ويمد قلمى الخط تلو الآخر، مطيعًا ما أمليه عليه، أوراقى مكتظة بالنص: إنه فيضان كلمات السيدة "وينتر"، وبين الحين والآخر، تحركت يدى نحو اليسار ودونت سريعًا ملاحظة فى الهامش الأيسر، حيث بدت نبرة صوتها أو إيماءاتها جزءًا من القصة.

والآن أبعدت آخر ورقة عنى، ووضعت قلمى وضممت أصابعى الموجوعة ومددتها، ولمدة ساعات، استحضر صوت السيدة "وينتر" عالمًا

آخر، أيقظت الموتى أمامى، ولم أرَ شيئًا سوى عرض الدمى الذى قدمته كلماتها، لكن حين سكت صوتها فى رأسى، ظلت صورتها قائمة وتذكرت القط الرمادى الذى ظهر على حجرها، كأنه ظهر بفعل السحر، جلس القط بصمت تحت يدها المداعبة، يتأملنى بثبات بعينيه الدائريتين الصفراوين، لا أعلم إن كان قد رأى أشباحى، أو أسرارى، فهو لم يبد ساكنًا تمامًا، لكنه كان يكتفى بالرمش والاستمرار فى التحديق بلا مبالاة.

سألت: "ما اسمه؟"

ردت بشرود: "(شادو)".

أخيرًا لجأت إلى السرير، أطفأت الأنوار وأغلقت عينىّ، ما زلت أشعر بتلك البقعة فى إصبعى حيث أحدث القلم علامة على جلدى، وفى كتفى اليمنى، أحدثت الكتابة الطويلة عقدة ليست جاهزة للفك بعد، ومع أن الغرفة مظلمة وعينىّ مغلقتان، كل ما استطعت رؤيته هو صفحة من أوراقى، وخطوط من كتابة يدى وهوامش عريضة، لفت الهامش الأيمن نظرى، كان الهامش يتوهج بلونه الأبيض الأصلى بلا أيَّة كتابة، لقد سبب وخزًا فى عينىّ، إنه الهامش الذى حجزته لتعليقاتى وملاحظاتى وأسئلتى.

فى الظلام، التفت أصابعى حول قلمٍ خيالى، وانتفضتُ استجابة للأسئلة التى اخترقت نعاسى، تساءلت عن الوشم السرى الذى حمله "تشارلى" على جسده، اسم أخته المحفور على عظامه، لكم من الوقت ظل ذلك النقش موجودًا؟ أتستطيع عظمة حية أن تصلح نفسها؟ أم أنه ظل معه حتى مات؟ وفى نعشه تحت الأرض، ولحمه يتعفن منفصلاً عن عظامه، هل انكشف اسم "إيزابيل" فى الظلام؟ "رولاند مارش"، الزوج المتوفى، الذى نُسى سريعًا، و"إيزابيل" و"تشارلى"، "تشارلى" و"إيزابيل"، من كان والد التوأمين؟ ومن وراء أفكارى، تصدر

الجرح الذى براحة يد السيدة "وينتر" المشهد، حرف الـ"كيو" الدال على الأسئلة، محفور بالنار على اللحم البشرى.

وأنا أشرع بالكتابة نائمة لتدوين أسئلتى، بدا أن الهامش يتسع، نبضت الورقة بالضوء، إنها تتضخم، لقد ابتلعتنى، حتى أدركت بمزيج من الذعر والانبهار أننى فى كنف الورقة، وأننى مغمورة فى داخل القصة نفسها، شعرت بانعدام الوزن فتجولت طوال الليل فى قصة السيدة "وينتر"، أرسم مناظرها، وأضبط ملامحها، وأخطو على أطراف أصابعى عند حدودها، وأتطلع إلى الألغاز المتجاوزة لحدودها.

# الحدائق

استيقظت مبكرًا، مبكرًا جدًّا، يُحدث جزءٌ من لحن رتيب صريرًا برأسى، سأضطر إلى الانتظار لأكثر من ساعة حتى تطرق "جوديث" الباب من أجل وجبة الإفطار، فأعددت لنفسى كوبًا من الكاكاو وشربته ساخنًا للغاية، وخرجت من المنزل.

حديقة السيدة "وينتر" أشبه بالمتاهة، فبداية، مساحتها الهائلة تذهلنى، وما ظننته أول ما رأيته أنه طرف الحديقة -سياج من أشجار الصنوبر على الجانب الآخر من أحواض الزهور- لم يكن إلا جدارًا داخليًّا يفصل بين جزء وآخر من الحديقة، والحديقة ممتلئة بمثل هذه التقسيمات، ثمة أسيجة من شجر الزعرور والزان، وجدران حجرية مغطاة باللبلاب، والياسمين البرى الشتوى، والسيقان العارية المتسلقة للورود المتعرشة، وأسوار خشبية مؤطرة بأناقة أو محفورة فى أشجار الصفصاف.

تجولت بين الأجزاء المختلفة عبر اتباع المسارات المجهزة، لكننى عجزت عن تخيل الشكل الخارجى للحديقة، الأسيجة التى بدت من الأمام مصمتة، أحيانًا تكشف عن ممر منحرف حين رؤيتها بزاوية، من السهل التجول بين الشجيرات، ومن شبه المستحيل الهروب منها، نوافير وتماثيل ظننت أننى تركتها ورائى، أجدها تظهر من جديد، قضيت الكثير من الوقت ساكنة بلا حركة، أنظر حولى فى حيرة وأهز رأسى، صنعت الطبيعة من نفسها متاهة، وكانت تخطط عمدًا لتعجيزى.

اتجهت إلى إحدى الزوايا، فصادفت الرجل الملتحى المتحفظ الذى أقلنى من المحطة، قدم الرجل نفسه على مضض: "يدعوننى (موريس)".

أردت أن أعرف: "كيف لا تتوه؟ هل هناك حيلة ما فى الأمر؟"

"إنه مرور الوقت فقط"، رد دون أن يرفع عينيه عما يشتغل به، كان راكعًا على ركبتيه على رقعة من التربة المنبوشة، ويسويها ويضغط على الأرض المحيطة بجذور النباتات.

تكون لدى انطباع بأن "موريس" لا يرحب بوجودى فى الحديقة، لم أمانع ذلك، بما أننى بالأساس ذات طبيعة انعزالية، بعد ذلك حرصت كلما رأيته على أن أمضى فى الاتجاه المعاكس، وأعتقد أنه شاركنى هذا الحذر، ففى مرة أو اثنتين، لمحت حركته بطرف عينى، فأتطلع لأجد "موريس" يتراجع عند مدخل ما أو يلتفت فجأة فى اتجاه مختلف، وبهذا نجح كلانا فى ترك الآخر يعيش فى سلام، هناك مجال واسع أمامنا ليتجنب كل منا الآخر من دون أى شعور بالاضطرار.

لاحقًا فى ذلك اليوم، ذهبت إلى السيدة "وينتر" وأخبرتنى المزيد عن المنزل فى "آنجلفيلد".

========

اسم سيدة الخدم هو "دان"، لكنها كانت دائمًا "السيدة" بنظر أطفال العائلة، وبدا كأنها عاشت فى المنزل مدى الحياة، وهذه حالة نادرة: فعمال المنزل يأتون ويرحلون سريعًا فى "آنجلفيلد"، وبما أن معدلات المغادرة أعلى قليلاً من معدلات المجىء، جاء اليوم الذى أصبحت فيه الخادمة الداخلية الوحيدة المتبقية، هى نظريًّا مدبرة المنزل، لكنها فعليًّا تفعل كل شىء، تنظف الأوعية وتوقد المدفأة مثل خادمة صغيرة، وفى أوقات الوجبات تؤدى دور الطاهية، وتتولى تقديم الطعام، لكن حين ولادة التوأمين كانت تتقدم نحو الشيخوخة، كان سمعها ضعيفًا، ونظرها أضعف، وزاد ما لم تستطع توليه، مع أنها لم تحب الاعتراف بذلك.

عرفت السيدة كيف يجب تنشئة الأطفال: أوقات وجبات منتظمة، أوقات نوم منتظمة، واستحمام منتظم، نشأت "إيزابيل" و"تشارلى" على تدليل مفرط، وتجاهل مفرط فى الوقت نفسه، وفطر الأمر قلبها أن ترى ما انتهى إليه أمرهما، وقد كان تجاهلهما للتوأمين فرصتها لكسر هذا النمط، أو هكذا أملت السيدة، وأصبح لديها خطة، فقد أرادت أن تربى فتاتين صغيرتين عاديتين فى قلب تلك الفوضى وأمام ناظر الأخ وأخته، ثلاث وجبات مغذية يوميًّا، والنوم عند السادسة، والكنيسة يوم الأحد.

لكن الأمر أصعب مما توقعت.

فبداية عليها التعامل مع الشجار، "آديلاين" تنقض على أختها وتضربها باللكمات والأرجل، وتنتزع شعرها وتسدد الضربات أينما استطاعت، لاحقت "آديلاين" أختها وهى تحمل بملقط النار قطعًا من الفحم الساخن لدرجة الاحمرار، وحين أمسكت بها أحرقت شعرها، لم تكن السيدة متأكدة مما يقلقها أكثر: أهو عدوان "آديلاين" المستمر بلا رحمة، أم تقبل "إيميلاين" التام والمستمر له؟ من جهة "آديلاين"،

ومع أنها ناشدت أختها حتى تتوقف عن تعذيبها، فإنها لم تنتقم ولو لمرة واحدة، بل كانت تحني رأسها بخضوع وتنتظر توقف الضربات التي انهمرت على كتفيها وظهرها، لم ترَ السيدة "إيميلاين" ترفع يدها قط لتضرب "آديلاين"، حمل قلبها ما يعادل طيبة طفلتين، وحمل قلب "آديلاين" ما يعادل شر طفلتين، بدا الأمر منطقيًّا على نحو ما، أو هكذا افترضت سيدة الخدم.

ثم هناك مشكلة الطعام المزعجة، ففي أوقات الوجبات، في غالب الأحيان، تعجز السيدة ببساطة عن العثور على الطفلتين، لقد عشقت "إيميلاين" الأكل، لكن هذا العشق لم يترجم نفسه قط إلى انتظام في الوجبات، جوعها لم يمكن إشباعه بثلاث وجبات يوميًّا، لقد كان جوعها شديدًا ومتقلبًا، فكان يضرب عشرة أو خمسة عشر أو عشرين مرة في اليوم، فتطلب الطعام بإلحاح، وحين تسترضي جوعها ببضع لقيمات من شيء ما، تغادرها تلك الرغبة، ويصبح الطعام غير مهم مجددًا، تُصان سمنة "إيميلاين" بواسطة جيب ممتلئ باستمرار بالخبز والزبيب، إنها وليمة متنقلة تغترف منها حيثما وحينما تريد، فكانت تأتي إلى المائدة فقط لتملأ جيوبها قبل أن تهيم على وجهها لتسترخي قرب المدفأة أو لتستلقي في ساحة بمكان ما.

أختها مختلفة عنها تمامًا، فقد خُلقت "آديلاين" على هيئة سلك به عقد تمثل الركبتين والكوعين، وقودها ليس الغذاء مثل غيرها من البشر، فالوجبات لم تكن لها، ولم يرها أحد قط تأكل: مثل آلة الحركة الدائمة، كانت كأنها دائرة مغلقة تعمل بطاقة تحصل عليها من مصدر داخلي ما إعجازي، لكن الآلة دائمة الحركة مستحيلة، وعندما تلاحظ السيدة في الصباح طبقًا خاليًا كانت به حتى الليلة الماضية شريحة من لحم الخنزير المقدد، أو رغيف خبز يفتقد قطعة غير صغيرة، خمنت مصيرهما وتنهدت، لماذا لا تأكل طفلتيها من الأطباق، مثل الأطفال العاديين؟

ربما كانت لتدير شئونهما بشكل أفضل لو كانت أصغر سنًا، أو لو كانت فتاة واحدة بدلاً من اثنتين، لكن دماء آل "آنجلفيلد" حملت صفات لا يستطيع أى كم من طعام الأطفال أو الروتين الصارم أن يغيرها، لم ترد أن تدرك ذلك، وحاولت ألا تدركه لفترة طويلة، لكنها أدركته فى النهاية، التوأمين غريبتين، ليس بذلك شك، كانتا غريبتين بكل ما تحمله الكلمة من معنى، غريبتين حتى الصميم.

على سبيل المثال: طريقة كلامهما، كانت تراهما عبر نافذة المطبخ، كائنتان غير واضحتى الملامح يبدو أن فميهما يتحركان بلا توقف، ومع اقترابهما من المنزل، تلتقط أجزاءً من طنين كلامهما، ثم تدخلان المنزل ويسيطر عليهما الصمت، تقول لهما دائمًا: "ارفعا صوتيكما!" لكنها كانت تقترب من الصمم وهما خجولتان، كانتا تتبادلان الحديث فى ما بينهما، وليس مع الآخرين، "لا تكن سخيفًا"، هكذا ردت على "ديج" حين أخبرها أن الفتاتين لا تستطيعان التحدث على نحو سليم، "لا مجال لإيقافهما حين تبدآن".

لكنها أدركت ذلك فى أحد أيام الشتاء، فى مرة بقيت الفتاتان داخل المنزل، إذ أقنعت "إيميلاين" أختها بأن تبقيا فى الدفء، قرب المدفأة وبعيدًا عن الأمطار، عادة ما تعيش سيدة الخدم برؤية ضبابية، لكن فى هذا اليوم كانت محظوظة بوضوح مفاجئ فى الرؤية، وحدة سمع غير معتادة، وحين مرت بباب المرسم التقطت أذنيها جزءًا من ضوضائهما وتوقفت، كانت الأصوات تجيء وتروح بين الفتاتين، مثل كرة التنس فى مباراة ما، أصوات تجعلهما تبتسمان أو تضحكان أو تتبادلان نظرات شريرة، ارتفع صوتاهما فى هيئة تتمّات للحديث، وهوى على هيئة همسات، من أيَّة مسافة، قد تظن أنها الثرثرة الحية المنطلقة للأطفال العاديين، لكن قلبها تحطم، فتلك لم تكن مثل أيَّة لغة سمعتها من قبل، هذه ليست اللغة الإنجليزية، ولا الفرنسية التى اعتادت سماعها قبل وفاة زوجة "جورج"، "ماتيلدا"، والتى لا

يـزال "تشـارلى" يسـتخدمها مـع "إيزابيـل"، إن "جـون" محـق، إنهـما لا تتحدثـان عـلى نحـو سـليم.

جمدتهـا صدمـة الإدراك فى المدخـل، ومثلـما يحـدث أحيانـًـا، فتـح الاكتشـاف البـاب لاكتشـاف آخـر، إذ رنـت السـاعة التـى عـلى رف المدفـأة، وكالعـادة، أخرجـت الدائـرة الميكانيكيـة التـى وراء الزجـاج طائـرًا صغـيرًا مـن قفـص ليرفـرف بواسـطة دائـرة ميكانيكيـة أخـرى قبـل أن يدخـل إلى القفـص مجـددًا مـن الجهـة الأخـرى، بمجـرد أن سـمعت الفتاتـان الرنـة الأولى، تطلعتـا إلى السـاعة، زوجـان مـن الأعـين الخـضراء الواسـعة تتفرجـان ولا ترمشـان فى حـين يخـرج الطائـر مـن السـاعة ويرفـرف صعـودًا ونـزولاً.

لم يـشِ تحديقهـما بالـبرود عـلى نحـو محـدد أو بعـدم الإنسـانية عـلى نحـو خـاص، إنهـا فقـط طريقـة تطلـع الأطفـال نحـو الجـمادات المتحركـة، لكنهـا جمـدت سـيدة الخـدم فى مكانهـا، لأنهـا كانـت الطريقـة ذاتهـا التـى تنظـران إليهـا بهـا، حـين توبخهـما، أو تعنفهـما، أو تنصحهـما.

قالـت لنفسـها: "إنهـما لا تـدركان أننـى عـلى قيـد الحيـاة، إنهـما لا تعرفـان أن هنـاك أحيـاء غيرهـما".

لم تعتبرهما وَحشَين، نظرًا لطيبتها، بل شعرت بالأسف تجاههما.

لا بد أنهما وحيدتان للغاية.

وتحركت من المدخل تجر قدميها.

منـذ ذلـك اليـوم أعـادت النظـر فى توقعاتهـا منهـما، مواعيـد الوجبـات والاسـتحمام المنتظمـة، والكنيسـة يـوم الأحـد، طفلتـان عاديتـان ولطيفتـان: كل تلـك الأحـلام قفـزت عـبر النافـذة، أصبحـت لديهـا مهمـة واحـدة فقـط: أن تُبقِـى الفتاتـين سـالمتين.

قلبـت الأمـر فى رأسـها، وظنـت أنهـا فهمـت سـبب هـذه الحـال، إنهـما توأمـان، وهـما دائمـًـا معـًـا، ودائمـًـا اثنتـان، إن كان العـادى فى عالمهـما أن

يكونـا اثنتـين، فكيـف يبـدو لهـما الآخـرون الذيـن أتـوا بصـورة أحاديـة وليسـت ثنائيـة؟ لا بـد أنهـما يروننـا كأنصـاف، هكـذا افترضـت سـيدة الخـدم، وتذكـرت كلمـة، كلمـة بـدت غريبـة حـين سـمعتها، ويُشـار بهـا إلى الأشـخاص الذيـن فقـدوا أجـزاء مـن أنفسـهم: بُـتُرًا، هكـذا تعتبرنـا الفتاتـان: بـترًا.

هـل الأمـر عـادى؟ لا، الفتاتـان ليسـتا عاديتـين، ولـن تكونـا عاديتـين أبـدًا، لكنهـا طمأنـت نفسـها بـأن الأمـور مثلـما كانـت، والتوأمـان تتصرفـان مثـل توأمـين، ربمـا كانـت غرابتهـما أمـرًا طبيعيًـا.

بالتأكيـد يتـوق كل البُـتر إلى حالـة التوأمـة، فالأشـخاص العاديـون، غـير التوائـم، يبحثـون عـن تـوأم روحهـم، ويتخـذون محبـين، ويتزوجـون، يسـعون جاهديـن ليكونـوا جـزءًا مـن ثنـائى، إذ يعذبهـم نقصانهـم، وسـيدة الخـدم لم تكـن مختلفـة عـن الـكل فى هـذا الصـدد، بـل كان لديهـا نصفهـا الآخـر: "جـون ذا ديـج".

لم يكونـا مرتبطـين بالمعنـى التقليـدى، فهـما لم يتزوجـا، ولم يكونـا حتـى عاشـقين، فهـى تكـبره بمـا يقـارب الخمسـة عـشر عامًـا، فلـم تكـن كبـيرة كفايـة لتكـون أمـه، لكنهـا أكـبر مـن أن يتخذهـا زوجـة، حـين تقابـلا، كانـت فى سـن لم تعـد تتوقـع فيـه أن تتـزوج، فى حـين توقـع هـو أن يتـزوج وهـو الرجـل فى عـزه، لكنـه لم يتـزوج قـط، كـما أنـه بمجـرد أن عمـل معهـا، وشرب الشـاى معهـا كل صبـاح وجلـس إلى مائـدة العشـاء ليـأكل طعامهـا كل مسـاء، تخـلى عـن عـادة السـعى وراء مرافقـة الشـابات، فبالقليـل مـن الخيـال، يمكـن أن يتجـاوزا حـدود توقعاتهـما، يمكـن أن يعترفـا بصـدق بمشـاعرهما المتبادلـة، الحـب بصورتـه الأعمـق والأكـثر احترامًـا، فى زمـن آخـر وثقافـة أخـرى، يمكـن أن يطلبهـا للـزواج، وربمـا كانـت لتوافـق، فعـلى الأقـل، يمكـن تخيـل أنـه فى إحـدى ليـالى الجمعـة، وبعـد أن يتنـاولا السـمك مـع البطاطـس المهروسـة، وبعـد التحليـة بفطـيرة الفواكـه والكاسـترد، ربمـا

يأخذها من يدها -أو تأخذه من يده- ليقود أحدهما الآخر فى صمت خجول إلى أحد أسرتهما، لكن الفكرة لم تمر برأسيهما قط، لذا أصبحا صديقين، على طريقة الأزواج المسنين، واستمتعا بالولاء الحنون الذى ينتظر الشخص المحظوظ بعد العشق، دون أن يعيشا العشق نفسه.

اسمه "جون ذا ديج" أيْ (جون الحارث)، أو "جون ديجنس" لمن لم يعرفوه، لم تكن الكتابة أفضل مميزاته، فبمجرد انقضاء أعوام دراسته (وقد انتهت سريعًا لأنها لم تكن كثيرة)، اعتاد التخلى عن الحروف الأخيرة من اسمه الأخير لتوفير الوقت، فقد بدت الحروف الثلاثة الأولى أكثر من كافية: أليست معبرة عن هويته ووظيفته بإيجاز وبدقة أكثر من اسمه الكامل؟ لذا اعتاد التوقيع باسم "جون ديج"، وفى نظر الأطفال أصبح "جون ذا ديج".

كان رجلاً غنيًّا بالألوان، عيناه زرقاوان مثل قطعتين من الزجاج الأزرق تقف الشمس وراءهما، وشعره الأبيض ينمو على قمة رأسه مثل النباتات الساعية وراء الشمس، وخداه يتحولان إلى الوردى المشرق مع الإجهاد حين يحرث الأرض، لا أحد يستطيع أن يحرث الأرض مثله، له طريقة مميزة فى البستنة تتهادى بمراحل القمر: يزرع حين يتعاظم القمر، ويقيس الوقت بدورات القمر، وفى المساء، يتأمل جداول من الأرقام ليحسب أفضل وقت لفعل كل شىء، مارس جده الأكبر البستنة هكذا، وكذا فعل جده ووالده، لقد توارثوا المعرفة.

عملت عائلة "جون ذا ديج" دائمًا فى البستنة بـ"آنجلفيلد"، فى الماضى حين كان بالمنزل مدير للبستنة وسبعة مساعدين، اقتلع جده الأكبر سياجًا مربعًا من الأشجار الواقعة تحت نافذة، وحتى لا يبدد الشجيرات، اقتطع منها مئات من الأجزاء الصغيرة، وأنماها فى أحواض، وحين بلغت طول ربع متر، زرعها فى الحديقة، وقلم بعضها ليكون أسيجة منخفضة حادة الأطراف، وترك بعضها ينمو على نحو أشعث،

وحـين أصبحـت عريضـة كفايـة، أخـذ مجزّاتـه إليهـا وصنـع منهـا أشـكالاً كرويـة، أدرك أن بعـض تلـك الشـجيرات أرادت أن تتشـكل عـلى شـكل أهرامـات، أو مخاريـط، أو قبعـات، ولتشـكيل كل الشـجيرات، تعلـم ذلـك الرجـل ذو اليديـن الكبيرتـين الخشـنتين الصـبر والرقـة التـى يتمتـع بهـما حائـك الدانتيـل، لم يشـكل الأشـجار عـلى هيئـات الحيوانـات ولا البـشر، فالأشـكال التـى قـد تراهـا فى الحدائـق الأخـرى مثـل الطـاووس والأسـود والإنسـان بحجمـه الطبيعـى عـلى دراجـة لم تكـن أعمالـه المفضلـة، بـل كان يُـسر بأشـكال هندسـية صارمـة أو تجريديـة مذهلـة بأبعـاد بـارزة.

بحلـول سـنوات عمـره الأخـيرة، كانـت الحديقـة التوبياريـة هـى كل مـا يهمـه، حـرص دائمًـا عـلى أن يُنهـى أعمالـه اليوميـة الأخـرى، فـكل مـا أراده هـو أن يكـون فى الحديقـة "خاصتـه"، وأن يمـرر يديـه عـلى أسـطح الأشـكال التـى صنعهـا، وهـو يتخيـل الوقـت الـذى سـتصل فيـه حديقتـه إلى أتـم النضـج، ربمـا بعـد خمسـين أو مئـة عـام.

فى فـراش موتـه، أورث مجزّاتـه إلى ابنـه، وبعـد عقـود أورثهـا ابنـه إلى حفيـده، ثـم حـين مـات هـذا الحفيـد، أورثهـا إلى "جـون ذا ديـج"، الـذى أنهـى فـترة تدريبـه فى حديقـة كبـيرة عـلى بعـد خمسـين كيلومـترًا تقريبًـا، وعـاد منهـا ليتـولى العمـل المقـرر لـه، ومـع أنـه كان مسـاعد بسـتانى، فـإن الحديقـة التوبياريـة كانـت مسـئوليته منـذ اليـوم الأول، وكيـف لا؟ لقـد التقـط المجـزات، التـى شـكلت يـدا والـده مقابضهـا الخشـبية، وشـعر بـأن أصابعـه تعـرف طريقهـا وسـط هـذه الحـزوز، شـعر "جـون" هنـاك بأنـه فى بيتـه.

فى الأعـوام التـى تلـت فقـدان "جـورج آنجفيلـد" لزوجتـه، حـين تقلـص عـدد العاملـين بالمنـزل بشـدة، بقـى "جـون ذا ديـج"، تـرك البسـتانيون المنـزل ولم يحـل أحـد محلهـم، وحـين شـب أصبـح، بطبيعـة الحـال، كبـير البسـتانيين، مـع أنـه كان البسـتانى الوحيـد، كان العمـل هائـلاً، ولم يهتـم

صاحب المنزل، فكان يعمل بلا شكر، هناك وظائف أخرى، وحدائق أخرى، وكان لينال أيَّة وظيفة يتقدم إليها: فمجرد رؤيته تبعث على الثقة، لكنه لم يغادر آنجلفيلد قط، وكيف عساه يغادر؟ فبعمله فى الحديقة التوبيارية، وإغماده لمجزّاته فى أغمدتها الجلدية مع هبوط الظلام، لم يحتج إلى التفكير فى أن الأشجار التى يشذبها هى الأشجار نفسها التى زرعها جده الأكبر، وروتين وخطوات عمله هى نفسها التى مارستها عائلته لثلاثة أجيال، كل ذلك كان محفورًا بعمق فى عقله لدرجة أنه لا يتطلب أى تفكير، كان الأمر كالمسلمات، وكحال أشجاره، كان هو مزروعًا فى آنجلفيلد.

بم شعر فى ذلك اليوم حين دخل حديقته ووجدها مدمرة؟ وجد فجوات كبيرة فى جوانب أشجار الصنوبر، فجوات تكشف عن أخشابها البنية التى فى قلبها، الرءوس الشجرية مقطوعة وملقاة عند أقدامها، فقدت الأهرامات توازنها بعدما كانت مثالية، والمخاريط مشوهة، والقبعات مقطعة إلى أشلاء، حدق طويلاً إلى الأفرع الطويلة التى لا تزال خضراء وطازجة، المنثورة على العشب، رأى ذبولها البطىء، وتقوسها وهى تجف، وموتها لم يحن أوانه بعد.

كان مصدومًا، سرت رجفة من قلبه إلى ساقيه إلى الأرض تحته، حاول أن يفهم ما حدث، هل هبطت صاعقة من السماء بعدما اختارت حديقته لتدمرها؟ لكن أيَّة عاصفة تلك التى تضرب فى صمت؟

لا، هذا بفعل فاعل.

وهو يلتفت إلى إحدى الزوايا وجد الدليل: متروكًا على العشب الندى، شفرات منفرجة الفم، والمجزّات الكبيرة وبجوارها منشار.

حين لم يأتِ للغداء، قلقت سيدة الخدم وخرجت لتبحث عنه، بمجرد بلوغها الحديقة التوبيارية رفعت يدها إلى فمها رعبًا، ثم أمسكت بمئزرها وتابعت المشى متعجلة.

حين وجدته، رفعته عن الأرض، ومال بثقله عليها وهى تقوده بعناية حنون إلى المطبخ حيث أجلسته على كرسى، أعدت الشاى مسكرًا وساخنًا، وحملقت فى الخواء دون أن ترى شيئًا، ودون أن تنطق كلمة، رفعت الكوب إلى شفتيه وأمالته ليرتشف من المشروب الساخن للغاية، وأخيراً تطلعت عيناه إليها، وحين رأت الخسارة فى عينيه، شعرت بدموعها تنزل.

"أعرف يا (ديج)، أعرف!"

أمسك كتفيها بيديه وانتقلت رجفة جسده إلى جسدها.

لم تظهر الفتاتان فى ذلك العصر، ولم تبحث عنهما سيدة الخدم، وحين ظهرتا فى المساء، كان "جون" لا يزال فى كرسيه شاحب الوجه، جفل حين رآهما، بفضول وبلا مبالاة، مرت أعينهما الخضر على وجهه مثلما مرت على ساعة الحائط فى المرسم.

قبل أن تضع الطفلتين فى سريرهما، ضمدت الجروح التى على يديهما من المنشار والمجزات، قالت متذمرة: "لا تلمسا الأغراض التى فى كوخ (جون)، إنها حادة وستؤذيكما".

كانت لا تزال غير منتظرة لأيَّة استجابة: "لم فعلتما ذلك؟ أوه، لم فعلتما ذلك؟ لقد فطرتما قلبه".

شعرت بيد إحدى الطفلتين على يدها وقالت: "سيدة الخدم حزن"، كانت تلك "إيميلاين".

اندهشت، ورمشت لتزيح غمامة الدموع عن عينيها وحدقت إلى الطفلة.

تابعت الطفلة: "(جون ذا ديج) حزن".

همست سيدة الخدم: "نعم، نحن حزينان".

ابتسمت الطفلة، كانت تلك ابتسامة بلا خبث، بلا شعور بالذنب، بل كانت ببساطة ابتسامة رضا لأنه لاحظت شيئًا ووصفته بشكل صحيح، لقد رأت دموعًا، وكانت متحيرة، لكنها الآن وجدت إجابة اللغز، إنه الحزن.

أغلقت سيدة الخدم الباب وهبطت السلم، كان ذلك تطورًا كبيرًا، لقد تمكنت الطفلة من التعبير، وعلى الأرجح كانت تلك بداية شىء أعظم، أيمكن أن تتمكن الطفلة من الفهم فى أحد الأيام؟

فتحت باب المطبخ وانضمت إلى "جون" مجددًا فى يأسه.

***

راودنى حلم فى تلك الليلة.

كنت أتمشى فى حديقة السيدة "وينتر"، وقابلت أختى.

بدت مشرقة ومدت جناحيها الشاسعين الذهبيين، كأنها تحتضننى، وملأنى ذلك سعادة، لكن حين اقتربت منها رأيت عينيها مصابتين بالعمى، ولم تستطع أن ترانى، فملأ اليأس قلبى.

حين استيقظت، ضممت نفسى على هيئة كرة حتى هدأت الحرارة المستعرة فى جسدى.

# "ميرلى" وعربة الرضيع

بيت السيدة "وينتر" منعزلٌ جدًّا، وحياة سكانه منفردة للغاية، لدرجة أننى تفاجأت خلال أسبوعى الأول هناك بسماع صوت عربة تصل على الحصى أمام المنزل، وبالنظر عبر نافذة المكتبة، رأيت باب سيارة سوداء كبيرة يُفتح ولمحت رجلاً طويلاً أسود الشعر، اختفى الرجل فى المدخل وسمعت صوت رن الجرس.

رأيته مجددًا فى اليوم التالى، كنت فى الحديقة، ربما على بعد ثلاثة أمتار من الشرفة الأمامية، حين سمعت خشخشة الإطارات على الحصى، ظللت واقفة، ثم تراجعت إلى الداخل، كنت واضحة تمامًا لمن يريد أن ينظر، لكن حين يتوقع الناس ألا يروا شيئًا، فإنهم عادة لا يرون شيئًا، فلم يرنى الرجل.

كان وجهه حادًا، ظلل حاجباه الكثيفان عينيه، فى حين ميز بقية وجهه سكون كأنه فاقد الحس، وصل إلى سيارته ليحضر حقيبته، وأغلق الباب بعنف وصعد ليرن الجرس.

سمعت صوت فتح الباب، لم يتبادل و"جوديث" ولو كلمة واحدة، واختفى داخل المنزل.

لاحقًا فى ذلك اليوم، أخبرتنى السيدة "وينتر" قصة "ميرلى" وعربة الأطفال.

***

مع نمو الطفلتين استكشفا بيئتهما أكثر وأكثر، وعرفتا سريعًا كل المزارع والحدائق فى محيطهما، لم تفهما على أى نحو مفهوم الحدود، ولا فكرة الملكية، لذا تجولتا حيث شاءتا، فتحتا أبوابًا ولم تهتما دائمًا بإغلاقها، تسلقتا الأسيجة حين وقفت فى طريقهما، حاولتا فتح أبواب المطابخ، وحين نجحتا -وعادة ما كانتا تنجحان، فسكان آنجلفيلد لم يهتموا كثيرًا بإقفال الأبواب- كانتا تدخلان، لم تتورعا عن تناول أى شىء يبدو لذيذًا فى غرفة المؤن، ونامتا لساعة على الأسرة فى الطابق العلوى إن شعرتا بالتعب، وأخذتا القدور الصغيرة والملاعق لإخافة الطيور فى الحقول.

استاءت العائلات المحلية من الأمر، ومقابل كل اتهام من أحدهم، يقول أحد إنه رأى الفتاتين فى الوقت ذاته فى مكان آخر بعيد، أو على الأقل رأى واحدة منهما، أو على الأقل هكذا ظنوا، حينئذ تذكروا كل قصص الأشباح القديمة، فلا يوجد بيت قديم بلا قصص، ولا يوجد بيت قديم بلا أشباح، وحقيقة أنهما توأمتان كانت تضفى بعدًا خاصًا من الرعب، فهناك شىء غير مريح بشأنهما، أو هكذا اتفق الجميع، وسواء أكان ذلك بسبب الفتاتين نفسيهما أو لسبب ما آخر، فإن ذلك أدى إلى العزوف عن الاقتراب من البيت القديم، وقد سرى ذلك بين الكبار مثلما سرى بين الأطفال، خوفًا مما قد يرونه هناك.

لكـن فى النهايـة تفـوق الإزعـاج الـذى تسـببه غـارات الفتاتـين عـلى الخـوف مـن قصـص الأشـباح، وزادت النسـاء غضبًـا، ففـى مـرات عديـدة كانــت النســاء تحاصرهــما متلبســتين، وتــصرخ بهــما، كان الغضــب يغــير ملامــح وجوههــن، وتُفتــح أفواههــن وتُغلــق بسرعــة جــدًّا مــا يجعــل الفتاتـين تضحـكان، لم تفهـم النسـاء سـبب ضحـك الفتاتـين، لم يعرفـن أن سرعـة خـروج الكلـمات مـن أفواههـن وتخبطهـا هـو مـا يحـير الفتاتـين، ظنـن أنـه ليـس إلا سـلوكًا شـيطانيًا خالصًـا وصرخـن أكـثر، فى مـرة وقفـت الفتاتـان لتتفرجـا عـلى مشـهد غضـب أهـل القريـة، ثـم التفتتـا وسـارتا مبتعدتـين بـكل بسـاطة.

حـين عـاد أزواجهـن مـن الحقـول، تذمـرت النسـاء، وقلـن إن شـيئًا يجـب أن يُفعـل، فيقـول الرجـال: "أنـت تتجاهلـين أنهـما طفلتـا البيـت الكبـير"، فـترد النسـاء: "البيـت الكبـير أو غـيره، يجـب ألا يُسـمح للأطفـال بالجمـوح بـلا قيـود هكـذا، هـذا ليـس صحيحًـا ويجـب التـصرف"، فيجلس الرجـال أمـام أطبـاق البطاطـس واللحـم يهـزون رءوسـهم ولا يفعلـون شـيئًا.

استمر ذلك حتى حادثة عربة الرضيع.

امـرأة بالقريـة تدعـى "مـارى جايمسـن"، زوجـة "فريـد جايمسـن" أحـد عـمال المزرعـة، عاشـت مـع زوجهـا ووالديـه فى أحـد المنـازل الريفيـة، كانـا متزوجـين حديثًـا، وقبـل زواجهـا كان اسـمها "مـارى لَى"، مـا يفـسر الاسـم الـذى ابتكرتـه الطفلتـان لهـا بلغتهـما الخاصـة: أطلقتـا عليهـا "مـيرلى"، وقد كان اسـمًا جيـدًا لهـا، أحيانًـا قـد تذهـب وتلاقـى زوجهـا فى الحقـول، حيـث يجلسـان تحـت أحـد الأسـيجة فى نهايـة اليـوم ويدخـن هـو سـيجارة، إنـه رجـل طويـل بنـى اللـون لـه قدمـان كبيرتـان، وقـد اعتـاد لـف ذراعـه حول خصرهـا ودغدغتهـا والنفـخ أسـفل مقـدم فسـتانها ليضحكهـا، حاولـت ألا تضحـك لتغيظـه، لكنهـا كانـت تريـد الضحـك بشـدة، وفى النهايـة تضحـك.

كانت لتعتبر امرأة عادية لولا ضحكتها هذه، شعرها داكن أكثر من أن تعتبر شقراء، وذقنها كبير وعيناها صغيرتان، لكنها تميزت بتلك الضحكة، صوتها جميل لدرجة أنك إن سمعته، كأنك رأيتها بعينيك عبر أذنيك وقد تغيرت ملامحها، إذ تختفي عيناها أعلى خديها الممتلئين كأنهما قمرين، وفجأة، في غياب عينيها، تلاحظ فمها، شفتيها الممتلئتين بلون الكرز، وأسنانها- من المؤكد أن لا أحد في آنجلفيلد لديه مثل هذه الأسنان- ولسانًا ورديًا صغيرًا مثل قطة صغيرة، وذلك الصوت، إنها موسيقى جميلة متموجة لا تتوقف تنبعث من حنجرتها مثل نبع المياه من تيار تحت الأرض، صوتها صوت السعادة، وهو تزوجها من أجل ذلك، حين تضحك، كان صوته يرق، ويضع شفتيه على رقبتها وينطق اسمها: "ماري"، مرارًا وتكرارًا، فتدغدغها اهتزازات صوته على جلدها وتضحك بلا توقف.

خلال الشتاء، في حين لا تبرح الفتاتان الحدائق، رزقت "ميرلي" برضيع، فقضت أول أيام الربيع الدافئة في الحديقة، تعلق ملابس الرضيع على حبل، وخلفها عربة الرضيع، لا أحد يعلم من أين أتت بها، ففتيات القرية لا يحظين بمثل هذه الأشياء، ولا شك بأن للعربة مالك أو مالكين سابقين، واشترته العائلة بثمن بخس (مع أنها بلا شك تبدو لفتة طيبة جدًا)، دلالة على أهمية هذا الطفل والحفيد الأول، على أيّة حال، في حين تنحني "ميرلي" لتأخذ سترة أخرى صغيرة، وقميصًا آخر صغيرًا، وتثبتهما على الحبل، كانت تغني كالعصافير المزقزقة حولها، وبدا أن أغنيتها موجهة إلى عربة الرضيع السوداء الجميلة، عجلاتها فضية ومرتفعة جدًا، لذا مع أنها كبيرة وسوداء ومستديرة، فإنها توحي بالسرعة وخفة الوزن.

أطلت الحديقة على الحقول خلفها، وفرق سياج بينها، لم تعرف "ميرلي" أن وراء السياج يوجد زوج من الأعين الخضراء لا يحيد عن عربة الرضيع.

ينتج الرضع الكثير من الملابس اللازم غسلها، و"ميرلى" أم مجتهدة ومخلصة، تخرج إلى الحديقة يوميًا لتعلق ما غسلته وتأخذ ما جف، ومن نافذة المطبخ، وهى تغسل الحفاضات والسترات فى الحوض، أبقت عينيها على عربة الرضيع الرائعة فى الشمس، بدا أنها تخرج سريعًا كل خمس دقائق لتعدل غطاء العربة، أو لتزود الرضيع ببطانية إضافية، أو ببساطة لتغنى.

لم تكن "ميرلى" الوحيدة التى كرست جهودها لخدمة العربة، فقد فُتنت "إيميلاين" و"آديلاين" بها.

خرجت "ميرلى" فى أحد الأيام من تحت الشرفة الخلفية ومعها سلة المغسولات تحت ذراعها، ولم تجد العربة، توقفت فجأة، وفتحت فمها ورفعت يديها إلى خديها، سقطت السلة سريعًا فى حوض زهور، وانقلبت الأقمصة والجوارب على النباتات والزهور، لم تنظر "ميرلى" ولو لمرة نحو السياج ونباتات العلق، بل نظرت يسرة ويمنة كأنها لا تصدق ما تراه، وتابعت النظر يسرة ويمنة، والذعر يتصاعد بداخلها، وفى النهاية أطلقت صرخة، أو ضجيجًا مجلجلاً ارتفع إلى السماء الزرقاء كأنه يشقها إلى نصفين.

تطلع السيد "جريفين" من بقعة زراعة الخضراوات خاصته على بعد ثلاثة منازل وجاء إلى السياج، وعبست الجدة "ستوكس" الجارة أمام حوض المطبخ وخرجت إلى شرفتها، نظرا مندهشين إلى "ميرلى"، متسائلين إن كانت جارتهما الضحوك قادرة على إطلاق مثل هذا الصوت، ونظرت هى إليهما بحدة، مصدومة، كأن صرختها اختصرت حياة كاملة من الكلمات.

فى النهاية قالتها: "لقد اختفى رضيعى".

بمجرد أن نطقت تلك الكلمات شرعوا بالتصرف، فقفز السيد "جريفين" عبر ثلاثة أسيجة فى مرة واحدة، وجذب "ميرلى" من ذراعها

وقادهـا فى جولـة إلى مقـدم منزلهـا قائـلاً: "اختفـى؟ أيـن اختفـى؟" كـذا اختفـت الجـدة "سـتوكس" مـن شرفتهـا الخلفيـة وتـردد صوتهـا فى الأنحـاء مـن الحديقـة الأماميـة، تنـادى طلبًـا للمسـاعدة.

ثم تصاعدت الجلبة: "ما الأمر؟ ماذا حدث؟"

"اختُطف! من الحديقة! فى عربة الرضيع!"

"أنتما الاثنان اذهبا بهذا الاتجاه، وأنتم من هنا".

"فليذهب أحد للبحث عن زوجها".

حدث كل تلك الجلبة والاضطراب أمام المنزل.

أمـا فى الخلـف فـكان كل شيء هادئًـا، تمايلـت مغسـولات "مـيرلى" تحـت أشـعة الشـمس، واسـتقرت مجرفـة السـيد "جريفـين" فى سـكينة عـلى التربـة المحروثـة جيـدًا، ولامسـت "إيميلايـن" مكابـح العربـة الفضيـة بنشـوة هادئـة متهـورة، ورفعتهـا "آديلايـن" حتـى تتمكنـا مـن تحريـك ذلـك الـشيء.

أسمتا العربة بلغتهما "ڤووم".

جـرَّت الفتاتـان العربـة بطـول الواجهـة الخلفيـة للمنـازل، تبـين أن الأمـر أصعـب مـما ظنتـا، فبدايـة، العربـة أثقـل مـما تبـدو عليـه، كـما أنهـما جرتاهـا عـلى أرض غـير مسـتوية، وطـرف الحقـل مائـل قليـلاً مـا أمـال العربـة بدرجـة مـا، بإمكانهـما جعـل العجـلات الأربـع عـلى المستوى نفسـه، لكـن الأرض المحروثـة حديثًـا لينـة أكـثر هنـاك، وقـد غـرزت العجـلات وسـط كتـل الطـين، كانـت معجـزة أنهـما اسـتمرتا بالتقـدم بعـد أول عشريـن مـترًا، فقـد علِقـت الأشـواك ونبـات العليـق فى المكابـح وأبطـأت العربـة، لكـن فى الواقـع لم يكـن ذلـك مزعجًـا لهـما، إذ دفعتـا بكل مـا أوتيتـا مـن قـوة لإيصـال تلـك العربـة إلى البيـت، وبذلتـا كل قوتهـما، لكـن بالـكاد بـدا عليهـما الشـعور بـكل ذلـك المجهـود، دَمِيَـت أصابعهـما

إثـر إزالـة الأشـواك مـن العجـلات، لكنهـما اسـتمرتا، لا تـزال "إيميلايـن" تدنـدن أغنيـة الحـب للعربـة، وتعطيهـا ضربـة مختلسـة بأصابعهـا بـين الحـين والآخـر، وتقبّلهـا.

أخـيراً وصلتـا إلى نهايـة الحقـول وأصبـح المنـزل في مرمـى بصرهـما، لكـن بـدلاً مـن الاتجـاه إليـه مبـاشرة، انعطفتـا نحـو منحـدرات حديقـة الغـزلان، فقـد أرادتـا اللعـب، فدفعتـا العربـة نحـو قمـة أطـول منحـدر في الحديقـة بـلا كلـل، وجعلتاهـا في وضـع الاسـتعداد، أخرجتـا الرضيـع منهـا ووضعتـاه عـلى الأرض، ورفعـت "آديلايـن" نفسـها إلى داخـل العربـة، لاصقـت ذقنهـا بركبتيهـا، ممسـكة بجانبـي العربـة، ووجههـا شـاحب، وبإشـارة مـن عينيهـا، دفعـت "إيميلايـن" العربـة بـكل مـا لديهـا مـن قـوة.

في البدايـة انطلقـت ببـطء، فـالأرض وعـرة، والمنحـدر في بدايتـه ليـس حـادًا، لكـن سرعـة العربـة ازدادت باطـراد، ولمعـت العربـة السـوداء في شـمس المغيـب مـع دوران عجلاتهـا، أسرع فـأسرع، حتـى أصبحـت المكابح بـلا فائـدة تقريبًـا، ثـم بـلا فائـدة تمامًـا، يـزداد المنحـدر حـدة، وتتسـبب نتـوءات الأرض في اهتـزاز العربـة مـن جانـب إلى آخـر حتـى أصبحـت عـلى وشـك الانقـلاب.

عبأت ضجة الأجواء.

"اااااااااااااااااااااه!"

صاحـت "آديلايـن" مـن اللـذة مـع اندفـاع العربـة نحـو قـاع المنحـدر، وتهتـز معهـا عظامهـا وتفقـد معهـا صوابهـا.

فجأة أصبح ما على وشك الحدوث واضحًا.

اصطدمـت إحـدى العجـلات بجـزء بـارز مـن صخـرة، وظهـرت شرارة مـع احتـكاك المعـدن بالحجـر، وفجـأة أصبحـت العربـة مسرعـة ولكـن ليـس نحـو الأسـفل، بـل في الهـواء، تطـير نحـو الشـمس وعجلاتهـا تجـاه

السماء، طارت فى مسار منحنى وخلفها زرقة السماء، حتى هبطت بعنف لتلتقطها الأرض، وعندها سُمع صوت انكسار شىء، صوت يدعو للقرف، وبعد تردد صوت ابتهاج "آديلاين" فى السماء، أصبح فجأة كل شىء هادئًا جدًّا.

جرت "إيميلاين" بسرعة نحو قاع التل، العجلة المواجهة للسماء منبعجة ونصفها مفقود، والعجلة الأخرى لا تزال تدور، ببطء، بعدما فقدت كل زخمها.

امتدت ذراع بيضاء من تجويف العربة السوداء المحطمة، واستقرت بزاوية غريبة على الأرض الحجرية، وعلى اليد توجد بقع من نبات العليق وخدوش أحدثتها الأشواك.

جثت "إيميلاين"، وبدا كل شىء مظلمًا داخل تجويف العربة المحطمة.

لكن حدثت حركة، زوج من الأعين الخضراء يبادلها النظرات.

قالت: "فووم"، وابتسمت.

انتهت اللعبة، وحان وقت العودة إلى المنزل.

***

بصرف النظر عن القصة نفسها، قليلاً ما تحدثت السيدة "وينتر" خلال لقاءاتنا، ففى أول أيامى هناك اعتدت أن أسألها: "كيف حالك؟" حالما أصل إلى المكتبة، لكنها كانت تكتفى بالإجابة: "مريضة، ماذا عنك؟" بنبرة تشى بسوء المزاج، كأننى حمقاء لسؤالى، لم أجب عن سؤالها قط، وهى لم تنتظر ردى، لذا سريعًا ما بلغت أحاديثنا نهايتها، كنت أدلف المكتبة بخفة، قبل دقيقة بالضبط من موعدنا، وأبلغ مكانى على المقعد بالجانب الآخر من الموقد، وأخرج دفترى من حقيبتى، ثم بلا أيَّة مقدمات، تلتقط طرف قصتها من حيث تركته،

لم يحكم الوقت نهاية هذه الجلسات، أحيانًا قد تتحدث السيدة "وينتر" حتى تصل إلى النهاية الطبيعية لحكاية اليوم، فتنطق الكلمات الأخيرة، ويكون لصوتها عند نهاية الحكايات وقع لا يخفى، يتبع ذلك صمت غير مبهم مثل المساحة البيضاء فى نهاية كتاب، فأدوّن ملاحظة أخيرة فى دفترى، وأطوى غلافه، وأجمع أغراضى وأرحل، ولكن فى أحيان أخرى كانت تتوقف بلا مقدمات، فى منتصف مشهد، وأحيانًا فى منتصف جملة، فأتطلع إليها لأرى وجهها الشاحب حادًّا كأنها تضع قناعًا من التحمل، فى أول مرة رأيتها على هذه الحال سألتها: "أهناك شىء يمكننى فعله؟" لكنها اكتفت بإغلاق عينيها والإشارة إلىّ بالانصراف.

حين انتهت من حكاية "ميرلين" وعربة الرضيع، وضعت قلمى ودفترى فى حقيبتى وانتصبت، قلت: "سأغيب لبضعة أيام".

كان ردها صارمًا: "لا".

"أخشى أن هذا ضرورى، كنت أتوقع أن أبقى هنا لبضعة أيام فقط فى البداية، وها أنا هنا منذ أكثر من أسبوع، ليست معى أغراض كافية لإقامة مطولة".

"سيأخذك (موريس) إلى البلدة لتشترى كل ما تحتاجين إليه".

"أحتاج إلى كتبى..."

أشارت إلى رفوف مكتبتها.

هززت رأسى: "آسفة لكننى حقًّا يجب أن أغادر".

"آنسة (ليا)، يبدو أنك تظنين أن لدينا كل ما يلزمنا من الوقت، ربما لديك أنت، لكن دعينى أذكرك، أنا امرأة منشغلة، لا أريدك أن تخبرينى مجددًا عن المغادرة، فلتكن هذه المرة الأخيرة".

عضضت شفتى وشعرت للحظة أننى مجبرة على الإذعان، لكننى استجمعت شجاعتى: "أتذكرين اتفاقنا؟ الحقائق الثلاث؟ أحتاج إلى التحقق منها".

ترددت هى، "ألا تصدقيننى؟"

تجاهلت سؤالها، "ثلاث حقائق يمكننى التحقق منها، لقد وعدتنى".

زمت شفتيها بغضب، لكنها وافقت.

"بإمكانك المغادرة يوم الاثنين لمدة ثلاثة أيام لا أكثر، (موريس) سيوصلك إلى المحطة".

كنت فى منتصف كتابتى لقصة "ميرلين" وعربة الرضيع حين سمعت طرقًا على باب غرفتى، لم يحن وقت العشاء بعد، لذا تفاجأت، "جودث" لم تقاطع وقت عملى من قبل.

قالت: "هلا تأتين إلى المرسم؟ الطبيب (كليفتون) هنا ويريد التحدث إليك".

حالما بلغت الغرفة، انتصب الرجل الذى رأيته حين وصل إلى المنزل، لا أفضل المصافحة لذا كنت ممتنة حين بدا أنه قرر ألا يمد يده، لكن ذلك تركنا بلا تمهيد للحديث.

"فهمت أنك كاتبة السيرة الذاتية للسيدة (وينتر)، صحيح؟"

"لستُ متأكدة".

"لستِ متأكدة؟"

"إن كانت تخبرنى الحقيقة، فأنا كاتبة سيرتها الذاتية، وإلا فأنا مجرد كاتبة إملاء".

"هممم"، وسكت برهة، "هل لذلك أهمية؟"

"بنظر من؟"

"بنظرك".

لم أعرف، لكننى أعرف أن سؤاله وقح، لذا لم أجب عنه.

"أفترض أنك طبيب السيدة (وينتر)، صحيح؟"

"صحيح".

"لم طلبت مقابلتى؟"

"فى الواقع الأمر متعلق بالسيدة (وينتر)، هى من طلبت منى مقابلتك، تريدنى أن أتأكد من أنك على دراية تامة بحالتها الصحية".

"حسنًا".

بوضوح علمى لا تشوبه أى انفعالات عاطفية، باشر توضيح حالتها لى، وأخبرنى بكلمات قليلة اسم العلة التى تقتلها، والأعراض التى تعانيها، ودرجة ألمها وأفضل ساعات اليوم لها بمساعدة الأدوية وأسوأها، ذكر عددًا من الحالات المرضية الأخرى التى تعانى منها، والتى كانت خطيرة كفاية فى حد ذاتها، لكن الأمر أن المرض الآخر سينال منها أولاً، وأوضح قدر ما استطاع التقدم المحتمل للمرض، والحاجة إلى ترشيد زيادات جرعة الدواء لإبقاء أى شىء احتياطيًّا للمستقبل، حين، مثلما قال تحديدًا، تحتاج إليه حقًّا.

سألته حين انتهى من الشرح: "كم لديها من الوقت؟"

"لا أستطيع أن أجزم، لو كان شخصًا آخر مكانها لمات بالفعل، السيدة (وينتر) قوية حتى النخاع، ومنذ أن أتيتِ..."، قطع جملته، واستشعرت أنه مثل من يجد نفسه دون قصد على وشك تقديم اعتراف.

"منذ أن أتيتُ...؟"

تطلع إلىَّ وبدا متحيراً، لكنه حسم قراره: "منذ أن أتيت، يبدو أنها تحرز بعض التحسن، تقول إنه التأثير المخدر لحكى القصص".

لم أكن واثقة بشأن استنتاجى من هذه المعلومة، وقبل أن أتفكر فى الأمر، تابع الطبيب: "أتفهم أنك ستغادرين..."

"ألهذا طلبت منك أن تتحدث إلى؟"

"كل الأمر أنها تريدك أن تفهمى أن الوقت هو العامل الأهم".

"يمكنك إبلاغها أننى فهمت".

انتهت مقابلتنا، وأمسك لى الباب حتى أخرج، وبعدما تجاوزته، وجه حديثه إلىَّ مجددًا، كانت همسة غير متوقعة: "الحكاية الثالثة عشرة...؟ لا أفترض أنها..."

لمحت فى وجهه الساكن دائمًا، باستثناء تلك اللحظة، التوق المتلهف المحموم الخاص بالقراء.

قلت: "لم تذكرها، وحتى إن ذكرتها، لن تكون لدى حرية أن أخبرك".

هدأت عيناه وسرت رعشة من فمه إلى زاوية أنفه.

"يومك سعيد يا آنسة (ليا)".

"يومك سعيد أيها الطبيب".

# الطبيب "مودسلى" وزوجته

فى يومى الأخير حكت لى السيدة "وينتر" قصة الطبيب والسيدة "مودسلى".

***

ترك الأبواب مفتوحة والتجول فى منازل الآخرين شىء، والتجول برضيع فى عربته شىء آخر تمامًا، حقيقة أن الرضيع، حين عُثر عليه، كان سالمًا رغم اختفائه المؤقت، لم تكن الحقيقة الأهم، فقد خرجت الأمور عن السيطرة، ودعت الحاجة إلى فعل شىء ما.

لم يشعر أهل القرية بأنهم قادرون على الحديث مع "تشارلى" مباشرة بهذا الشأن، فقد أدركوا أن أمورًا غريبة كانت تحدث فى المنزل، وكانوا شبه خائفين من الذهاب إلى هناك، من الصعب الجزم إن كان ذلك تأثير "تشارلى" أم "إيزابيل" أم الشبح الذى شجعهما على الانعزال، بدلاً من ذلك، تحدثوا مع الطبيب "مودسلى"، وهو ليس الطبيب الذى ربما تسبب فشله فى الوصول سريعًا فى موت والدة

"إيزابيل" فى أثناء الولادة، بل هو رجل آخر كان قد عمل فى القرية لمدة ثمان أو تسع سنوات بحلول ذلك الوقت.

لم يكن الطبيب "مودسلى" شابًا، فمع أنه كان فى منتصف الأربعينات، فإنه يعطى انطباعًا بصغر سنه، ليس طويلاً، ولا يتمتع بجسد قوى للغاية، لكنه يحظى بهالة من الحيوية والقوة، ساقاه طويلتان قياسًا إلى جسده، واعتاد أن يمد الخطى دون أن يبدو عليه بذل الجهد، بإمكانه المشى أسرع من الجميع، فأصبح معتادًا على أن يتحدث ويلتفت فجأة ليجد مسايريه وراءه ببضعة أمتار، يلهثون محاولين اللحاق به، تضاهى تلك الطاقة الجسدية حيوية عقلية عظيمة، يمكنك سماع صدى قوة عقله فى صوته، الذى كان هادئًا مع كونه سريعًا، ويجيد العثور على الكلمة المناسبة للشخص المناسب فى الوقت المناسب، يمكنك أيضًا أن ترى ذلك فى عينيه: لونهما بنى داكن ولامعتان جدًا، مثل أعين الطيور، يقظة وعازمة وفوقها حاجبان قويان ومهندمان.

تمتع "مودسلى" بموهبة نشر حيويته حوله، وهذه ليست سيئة للطبيب، فبمجرد أن يخطو على الطريق، أو أن يطرق الباب، يبدأ مرضاه بالشعور بالتحسن، ولقد أحبوه على نحو خاص، كأنه منشط فى حد ذاته، أو هكذا اعتبره الناس، يهتم إذا ما عاش مرضاه أو ماتوا، وحين يعيشون -وهي الحال دائمًا تقريبًا- يهتم بجودة عيشهم.

حمل الطبيب "مودسلى" حبًا عظيمًا للأنشطة العقلية، المرض فى نظره أشبه باللغز، تهجره الراحة حتى يحله، اعتاد المرضى زيارته لهم فى الصباح الباكر جدًا بعدما قضى الليل مفكرًا فى أعراضهم، ليسألهم سؤالاً واحدًا إضافيًا، وبمجرد أن يتوصل إلى التشخيص، يلوح أمامه لغز العلاج ليحله، كان يستشير الكتب بالتأكيد، وهو عارف تمامًا بالعلاجات المعتادة، لكنه تمتع بعقل مبتكر ظل يتفكر بشىء ببساطة

احتقان الحنجرة من منظور مختلف، فيبحث أكثر وباستمرار عن أيَّة معلومة ولو صغيرة، قد لا تمكنه من معالجة احتقان الحنجرة فقط، بل وفهم ظاهرة احتقان الحنجرة من منظور جديد تمامًا، إنه نشيط وذكى ولطيف، إنه طبيب جيد على نحو استثنائى، وشخص أفضل من المتوسط، ولكن كحال كل البشر، لديه بقعة عمياء.

ضم وفد أهل القرية والد الطفل وجده وصاحب الحانة، وهو رجل يبدو ضجرًا ولا يحب أن يبقى بعيدًا عن قلب الأحداث، رحب الطبيب "مودسلى" بالثلاثى واستمع بانتباه فى حين حكى اثنان منهم ما لديهما، بدأت الحكاية بترك الأبواب مفتوحة، ووصلا إلى المشكلة المزعجة الخاصة بالقدور المفقودة ووصلا بعد دقائق معدودة إلى ذروة القصة: اختطاف الرضيع فى عربته.

واختتم "فريد جايمسن" الشاب: "إنهما بلا ضابط ولا رابط".

وأضاف "فريد جايمسن" العجوز: "خارجتان عن السيطرة".

سأل الطبيب "مودسلى" الرجل الثالث: "وما رأيك؟" بعدما ظل "ويلفريد بونر" الذى التزم مكانه الجانبى والصمت حتى الآن.

خلع السيد "بونر" قبعته وأخذ نفسًا بطيئًا له صفير: "لست متخصصًا فى الطب، لكن يبدو لى أن الفتاتين ليستا طبيعيتين"، وصحب كلماته بنظرة ذات دلالة، ثم تحسبًا لئلا يكون مقصده قد فُهم، نقر على رأسه ثلاث مرات.

نظر الرجال الثلاثة بقلق إلى أحذيتهم.

رد الطبيب: "اتركوا الأمر لى، سأتحدث إلى العائلة".

غادر الرجال، لقد فعلوا ما بإمكانهم، والأمر الآن بيد الطبيب، الذى أصبح الآن كبير القرية.

ومع أنه قال إنه سيتحدث إلى العائلة، فما فعله الطبيب حقًّا هو أنه تحدث مع زوجته.

علقت زوجته بعدما حكى القصة: "أشك أن الطفلتين قصدتا أى أذى بذلك، أنت تعرف الأطفال، اللعب بالرضيع أكثر إمتاعًا بكثير من اللعب بدمية، لكنهما ما كانتا لتؤذياه، ومع ذلك، يجب أن تؤمرا بألا تكررا ذلك، مسكينة (مارى)"، ورفعت عينيها عما تحيكه والتفتت إلى زوجها.

السيدة "مودسلى" جذابة على نحو استثنائى، لها عينان بنيتان كبيرتان برموش طويلة ملتوية على نحو جميل، وشعرها الداكن الذى لم تصل إليه أى من درجات الرمادى تضمه إلى الخلف بطريقة بسيطة للغاية لا تظهر إلا جمالاً حقيقًا، وحين تمشى، كان لجسدها جمال أنثوى ناضج.

عرف الطبيب أن زوجته جميلة، لكنهما تزوجا منذ فترة طويلة حتى أصبح الأمر لا يشكل فارقًا بنظره.

"يظنون فى القرية أن الفتاتين متأخرتان ذهنيًّا".

"بالتأكيد لا!"

"هكذا يظن (ويلفريد بونر) على الأقل".

هزت رأسها متعجبة، "إنه خائف منهما لأنهما توأمان، مسكين (ويلفريد)، إنه الجهل المتوارث، أشكر الرب على أن الأجيال الأصغر أكثر تفتحًا".

الطبيب رجل علم، ومع أنه عرف أن من غير المرجح إحصائيًّا أن تعانى الطفلتان من أى تأخر عقلى، فقد قرر ألا يستبعد هذا الاحتمال حتى يراهما، ولكنه لم يتفاجأ بأن زوجته، التى يحرم دينها أن تظن

السوء بأى شخص، قد تصدق أن تلك الشائعة مجرد نميمة بلا أساس سليم .

تمتم: "واثق بأنك على حق"، بنبرة غامضة وشت بثقته بأنها على خطأ، لقد أقلع عن محاولة إقناعها بتصديق ما هو حقيقى فقط، فقد نشأت على نوع من التدين لا يميز بين ما هو حقيقى وما هو صحيح.

سألته: "ماذا ستفعل إذاً؟"

"سأذهب وأقابل العائلة، (تشارلز آنجلفيلد) أشبه قليلاً بالزاهد المنزوى، لكنه بالتأكيد سيقابلنى إن ذهبت".

أومأت السيدة "مودسلى" برأسها، وهى طريقتها فى عدم موافقة زوجها، مع أنه لم يدرك ذلك، "ماذا عن الأم؟ ماذا تعرف عنها؟"

"القليل جدًّا".

وتابع الطبيب تفكيره فى صمت، وتابعت السيدة "مودسلى" الحياكة، وبعد ربع ساعة، قال الطبيب: "ما رأيك أن تذهبى إليهم يا (ثيودورا)؟ الأم قد تفضل أن تلتقى امرأة أخرى وليس رجلاً، ما رأيك؟"

وبعد ثلاثة أيام وصلت السيدة "مودسلى" إلى المنزل وطرقت الباب الأمامى، مندهشة من عدم الرد، عبس وجهها -فقد أرسلت رسالة بأنها ستأتى- وتجولت حول المنزل حتى وصلت إلى الخلف، كان باب المطبخ مواربًا فدخلت بعد طرق سريع، لم تجد أحدًا هناك، تطلعت السيدة "مودسلى" حولها، على المائدة ثلاث تفاحات، لونها بنى ومتجعدة وفى طريقها للانهيار، وقماشة صحون سوداء بجوار حوض ترتفع الأطباق المتسخة بداخله، ونافذة قذرة للغاية لا تميز عبرها الليل من النهار، اشتم أنفها الأبيض الرقيق الهواء داخل

المنـزل، فأخبرهـا بـكل مـا تحتـاج إلى معرفتـه، زمـت شـفتيها، ويبسـت كتفيهـا، وأطبقـت قبضتهـا عـلى مقبـض حقيبتهـا الـذى عـلى هيئـة هيـكل سـلحفاة وانطلقـت فى حملتهـا بالمنـزل، تنقلـت مـن غرفـة إلى أخـرى بحثًـا عـن "إيزابيـل"، تلاحـظ فى طريقهـا القـذارة والفـوضى والوسـخ المنتـشر فى كل مـكان.

تشـعر سـيدة الخـدم بالتعـب بسـهولة، ولا تسـتطيع أن تنظـف السـلالم جيـدًا، وبصرهـا آخـذ فى الضعـف، وكثـيراً مـا تظـن خطـأ أنهـا نظفـت أشـياء، أو تخطـط لتنظيفهـا ثـم تنسى، وبصراحـة إنهـا تعـرف أن لا أحـد يهتـم، لـذا ركـزت معظـم جهدهـا عـلى إطعـام الطفلتـين، وكانتـا محظوظتـين لأنهـا نجحـت فى ذلـك، لـذا كان المنـزل قـذرًا ومغـبراً، ولـو مـال إطـار إحـدى الصـور المعلقـة، يظـل مائـلاً لمـدة عقـد، وإن لم يجد "تشـارلى" سـلة القمامـة فى مكتبـه، فإنـه يكتفـى برمـى الأوراق عـلى الأرض حيـث كانـت السـلة، وقـد اكتشـف سريعًـا أن الأمـر أيـسر أن يخـرج القمامـة مـرة سـنويًا عـن أن يخرجهـا مـرة أسـبوعيًا.

لم تعجـب السـيدة "مودسـلى" بمـا رأتـه عـلى الإطـلاق، اسـتاءت أمـام السـتائر نصـف المغلقـة، وتنهـدت أمـام الأدوات الفضيـة الباهتـة، وهـزت رأسـها اندهاشًـا حـين رأت القـدور عـلى السـلالم والأوراق الموسـيقية المنثـورة عـلى الأرض بطـول المدخـل، وفى المرسـم انحنـت عـلى نحـو تلقـائى لالتقـاط ورقـة لعـب، ورقـة الثلاثـة مـن البسـتوني[1]، التـى كانـت ملقـاة أو منسـية فى وسـط أرضيـة الغرفـة، لكـن حـين تطلعـت حولهـا بحثًـا عـن بقيـة المجموعـة، كانـت كالتائهـة، فـلا شىء هنـاك سـوى الفـوضى، عـادت بنظرهـا يائسـة إلى الورقـة وقـد أدركـت الآن أنهـا مغطـاة بالغبـار، وكونهـا امـرأة حساسـة تجـاه النظافـة وصعبـة الإرضـاء، غلبتهـا رغبـة فى أن تـترك الورقـة فى مـكان مـا، ولكـن أيـن؟ لمـدة ثـوانٍ قليلـة، شـل الذعـر حركتهـا،

(1) أوراق اللعب ذات رمز القلب.

وأحسـت بالحصـار بـين الرغبـة فى إنهـاء العلاقـة بـين قفازهـا الـذى يبـدو جديـدًا وورقـة اللعـب المغـبرة اللزجـة قليـلاً، وعـدم اسـتعدادها لوضـع الورقـة فى مـكان غـير مكانهـا، وفى النهايـة، برعشـة واضحـة عـلى كتفيهـا، وضعتهـا عـلى ذراع الكـرسى الجلـدى، وخرجـت مـن الغرفـة بارتيـاح.

بـدت المكتبـة أفضـل حـالاً، بالطبـع هـى مغـبرة، والسـجاد رث، لكـن الكتـب نفسـها بـدت فى مكانهـا الصحيـح، وهـو أمـر مميـز، ولكـن حتـى فى المكتبـة، وفى اللحظـة التـى ظنـت فيهـا أن هنـاك ذرة حـس بالنظـام لـدى تلـك العائلـة القـذرة الفوضويـة، صادفـت سريـرًا مؤقتًـا، السريـر مدسـوس فى زاويـة مظلمـة بـين مجموعتـين مـن الرفـوف، وهـو عبـارة عـن بطانيـة تسـكنها البراغيـث ووسـادة قـذرة، فى البدايـة ظننتـه سريـر قطـة، ثـم بالنظـر مجـددًا، لاحظـت طـرف كتـاب ظاهـر مـن تحـت الوسـادة، فأخرجتـه ووجدتـه روايـة "جـين أيـر".

مـرت مـن المكتبـة إلى غرفـة الموسـيقى حيـث وجـدت الفـوضى نفسـها التـى فى كل مـكان، الأثـاث منسـق بشـكل غريـب كأن الهـدف منه تسـهيل لعـب الغميضـة، الشـيزلونج الطويـل موجـه نحـو الحائـط، ويوجـد كـرسى نصفـه مختـفٍ بواسـطة خزانـة جُـرت مـن مكانهـا تحـت النافـذة ووراءهـا مسـاحة مـن السـجاد عريضـة وممسـوحة، حيـث الغبـار أقـل كثافـة واللـون الأخـضر أكـثر وضوحًـا، وعـلى البيانـو تحتـوى زهريـة عـلى سـيقان نباتـات مسـودة وجافـة، وحولهـا دائـرة منتظمـة مـن بتـلات الأزهـار الشـبيهة بالرمـاد، مـدت السـيدة "مودسـلى" يدهـا نحـو إحـدى البتـلات والتقطهـا، فتفتـت تاركـة بقعـة قـذرة لونهـا بـين الأصفـر والرمـادى بـين أصابـع قفازهـا الأبيـض.

يبدو أن السيدة "مودسلى" تركت نفسها لتهوى على مقعد البيانو.

لم تكـن زوجـة الطبيـب امـرأة شريـرة، بـل كانـت مقتنعـة كفايـة بأهميتهـا، لدرجـة اعتقادهـا بـأن الـرب مطلـع عـلى كل مـا تفعله ويسـتمع

إلى كل ما تقولـه، وقـد كانـت مأخـوذة جـدًّا بفكـرة التخلـص مـن الفخـر الـذى قـد تشـعر بـه تجـاه قداسـتها، مـا كان يمنعهـا بدرجـة مـا مـن أن تلاحـظ أى عيـوب قـد تكـون لديهـا، كانـت تريـد إصـلاح الكـون، مـا يعنـى أن السـوء الـذى فعلتـه، قـد فعلتـه دون إدراكهـا.

مـاذا كان يـدور بعقلهـا حـين جلسـت عـلى مقعـد البيانـو تحملـق إلى الخـواء؟ هـؤلاء أنـاس لم يحافظـوا عـلى الحيـاة فى زهرياتهـم، لا عجـب أن طفلتيهـما تسـيئان التـصرف! بـدا فجـأة أن مـدى المشـكلة انكشـف أمامهـا مـن خـلال الأزهـار الميتـة، وقـد خلعـت قفازيهـا وحركـت أصابعهـا عـلى مفاتيـح البيانـو السـوداء والرماديـة بعقـل شـارد.

تـردد فى الغرفـة أقـصى مـا يمكـن تخيلـه مـن الأصـوات المزعجـة، أبعـد مـا تكـون عـن صـوت البيانـو، يعـود هـذا جزئيًّـا إلى الإهـمال الـذى أصـاب البيانـو، إذ لم يُسـتخدم ولم تُضبـط نغماتـه لأعـوام، كـما أن اهتـزاز أوتـار الآلـة مصحـوب لحظًّـا بضوضـاء أخـرى، لا تقـل نشـازًا عـن صـوت البيانـو، صـوت أشـبه بهسهسـة قويـة، صريـر مـن نـوع جامـح، مثـل قطـة وجـدت ذيلهـا تحـت قدمـك.

أحـدث ذلـك الصـوت زلـزالاً داخـل السـيدة "مودسـلى" أخرجهـا مـن خيالاتهـا، حـين سـمعت ذلـك العـواء، حملقـت إلى البيانـو غـير مصدقـة ووقفـت ويداهـا عـلى خديهـا، وفى خضـم ذهولهـا، كان لديهـا أقـل مـن لحظـة لتـدرك أنهـا ليسـت وحدهـا.

مسكينة السيدة "مودسلى".

لم يسـعفها الوقـت لتـدرك أن الـشىء المتشـح بالبيـاض أمامهـا يلـوح مهـددًا بآلـة كـمان، وأن هـذا الكـمان يهـوى سريعًـا وبشـدة عـلى رأسـها، وقبـل أن تسـتوعب أيًّـا مـن هـذا، بلـغ الكـمان جمجمتهـا، وغمرهـا الظـلام وهـوت أرضًـا بـلا وعـى.

ذراعاهـا ممددتـان بـلا هيئـة محـددة، ومنديلهـا الأبيـض الأنيـق لا يـزال مدسوسًـا داخـل حـزام سـاعتها، بـدا كأن الحيـاة ضلـت الطريـق إلى جسـدها، وهبطـت سـحب الغبـار الصغـيرة التـى ارتفعـت مـن السـجاد متبخـترة.

ظلـت مكانهـا لنصـف سـاعة كاملـة، حتـى عـادت سـيدة الخـدم مـن المزرعـة حيـث كانـت تجمـع البيـض، ولمحـت بالصدفـة جسـمًا داكنًـا، حيـث لم تـر مـن قبـل أى أجسـام داكنـة.

لم يوجد أى أثر لكائن متشح بالبياض.

***

وأنـا أفـرغ الأحـداث مـن ذاكـرتى، بـدا لى أن صـوت السـيدة "وينـتر" يمـلأ غرفتـى بدرجـة الواقعيـة نفسـها التـى مـلأ بهـا المكتبـة، لديهـا طريقـة فى الحديـث تنقـش الأحـداث فى ذاكـرتى، وتجعلهـا موثوقـة كأنهـا تسـجيل صـوتى، لكـن فى لحظـة قولهـا: "لم يوجـد أى أثـر لكائـن متشـح بالبيـاض"، سـكتت لوهلـة، وأتوقـف أنـا الآن لوهلـة، قلمـى يحـوم عـلى الصفحـة، أفكـر فى مـا حـدث بعدهـا.

كنـت مسـتغرقة فى القصـة، لـذا احتجـت إلى لحظـة لأنقـل تركيـزى مـن مشـهد زوجـة الطبيـب الممـددة أرضًـا إلى راويـة القصـة نفسـها، وحـين فعلـت ذلـك أصابنـى الفـزع، فشـحوب وجـه السـيدة "وينـتر" العـادى أفسـح المجـال للـون بـين الأصفـر والرمـادى، وجسـدها، الـذى يجـب ذكـر أنـه متصلـب دائمًـا، بـدا فى تلـك اللحظـة أنـه يحمـى نفسـه مـن هجـوم مـا خفـى، لاحظـت رجفـة حـول فمهـا، وظننـت أنهـا عـلى وشـك خسـارة معركـة السـيطرة عـلى شـفتيها، وأن تجهـمًا مكبوتًـا اقـترب مـن الظفـر بوجههـا.

انتصبت من مقعدى فزعة، لكننى ليست لدى فكرة عما يجب فعله.

صحت عاجزة: "سيدة (وينتر)، ماذا بك؟"

أظننى سمعتها تقول: "إنه ذئبى"، لكن الجهد الذى بذلته لتتحدث كان كافيًا لترتجف شفتاها مجددًا، أغلقت عينيها، وبدا أنها تصارع لضبط أنفاسها، وبينما كنت على وشك الإسراع لإيجاد "جوديث"، استعادت السيدة "وينتر" سيطرتها، وهدأ صعود وهبوط صدرها، وتوقف ارتعاش وجهها، ومع أنها لا تزال شاحبة كالموتى، فتحت عينيها وتطلعت إلىّ.

قالت بوهن: "الآن أفضل..."

عدت ببطء إلى مقعدى.

"أظننى سمعتك تقولين شيئًا عن ذئب".

"نعم، إنه الوحش الأسود الذى ينخر عظامى كلما واتته الفرصة، إنه يتسكع فى الزوايا وخلف الأبواب معظم الوقت، لأنه يخاف هذه"، وأشارت إلى الحبوب البيضاء على الطاولة المجاورة لها، "لكنها لا تستمر للأبد، الساعة قاربت الثانية عشرة وقد بدأ تأثيرها فى الخفوت، إنه يتنفس عند رقبتى، بعد مرور نصف ساعة سيغرز أسنانه وحوافره فى جسدى، حتى الساعة الواحدة، حينئذ يمكننى تناول قرص آخر وسيضطر إلى الرجوع إلى زاويته، نحن فى حالة ترقب دائم لعقارب الساعة، أنا وهو، يعجل هجومه خمس دقائق كل يوم، لكننى لا أستطيع أن أتناول أقراصى قبل موعدها بخمس دقائق، فيبقى الوضع على ما هو عليه".

"لكن الطبيب بالتأكيد..."

"بالتأكيد، يعدل الجرعة مرة أسبوعيًا أو مرة كل عشرة أيام، لكن هذا ليس كافيًا أبدًا، وهو لا يريد أن يقتلنى بالدواء، لذا فحين أموت، سيكون الذئب هو من قتلنى".

نظرت إلىَّ، أو لأكون دقيقة، تراجعت.

"الأقـراص هنـاك، انظـرى، وهـذه كأس الميـاه، إن أردتُ، يمكننـى إنهـاء كل هــذا بنفـسى، وقتــما أريــد، فــلا تأســفى لحــالى، لقــد اخــترت هــذا الطريـق لأن لـدى مـا يجـب فعلـه قبلهـا".

أومأت: "حسنًا".

"إذًا فلنفعل اللازم، أين وصلنا؟"

"زوجة الطبيب، فى غرفة الموسيقى، مع الكمان".

وتابعنا عملنا.

***

لم يكن "تشارلى" معتادًا على التعامل مع المشكلات.

كانـت لديـه مشـكلات، الكثـير منهـا، ثمـة ثقـوب فى السـقف، وزجـاج نوافـذ مكسـور، وطيـور تتحلـل فى غـرف العليـا، لكنـه تجاهلهـا جميعًـا، أو ربمـا كان غائبًـا جـدًّا عـن العـالم لدرجـة أنـه لم يلحظهـا، وحـين بلـغ تغلغـل الشـتاء مسـتوى سـيئًا، اكتفـى ببسـاطة بغلـق غرفتـه واللجـوء إلى غيرهـا، ففـى النهايـة، البيـت كبـير كفايـة، يتسـاءل المـرء إن كان قـد أدرك بعقلـه بطـىء الاسـتيعاب أن الآخريـن يصونـون منازلهـم، لكـن مجـددًا، الخـراب بيئـة "تشـارلى" الطبيعيـة، وشـعر بأنهـا بيتـه.

لكـن أن تبـدو زوجـة طبيـب كالميتـة فى غرفـة الموسـيقى، فهـذه ليسـت مشـكلة يمكنـه تجاهلهـا، إلا لـو كانـت واحـدة مـن سـكان المنـزل، لكـن المشـكلة أنهـا غريبـة، لهـذا فالأمـر مختلـف، يجـب فعـل شىء مـا، مـع أنـه ليـس لديـه فكـرة عـما قـد يكونـه ذلـك الـشىء، فحملـق إلى زوجـة الطبيـب والكـرب بـادٍ عليـه وهـى ترفـع يدهـا إلى رأسـها المضطـرب وتتأوه، قـد يكـون غبيًّـا، لكنـه عـرف مـا يعنيـه ذلـك، هنـاك كارثـة فى الطريـق.

بعثت سيدة الخدم "جون ذا ديج" بحثًا عن الطبيب، ووصل فى الوقت المناسب، بدا لوهلة أن الهواجس المترقبة للكارثة لم يكن لها أساس سليم، بعدما تبين أن زوجة الطبيب ليست متأذية بشدة، بل بالكاد ارتج دماغها، رفضت جرعة من البراندى، وقبلت بالشاى، وبعد وهلة كانت سليمة مثلما جاءت، قالت: "كانت امرأة، امرأة متشحة بالبياض".

علقت سيدة الخدم: "هذا هراء"، مطمئنة لها ورافضة لادعائها فى آن، "لا توجد بالمنزل امرأة متشحة بالبياض".

لمعت الدموع فى عينى السيدة "مودسلى" البنيتين، لكنها تمسكت بروايتها: "نعم، امرأة ذات جسد محدد قليلاً، هناك على الشيزلونج الطويل، لقد سمعت البيانو وانتصبت و..."

سألها الطبيب "مودسلى": "هل رأيتها طويلاً؟"

"لا، فقط للحظة".

قاطعتها سيدة الخدم: "حسنًا، أترون؟ هذا غير معقول"، ومع أن صوتها كان متعاطفًا، فإنه كان صارمًا أيضًا، "ليست هناك امرأة متشحة بالبياض، لا بد أنك رأيتِ شبحًا".

ثم وللمرة الأولى، سُمع صوت "جون ذا ديج": "بالفعل يُقال إن هذا البيت مسكون".

للحظة تطلع المتجمعون إلى الكمان المكسور الذى تُرك على الأرض، وفكروا فى النتوء الذى يبرز على صدغ السيدة "مودسلى"، لكن قبل أن يستجيب أحد لتلك النظرية، ظهرت "إيزابيل" فى المدخل، نحيفة وممشوقة القوام، ترتدى فستانًا لونه ليمونى باهت، وشعرها معقود أعلى دماغها بشكل عشوائى وأشعث، وعيناها جامحتان رغم جمالهما.

سأل الطبيب زوجته: "أيمكن أن تكون هذه المرأة التى رأيتها؟"

قارنـت السـيدة "مودسـلى" "إيزابيـل" بالصـورة التـى ببالهـا، كـم مـن الدرجـات تفصـل بـين الأبيـض والأصفـر الباهـت؟ أيـن تحديـدًا الخـط الفاصـل بـين الجسـد النحيـف والجسـد المحـدد؟ كيـف قـد تؤثـر ضربـة عـلى الـرأس عـلى ذاكـرة الإنسـان؟ تـرددت، ثـم قـررت حالمـا رأت العينـين الزمرديتـين وجدتهـا مطابقـة لمـا فى ذاكرتهـا.

"نعم، إنها هى".

تجنبت سيدة الخدم و"جون ذا ديج" تبادل أيَّة نظرات.

منـذ تلـك اللحظـة، كانـت "إيزابيـل" محـط اهتـمام الطبيـب، ناسـيًا زوجتـه نفسـها، نظـر إليهـا مـن كثـب وبرفـق، والقلـق يلـوح فى عينيـه وهـو يطـرح عليهـا السـؤال تلـو الآخـر، حـين رفضـت الإجابـة ظـل محتفظًـا بهدوئـه، لكـن حـين كلفـت نفسـها عنـاء الإجابـة -أحيانًـا بتلاعـب، وأحيانًـا بتـبرم، وأحيانًـا بحماقـة- اسـتمع بعنايـة، يومـئ وهـو يـدوّن ملاحظاتـه فى مذكرتـه الطبيـة، تنـاول رسـغها لقيـاس نبضهـا، ولاحـظ مذعـورًا الجـروح والندبـات التـى ميـزت الجـزء الداخـلى مـن سـاعدها.

"أتفعل هذا بنفسها؟"

تمتمت سيدة الخدم الصادقة بتردد: "نعم"، فزم الطبيب شفتيه قلقًا.

التفـت إلى "تشـارلى": "أيمكـن أن نتحـدث عـلى انفـراد يـا سـيدى؟" نظـر إليـه "تشـارلى" بـلا أى تعبـير، لكـن الطبيـب جذبـه مـن مرفقـه: "ربمـا فى المكتبـة؟" وقـاده بحـدة إلى خـارج الغرفـة.

فى المرسـم انتظـرت سـيدة الخـدم وزوجـة الطبيـب وتظاهرتـا بعـدم الانتبـاه إلى الأصـوات الآتيـة مـن المكتبـة، صـدرت همهمـة ليسـت لصوتين، بـل لصـوت واحـد، هـادئ ومحكـم، وحـين سـكت، سـمعنا "لا"، ثـم "لا!" مجـددًا بصـوت "تشـارلى" المرتفـع، ثـم مجـددًا النـبرات الهادئـة للطبيـب، بعـد بعـض الوقـت، سـمعنا اعتراضـات "تشـارلى" المتكـررة قبـل أن ينفتـح

الباب ويخرج الطبيب، يبدو جادًا ومهزوزًا، ومن ورائه أتى صراخ قوى من اليأس والضعف، لكن الطبيب اكتفى بأن جفل وأغلق الباب وراءه.

قال لسيدة الخدم: "سأتولى الترتيبات اللازمة لإدخالها المصحة، وكذا توصيلها، هل الساعة الثانية مناسبة؟"

أومأت برأسها وهى مرتبكة، ونهضت زوجة الطبيب لتغادر.

فى الساعة الثانية جاء ثلاثة رجال إلى المنزل، واقتادوا "إيزابيل" خارجًا إلى عربة يجرها حصانان فى المدخل، سلمت نفسها إليهم مثل الحمل، وجلست فى مقعدها بإذعان، لم تنظر حتى إلى الخارج قط مع تقدم الحصانين ببطء فى الممر نحو البوابات.

أما الطفلتان فكانتا ترسمان دوائر بأصابع أرجلهما وسط حصى الممر.

وقف "تشارلى" على السلم يتابع العربة وهى تتضاءل، يبدو كطفل تؤخذ منه لعبته المفضلة، ويعجز عن تصديق أن هذا يحدث فعلاً، لم يدرك الأمر بعد.

راقبته من الردهة سيدة الخدم و"جون ذا ديج" بقلق، ينتظران أن يدرك ما حدث.

بلغت العربة البوابات واختفت عبرها، استمر "تشارلى" فى التحديق إلى البوابات المفتوحة لثلاث أو أربع أو خمس ثوانٍ، ثم انفتح فمه، دائرة واسعة ترتعش وتنتفض، كشفت لسانه المرتعش، واحمرار حنجرته، وخيوط اللعاب على قمة تجويف مظلم، تفرجنا مذهولين، منتظرين تلك الضوضاء المروعة التى ستخرج من الفم الفاغر المرتج، لكنه لم يكن جاهزًا للخروج بعد، تعاظم الصوت خلال ثوان طويلة، فقد ظل يتراكم بداخله حتى بدا أن جسده بالكامل ممتلئ بصوت مكبوت، وبعد طول انتظار هبط على ركبتيه على السلم وصدرت

عنه تلك الصرخة، لم تكن الجأرة الشديدة التى توقعناها، بل كانت شخرة أنفية رطبة.

رفعت الفتاتان أعينهما عن دوائرهما للحظة، ثم عادتا إليها بلا مبالاة، زم "جون ذا ديج" شفتيه وابتعد عائدًا إلى الحديقة والعمل، لم يكن لديه ما يفعله هناك، وذهبت سيدة الخدم إلى "تشارلى"، ووضعت يدها المواسية على كتفه وحاولت إقناعه بالدخول إلى المنزل، لكنه كان كالأصم أمام كلماتها، واكتفى بالشخر والصرير مثل طفل خاسر.

وهذا كل ما فى الأمر.

***

هذا كل ما فى الأمر؟ هذه الكلمات تعليق ختامى مخفف على نحو غريب على اختفاء والدة السيدة "وينتر"، بدا واضحًا أن السيدة "وينتر" لم تقدر كثيرًا مهارات الأمومة لدى "إيزابيل"، بالفعل بدت كلمة "أم" غائبة من قاموسها، ربما الأمر مبرر: فمما لاحظته، كانت "إيزابيل" أقل النساء اهتمامًا بالأمومة، لكن من أنا لأصدر أحكامًا على علاقة الآخرين بأمهاتهم؟

أغلقت دفترى، ودسست قلمى فى الحلزون ووقفت.

ذكرتها: "سأغيب لثلاثة أيام، سأعوم يوم الخميس".

وتركتها وحيدة مع ذئبها.

# مكتب "ديكنز"

انتهيت من كتابة ملاحظات ذلك اليوم، أصبحت دستة أقلام الرصاص كلها ثلمة، وأمامى مهمة شحذ طويلة، أدخلت رءوس الأقلام فى المبراة واحدًا تلو الآخر، إن أدرت مقبض المبراة ببطء وتساوٍ، قد تحصل أحيانًا على لفافة طويلة من خشب الأقلام، والتى ستلتف على نفسها وتتدلى مرة واحدة إلى سلة المهملات، لكن فى تلك الليلة كنت متعبة، وظلت اللفافات تنكسر تحت ثقل وزنها.

فكرت بشأن القصة، بدأت أعجب بسيدة الخدم و"جون ذا ديج"، أثار "تشارلى" و"إيزابيل" أعصابى، ورأيت أن لدى الطبيب وزوجته أفضل الدوافع، لكن تدخلهما فى حياة الفتاتين لن تُحمد عواقبه.

أما الفتاتان نفسهما فقد حيرتانى، عرفت رأى الآخرين بشأنهما، اعتقد "جون ذا ديج" أنهما لا تتحدثان على نحو سليم، واعتقدت سيدة الخدم أنهما لا تدركان أن الآخرين أحياء، وظن أهل القرية أنهما تعانيان من مشكلة عقلية ما، ما لم أعرفه -وأثار فضولى أكثر

مـن أى شىء آخـر- هـو مـا ظننتـه راويـة القصـة، حـين تحـكى حكايتهـا، تكـون السـيدة "وينـتر" مثـل الفنـار الـذى يـضىء لما حولـه ويغـرق هـو فى الظـلام، كانـت هـى النقطـة العميـاء فى قلـب الأحـداث، تتحـدث بالضمـير "هـم"، ومؤخـرًا تحدثـت بالضمـير "نحـن"، ومـا حـيرنى هـو غيـاب الضمـير "أنـا".

أعـرف ردهـا إن سـألتها بشـأن ذلـك: "آنسـة (ليـا)، بيننـا اتفاق"، سـألتها بالفعـل عـن تفصيلـة أو اثنتـين بقصصهـا، ومـع أنهـا قـد تجيـب مـن حـين إلى آخـر، فإنهـا كانـت تذكـرنى بلقائنـا الأول حينـما لا تريـد الإجابـة: "بـلا أيَّـة حيـل ولا أسـئلة، ولـن تسـترقى النظـر إلى الصفحـات الأخـيرة".

تصالحـت مـع فكـرة أن أظـل فضوليـة لفـترة طويلـة، ومـع ذلـك وفى حـين يـراودنى الفضـول، حـدث شىء فى ذلـك المسـاء سـلط ضـوءً مميـزًا عـلى تلـك النقطـة.

رتبـت مكتبـى وشرعـت فى تحقيـب أشـيائى حـين سـمعت طرقًـا عـلى بـابى، فتحـت ووجـدت "جوديـث" فى الممـر.

"تتسـاءل السـيدة (وينـتر) إن كانـت لديـك دقيقـة لمقابلتهـا أم لا"، كانـت تلـك ترجمـة "جوديـث" المهذبـة لأمـر "أحـضرى الآنسـة (ليـا)"، لم أشـك بذلـك.

طويت بلوزتى وهبطت إلى المكتبة.

كانــت السـيدة "وينـتر" جالســة فى وضعهــا المعتــاد ونــيران الموقــد مســتعرة، لكــن بقيــة الغرفــة مظلمــة.

سألتها من الممر: "أتودين أن أضىء بعض الأنوار؟"

ســمعت إجابتهــا مــن بُعــد: "لا"، فتقدمــت نحوهــا، كانــت الســتائر مفتوحــة والســماء المظلمــة ذات النجــوم المنثــورة منعكســة فى المرايــا.

حين وصلت إلى جانبها، أرانى ضوء الموقد الراقص أن السيدة "وينتر" شاردة الذهن، جلست فى مقعدى بصمت، يهدهدنى دفء النيران، وأحملق إلى سماء الليل المنعكسة فى مرايا المكتبة، مر ربع ساعة وهى متأملة وأنا أنتظر.

ثم تكلمت.

"أرأيت من قبل تلك الصورة لـ(ديكنز) فى مكتبه؟ أظن أن من رسمها رجل يدعى (بوس)، لدى نسخة منها فى مكان ما، سأبحث عنها من أجلك، على أيَّة حال، فى الصورة، كان قد جذب كرسيه بعيدًا عن مكتبه ويغلبه النعاس، عيناه مغلقتان، وذقنه الملتحى على صدره، ينتعل خفيه، وحول رأسه تحوم شخصيات من كتبه مثل دخان سيجار، بعض الشخصيات متزاحمة فوق الأوراق على مكتبه، وشخصيات أخرى منجرفة وراءه، أو طافية فى اتجاهها للنزول، كأنها تظن نفسها قادرة على المشى بأقدامها على الأرض، ولم لا؟ إنها مرسومة بالخطوط الثقيلة نفسها التى رُسم هو بها، فلم لا تكون حقيقية مثله تمامًا؟ تبدو حقيقية أكثر من الكتب على الرفوف، الكتب المرسومة بأخف درجات الخطوط، وتتلاشى فى بعض النقاط إلى لا شىء كالأشباح.

"لماذا ذكرتُ الصورة الآن؟ لا بد أنك تتساءلين، أتذكرها جيدًا لأنها تبدو صورة للطريقة التى عشت بها حياتى، لقد أغلقت باب مكتبى فى وجه العالم وحبست نفسى مع شخصيات من مخيلتى، لمدة ست سنوات تقريبًا كنت أتجسس بلا عقاب على حياة أشخاص خياليين، اختلست النظر بلا خجل إلى قلوبهم وخزانات حماماتهم، ونظرت من فوق أكتاف لأتتبع حركة أقلام الريشة وهى تكتب رسائل الحب والوصايا والاعترافات، لقد تفرجت فى حين يحب المحبون، ويقتل القتلة، ويلعب الأطفال لعبة التظاهر، فتحت السجون والمواخير أبوابها لى، وأوصلتنى السفن الشراعية وقوافل الإبل عبر البحر والرمال،

ومـرت قـرون وسـقطت قـارات كاملـة طاعـة لأوامـرى، لقـد تجسـست عـلى آثـام الأقويـاء، وشـهدت نبـل الودعـاء، لقـد انحنيـت بشـدة عـلى النائمـين فى أسرتهـم، لدرجـة أنهـم ربمـا أحسـوا بأنفـاسى عـلى وجوههـم، لقـد رأيـت أحلامهـم.

يزدحـم مكتبـى بشـخصيات تنتظـر أن تُكتـب، أشـخاص خياليـين، يتوقـون إلى حيـاة، يجذبـون كمـى ويبكـون: (أنـا التـالى! هيـا إنـه دورى!) وأكـون مضطـرة إلى الاختيـار، وبمجـرد أن أختـار، يقبـع الآخـرون فى هـدوء لعـشرة أشـهر أو عـام، حتـى أصـل إلى نهايـة القصـة، ويبـدأ الضجيـج مجـددًا.

وفى الكثـير مـن الأحيـان، خـلال كل هـذه السـنوات مـن الكتابـة، كنـت أرفـع رأسى عـن الورقـة -فى نهايـة فصـل، أو خـلال اسـتراحة هادئـة للتفكير بعـد مشـهد مـوت، أو أحيانًـا أكـون أبحـث عـن الكلمة المناسـبة ليـس إلا- فـأرى وجهًـا فى مؤخـر الحشـود، وجهًـا مألوفًـا، لـه بـشرة شـاحبة، وشـعر أحمـر، يحملـق بثبـات وبعينـين خضراويـن، أعـرف تمامًـا مـن هـى، ومـع ذلـك أتفاجـأ دائمًـا لرؤيتهـا، فى كل مـرة تنجـح فى الظهـور لى عـلى حـين غـرة، عـادة تفتـح فمهـا لتتحـدث إلى، لكـن طـوال عقـود كانـت أبعـد مـن أن أسـمعها، عـلاوة عـلى أننـى بمجـرد أن أعـى وجودهـا أتجنـب الحملقـة إليهـا وأدعـى أننـى لم أرهـا، وأظـن أن ذلـك لم ينطـلِ عليهـا.

"يتسـاءل النـاس عـما يجعلنـى غزيـرة الإنتـاج، إنهـا هـى، إن شرعـت بكتابـة كتـاب جديـد بعـد خمـس دقائـق مـن إنهـاء الأخـير، فهـذا لأن تـرك مـا بـين يـدى عـلى مكتبـى يعنـى التقـاء عينـى وعينيهـا".

"مـرت الأعـوام، وزادت أعـداد كتبـى عـلى رفـوف المكتبـات، وبالتـالى قلـت أعـداد الشـخصيات السـابحة فى أجـواء مكتبـى، ومـع كل كتـاب أكتبـه، تهـدأ ثرثـرة الأصـوات، ويقـل إحسـاسى بالصخـب فى رأسى، تضاءلـت أعـداد الوجـوه التـى تسـتجدى اهتمامـى، ودائمًـا، كانـت هـى موجـودة

فى مؤخـر الحشـد، وتكـون أقـرب مـع انتهـاء كل كتـاب، ذات العينـين الخضراويـن، تنتظـر".

"جـاء يـوم إكـمالى للمسـودة الأخـيرة لكتـابى الأخـير، كتبـت العبـارة الأخـيرة، وأضفـت النقطـة الأخـيرة، عرفـت مـا أنـا بصـدد مواجهتـه، انزلـق القلـم مـن يـدى وأغلقـت عينـىّ، سـمعتها تتكلـم، أو ربمـا كان ذلـك أنـا: (إذًا، لم يتبـقَ غيرنـا الآن)".

"جادلتهـا لبعـض الوقـت، قلـت لهـا: (ذلـك لـن ينجـح أبـدًا، إنـه قديـم جـدًّا، وأنـا لم أكـن إلا طفلـة، لقـد نسـيت"، مـع أننـى كنـت أتذكـر.

"(لكن أنا لم أنسَ، أتذكرين حين...)"

"حتى أنا أعرف ما هو حتمى حين أراه، أنا أتذكر".

سـكنت الذبذبـات الخافتـة فى الهـواء، قاطعـت تأمـلى للنجـوم والتفـت إلى السـيدة "وينـتر"، عيناهـا الخـضراوان تحملقـان إلى ركـن فى الغرفـة كأنهـما فى تلـك اللحظـة تريـان الطفلـة خـضراء العينـين ذات الشـعر النحـاسى.

"هذه الطفلة هى أنت".

"أنـا؟" تحولـت عينـا السـيدة "وينـتر" ببـطء مـن الطفلـة الشـبح إلى، "لا، هـذه ليسـت أنـا، إنهـا..."، وتـرددت، "إنهـا شـخص اعتـدت أن أكونه، لم تعـد تلـك الطفلـة موجـودة منـذ وقـت طويـل جـدًّا، لقـد انتهـت حياتهـا فى ليلـة الحريـق بالتأكيـد، كأنهـا هلكـت فى النـيران، المـرأة التـى ترينهـا أمامـك الآن لا تسـاوى شـيئًا".

"لكن مسيرتك المهنية، وقصصك..."

"حين لا يساوى المرء شيئًا، يُضطر إلى الابتكار، يملأ الفراغ".

ثـم جلسـنا فى صمـت نتابـع نـار الموقـد، وبـين الحـين والآخـر تحـك السـيدة "وينـتر" كـف يدهـا بعقـل شـارد.

تابعت بعد بعض الصمت: "مقالك عن الأخوين (لانديير)".

التفتُّ إليها على مضض.

"لماذا اخترتهما موضوعًا للمقال؟ لا بد أن شيئًا ما لفت انتباهك على نحو خاص، أو أن لديك بعض الإعجاب الشخصى بالقصة".

هززت رأسى: "لا، ليس هناك شىء مميز بشأن الاختيار".

ثم لم يتبقَ سوى سكون النجوم وطقطقة النار.

لا بد أن ساعة أو ما يقاربها قد مرت حتى تكلمت مرة ثالثة، حين كانت النيران أهدأ.

"(مارجريت)"، أعتقد أن هذه هى المرة الأولى التى تدعونى فيها باسمى الأول، "حين تغادرين غدًا..."

"ماذا؟"

"ستعودين، أليس كذلك؟"

من الصعب استبيان تعبير وجهها فى ضوء اللهب الراقص المحتضر، ومن الصعب تحديد مدى علاقة الإرهاق والمرض بالرعشة فى صوتها، لكن بدا لى فى اللحظة التى سبقت إجابتى -"نعم، بالتأكيد سأعود"- أن السيدة "وينتر" خائفة.

فى الصباح التالى أقلنى "موريس" إلى المحطة واستقللت القطار إلى الجنوب.

# التقاويم

من أين قد أبدأ بحثى إلا من بيتى، متجرى؟

أنا مفتونة بالتقاويم القديمة، منذ طفولتى، أيَّة لحظة يضرب فيها الملل أو القلق أو الخوف كانت ترسلنى إلى تلك الرفوف لأتجول سريعًا فى صفحات الأسماء والتواريخ والملاحظات، بين أغلفة تلك الكتب، لُخصت حيوات سابقة فى سطور حيادية على نحو قاسٍ، إنه عالم يحمل فيه الرجال البارونية والأسقفية ويتولون وزارات البرلمان، والنساء لسن إلا زوجاتهم وبناتهم، لم يوضح أى شىء تفضيلات هؤلاء فى وجبة الإفطار، ولا من أحبوا أو الأشكال التى اتخذتها مخاوفهم فى الظلام بعدما يطفئون الشموع، لم تكن هناك ولو معلومة شخصية واحدة، فما الذى أثر فىّ بهذه الملاحظات الشحيحة عن حيوات الأموات؟ ليست إلا حقيقة أنهم كانوا بشرًا، وأنهم عاشوا، وأنهم الآن أموات.

حين أقرؤها، كانت توقظ شيئًا بداخلى، شيئًا بداخلى وليس أنا، يصحو ذلك الجزء الذى فارق الحياة ويلاطفنى حين أقرأ تلك القوائم.

لم أفسر لأحد قط حبى الشديد للتقاويم، لم أقل حتى إننى أحبها قط، لكن والدى لاحظ تفضيلى لها، فكان يحرص على شراء هذا النوع من المجلدات كلما رآه فى مزاد، فيقضى كل أعلام الأموات فى البلاد من أجيال عدة سابقة حياتهم التالية الهادئة على رفوف طابقنا الثانى، وأنا بصحبتهم.

تصفحت قوائم الأسماء فى الطابق الثانى وأنا منحنية على كرسى النافذة، وجدت جد السيدة "وينتر"، "جورج آنجلفيلد"، لم يكن بارونًا، ولا وزيرًا، ولا أسقفًا، لكن مع ذلك اسمه موجود، فللعائلة أصول أرستقراطية، وتمتعت بالألقاب فى مرحلة ما، لكن قبل بضعة أجيال حدث انقسام فى العائلة، فسلكت الألقاب مسارًا، وسلكت الأموال والأملاك مسارًا آخر، وكان جدها على مسار الأملاك، ومع أن التقاويم نزعت إلى تتبع الألقاب فقط، فإن الصلة كانت قريبة كفاية لتمنحه مكانًا، لذا كان موجودًا: "آنجلفيلد، جورج"، إلى جانب تاريخ مولده، يقيم فى منزل "آنجلفيلد" فى أوكسفورد شاير، زوجته "ماتيلدا مونييه" من مدينة ريمس الفرنسية، وله ابن وحيد، "تشارلز"، وحين تتبعته عبر تقاويم الأعوام التالية، وجدت تغيراً بعد عقد من الزمن: له ابن وحيد، "تشارلز"، وابنة وحيدة، "إيزابيلا"، وبعد صفحات قليلة، وجدت توثيقًا لموت "جورج آنجلفيلد"، وتحت اسم "مارش، رولاند"، وجدت زواج "إيزابيل".

للحظة شعرت بأنها فكرة مسلية أننى اضطررت إلى قطع كل تلك المسافة إلى يوركشاير لأسمع قصة السيدة "وينتر"، فى حين أنها كانت هنا طوال الوقت فى التقاويم، على بعد بضعة أمتار من سريرى، لكن بعدها بدأت أفكر على نحو سليم، ماذا تثبت هذه السجلات

الورقيـة؟ فقـط أن أشـخاصًا مثـل "جـورج" و"ماتيلـدا" وطفليهـما "تشـارلز" و"إيزابيـل" قـد عاشـوا، ولا شيء ينفـى أن السـيدة "وينـتر" وصلـت إليهـم مثلـما فعلـت أنـا، عـبر تصفـح كتـاب، تلـك التقاويـم يمكـن العثـور عليهـا فى المكتبـات بـأىّ مـكان، وهـى متاحـة لمـن يريـد تصفحهـا، ألا يمكـن أنهـا توصلـت إلى مجموعـة مـن الأسـماء والتواريـخ، ونسـجت حولهـا قصـة لتسـلى نفسـها؟

لـدى مشـكلة أخـرى إلى جانـب هـذه الشـكوك، مـات "رولانـد مـارش"، وبموتـه توقـف السـجل الورقـى الخـاص بـ"إيزابيـل"، إن عـالم التقاويـم غريـب، ففـى العـالم الحقيقـى، تتفـرع العائـلات مثـل الأشـجار، وتنتقـل الدمـاء الممتزجـة بالـزواج مـن جيـل إلى التـالى، ناسـجة شـبكة علاقـات أوسـع مـن ذى قبـل، وعـلى الجانـب الآخـر، تمـر الألقـاب مـن رجـل إلى آخـر، وهـذا التقـدم الخطـى المحـدود هـو مـا تفضـل التقاويـم تتبعـه، وعـلى جانبـى خـط الألقـاب، يوجـد بضعـة إخـوة وأبنـاء عمومـة أصغـر سـنًّا وقريبـين كفايـة لتشـملهم التقاويـم، هـؤلاء ربمـا يصبحـون لـوردات أو بارونـات، ومـع أن ذلـك غـير مذكـور صراحـة، فـإن أمامهـم فرصـة لنيـل الألقـاب، فقـط لـو حدثـت السلسـلة الصحيحـة مـن المأسـاويات، ولكـن بعـد عـدد محـدد مـن التفرعـات فى شـجرة العائلـة، سـقطت الأسـماء مـن تلـك الهوامـش عـبر الأثـير، وأى مزيـج مـن السـفن المحطمـة وكـوارث الطاعـون والـزلازل لـن يكـون قويًـا كفايـة ليعيـد أقـارب الدرجـة الثالثـة هـؤلاء إلى الصـدارة، فالتقاويـم لهـا حدودهـا، لـذا توقـف الأمـر عنـد "إيزابيـل"، فهـى امـرأة، ولم تلـد رجـالاً، وزوجهـا (الـذى ليـس لـوردًا) مـات، ووالدهـا (الـذى ليـس لـوردًا أيضًـا) مـات، نبذهـا التقويـم وابنتيهـا، غرقـت ثلاثتهـن فى محيـط شاسـع مـن الأشـخاص العاديـين، الذيـن تعـد ولادتهـم وموتهـم وزواجاتهـم، كحـال مـا يحبـون ومـا يخافـون وتفضيلاتهـم فى وجبـة الإفطـار، أتفـه كثـيرًا مـن أن تسـتحق الأجيـال القادمـة معرفتـه.

لكـن "تشـارلى" رجـل، وقـد تمـدد التقويـم حتـى يذكـره هـو فقـط، مـع أن تضاؤل الأهميـة كان بالفعـل يلقـى بظلالـه عليـه، المعلومـات عنـه شـحيحة، اسـمه "تشـارلز آنجلفيلـد"، وُلـد، وعـاش فى "آنجلفيلـد"، لم يتـزوج، ولم يمـت، فبقـدر مـا اهتـم التقويـم، كانـت تلـك المعلومـات كافيـة.

اسـتعنت بمجلـد بعـد الآخـر، ولم أجـد إلا ذلـك الوصـف السـطحى لحياتـه، ومـع كل مجلـد جديـد كنـت أقـول لنفـسى إن هـذه سـتكون السـنة التـى سيسـتبعدونه فيهـا، لكـن فى كل سـنة أجـده، "تشـارلز آنجلفيلـد"، لا يـزال مـن "آنجلفيلـد، ولا يـزال عزبًـا، فكـرت مجـددًا بشـأن مـا قالتـه لى السـيدة "وينـتر" عـن "تشـارلى" وأختـه، وعضضـت شـفتى مـن التفكـير بشـأن مـا يشـير إليـه طـول عزوبتـه.

ثـم وجـدت مفاجـأة حـين كان فى أواخـر الأربعينـات، اسـمه، وتاريـخ مولـده، ومحـل إقامتـه، واختصـار غريـب -"إل دى دى"- لم ألحظـه مـن قبـل.

لجأت إلى جدول الاختصارات ووجدته:

"إل دى دى": إعلان وفاة بالقانون.

وبالعـودة إلى موضـع ذكـر "تشـارلى"، حملقـت إليـه طويـلاً عابسـة، كأننـى إذا حملقـت كفايـة، سـيُحل اللغـز فى الورقـة نفسـها.

فى ذلـك العـام، أُعلنـت قانونًـا وفـاة "تشـارلى"، وبقـدر مـا فهمـت فـإن إعـلان الوفـاة بالقانـون هـو مـا تـؤول إليـه الأمـور حـين يختفـى شـخص وبعـد فـترة محـددة يُسـمح لعائلتـه، لأغـراض توزيـع المـيراث، بافـتراض أنـه متـوفى، عـلى الرغـم مـن عـدم توافـر دليـل أو جثـة، راودنى شـعور بـأن الشـخص يجـب أن يختفـى بـلا أثـر لمـدة سـبعة أعـوام قبـل أن يمكـن اعتبـاره متـوفى، ربمـا مـات فى أى وقـت خـلال تلـك الفـترة، وربمـا لم يمـت بعـد، بـل هـو مختـفٍ، أو تائـه أو هائـم عـلى وجهـه، بعيـدًا عن أى شـخص يعرفـه، متـوفى بالقانـون، لكـن ذلـك لم يعـنِ بالـضرورة أنـه متـوفى حقًّـا،

تساءلت، أيَّة حياة هذه التى تنتهى بهذه الطريقة الغامضة غير المريحة؟ إنه إعلان وفاة بالقانون.

أغلقت التقويم، وأعدته إلى مكانه على الرف، وهبطت إلى المتجر لأعد الكاكاو.

"ماذا تعرف عن الإجراءات القانونية اللازمة لإعلان وفاة شخص؟" رفعت صوتى بالسؤال إلى والدى وأنا واقفة أمام قدر الحليب على الموقد.

وجاء رده: "أظن أننى لا أعرف عنها أكثر منك".

ثم ظهر عند المدخل وأعطانى بطاقة مطوية الأطراف تخص أحد زبائننا، "هذا الرجل لديه الإجابة، إنه أستاذ قانون متقاعد، يعيش الآن فى ويلز، لكنه يأتى كل صيف لتصفح الكتب والتنزه على ضفة النهر، إنه رجل لطيف، لم لا ترسلين إليه رسالة؟ ربما تسألينه أيضًا إن كان يريد أن أُبقى له نسخة من كتاب (مبادئ العدالة الطبيعية) باللاتينية أم لا".

بعدما أعددت الكاكاو، عدت إلى التقويم لأجد كل ما يمكن إيجاده عن "رولاند مارش" وعائلته، اتخذ عمه الفن هواية، وحين انتقلت إلى قسم تاريخ الفن لأتتبع عمه، عرفت أن البورتريهات خاصته اعتُبرت لفترة قصيرة ذروة الموضة الفنية، فى حين تُعتبر الآن عادية، ضم مجلد عن فن التصوير الإنجليزى نسخة من لوحة مبكرة لـ"لويس آنثونى مارش" عنوانها "(رولاند)، ابن أخ الفنان"، الأمر غريب أن تتطلع إلى وجه ولد لم يصبح رجلاً بعد بحثٍ عن ملامح امرأة مسنة، ابنته، تفرست لدقائق بملامحه الجسدية وشعره الأشقر اللامع، ووضعية رأسه الكسول.

أغلقت الكتاب، وفكرت فى أننى أضيع وقتى، إن بحثت ليلاً نهارًا لن أجد أثرًا للفتاتين اللتين يفترض أنه والدهما.

# فى أرشيف بانبرى هيرالد

فى اليوم التالى استقللت القطار إلى بانبرى، إلى مكتب صحيفة بانبرى هيرالد.

دلنى شاب إلى الأرشيف، قد تبدو كلمة الأرشيف مثيرة للإعجاب بنظر شخص لم يتعامل معها كثيراً، لكن بنظرى، بعدما قضيت عطلاتى لسنوات فى غرف مشابهة، لم أتفاجأ حين دلفت إلى ما كان بالأساس خزانة كبيرة بالطابق السفلى بلا نوافذ.

أوضحت للشاب بإيجاز: "أبحث عن حريق منزل فى آنجلفيلد، حدث منذ نحو 60 عامًا".

قادنى الشاب إلى الرف الخاص بتلك الفترة.

"سأرفع الصناديق من أجلك إذا سمحت".

"وصفحات تقييم الكتب أيضًا منذ نحو أربعين عامًا، لكننى لست متأكدة فى أى سنة".

"صفحات تقييم الكتب؟ لم أعلم أن الصحيفة كانت تصدر صفحات لتقييم الكتب"، حرك السُلم، وجلب مجموعة أخرى من الصناديق، ووضعها بجوار المجموعة الأولى على طاولة ممتدة تحت ضوء ساطع.

قال مبتهجًا: "لديك كل ما ستحتاجين إليه"، وتركنى لأبدأ.

عرفت أن حريق آنجلفيلد كان على الأرجح غير مفتعل، فقد انتشرعلى نطاق واسع خلال تلك الفترة أن يخزن الناس الوقود، وهو سبب امتداد الحريق وشراسته، لم يكن أحد بالمنزل باستثناء ابنتى أخت المالك، وكلتاهما هربت ودخلت المشفى، وقد كان يُعتقد أن المالك نفسه مسافر خارج البلاد، (تساءلت عن دلالة كلمة "يُعتقد"، ودونت ملاحظة سريعة بالتواريخ: انقضت ست سنوات أخرى قبل إعلان الوفاة بالقانون)، واختُتم العمود ببعض التعليقات على الأهمية المعمارية للمنزل، وذُكر أنه لم يعد صالحًا للسكن بوضعه الحالى.

نسخت الخبر وبحثت بالعناوين الرئيسة فى الأعداد اللاحقة فى حال وردت بها متابعات، لكننى لم أجد شيئًا، فأبعدت الأوراق واتجهت إلى الصناديق الأخرى.

قال: "أخبرينى الحقيقة"، الشاب ذو البذلة التقليدية الذى أجرى مقابلة مع "فيدا وينتر" لصحيفة بانبرى هيرالد منذ أربعين عامًا.

ولم تنسَ هى كلماته أبدًا.

لم أجد أثرًا للمقابلة، لم أجد حتى أثرًا لما يمكن أن يطلق عليه صفحة لتقييم الكتب، كل ما اتصل بالأدب هو تقييمات بين الحين والآخر لكتب تحت عنوان: "كتب قد تعجبك..." كتبتها محررة اسمها "مس جينكنسوب"، التقطت عيناى اسم السيدة "وينتر" مرتين فى تلك الفقرات، فمن الواضح أن "مس جينكنسوب" قد قرأت روايات السيدة "وينتر" واستمتعت بها، فكان ثناؤها متحمسًا ومستحقًا، ولو كانت

بأسلوب غير أكاديمي، لكن بدا واضحًا أنها لم تلتقِ الكاتبة قط، وأنها لم تكن الرجل ذا البذلة البنية.

أغلقت العدد الأخير وطويته بعناية في صندوقه.

الرجل ذو البذلة البنية شخصية خيالية، حيلة للإيقاع بي، الطعم الذي يلقم به الصياد خيطه ليجذب السمكة إليه، وما من وصف لهذا سوى أنه متوقع، ربما رفع آمالي أنني تأكدت من وجود "جورج" و"ماتيلدا"، و"تشارلي" و"إيزابيل"، على الأقل كان هؤلاء أشخاصًا حقيقيين، أما الرجل ذو البذلة البنية فكان خيالاً.

اعتمرت قبعتي وارتديت قفازي، غادرت مكاتب بانبري هيرالد وخرجت إلى الشارع.

بينما أنا أتمشى بطول الشوارع الشتوية باحثة عن مقهى، تذكرت رسالة السيدة "وينتر" لي، وتذكرت كلمات الرجل ذي البذلة البنية، وكيف أن صداها تردد تحت العواض الخشبية بحجرتي، ومع ذلك، فإنه نسج من خيالها، كان يجب أن أتوقع ذلك، فهي غازلة للخيوط، حاكية للقصص، ناسجة للخرافات، كاذبة، والرجاء الأقوى تأثيراً فيّ - أخبريني الحقيقة- قاله رجل لم يكن حتى حقيقيًا.

لم تُعِنِّي الكلمات على أن أصف لنفسي مرارة خيبة أملي.

# الحطام

استقللت الحافلة من بانبرى.

قال السائق: "آنجلفيلد؟ لا، ليست لدينا أى خطوط إلى آنجلفيلد، أو ليس بعد، قد يتغير الأمر بعد بناء الفندق".

"أيبنون فندقًا هناك؟"

"يهدمون بعض الحطام القديم، وسيقيمون مكانه فندقًا فخمًا، قد يمدون خط حافلة إليه، من أجل العاملين، لكن أفضل طريق لك الآن أن تصلى إلى محطة هير آند هاوندز على طريق تشينيز وأن تتمشى من هناك، أعتقد أن المسافة كيلومتر ونصف تقريبًا.

لم تحتوِ آنجلفيلد على الكثير، بل تتكون من شارع وحيد كُتب على لافتته الخشبية ببساطة منطقية "ذا ستريت[1]"، مررت بأبنية حجرية صغيرة، مبنية على هيئة أزواج، وبين الحين والآخر يبرز ملمح

(1) أي "الشارع" بالإنجليزية.

مميـز -شـجرة صنوبـر كبـيرة، أرجوحـة أطفـال، دكـة خشـبية- لكـن فى الغالــب كان كل منــزل، بســقفه القــشى المزخـرف بعنايــة، وجملوناتــه[1] البيضــاء والبراعــة الفنيــة المبســطة فى بنــاء أحجارهــا، يعكــس تصميــم المنــزل المجــاور كأنــه مــرآة.

تطــل الأبنيــة الحجريــة الصغـيرة عــلى الحقــول، وتحددهــا الأســيجة وترصعهــا الأشــجار، ومــع تقدمــى رأيــت خرافًــا وأبقــارًا، ثــم منطقــة مشـجرة بكثافـة، والتـى تقـع بعدهـا، وفقًـا لخريطتـى، حديقـة الغـزلان، لم أجـد رصيفًـا بشـكله المعتـاد، لكـن هـذا لا يهـم كثـيراً بسـبب نقـص حركـة السـيارات، فى الواقـع، لم أرَ أى علامـات عـلى الحيـاة البشريـة قـط حتـى تجـاوزت آخـر بنـاء حجـرى صغـير ووصلـت إلى مجمـع مكتـب البريـد والمتجـر العـام.

خـرج مــن المتجـر طفـلان يرتديـان معطفـين أصفريـن واقيـين مــن المطـر وجريـا نحـو الطريـق يسـبقا والدتهـما التـى توقفـت عنـد صنـدوق البريـد، امـرأة ضئيلـة وجميلـة، وتعـانى لتلصـق طوابـع عـلى مظاريـف دون أن تُسـقط الصحيفـة المطويـة تحـت ذراعهـا، أمـا الطفـل الأكـبر، وهـو فتـى، فقـد شـب بقدميـه ليرمـى غـلاف حلـواه فى السـلة الملحقـة بعمـود عـلى جانـب الطريـق، أراد أن يأخـذ غـلاف حلـوى أختـه، لكنهـا قاومتـه: "أسـتطيع فعلهـا! أسـتطيع فعلهـا!" فشـبت هـى الأخـرى ومـدت ذراعهـا، متجاهلـة اعتراضـات أخيهـا، ثـم رمـت الورقـة نحـو فـم السـلة، لكـن نسـيمًا التقطهـا وعـبر بهـا الطريـق.

"لقد حذرتك!"

التــف الطفــلان وانطلقــا فى ســباق، واهتــزا محاولــين التوقــف حــين رأيـانى، زوجـان مـن الرمـوش الشـقراء هبطـا عـلى زوجـين مـن الأعـين البنية متطابقــة الشــكل، وفــكّان هبطــا بالطريقــة نفســها تعبــيراً عــن المفاجــأة،

(1) الجملون: مصطلح فى الهندسة المعمارية يُقصد به أسقف المنازل المثلثة.

ليسا توأمين، لكنهما متشابهان للغاية، توقفت لألتقط الغلاف وقدمته إليهما، تقدمت الفتاة لأخذه، لكن أخاها الأكثر حذرًا مد ذراعه أمامها وهتف: "ماما!"

رأت المرأة الشقراء ما حدث من موقعها عند صندوق البريد، "لا بأس يا (توم)، دعها تأخذه"، فأخذت الفتاة الغلاف من يدى دون أن تنظر إلى، قالت الأم: "قلا شكرًا"، وفعل الطفلان ذلك بصوت محبوس، ثم أدارا ظهريهما إلىّ وجريا بعيدًا والامتنان بادٍ عليهما لعدم ضياع الغلاف، فى تلك المرة رفعت المرأة ابنتها لتبلغ السلة، ونظرت إلىّ مجددًا وهى تفعل ذلك، تتطلع إلى كاميرتى بفضول مستتر.

"آنجلفيلد" ليست مكانًا أستطيع الاختفاء فيه.

قدمت المرأة ابتسامة متحفظة: "استمتعى بنزهتك"، ثم استدارت لتلحق بطفليها، اللذين كانا بالفعل يجريان بطول الشارع نحو الأبنية الحجرية.

تابعتهم وهم يبتعدون.

جرى الطفلان، ينقضان ويغوص كل منهما فى الآخر، كأنهما مربوطان بحبل خفى، يبدلان اتجاهيهما بشكل عشوائى، ويغيران سرعاتهما بشكل غير متوقع، ولكن بتزامن تخاطرى، كأنهما راقصان، تقودهما الموسيقى الداخلية نفسها، غصنان يحركهما النسيم نفسه، بدا الأمر باهرًا ومألوفًا على نحو مثالى، وددت أن أبقى لمشاهدتهما، لكننى خفت أن يستديرا ويريانى أحدق إليهما، فانسحبت بعيدًا.

بعد بضع مئات الأمتار، أصبحت أرى بوابات الأبنية الحجرية الصغيرة، البوابات نفسها لم تكن مغلقة، بل ملحومة بالأرض وبعضها ببعض بواسطة لفافات ملتوية من أشجار اللبلاب، التى شقت طريقها عبر المعدن كثير التفاصيل، وأعلى البوابات، استقر قوس حجرى باهت يطل على الطريق، يمتد جانباه إلى بناءين صغيرين بكل منهما غرفة

واحـدة ولهـما نوافـذ، فى إحـدى النوافـذ عُلقـت ورقـة، وبمـا أننـى مصابـة بإدمـان القـراءة المزمـن، لم أسـتطع المقاومـة، فارتقيـت الحشـائش الطويلـة المبتلـة لأقرأهـا، لكنهـا كانـت إشـعارًا مهجـورًا، صمـد الشـعار الملـون الخـاص بشركـة إنشـاءات، لكـن تحتـه توجـد بقعتـان لونهـما رمـادى باهـت عـلى شـكل صورتـين فوتوجرافيتـين، وشـبح توقيـع لونـه أدكـن قليـلاً فقـط، كان لـه شـكل الكتابـة، لكـن قراءتـه أضحـت مسـتحيلة بعـد شـهور مـن التعـرض لضـوء الشـمس.

كنـت أسـتعد لمسـيرة طويلـة حـول تلـك الحـدود لأجـد طريقًـا إلى الداخـل، لكننـى لم أخـطُ إلا خطـوات قليلـة حـين وجـدت بوابـة خشـبية صغـيرة فى جـدار بـلا شىء يغلقهـا سـوى مـزلاج، فدخلـت فى لحظـة.

كان ذلـك الطريـق الخـاص مفروشًـا فى المـاضى بالحـصى، لكنـه الآن تتخللـه أرض عاريـة وعشـب غـير مشـذب، الطريـق عـلى شـكل منحنـى طويـل يـؤدى إلى حجـر صغـير وكنيسـة حجريـة لهـا بوابـة مسـقوفة، ثـم ينحنـى فى الاتجـاه الآخـر، وراء امتـداد مـن الأشـجار والشـجيرات التـى حجبـت المشـهد وراءهـا، والحـدود الشـجرية ناميـة بإفـراط عـلى كل جانـب، أغصـان شـجيرات مختلفـة مشـتبكة تحـاول إيجـاد مسـاحة لنفسـها، وعـلى الأرض تحتهـا تزحـف الحشـائش نحـو أيَّـة مسـاحة تجدهـا.

مشـيت نحـو الكنيسـة، لقـد أعيـد بناؤهـا فى العـصر الفيكتـورى، لكنهـا حافظـت عـلى تواضـع العصـور الوسـطى، صغـيرة وأنيقـة، ويشـير برجهـا إلى السـماء دون مبالغـة، الكنيسـة متمركـزة عنـد قمـة منحنـى الحـصى، وكلـما اقتربـت تنحـرف عينـى عـن البوابـة المسـقوفة ونحـو الأفـق الـذى ينكشـف عـلى الجانـب الآخـر، ومـع كل خطـوة يتسـع الأفـق أكـثر، حتـى ظهـرت أخـيرًا الكتلـة الحجريـة الباهتـة التـى هـى منـزل "آنجلفيلـد"، وعنـد ذلـك توقفـت فجـأة.

يتخذ المنزل زاوية غريبة، حين تأتى عبر الطريق الخاص، تجد زاويته أمامك، ولا يبدو واضحًا أيَّة جهة من المنزل هى جهته الأمامية، بدا كأن المنزل عرف أنه يجب أن يلقى زواره القادمين بجهته الأمامية، لكن فى اللحظة الأخيرة لم يستطع كبح ميله إلى الالتفات والتحديق إلى حديقة الغزلان والغابة فى نهاية الشرفات، فلم يُستقبل الزائر بابتسامة مرحبة، بل بلا مبالاة.

أما التفاصيل الأخرى لمظهر المنزل فلم تزده إلا غرابة، هو بناء غير متناظر الأبعاد، له ثلاثة جملونات كبيرة، يرتفع كل منها إلى أربعة طوابق، وهى بارزة عن هيكل المنزل، اثنتا عشرة نافذة طويلة واسعة هى مظهر النظام والتناغم الوحيد الذى تقدمه واجهة المبنى، فى حين تتخذ النوافذ ترتيبًا عشوائيًّا فى بقية واجهاته، فلا توجد نافذتان متتاليتان متشابهتان، وفوق الطابق الثالث، حاول درابزين أن يحفظ تماسك هذا المعمار المتباين داخل نطاق واحد، لكن فى أنحاء متفرقة تجد حجرًا بارزًا، أو جملونًا جزئيًّا، أو نافذة غريبة، كلها لا تساعد فى تحقيق ذلك التماسك، فتختفى تلك التفاصيل من ناحية لتظهر على الجانب الآخر، وفوق هذا الدرابزين تشكل سطح المنزل عسلى اللون من خط غير متساوٍ من الأبراج وأبراج الزاوية ومداخن المدفئة.

أيبدو حطامًا؟ معظم أحجار المنزل الذهبية بدت نظيفة كيوم استخراجها، بالتأكيد بدا البناء الحجرى الدقيق الخاص بأبراج الزاوية باليًا قليلاً، والدرابزين متداعٍ فى بعض المواضع، لكن مع ذلك، بالكاد يبدو كالحطام، لما رأيته حينئذ، ووراءه السماء الزرقاء، والطيور تحوم حول أبراجه، والعشب الأخضر حوله، لم يكن صعبًا قط أن أتخيله مسكونًا.

ثم ارتديت نظارتى، وحينها أدركت الواقع.

النوافـذ خاليـة وإطاراتهـا إمـا متفسـخة وإمـا محترقـة، ومـا اعتبرتـه سـابقًا ظـلالاً عـلى النوافـذ عـلى الجانـب الأيمـن كان آثـار الحريـق، والطيور المنقضـة فى السـماء أعـلى المنـزل لا تهبـط وراء المنـزل، بـل بداخلـه، فالسـقف غـير موجـود، هـذا ليـس منـزلاً، إنـه مجـرد هيـكل.

خلعـت نظـارتى مجـددًا وتحـول إلى منـزل سـليم مـن العـصر الـ"إليزابيثـى". هـل يـراود المـرء شـعور بتهديـد كئيـب لـو طُليـت السـماء بلـون أزرق داكـن، وغطـى القمـر السـماء فجـأة؟ ربمـا، لكـن أمـام سـماء اليـوم الزرقـاء الصافيـة، كان المشـهد عبـارة عـن بـراءة صافيـة.

امتـد حاجـز بطـول الطريـق الخـاص، وعُلقـت عليـه لافتـة: "خطـر، ممنـوع الاقـتراب". لاحظـت مفصـلاً فى السـياج حيـث تلتقـى أجـزاؤه معًـا، فرفعـت أحـد ألواحـه وتسـللت إلى الداخـل، وأنزلتـه ورائى.

وصلـت إلى الواجهـة متجنبـة لامبـالاة المنـزل، وبـين الجملونـين الأول والثـانى وجـدت سـت درجـات واسـعة ومنخفضـة تـؤدى إلى بـاب مـزدوج مغطـى بالألـواح، عنـد مقدمـة الدرجـات اسـتقر عمـودان منخفضـان يحمـلان قطـين عملاقـين منحوتـين مـن مادة مـا داكنـة وملمعـة، التموجات التـى تكسـو جسـميهما منحوتـة بواقعيـة شـديدة، لدرجـة أننـى حـين مـررت أصابعـى عـلى إحداهـما، توقعـت بدرجـة مـا أن أجـد فـراءً، لكننـى اندهشـت حـين وجـدت صلابـة الحجـر البـاردة.

نافـذة الطابـق الأرضى عنـد الجملـون الثالـث هـى المميـزة بأدكـن آثـار الحريـق، وقفـت عـلى قطعـة سـاقطة مـن البنـاء، فأصبحـت طويلـة كفايـة لأتطلـع عـبر النافـذة، ومـا رأيتـه أيقـظ شـعورًا بالانزعـاج داخـل صـدرى، يوجـد مفهـوم شـائع ومألـوف لـدى كل النـاس عـن كلمـة الغرفـة، ومـع أن غرفتـى أعـلى المتجـر، وغرفـة طفولتـى فى منـزل والـدى، وغرفتـى فى منـزل السـيدة "وينـتر" مختلفـة عـن بعضهـا تمامًـا، فإنهـا تتشـارك عنـاصر محـددة، عنـاصر موجـودة فى كل مـكان ولـكل النـاس، فحتـى عنـد التخييم

المؤقـت، يرفـع السـكان شـيئًا للحمايـة مـن الطقـس، وتوجـد مسـاحة ليدخلهـا السـاكن ويتحـرك بهـا ويغادرهـا، وشيء يسـمح لـك بالتمييـز بـين الداخـل والخـارج، لكـن هنـاك لم أجـد أيًّـا مـن هـذا.

كانـت العارضـات الخشـبية منهـارة، بعضهـا منهـار عنـد أحـد جانبـى المنـزل فقـط، مـا يجعلهـا تقطـع مسـاحته بشـكل مائـل لتسـتقر عـلى ركام أحجـار البنـاء المتهدمـة والأخشـاب وغـيره مـما لم أميـزه مـن مـواد البنـاء التـى مـلأت الغرفـة حتـى مسـتوى النافـذة، وحُـشرت أعشـاش الطيـور فى أركان وزوايـا مختلفـة، لا بـد أن الطيـور جلبـت معهـا بـذور النباتـات، وغمـرت الثلـوج والأمطـار المـكان مـع ضـوء الشـمس، مـا جعـل النباتـات تنمـو بشـكل مـا وسـط الحطـام: فقـد رأيـت الأفـرع الشـتوية البنيـة لشـجيرات القسـور، ونباتـات البيلسـان ناميـة بشـكل طويـل وهزيـل تبحـث عـن الضـوء، وتسـلقت أشـجار اللبلاب الجـدران كأنهـا ورق حائـط، مـددت عنقـى متطلعـة إلى الأعـلى، وكأننـى أرى نفقًـا مظلـمًا، أربعـة جـدران لا تـزال سـليمة، لكـن بـدلاً مـن أن أرى سـقفًا، كان هنـاك أربعـة عارضـات سـميكة، بينهـا مسـافات غـير متسـاوية، وبعدهـا المزيـد مـن المسـاحة الفارغـة حتـى عارضـات الطابـق التـالى، ثـم المشـهد نفسـه مجـددًا، وفى نهايـة النفـق ضـوء، إنهـا السـماء.

حتى الأشباح لن تصمد هنا.

مـن شـبه المسـتحيل تصـور أن فى وقـت مـا كانـت هنـا سـتائر وأثـاث ولوحـات، وأن الثريـات أضـاءت مـا تضيئـه الآن الشـمس، مـاذا كانـت هـذه الغرفـة؟ المرسـم أم غرفـة الموسـيقى أم غرفـة الطعـام؟

حدقـت بعينـين نصـف مغلقتـين إلى كتلـة الأشـياء المكدسـة فى الغرفـة، ولفـت شيء نظـرى وسـط فـوضى الأشـياء المبهمـة التـى كانـت فى وقـت مـا بيتًـا، فى البدايـة ظننتـه عارضـة سـقطت بنصفهـا فقـط، لكنـه لم يكـن سـميكًا كفايـة، وبـدا أنـه كان معلقًـا بالجـدار، ثـم رأيـت قطعـة أخـرى

مشابهة، ثم غيرها، بدا أن تلك الألواح الخشبية بها مفاصل خشبية بينها مسافات متساوية، كأن قطعًا أخرى من الأخشاب كانت معلقة بها بزوايا قائمة، بل ووجدت فى ركن أحد تلك الأجزاء سليمة.

وخز ما أدركته لحظتها عمودى الفقرى.

فتلك العارضات كانت رفوفًا، وهذا الركام من الطبيعة والمعمار المنهار كان مكتبة.

وفى لحظة كنت قد تسلقت عبر النافذة التى بلا زجاج.

تقدمت بحذر، أختبر موطئ خطوتى التالية قبل أن أخطوها، حدقت إلى الزوايا والشقوق المظلمة، لكننى لم أجد أىّ كتب، ليس الأمر أننى توقعت أن أجدها، فهى لن تصمد أمام مثل هذه الأوضاع أبدًا، لكننى لم أستطع منع نفسى من البحث عنها.

ركزت بضع دقائق على التقاط الصور، صور لإطار النافذة التى بلا زجاج، وألواح الأخشاب التى اعتادت حمل الكتب، وباب البلوط الثقيل فى إطاره الضخم.

فى محاولة لالتقاط أفضل صورة للموقد الحجرى الكبير، أملت خصرى إلى الجانب قليلاً، وحينها توقفت لوهلة، ازدردت ريقى، ولاحظت نبضى المرتفع قليلاً، أكان هذا بسبب شىء سمعته؟ أم شعرت به؟ هل تحرك شىء فى أحشاء الحطام تحت قدمى؟ لكن لا، لم يكن هذا شيئًا، ومع ذلك، شققت طريقى بحذر نحو طرف الغرفة، حيث توجد حفرة فى البناء كبيرة كفاية لأعبر من خلالها.

كنت فى المدخل الرئيس، هنا توجد الأبواب المزدوجة المرتفعة التى رأيتها من الخارج، نجت السلالم من الحريق، فهى مصنوعة من الحجر، أجريت مسحًا شاملاً للمكان من أسفل إلى الأعلى، أصبح الدرابزين الآن مغطى باللبلاب، لكن مع ذلك يبدو معماره الصلب

واضحًـا: منحنـى رشـيق يتسـع إلى دوران يشـبه القوقعـة عنـد قاعدتـه، السـلم كلـه شـبيه بعلامـة اقتبـاس أحاديـة فخمـة.

يـؤدى السـلم إلى معـرض، لا بـد أنـه امتـد فى الماضى بطـول الردهـة كاملـة، عـلى أحـد الجانبـين لا توجـد إلا حافـة مدببـة مـن ألـواح الأرضيـة، وهبـوط نحـو الأرضيـة الحجريـة تحتهـا، فى حـين أن الجانـب الآخـر شـبه مكتمـل، امتـدت آثـار درابزيـن بطـول المعـرض، ثـم يوجـد ممـر، الممـر لـه سـقف شـوهه الحريـق لكنـه سـليم، كـذا الأرضيـة، بـل وحتـى الأبـواب، هـذا أول جـزء أراه مـن المنـزل ويبـدو عليـه أنـه نجـا مـن الدمـار العـام، بـدا أن مكانًـا مـا فى المنـزل قابـل للسـكن.

التقطـت قليـلاً مـن الصـور ثـم انتقلـت بحـذر إلى الممـر، أختـبر كل لـوح جديـد بقدمـى قبـل أن أنتقـل بـوزنى عليـه.

فتـح مقبـض البـاب الأول عـلى هبـوط شـديد، وأغصـان وسـماء زرقـاء، بـلا جـدران ولا سـقف ولا أرضيـة، فقـط هـواء خارجـى منعـش.

جذبـت البـاب لأغلقـه مجـددًا، وتقدمـت تدريجيًّـا عـبر الممـر، عازمـة عـلى ألا أفقـد أعصـابى بسـبب أخطـار هـذا المـكان، تقدمـت مراقبـة خطـواتى طـوال الوقـت، حتـى وصلـت إلى البـاب الثـانى، أدرت المقبـض وتركـت البـاب لينفتـح.

كانت هناك حركة!

أختى!

كدت أتقدم خطوة نحوها!

كدت.

ثـم أدركـت أنهـا مـرآة، كانـت داكنـة بسـبب الغبـار ومشـوهة بفعـل نقـاط سـوداء بـدت مثـل الحـبر.

نظـرت إلى الأرض التــى كنـت عـلى وشـك أن أخطـو عليهـا، لم تكـن هنـاك ألـواح، بـل هبـوط عمقـه نحـو سـبعة أمتـار نحـو ألـواح حجريـة صلبـة.

أدركـت الآن حقيقـة مـا رأيتـه، لكـن نبضـات قلبـى تابعـت جنونهـا، رفعـت عينــى مجـددًا، ورأيتهـا، فتـاة لقيطـة بيضـاء الوجـه لهـا عينـان داكنتـان، وجسـد مـتردد يرتجـف داخـل الإطـار القديـم.

لقـد رأتنـى، وقفـت تمـد يديهـا إلى باشـتياق، وكأن كل مـا عـلى فعلـه هـو أن أتقـدم نحـو يديهـا، ألـن يكـون أبسـط الحلـول عمومًـا أن أفعـل ذلـك وأن أضمهـا أخـيرًا؟

لكم من الوقت وقفت هناك، أتفرج عليها وهى تنتظرنى؟

همسـت: "لا"، لكـن ذراعيهـا ظلتـا مفتوحتـين لى، "أنـا آسـفة"، فهبطـت ذراعاهــا ببطء.

ثم رفعت هى كاميرا والتقطت صورة لى.

شـعرت تجاههـا بالأسـف، فالتصويـر عـبر الزجـاج لا يلتقـط شـيئًا أبـدًا، أنـا أعـرف ذلـك، فقـد جربتـه.

وقفــت ويــدى عــلى مقبــض البــاب الثالــث، لقــد تحدثــت الســيدة "وينـتر" عـن قاعـدة الثلاثـة، لكننـى لم أعـد فى مـزاج ملائـم لقصتهـا، فبيتهـا الخطـر بأمطـاره الداخليـة ومرآتـه المخادعـة لم يعـودا مثيريـن للاهتـمام بنظـرى.

ســأغادر، هــل أذهــب لالتقــاط صــور للكنيســة؟ ولا حتــى هــذا، سـأذهب إلى متجـر القريـة، وسـأهاتف تاكـسى ليقلنـى إلى المحطـة ومنهـا إلى بيتــى.

سـأفعل كل هـذا بعـد دقيقـة، وحتـى ذلـك، أردت أن أبقـى عـلى هـذا الوضـع، رأسى مائـل قبالـة البـاب، وأصابعـى عـلى المقبـض، غـير مباليـة بمـا وراءه، وأنتظـر جفـاف دموعـى وهـدوء قلبـى.

انتظرت.

عندها بدأ المقبض فى الدوران من تلقاء نفسه بين أصابعى.

# العملاق الودود

ركضت.

قفزت فوق الفجوات التى بألواح الأرضية، وهبطت درجات السلم الثلاثة بقفزة واحدة، لم أجد موضعًا لقدمى واندفعت مستندة بالدرابزين، قبضت على بعض أفرع اللبلاب، وتعثرت، وأنقذت نفسى، وتابعت تقدمى مترنحة، إلى المكتبة؟ لا، إلى الاتجاه الآخر، عبر ممر مقنطر، أمسكت أفرع أشجار القسور والبيلسان بملابسى، وكدت أتعثر مرات عدة وأنا أخوض عبر ركام المنزل المتهدم.

وأخيرًا، هويت إلى الأرض، وهو ما كان حتميًّا، وهربت صرخة قوية من بين شفتى.

"عزيزتى، عزيزتى، هل أفزعتك؟ يا إلهى".

حملقت عبر الممر المقنطر.

كنت ملقاة على أرض المعرض حين رأيت ما لم يكن هيكلاً عظميًا أو وحشًا من مخيلتى، بل رجلاً عملاقًا، وقد هبط السلالم بسلاسة، وخطا عبر الركام على الأرض على نحو دقيق وبلا قلق، ووقف إلى جوارى يكسو وجهه أشد تعابير القلق.

"يا إلهى".

لا بد أن طوله متران إلا سنتيمترات قليلة، وهو عريض، عريض لدرجة أن البيت يبدو متقلصًا حوله.

"لم أقصد قط.. كنت أفكر فقط.. لأنك كنت هنا منذ بعض الوقت و.. لكن هذا غير مهم الآن، فالمهم يا عزيزتى هو، هل أنت بخير؟"

شعرت أمامه بأننى تقلصت إلى حجم طفلة، لكن على الرغم من ضخامته، هناك شىء طفولى يتعلق بهذا الرجل، ووجهه أضخم من أن يصاب بالتجاعيد، إذ له وجه ملائكى مستدير، وهالة من الشعر المجعد لونه بين الفضى والأشقر استقرت بأناقة حول رأسه الآخذ فى الصلع، عيناه مستديرتان مثل إطار نظارته، طيبتان ولهما شفافية زرقاء.

لا بد أننى بدوت دائخة، وربما شاحبة أيضًا، ركع على ركبته إلى جانبى والتقط رسغى.

"يا إلهى، كانت تلك عثرة قوية، لو كنتُ فقط.. كان يجب ألا.. النبض مرتفع قليلاً، مممم".

شعرت بوخز فى قصبتى، ومددت يدى لأتحقق من مزق فى ركبة بنطالى، وعادت أصابعى دامية.

"يا إلهى، أصبت قدمك يا عزيزتى أليس كذلك؟ هل هى مكسورة؟ أتستطيعين تحريكها؟" حركت قدمى، وكسا الارتياح وجه الرجل.

"حمدًا للرب، ما كنت لأسامح نفسى أبدًا، والآن، ابقى هنا وأنا.. سأحضر فقط.. سأعود بعد دقيقة"، وانطلق، تراقصت قدماه برقة حول حواف الأخشاب المدببة، ثم صعد السلم سريعًا متخطيًا عدة درجات فى المرة الواحدة، فى حين يحلق الجزء العلوى من جسده بهدوء فى الأعلى، كأنه غير متصل بحركة القدمين الدقيقة فى الأسفل.

أخذت نفسًا عميقًا وانتظرت.

قال عائدًا: "لقد شغلت غلاية المياه"، وأحضر معه حقيبة إسعافات أولية مناسبة، لونها أبيض وعليها صليب أحمر، وأخرج منها غسولاً مطهرًا وبعض الشاش.

"قلت لنفسى دائمًا إن يومًا ما أحد سيتأذى فى هذا المكان العتيق، واحتفظت بهذه الحقيبة لسنوات، الحذر خير من الأسف، صحيح؟ يا إلهى، يا عزيزتى!" جفل متألمًا فى حين ضغط الضمادة الواخزة على جرح قصبتى، "استجمعى شجاعتك، حسنًا؟"

سألته: "ألديك كهرباء هنا؟" إذ حيرنى الأمر.

"كهرباء؟ لكن المكان عبارة عن حطام"، وحملق إلىَّ مندهشًا من سؤالى، وكأن تعثرى ربما أدى بى إلى ارتجاج دماغى أفقدنى المنطق.

"الأمر فقط أننى ظننتك قلت إنك شغلت غلاية المياه".

"أوه، فهمت! لا! لدى موقد للتخييم، كانت لدى قارورة لحفظ الحرارة، لكن..." ورفع أنفه معبرًا عن تأففه: "الشاى من قارورة حفظ الحرارة ليس جيدًا جدًا، أليس كذلك؟ والآن، هل الوخز قوى جدًّا؟"

"قليلاً فقط".

"أحسنت، كانت تلك عثرة قوية، والآن إلى الشاى، أتريدينه مع الليمون والسكر؟ أخشى أنه لا يوجد حليب، فليست لدى ثلاجة".

"سيكون الليمون رائعًا".

"حسنًا، كونى مرتاحة، لقد توقف المطر، أنشرب الشاى فى الخارج؟" ذهب إلى الباب المزدوج القديم الضخم فى مقدم المنزل ورفع مزلاجه، انفتح الباب بصرير أقل مما قد توقعت، وبدأت أحاول الوقوف.

"لا تتحركى!"

تبختر العملاق باتجاهى، وانحنى والتقطنى، شعرت بنفسى أُرفع فى الهواء وأُحمل بسلاسة إلى الخارج، وضعنى على أحد الجانبين على ظهر إحدى القطتين السوداوين اللتين أعجبت بهما قبل ساعة.

"انتظرى هنا، وحين أعود سنحظى بشاى رائع!" وعاد إلى المنزل، انسل ظهره الضخم صاعدًا السلم واختفى فى مدخل الممر والغرفة الثالثة.

"أمرتاحة؟"

أومأت.

"رائع"، ابتسمت كأن الأمر رائع بالفعل، "والآن، لنتعرف، اسمى (لاف)، (أوريليوس ألفونس لاف)، تمكنك مناداتى (أوريليوس)"، ونظر إلى بترقب.

"(مارجريت ليا)".

"(مارجريت)"، وابتسم، "رائع، رائع جدًّا، والآن كلى".

بين أذنى القطة الكبيرة، فتح منديل مائدة ببطء، وبداخلها كانت شريحة داكنة ولزجة من كعكة، مقطعة بشكل سخى، قضمت قطعة منها، كانت كعكة مثالية ليوم بارد: مُطيبة بالزنجبيل ومسكرة لكنها ساخنة، صفى الرجل الغريب الشاى فى كوبى شاى صينيين رقيقين، وقدم لى وعاء مكعبات السكر، ثم أخرج كيسًا مخمليًّا أزرق من جيب قميصه، وفتحه، استقرت على المخمل ملعقة فضية عليها

حرف "إيه" ممدد بشكل منمق يزين المقبض، أخذته، وقلبت الشاى خاصتى، ورددتها إليه.

وأنا آكل وأشرب، جلس مضيفى على القطة الثانية، التى اتخذت مظهرًا قططيًّا غير متوقع تحت حزامه الضخم، أكل فى صمت، وبشكل مرتب وبتركيز، وشاهدنى آكل أيضًا، متلهفًا إلى تعبيرى عن تقديرى للطعام.

قلت: "هذا رائع، أهو منزلى الصنع؟"

المسافة بين القطتين نحو 3 أمتار، ولنتكلم اضطررنا إلى رفع أصواتنا قليلاً، ما أعطى المحادثة طابعًا مسرحيًّا، كأننا نؤدى عرضًا ما، وبالفعل كان لدينا جمهور، ففى ضوء النهار الذى غسله المطر، وقرب حد الغابات، وقفت غزالة تتطلع إلينا بفضول، لا ترمش، منتبهة، أنفها يرتعش، وحين أدركت أننى رأيتها، لم تقدم على أيَّة محاولة للهرب، بل قررت عكس ذلك، ألا تكون خائفة.

مسح رفيقى أصابعه بمنديله، ثم نفضه وطواه أربع مرات، "هل أعجبتك إذًا؟ أعطتنى السيدة (لاف) الوصفة، إننى أخبز هذه الكعكة منذ كنت طفلاً، السيدة (لاف) كانت طاهية رائعة، امرأة رائعة فى كل شيء، بالطبع هى متوفاة الآن، لم تمت مبكرًا، مع أننى كنت أتمنى لو.. لكن ذلك لم يحدث".

"نعم فهمت"، مع أننى لست متأكدة إن كنت قد فهمت، أكانت السيدة "لاف" زوجته؟ مع أنه قال إنه يخبز كعكته منذ كان طفلاً، بالتأكد لا يقصد والدته؟ فلم قد يدعو والدته السيدة "لاف"؟ لكن يوجد أمران واضحًا: أنه أحبها، وأنها ميتة، قلت: "آسفة لذلك".

تقبل تعازى بوجه حزين، ثم أشرق وجهه، "لكنها ذكرى لطيفة، أليس كذلك؟ أقصد الكعكة".

"بالتأكيد، أكان ذلك منذ زمن بعيد؟ رحيلها؟"

فكر قليلاً: "منذ عشرين سنة تقريبًا، مع أنني أشعر أنه أكثر، أو أقل، يتوقف الأمر على كيفية نظر المرء للأمر".

أومأت، ويبدو أنني لم أكن الأذكى.

جلسنا صامتين للحظات، تطلعت إلى حديقة الغزلان، عند حافة الغابة، حيث يظهر المزيد منها، واللاتى تحركت مع ضوء الشمس بعرض الحديقة العشبية، وتضاءل الوخز فى قدمى، وشعرت بتحسن.

قال الغريب: "أخبرينى.."، وشعرت أنه احتاج إلى استجماع الشجاعة اللازمة ليسأل سؤاله: "هل لك والدة؟"

شعرت ببعض المفاجأة، فالناس عادة لا يلحظون وجودى لمدة كافية حتى يسألونى أسئلة شخصية.

"أتمانعين؟ سامحينى لسؤالى، لكن.. كيف أشرح لك؟ العائلة أمر.. لكن إن كنت لا تفضلين.. أنا آسف".

"لا بأس"، قلتها ببطء، "لا أمانع"، وقد كنت غير ممانعة بالفعل، ربما بسبب سلسلة الصدمات التى مررت بها، أو تأثير هذا المحيط الغريب، لكن بدا أن أى شيء قد أقوله عن نفسى هنا، ولهذا الرجل، سيظل للأبد فى هذا المكان، معه، وبلا أيَّة قيمة فى أى مكان آخر، ما سأقوله لن تكون له أى عواقب، لذا أجبت سؤاله: "نعم، لى والدة".

"والدة! كيف.. أوه، كيف..."، ظهر تعبير مكثف بشكل لافت فى عينيه، حزن أو اشتياق، أعلنها بقوة: "ماذا قد يكون ألطف من أن يكون لك والدة!"، وكان واضحًا أنها دعوة لقول المزيد.

سألته: "أليست لك والدة؟"

التوى وجه "أوريليوس" بشكل لحظى، "للأسف.. أردت ذلك دائمًا.. أو والدًا، فى الواقع، خلال طفولتى، اعتدت أن أدعى، اختلقت عائلة

كاملـة، بـل وأجيـالاً منهـا! كان الأمـر ليضحـكك!" لم يكـن بوجهـه أى شىء يدعـو للضحـك وهـو يحـكى، "لكـن فى مـا يتعلـق بالوالـدة الحقيقيـة.. والـدة فعليـة معروفـة.. بالتأكيـد، فـكل إنسـان لـه والـدة، أليـس كذلـك؟ أنـا أعـرف ذلـك، سـؤالى عـن إذا مـا كنـت تعرفينهـا، وكنـت آمـل دائمًـا أن فى يـوم مـا.. لأن الأمـر ليـس مسـتبعدًا، أليـس كذلـك؟ لـذا لم أفقـد الأمـل قـط".

"نعم".

"الأمـر مؤسـف للغايـة"، وهـز كتفيـه محـاولاً أن يبـدو متصالحًـا مـع الأمـر، لكنـه لم يكـن، "كنـت سـأحب أن تكـون لى والـدة".

"سيد (لاف)..."

"(أوريليوس)، إذا سمحت".

"يـا (أوريليـوس)، حـين يتعلـق الأمـر بالوالـدات، لا تسـير الأمـور دائمًـا بقـدر الـسرور الـذى تفترضـه".

"حقًـا؟" بـدا أن لتلـك الجملـة وقـع اكتشـاف عظيـم عليـه، حملـق إلى مـن كثـب: "تقصديـن الخلافـات عـلى التوافـه؟"

"ليس هذا تحديدًا".

عبس وجهه: "سوء الفهم؟"

هززت رأسى.

بـدا مذهـولاً: "أسـوأ؟" بحـث عـن المشـكلة فى السـماء، وفى الغابـة، وأخـيرًا، فى عينـى.

قلت له: "الأسرار".

"الأسرار!" واتسـعت عينـاه لتشـكلا دائرتـين صحيحتـين، هـز رأسـه مرتبـكًا، ومحـاولاً محاولـة مسـتحيلة لسـبر غـور مـا أقصـده، وقـال فى

النهايـة: "اعذرينـى، لا أعـرف كيـف أسـاعدك، فأنـا أعـرف أقـل القليـل عـن العائـلات، وجهـلى أوسـع مـن البحـر، أنـا آسـف بشـأن الأسرار، وواثـق بأنـك محقـة فى شـعورك هـذا".

أدفأ التعاطف عينيه وناولنى منديلاً أبيض مطويًا بعناية.

قلت: "أنا آسفة، لا بد أنها صدمة متأخرة".

"أظن هذا".

فى حـين جففـت عينـى، نظـر هـو بعيـدًا عنـى نحـو حديقـة الغـزلان، السـماء تُظلـم ببـطء، وتتبعـت نظرتـه فرأيـت تـلألأ باللـون الأبيـض: إنـه جلـد الغـزلان الأبيـض وهـى تقفـز بخفـة لتختبـئ بالأشـجار.

قلـت لـه: "ظننتـك شـبحًا أو هيـكلاً عظميًـا حـين شـعرت بـدوران مقبـض البـاب".

"هيـكل عظمـى! أنـا! هيـكل عظمـى!" بـدرت منـه ضحكـة مكتومـة وهـو مـسرور، واهتـز لهـا جسـده بالكامـل مرحًـا.

"لكن تبين أنك عملاق".

"نعـم، تمامًـا! عمـلاق"، مسـح دمـوع الضحكـة عـن عينيـه وقـال: "هنـاك شـبح كـما تعرفـين، أو هكـذا يقولـون".

أعـرف ذلـك، كـدت أصرح بأننـى رأيتـه، لكـن بالتأكيـد لم يكـن يتحـدث عـن شـبحى: "هـل رأيـت الشـبح؟"

"لا" وزفر، "ولا حتى ظله".

جلسنا صامتين لوهلة، يفكر كل منا فى الأشباح الخاصة به.

هتفت: "يزداد الطقس برودة".

"هل ساقك بخير؟"

"أعتقـد ذلـك"، وهبطـت منزلقـة عـن ظهـر القطـة وحاولـت الوقـوف عليهـا، "نعـم، إنهـا أفضـل كثـيراً الآن".

"رائع، رائع".

كانت أصواتنا همسات فى الضوء الآخذ فى الخفوت.

"من كانت السيدة (لاف) تحديدًا؟"

"إنهـا السـيدة التـى تبنتنـى ومنحتنـى اسـمها، وأعطتنـى كتـاب وصفاتهـا، لقـد أعطتنـى كل شىء، حقًّـا".

أومأت.

ثـم التقطـت كامـيرتى: "فى الواقـع، أعتقـد أننـى يجـب أن أنطلـق، يجـب أن أحـاول التقـاط بعـض الصـور للكنيسـة قبـل يذهـب الضـوء تمامًـا، شـكرًا جزيـلاً عـلى الشـاى".

"يجـب أن أنطلـق أنـا الآخـر خـلال دقائـق، سـعدت كثـيراً بلقائـك يـا (مارجريـت)، هـل سـتأتين مجـددًا؟"

سألت متشككة: "أنت لا تعيش هنا، أليس كذلك؟"

ضحك، وكانت ضحكته حلوة وغنية وغامضة، مثل الكعكة.

"معـذرة، لا، لـدى منـزل هنـاك"، وأشـار نحـو الغابـة، "آتى إلى هنـا فى فـترات العـصر فقـط حتـى.. سـأكتفى بقـول حتـى أفكـر، حسـنًا؟"

"سيهدمونه قريبًا، أفترض أنك تعرف ذلك".

"أعـرف"، وملـس القطـة بعقـل شـارد وبحنـان: "الأمـر مخـزٍ، أليـس كذلـك؟ سـأفتقد المـكان القديـم، فى الواقـع، ظننـت أنـك أحدهـم حـين سـمعت خطواتـك، مسّـاحة أراضٍ أو شىء كهـذا، لكنـك لسـت كذلـك".

"لا، لست مسّاحة أراض، أكتب كتابًا عن شخصية عاشت هنا".

"فتيات (آنجلفيلد)؟"

"نعم".

أومأ "أوريليوس" بشكل مجتر: "كانتا توأمين، تخيلى ذلك"، وللحظة سرحت عيناه بعيدًا.

سألنى وأنا ألتقط حقيبتى: "هل ستأتين مجددًا يا (مارجريت)؟"

"أنا ملزمة بذلك".

مد يده إلى جيبه وأخرج بطاقة، "(أوريليوس لاف)، مقدم أطعمة إنجليزية تقليدية لحفلات الزفاف والتعميد والمناسبات، وأشار إلى العنوان ورقم الهاتف، "اتصلى بى حين تأتين مجددًا، يجب أن تأتى إلى البيت الحجرى وسأعد لك شايًا لذيذًا".

قبل أن نفترق، أخذ "أوريليوس" يدى وربت عليها على نحو مريح وتقليدى، ثم انسل جسده الضخم برشاقة صاعدًا الامتداد العريض من السلالم وأغلق الباب الثقيل وراءه.

سرت ببطء بامتداد الطريق الخاص نحو الكنيسة، عقلى مزدحم بهذا الغريب الذى قابلته للتو، وصادقته، ذلك تصرف لا يشبهنى تمامًا، وبينما أنا أعبر البوابة المسقوفة، فكرت فى أنه ربما كنت أنا الغريبة، أكانت تلك خيالاتى، أم أننى لست على طبيعتى تمامًا منذ قابلت السيدة "وينتر"؟

# المقابر

تأخرت كثيرًا على الضوء، وفات أوان التصوير، لذا أخرجت دفترى وتمشيت فى ساحة الكنيسة، كانت آنجلفيلد مجتمعًا قديمًا لكنه صغير، ولم يكن بها عدد كبير جدًّا من المقابر، وجدت قبر "جون ذا ديج"، الذى يروى شاهد قبره أنه "اجتمع بحديقة الرب"، وامرأة اسمها "مارثا دان"، "خادمة مخلصة للرب إلهنا"، التى يتزامن تاريخا ولادتها ووفاتها مع ما توقعته لسيدة الخدم، نسخت الاسمين والتواريخ وشواهد القبور فى مفكرتى، وجدت على أحد القبور زهورًا جديدة، باقة مبهجة من الأقحوان البرتقالى، فاقتربت لأستطلع اسم المتوفى الذى يتذكره أحدهم بهذا الدفء، فوجدته "جوان مارى لاف"، وشاهد قبرها "لن تُنسى أبدًا".

مع أننى بحثت، لم أجد اسم "آنجلفيلد" فى أى مكان، لكن لم يحيرنى الأمر لأكثر من دقيقة، فعائلة المنزل لن تُدفن فى قبور عادية بساحة الكنيسة، بل تحظى قبورهم بمكانة أعظم، تميزها التماثيل

وتُنقش قصص طويلة على ألواحها الرخامية، وستكون فى الداخل، فى المصلى الكنسى.

بدت الكنيسة كئيبة، النوافذ القديمة، وقطع الزجاج المخضرة الصغيرة المحمولة فى إطار من الأقواس الحجرية السميكة، تسمح بدخول ضوء كئيب يضىء بضعف الأقواس والأعمدة الحجرية الباهتة، والقناطر المبيضة بين عارضات السقف السوداء وصفوف المقاعد التى صُنعت من أخشاب ناعمة مصقولة، حين تأقلمت عيناى مع الضوء الضعيف، تطلعت إلى الآثار والأحجار التذكارية التى فى المصلى الضئيل، توجد شواهد قبور كل آل "آنجلفيلد" الذين ماتوا منذ قرون هنا، سطر مسهب تلو الآخر من المديح، محفور بطريقة ثمينة على الرخام المكلَّف، سأعود فى يوم آخر لفك شفرة نقوش الأجيال السابقة، لكن اليوم سأبحث عن بضعة أسماء فقط.

بموت "جورج آنجلفيلد" بلغ الإسهاب فى وصف أفراد العائلة نهايته، إذ بدا أن "تشارلى" و"إيزابيل" -لو افترضنا أنهما كانا أصحاب القرار- لم يبذلا مجهودًا كبيرًا فى تلخيص حياة وموت والدهما للأجيال القادمة، "ارتاح من الأحزان الدنيوية، هو الآن مع مخلصه"، هكذا كانت رسالة شاهد قبره المقتضبة، ولُخص دور "إيزابيل" فى هذا العالم ورحيلها عنه بالتعبيرات الأكثر عادية: "أم وأخت محبوبة للغاية، لقد ذهبت إلى مكان أفضل"، لكننى نسختها فى مفكرتى على أيَّة حال، وأجريت حسابات سريعة، إنها أصغر منى! ليست صغيرة السن لدرجة مأساوية مثل زوجها، لكن مع ذلك، هذا ليس سنًا للموت.

كدت ألا أجد قبر "تشارلى"، فبعدما رأيت كل شاهد قبر آخر فى المصلى، كدت أستسلم، حين لمحت عيناى أخيرًا شاهدًا صغيرًا مظلمًا، إنه صغير للغاية ومظلم، لدرجة أنه بدا مصممًا هكذا بغرض الإخفاء، أو على الأقل للدلالة على عدم الأهمية، لم توضع أوراق ذهبية لتحمى

الحروف من الاختفاء، لذا وأمام عجزى عن قراءة الشاهد بالعين، رفعت يدى وتحسست النقش على طريقة "برايل" بأطراف أصابعى، كل كلمةعلى حدة.

تشارلى آنجلفيلد.

لقد انتقل إلى الليل المظلم.

نأمل ألا نراه مجددًا.

لم تُنقش أى تواريخ.

شعرت ببرودة مفاجئة، وتساءلت عمن اختار هذه الكلمات، أهى "فيدا وينتر"؟ وما الدافع وراءها؟ بدا لى أن هناك مساحة لقدر محدد من غموض التعبير فى هذا الشاهد، أهذا بسبب حزن الفاجعة؟ أم أنه وداع المنتصر لمن نجوا من الكثير من الأحداث السيئة؟

أغادر الكنيسة وأتمشى ببطء على امتداد الطريق الخاص المفروش بالحصى إلى بوابات المنزل الصغير، حينئذ شعرت بتحديق خفيف إلى ظهرى بلا أى ثقل تقريبًا، كان "أوريليوس" قد غادر، فمن هذا إذًا؟ ربما هو شبح "آنجلفيلد"؟ أو العينان المحترقتان للمنزل نفسه؟ على الأرجح ليس إلا غزالاً، يتابعنى متخفيًا بظلال الغابة.

***

"الأمر مخزٍ"، قالها والدى فى المتجر ذلك المساء، "أنك لا تستطيعين المجىء إلى البيت لبضع ساعات".

اعترضت مدعية الجهل: "أنا فى البيت"، لكننى عرفت أنه يتحدث عن والدتى، والحقيقة أننى لم أستطع تحمل تهللها التافه، ولا اللون الباهت المميز لمنزلها، لقد عشت فى الظل، وصادقت كآبتى، لكن فى منزل والدتى عرفت أن حزنى غير مرحب به، ربما كانت لتحب ابنة متكلمة مبهجة، ربما يساعد تهللها فى طرد مخاوف والدتى، لكن الواقع

أنهـا تخـاف نوبـات صمتـى، كنـت أفضـل أن أبقـى بعيـدة، أوضحـت: "ليـس لـدى الكثـير مـن الوقـت، السـيدة (وينـتر) قلقـة حيـال أننـا يجـب أن نتقـدم سريعًـا فى العمـل، كـما أن أسـابيع قليلـة فقـط متبقيـة عـلى عيـد الميـلاد، سـأعود حينـذاك مجـددًا".

قال: "نعم، إن عيد الميلاد قريب".

بـدا حزينًـا وقلقًـا، وعرفـت أننـى السـبب، وأسـفت لأننـى لا أسـتطيع فعـل شيء حيـال ذلـك.

"جمعـت بضعـة كتـب لآخذهـا معـى للسـيدة (وينـتر)، ووضعـت ملاحظـة عـلى بطاقاتهـا فى دليـل كتـب المتجـر".

"لا مشكلة بذلك".

***

فى تلـك الليلـة، شـعرت بضغطة على طـرف سريرى تجرنى إلى الاسـتيقاظ، إنهـا الزوايـا الحـادة للعظام الضاغطـة على لحمى عـبر الأغطية.

إنها هنا! تعالى إلىّ أخيرًا!

كل مـا عـلى فعلـه هـو أن أفتـح عينـى وأنظـر إليهـا، لكـن الخـوف يشـلنى، كيـف سـتبدو؟ مثـلى؟ طويلـة ونحيفـة ولهـا عينـان داكنتـان؟ أم أنهـا -وهـو مـا أخشـاه- جـاءت إلىّ مـن القـبر مباشرة؟ مـا الفظائـع التـى أنـا عـلى وشـك إشراك نفـسى بهـا، أو بالأحـرى إعـادة نفـسى إليهـا؟

يتلاشى الخوف.

لقد استيقظت.

اختفـى الضغـط مـن عـلى الأغطيـة، كانـت تلـك أضغـاث أحـلام، لسـت واثقـة إن كان ذلـك قـد أراحنـى أم أحبطنـى.

قمـت مـن سريـرى وحقبـت أشـيائى، وفى عتمـة فجـر الشـتاء مشـيت إلى المحطـة لأسـتقل أول قطـار إلى الشـمال.

# المنتصف

# وصول "هيستر"

حين غادرت يوركشاير كان نوفمبر فى مطلعه، وبحلول عودتى كانت أواخره، قبيل بداية ديسمبر.

يصيبنى ديسمبر بالصداع ويقلص شهيتى الضئيلة أصلاً، يجعلنى أقرأ بلا هوادة، يبقينى مستيقظة ليلاً بظلامه البارد الرطب، تبدأ ساعة ما بداخلى بالدوران فى أول أيام ديسمبر، تعد الأيام والساعات والدقائق، تعد تنازليًّا حتى يوم محدد، ذكرى يوم بدأت حياتى وانتهت: يوم ميلادى، أنا لا أحب ديسمبر.

فى هذا العام، تفاقم شعور التشاؤم بسبب الطقس، وحامت سماء ثقيلة ضاغطة أعلى المنزل، محدثة شفقًا معتمًا دائمًا، حين وصلت وجدت "جوديث" تهرول من غرفة إلى أخرى، تجمع لمبات المكاتب واللمبات العادية ولمبات القراءة من غرف الضيوف التى لم تُستخدم قط، وتستخدمها فى المكتبة والمرسم وجناحى، تفعل أى شىء لإبعاد

الظلال المظلمة التى تخفت فى كل ركن، وتحت كل كرسى، وفى جنبات الستائر وطيات الأثاث.

لم تطرح السيدة "وينتر" أى أسئلة عن غيابى، ولم تخبرنى أى شىء عن تقدم مرضها، لكن حتى بعد غياب قصير كهذا، بدا تدهور حالتها واضحًا لى، فقد سقطت الملابس الكشميرية فى ما يبدو أنه ثنايا فارغة حول جسدها المتضائل، وعند أصابعها بدا أن قطع الياقوت والزمرد قد تمددت، لقد أصبحت يداها نحيفتين جدًّا، واتسع الخط الأبيض الرقيق التى كان واضحًا فى فرق شعرها قبل أن أغادر، زحف نحو الجانبين، مخففًا الدرجات اللامعة إلى درجات أبهت من اللون البرتقالى، لكن على الرغم من هشاشتها الجسدية، بدت مشحونة بقوة ما، طاقة ما، تغلبت على المرض والسن وجعلتها قوية، بمجرد أن وصلت إلى الغرفة، قبل حتى أن أجلس وأخرج مفكرتى، بدأت الحديث، ملتقطة خيط القصة من حيث تركته، كأن القصة أوشكت على الفيضان ولن تستطيع احتواءها أكثر من ذلك.

***

برحيل "إيزابيل"، سرى شعور فى القرية بأن شيئًا ما يجب فعله من أجل الطفلتين، عمرهما الآن ثلاثة عشر عامًا، وهو عمر لا يجب أن تُتركا فيه بلا متابعة، تحتاجان إلى تأثير امرأة ما، ألا يجب أن تُرسلا إلى مدرسة ما؟ ولكن أيَّة مدرسة تلك التى ستقبل طفلتين مثل هاتين؟ وحين تبين أن خيار المدرسة غير ممكن، قُرر أنه يجب تعيين معلمة منزلية.

عُثر على معلمة منزلية، اسمها "هيستر"، "هيستر بارو"، ليس اسمًا جميلاً، لكن هى نفسها ليست فتاة جميلة.

رتب الطبيب "مودسلى" الأمر بالكامل، فى حين أنَّ "تشارلى" المحبوس فى كآبته بالكاد مدرك لما يحدث، و"جون ذا ديج" وسيدة الخدم مجرد خادمين فى المنزل ولم يُطلب رأيهما، تواصل الطبيب مع السيد "لوماكس"، محامى العائلة، وتمت الترتيبات اللازمة كلها بين كليهما بمساعدة من مدير البنك، وكان الأمر مقضيًّا.

بقلة حيلة وسكون، تشاركنا جميعًا الشعور بالترقب، كل لديه مزيج خاص من المشاعر تجاه الأمر، سيدة الخدم تنتابها مشاعر مختلطة؛ تشعر بشك غريزى تجاه تلك الغريبة التى ستقتحم مساحتها، ويتصل بهذا الشك الخوف من أن تشعر بالنقص، فقد كانت مسئولة عن الطفلتين لسنوات وتعرف حدود قدرتها، كذا شعرت بالأمل، الأمل أن تلك القادمة ستغرس حس الانضباط لدى الطفلتين، وتفرض الأخلاق وسلامة العقل على المنزل، فى الواقع، لديها رغبة شديدة فى حياة مستقرة تدار جيدًا لدرجة أن قبيل وصول المعلمة بدأت بإصدار الأوامر، وكأننا من نوع الأطفال الذى قد يذعن، ولا داعى لتأكيد أننا لم نذعن.

أما مشاعر "جون ذا ديج" فكانت أقل اختلاطًا، بل فى الواقع عدائية بالكامل، فلا ينجر إلى التساؤلات الطويلة التى تراود سيدة الخدم عما ستئول إليه الأمور، ورفض بصمت متحجر أن يشجع التفاؤل الذى بدأ يمد جذوره فى قلبها، فكانت تقول: "إن كانت هى الشخص المناسب..."، أو "لا أحد يعرف إلى أى مدى يمكن أن تتحسن الأمور..." لكنه كان يحملق عبر نافذة المطبخ ويعزف عن المشاركة حين اقترح الطبيب أن يأخذ عربة الأحصنة ليقل المعلمة من المحطة، كان رده وقحًا بكل صراحة: "ليس لدى وقت للتبختر بطول المقاطعة وراء معلمة لعينة". فاضطر الطبيب إلى ترتيب اللازم ليوصلها بنفسه، منذ حادثة الحديقة لم يعد "جون" مثلما كان، والآن، بمجىء هذا التغيير، قضى ساعات وحده، يسهب التفكير فى مخاوفه وبواعث قلقه

بشـأن المسـتقبل، تحمـل تلـك القادمـة عينـين وأذنـين جـدداً، فى منـزل لم ينظـر ولم يسـمع فيـه أحـد شـيئًا عـلى نحـو سـليم لسـنوات، اعتـاد "جـون ذا ديـج" التكتـم، وتنبـأ بالمشـكلات.

استشـعر كل منـا الرهبـة بطريقتـه الخاصـة، كلنـا باسـتثناء "تشـارلى"، فى يـوم وصولهـا، كان "تشـارلى" الوحيـد الـذى عـلى طبيعتـه، مـع أنـه كان منعـزلاً ومتجنبًـا الأنظـار، فـإن وجـوده كان مثبتًـا بأصـوات البعـثرة والأصـوات المدويـة التـى تهـز البيـت بـين الحـين والآخـر، جلبـة تعودنـا عليهـا جميعًـا لدرجـة أننـا بالـكاد أصبحنـا نلاحظهـا، ونتيجـة تهجـده لعـودة "إيزابيـل"، لم يعـد لديـه أيَّـة فكـرة عـن اليـوم أو الوقـت، ووصـول المعلمـة لم يعـنِ لـه أى شىء.

كنـا نتسـكع فى ذلـك الصبـاح بإحـدى الغـرف الأماميـة فى الطابـق الأول، يمكـن اعتبارهـا غرفـة نـوم، فقـط لـو كان السريـر واضحًـا تحـت كومـة الخـردة التـى تراكمـت عليـه كأنهـا تراكمـت عـلى مـدار عقـود، "إيميلايـن" تعبـث بأظفارهـا فى خيـوط التطريـز الفضيـة التـى امتـدت بطـول السـتائر، وحـين نجحـت فى تحريـر أحـد الخيـوط، وضعتـه خلسـة فى جيبهـا اسـتعداداً لتضيفـه لاحقًـا إلى مجموعتهـا الفنيـة التـى تخفيهـا تحـت سريرهـا، لكـن شىء مـا قطـع تركيزهـا، أحـد مـا آت، وسـواء أعرفـت معنـى ذلـك أم لا، فـإن ذلـك الشـعور بالانتظـار الـذى سـيطر عـلى المنـزل قـد طالهـا.

كانـت "إيميلايـن" أول مـن سـمع عربـة الأحصنـة، شـاهدنا مـن النافـذة الوافـدة الجديـدة تترجـل، وتمسـد الكسـرات المتراكمـة عـلى تنورتهـا بضربتـين خفيفتـين مـن كفيهـا، وتنظـر حولهـا، تطلعـت إلى البـاب الأمامـى، وإلى يسـارها، وإلى يمينهـا، ثـم إلى أعـلى، حينهـا تراجعـت أنـا، عـلى الأرجـح ظنتنـا خدعـة ضوئيـة أو سـتارة نافـذة رفعهـا النسـيم عـبر زجـاج النافـذة المكسـور، أيًّـا كان مـا رأتـه، لا يمكـن أن يكـون نحـن.

لكننـا رأيناهـا، حدقنـا عـبر ثقـب "إيميلايـن" الجديـد فى السـتائر، لم نكـن واثقتـين مـن شـعورنا، طـول "هيسـتر" متوسـط، كذلـك بنيتها، شـعرها ليـس أصفـر ولا بنـى، وهـو لـون بشرتهـا، ترتـدى معطفًـا وفسـتانًا وتنتعـل حـذاءً، وتعتمـر قبعـة: كلهـا لهـا اللـون نفسـه غـير المميـز، ووجههـا مجـرد مـن أيَّـة سـمات مميـزة، ومـع ذلـك، حدقنـا إليهـا، حدقنـا إليهـا حتـى آلمتنـا أعيننـا، كل مسـام وجههـا العـادى مضيئـة، شىء مـا فى ملابسـها وفى شـعرها مـشرق، شىء مـا فى أمتعتهـا مشـع، شىء مـا جعلهـا متوهجـة، مثـل مصبـاح، شىء مـا جعلهـا غريبـة.

لم تكـن لدينـا فكـرة عـن حقيقـة هـذا الـشىء، لم نتخيـل شـيئًا مثلـه مـن قبـل.

لكننا عرفناه لاحقًا.

"هيستر" نظيفة، إنها مغسولة ومصبنة ومشطوفة وملمعة بالكامل.

يمكن تخيل انطباعها عن آنجلفيلد.

بعـد دخولهـا المنـزل بربـع سـاعة جعلـت سـيدة الخـدم تدعونـا، تجاهلنـا النـداء، وانتظرنـا لـنرى مـا سـيحدث لاحقًـا، انتظرنـا، وانتظرنـا، لم يحـدث شىء، وكانـت تلـك أول مـرة تفسـد الأمـر علينـا، فقـط لـو كنـا توقعنـا ذلـك لاختلـف الأمـر، تصبـح كل خبرتنـا فى الاختبـاء بـلا قيمـة إن لم تـأت لتبحـث عنـا، وبالفعـل لم تـأت، ظللنـا فى الغرفـة، وزاد مللنـا، ثـم كدرنـا الفضـول الـذى زرع نفسـه فينـا عـلى الرغـم مـن مقاومتنـا، أصبحنـا منتبهتـين للأصـوات الصـادرة مـن الطابـق السـفلى: صـوت "جـون ذا ديـج"، وجـر الأثـاث، وبعـض القـرع والطـرق، ثـم سـاد الهـدوء، وفى وقـت الغـداء، نودينـا ولم نلـب، وفى السادسـة نادتنـا سـيدة الخـدم مجـددًا: "أيتهـا الطفلتـان، تعاليـا لتنـاول العشـاء مـع معلمتكـما الجديـدة"، لكننـا ظللنـا فى الغرفـة، لم يـأت أحـد، وكانـت تلـك بدايـة شـعورنا بـأن الوافـدة الجديـدة قـوة يُحسـب لهـا حسـاب.

لاحقًا بلغنا صوت استعداد المنزل للنوم، سمعنا خطوات على السلم، إنها سيدة الخدم تقول: "آمل أنك ستكونين مرتاحة يا آنسة"، ثم صوت المعلمة: "متأكدة أننى سأكون مرتاحة يا سيدة (دان)، شكرًا لتعبك".

"بشأن الفتاتين يا آنسة (بارو)..."

"لا تقلقى بشأنهما يا سيدة (دان)، ستكونان بخير، تصبحين على خير".

وبعد صوت هبوط سيدة الخدم المستمر على السلم، بات كل شيء هادئًا.

هبط الليل ونام البيت إلا نحن، فمحاولات السيدة تعليمنا أن الليل للنوم باءت بالفشل، كحال جميع دروسها الأخرى لنا، ونحن لم نخشَ الظلام، تنصتنا خارج باب غرفة المعلمة ولم نسمع شيئًا سوى خشخشة خافتة لفأر تحت ألواح الأرضية، فهبطنا السلم إلى خزانة المؤن.

الباب لا يُفتح، هذا القفل لم يُستخدم قط فى حياتنا، لكن فى تلك الليلة خان العهد، ووجدنا عليه آثار تزييت.

انتظرت "إميلاين" بصبر وانشِداه أن ينفتح الباب، مثلما انتظرت دائمًا من قبل، واثقة بأنها فى أيَّة لحظة ستجد خبزًا وزبدة ومربى لتأخذها.

لكن ما من داع للهلع، فجيب مئزر سيدة الخدم موجود، وهناك سيكون المفتاح، هناك توجد المفاتيح دائمًا، حلقة تجمع مفاتيح صدئة غير مستخدمة للأبواب والأقفال فى أنحاء المنزل، وأقل عبث بها سيعرفنا أى مفتاح يفتح أى قفل.

لكن الجيب كان خاليًا.

اضطربت "إيميلاين"، وأصابها هذا التأخير بالذهول.

تتطـور المعلمـة لتشـكل تحديًـا حقيقيًـا لكنهـا لـن تنـال منـا بهـذه الطريقـة، سـنخرج، يمكننـا دائمًـا أن ندخـل أحـد البيـوت مـن أجـل وجبـة خفيفـة.

دار مقبـض بـاب المطبـخ ثـم توقـف، لم يمكننـا أى قـدر مـن الجـذب والعبـث مـن فتحـه؛ إنـه مغلـق بقفـل.

وُضعـت ألـواح عـلى النافـذة المكسـورة فى المرسـم، وأُوصـد شـيش النافـذة فى غرفـة الطعـام، تبقـت أمامنـا فرصـة واحـدة أخـرى، ذهبنـا إلى الردهـة والبـاب المـزدوج الكبـير، وتخلفـت "إيميلايـن" المرتبكـة قليـلاً فى السـير، فهـى جائعـة، لمـاذا كل هـذا العنـاء مـع الأبـواب والنوافـذ؟ وكـم تبقـى مـن الوقـت قبـل أن تمـلأ بطنهـا بالطعـام؟ كان بصيـص مـن ضـوء القمـر، لونـه أزرق بفعـل الزجـاج الملـون الـذى يغطـى نوافـذ الردهـة، كافيًـا لـنرى البراغـى الضخمـة الثقيلـة الأبعـد مـن أن نطالهـا، والتـى زُيتـت وانزلقـت فى أماكنهـا أعـلى البـاب المـزدوج.

لقد حُبسنا.

قالـت "إيميلايـن": "يـام يـام"، إنهـا جائعـة، وحـين تجـوع "إيميلايـن" يجـب إطعامهـا، الأمـر بهـذه البسـاطة، لقـد كنـا فى ورطـة، أمامنـا الكثـير مـن الوقـت، لكـن فى النهايـة اسـتوعب عقـل "إيميلايـن" الصغـير المسـكين أن الطعـام الـذى تاقـت إليـه لـن تحصـل عليـه، بانـت بعينيهـا نظـرة ارتبـاك، وفتحـت فمهـا وصرخـت.

امتـد دوى صرختهـا ليصعـد السـلم الحجـرى، وتحـول إلى الممـر عـلى اليسـار، وصعـد مجموعـة أخـرى مـن الدرجـات وانزلـق عـبر بـاب غرفـة المعلمـة الجديـدة.

سريعًا انضمت له ضوضاء أخرى، ليس جر القدمين الأعمى الخاص بسيدة الخدم، بل الخطوات البندولية الخاصة بالآنسة "هيستر بارو"، هبطت مجموعة من الدرجات بخطوات حادة غير متعجلة، وقطعت طرقة، ووصلت إلى المعرض.

اختبأت أنا بين طيات الستائر الطويلة قبل لحظة من ظهورها أعلى السلم الذى حُوِّل إلى معرض، كان ذلك منتصف الليل، وقفت على قمة السلم، لها بنية صغيرة مكتنزة، ليست سمينة ولا نحيفة، تقف على قدمين ثابتتين، يعلو ذلك الجسد وجه هادئ وحازم، بثوب نومها الأزرق المُحزم بقوة وشعرها الممشط بأناقة، بدت بشكل مؤكد كأنها نامت واقفة ومستعدة للصباح، شعرها خفيف وملتصق برأسها، ووجهها يعطى انطباعًا ببطء الفهم، وأنفها قصير وممتلئ، إنها عادية، إن لم تكن أسوأ من عادية، لكن تأثير الشحوب على وجه "هيستر" لا يشبه ولو من بعيد تأثيره على أيَّة امرأة أخرى، إنها تجذب العين.

كانت "إيميلاين" الواقفة أسفل السلم تنتحب جوعًا قبل لحظات، لكن فى اللحظة التى ظهرت فيها "هيستر" بكل بهائها، توقفت عن البكاء وحملقت على نحو أهدأ، كأن ما ظهر أمامها هو حامل تتكدس عليه الكعكات.

قالت "هيستر" وهى تهبط: "من الرائع رؤيتك، والآن من أنت؟ (آديلاين) أم (إيميلاين)؟"

وقفت "إيميلاين" مشدوهة بفم مفتوح وصامتة.

تابعت المعلمة: "لا يهم، أتريدين بعض الطعام؟ وأين أختك؟ أتريد البعض أيضًا؟"

قالت "إيميلاين": "يام"، ولم أعرف ما إذا قالت ذلك لأنها كلمة الطعام أم بسبب"هيستر" نفسها.

تطلعت "هيستر" حولها، باحثة عن التوأمة الأخرى، بدت الستائر لها كأنها مجرد ستائر، لأن بعد نظرة متعجلة حولت كل انتباهها إلى "إيميلاين"، قالت: "تعالى معى"، وابتسمت وأخرجت من جيبها الأزرق مفتاحًا، لونه أزرق فضي، ومصقول لدرجة اللمعان، وقد تلألأ بشكل مغرٍ تحت الضوء الأزرق.

وفى المفتاح بالغرض؛ إذ قالت "إيميلاين": "لامع"، ودون معرفة ماهيته أو السحر الذى يستطيع فعله، تبعت المفتاح - و"هيستر" معه- عبر الممرات الباردة إلى المطبخ.

بين طيات الستارة، أفسحت آلام جوعى الطريق للغضب، "هيستر" ومفتاحها! "إيميلاين"! كان الأمر أشبه بإعادة لواقعة عربة الأطفال، إنه "الحب".

تلك هى الليلة الأولى، وكانت انتصارًا لـ"هيستر".

لم تؤثر قذارة المنزل على معلمتنا النظيفة جدًّا مثلما قد يتوقع المرء، بل حدث العكس؛ إذ بدا أن أشعة الضوء القليلة، الجافة والمغبرة، التى نجحت فى اختراق النوافذ المتسخة والستائر الثقيلة، تسقط دائمًا على "هيستر"، جمعت الأشعة لنفسها وعكستها نحو الظلام، الذى أصبح منتعشًا ومفعمًا بالحيوية بفضل اتصاله بـ"هيستر" شيئًا فشيئًا، امتد البصيص من "هيستر" نفسها إلى المنزل، فى أول يوم عمل كامل لها، لم تتأثر سوى غرفتها؛ إذ أنزلت الستائر وأغرقتها فى حوض ملىء بالمياه والصابون، وعلقتها على حبل حيث أيقظت الشمس والرياح رسمة الزهور الوردية والصفراء التى لم يتوقع أحد وجودها وحين تركتها لتجف، نظفت النافذة بصحيفة وخل لتسمح للضوء بالمرور، وحين رأت نتيجة ما تفعله، مسحت الغرفة من الأرض إلى السقف، وبحلول الليل كانت قد أوجدت ملاذًا آمنا من النظافة بين تلك الجدران الأربعة، وهذه مجرد بداية.

فرضـت "هيسـتر" النظافـة العامـة عـلى ذلـك المنـزل بالصابـون والمبيـض، وبالطاقـة والعـزم هـذا المنـزل الـذى كان سـكانه لمـدة أجيـال يتثاقلـون بـلا نظـر وبـلا هـدف، ولا يسـعون وراء شىء سـوى الهـوس القـذر لـدى كل منهـم، أتـت "هيسـتر" كأنهـا معجـزة سـتنظف البيـت عـن آخـره، لمـدة ثلاثـين عامًـا، قيسـت الحيـاة داخـل المنـزل بالحركـة البطيئـة لـذرات الغبـار التـى تظهـر فى شـعاع شـمس مرهـق يدخـل بـين الحـين والآخـر، والآن تقيسـها قدمـا "هيسـتر" الصغيرتـان بالدقائـق والثـوانى، وبحفيـف قـوى لممسـحة، اختفـت تلـك الـذرات.

وبعـد النظافـة جـاء دور النظـام، وكان المنـزل نفسـه هـو أول مـن شـعر بالتغيـير، أجـرت معلمتنـا الجديـدة جولـة شـاملة للغايـة؛ انطلقـت مـن أسـفل إلى أعـلى، تتجهـم وتعبـس عنـد كل طابـق، لم تُفلـت منهـا أيَّـة خزانة أو كـوة، فقـد حملـت ورقـة وقلـمًا وفحصـت كل غرفـة، تـدون مـكان كل بقعـة رطبـة ونافـذة لهـا صريـر، وتبحـث عـن الصريـر فى الأبـواب وألـواح الأرضيـة، وتجـرب المفاتيـح القديمـة فى الأقفـال القديمـة، وتـدون عـلى كل منهـا مـكان قفلـه، تركـت الأبـواب مقفلـة وراءهـا، ومـع أن هـذه لم تكـن إلا أول حملـة تنظيـف شـاملة، مجـرد حملـة تحضيريـة مـن أجـل حملـة الترميـم الرئيسـة، فإنهـا أحدثـت تغيـيرًا فى كل غرفـة دخلتهـا، كومـة مـن الأغطيـة فى زاويـة مطويـة ومرتبـة عـلى كـرسى، كتـاب أخذتـه ووضعتـه تحـت ذراعهـا لتعيـده إلى المكتبـة لاحقًـا، شـدت السـتائر لتكون مسـتقيمة، حـدث كل هـذا باسـتعجال ملحـوظ، لكـن دون أدنى علامـة عـلى التسـرع، بـدا أنهـا لم تحتـج إلا إلى أن تلقـى نظـرة عـلى غرفـة حتـى يتراجـع فيهـا الظـلام، وحتـى تبـدأ الفـوضى فى الانتظـام بخجـل، وحتـى تنسـحب الأشـباح سريعًـا، وبهـذه الطريقـة، خضعـت كل الغـرف للـ"هيسـترة".

العليـا بالفعـل أوقفتهـا مـن المفاجـأة، فهبـط فكهـا وبـدت مذعـورة تجـاه حالـة تجويـف السـقف، لكـن حتـى وسـط هـذه الفـوضى، كانـت لا تُقهـر، فاسـتجمعت قواهـا، وزمـت شـفتيها، وشـطبت وكشـطت فى مـا

أمامها بحيوية أكبر، وفى اليوم التالى جاء بنّاء كنا نعرفه من القرية، رجل متأنٍّ فى مشيته، حين يتكلم يمد الحروف المتحركة ليريح فمه قبل الحرف الساكن التالى، يتولى ست أو سبع وظائف فى آن، ونادرًا ما يكمل أيًّا منها، يقضى أيام عمله فى تدخين السجائر والتحديق إلى المهمة التى أمامه وهو يهز رأسه كأنه يستسلم للقدر، صعد سلمنا بطريقته الكسولة التقليدية، لكن بعد أن قضى خمس دقائق مع "هيستر"، سمعنا مطرقته تنطلق بأقصى سرعة وبلا توقف، لقد حمسته.

فى غضون بضعة أيام أصبحت هناك أوقات للطعام، وأوقات للنوم والاستيقاظ، وبعد بضعة أيام أخرى، أصبحت هناك أحذية نظيفة للتنقل داخل المنزل، وأحذية نظيفة ذات رقبة للخروج، ليس هذا فقط، بل ونُظفت الفساتين الحريرية ورُتقت، وعُدلت لتناسب جسدى الفتاتين أكثر، وعُلقت بعيدًا من أجل شيء ما "أفضل"، وظهرت فساتين جديدة من القطن الأخضر والأزرق بياقات وأحزمة بيضاء من أجل الاستخدام اليومى.

أشرقت "إيميلاين" تحت ظل النظام الجديد، فأصبحت تتغذى جيدًا فى أوقات منتظمة، ويُسمح لها باللعب -تحت رقابة مشددة- بمفاتيح "هيستر" اللامعة، بل وطورت شغفًا تجاه الاستحمام، قاومت فى البداية، وصرخت ورفست فى حين تعريها "هيستر" وسيدة الخدم وتنزلاها فى حوض الاستحمام، لكن حين رأت نفسها فى المرآة بعدها، وجدت نفسها نظيفة وشعرها مضفر بأناقة ومربوط بربطة فراشة خضراء، انشدهت وراحت فى نشوتها، أعجبها أن تكون متلألئة، واعتادت "إيميلاين" كلما كانت فى حضرة "هيستر"، أن تدرس وجهها خلسة، باحثة عن ابتسامة، وحين تبتسم "هيستر" -وهذا نادر- تحدق "إيميلاين" إلى وجهها سعادة، ولم يمر الكثير من الوقت حتى تعلمت أن ترد الابتسامة.

أشرق أعضاء آخرون بالمنزل أيضًا؛ فقد فحص الطبيب عينى سيدة الخدم، وأُخذت إلى متخصص أعين بعد الكثير من التذمر، وحين عادت استطاعت أن ترى مجددًا، وسُرت سيدة الخدم جدًا لرؤية المنزل بحالة النظافة الجديدة، لدرجة نسيان كل السنوات التى عاشتها فى الكآبة، واستعادت شبابها كفاية لتنضم لـ"هيستر" فى هذا العالم الجديد الشجاع، وحتى "جون ذا ديج"، الذى أطاع أوامر "هيستر" بكآبة وأبقى عينيه الداكنتين دائمًا وبصرامة متفاديتين للنظر إلى عينيها المشرقتين اللتين تريان كل شىء، لم يستطع مقاومة التأثير الإيجابى لطاقتها فى المنزل، فمن دون مقدمات أخذ مجزاته ودخل الحديقة التوبيارية للمرة الأولى منذ الكارثة، وهناك كثف جهوده إلى جانب جهود الطبيعة المستمرة لإصلاح آثار هجمة الماضى.

كان "تشارلى" الأقل تأثرًا على نحو مباشر، فقد ابتعد عن طريقها، وهذا ناسب كليهما، لم تكن لديها رغبة فى فعل أى شىء سوى عملها، ونحن كنا عملها، عقلينا، وجسدينا، وروحينا، لكن الوصى علينا يقع خارج مجال اختصاصها، فتركته وشأنه، هى ليست "جين أير"، وهو ليس السيد "روتشستر"، وفى مواجهة طاقتها المهندِمة لكل ما حولها، تراجع هو إلى الحضانة القديمة فى الطابق الثانى وراء باب مقفل بصرامة، حيث تعفن هو وذكرياته معًا وسط القذارة، بنظره، كان تأثير "هيستر" محدودًا بتحسن فى نظامه الغذائى، وبقبضة أصرم على أمواله التى نهبها التجار ورجال الأعمال منعدمى الضمائر فى مواجهة السيطرة الأمينة والواهية لسيدة الخدم، ولم يلحظ هو أيًا من هذه التغييرات للأفضل، ولو كان لاحظها فإننى أشك فى أنه قد يهتم.

لكن "هيستر" بالفعل أبقت الطفلتين تحت السيطرة، وبعيدًا عن الأنظار، ولو فكر فى الأمر بأى شكل لامتنّ لما فعلته، ففى عهد "هيستر"، لم يعد هناك داعٍ للجيران العدائيين ليأتوا للشكوى بشأن التوأمين، ولا حاجة إلى زيارة المطبخ لطلب شطيرة من سيدة الخدم،

والأهـم مـن كل ذلـك، أن لا حاجـة إلى مغـادرة تلـك المسـاحة مـن الخيـال التـى سـكنها مـع "إيزابيـل"، مـع "إيزابيـل" فقـط، دائمًـا مـع "إيزابيـل"، فما تخـلى عنـه مـن مسـاحة سـيطرته اكتسـبه فى صـورة حريـة، لم يسـمع قـط عـن "هيسـتر"، لم يرهـا قـط، بـل إنهـا حتـى لم تخـطُ ولـو خطـوة واحـدة داخـل عقلـه، كانـت مرضيـة لـه تمامًـا.

انتـصرت "هيسـتر"، ربمـا كانـت تبـدو مثـل ثمـرة البطاطـس، لكـن مـا مـن شيء لا تسـتطيع تلـك الفتـاة فعلـه بمجـرد أن تضعـه نصـب عينيهـا.

***

سـكتت السـيدة "وينـتر" لوهلـة، اسـتقرت عيناهـا عـلى زاويـة الغرفـة، حيــث قــدم ماضيهــا نفســه إليــه بواقعيــة أكــثر مــن الحــاضر ومنــى، ارتجفـت زوايـا فمهـا وعينيهـا بنصـف تعبـيرات مـن الحـزن والألم، لمعرفتـى بمـدى هشاشـة الخيـط الـذى يربطهـا بماضيهـا، كنـت قلقـة تجـاه قطعـه، وقلقـت بالدرجـة نفسـها بشـأن أن توقـف حـكى قصتهـا.

طال السكوت.

سألتها برقة: "وأنت؟ ماذا عنك؟"

رمشت بشكل مبهم: "أنا؟ نعم لقد أحببتها، وهذه كانت المشكلة".

"المشكلة؟"

رمشــت مجــددًا، اعتدلــت فى مقعدهــا ونظــرت إلى بعينــين جديدتــين وحادتــين، لقــد قطعــت الخيــط.

"أعتقد أن هذا كفاية اليوم، يمكنك الانصراف".

# صندوق الحياة

بوصولنا إلى قصة "هيستر" رجعت سريعًا إلى روتيني، في الصباح أستمع إلى السيدة "وينتر" تحكي لي قصتها، وبالكاد أنتبه إلى مفكرتي، ولاحقًا في غرفتي، أمام رزم الورق وأقلامي الرصاص الحمراء الاثني عشر ومبراتي الوفية، أفرغت ما حفظته عن ظهر قلب، مع تدفق الكلمات من طرف قلمي على الصفحة، استحضرت صوت السيدة "وينتر" في أذني، ولاحقًا، حين أقرأ بصوت مرتفع ما كتبته، أشعر بوجهي يعيد ترتيب نفسه ليمثل تعبيراتها، ارتفعت يدي اليسرى وهبطت محاكية حركاتها التأكيدية، وترقد يمناي في حجري كأنها مشوهة، تحولت الكلمات إلى صور في دماغي، "هيستر"، نظيفة وأنيقة ومحاطة ببريق فضي، هالة تحيط بجسدها كله وتتسع طوال الوقت، تلف أولاً غرفتها، ثم المنزل، ثم سكانه، تحولت سيدة الخدم من كائن بطيء في الظلام إلى شخصية لها عينان تندفعان برشاقة في الأنحاء، مشرقة بنور الإبصار، وتسمح "إيميلاين" لنفسها تحت تأثير هالة "هيستر" اللامعة، بأن تتغير من متشردة قذرة تعاني سوء التغذية، إلى طفلة نظيفة

حنون ممتلئة الجسد، حتى الحديقة التوبيارية كان لها نصيب من ضوء"هيستر"، إذ أشرقت على أفرع أشجار الصنوبر المُتلفة، وأحللت بها الازدهار الأخضر المنعش، بالتأكيد هناك "تشارلى"، الذى يتحرك كالأخرق فى الظلام، ويُسمع ولا يُرى، و"جون ذا ديج"، البستانى ذو الاسم الغريب، الذى يطيل التفكير عند حدودها، ويمانع أن يُجذب إلى ضوئها، و"آديلاين"، الغامضة مظلمة القلب.

احتفظت بصندوق حياة لكل مشروعات السير الذاتية خاصتى، صندوق يحوى بطاقات تصنيف توضح تفاصيل -الاسم، والوظيفة، والتواريخ، ومحل السكن، وأيَّة معلومات أخرى تبدو مهمة- كل الشخصيات الهامة فى حياة صاحب السيرة الذاتية، لا أعرف قط ما سأفعله بصناديق الحياة تلك، حسب حالتى المزاجية، إما تبدو لى ذكرى تسعد الموتى (أتخيلهم يقولون وهم يتطلعون عبر الزجاج إلى: "انظروا! إنها تدوننا فى بطاقاتها! وقد ظننا أننا متنا منذ مئتى عام!") وإما حين يكون الزجاج مظلمًا جدًّا وأشعر أننى عالقة ووحيدة للغاية فى هذا الجانب منه، تبدو كأنها شواهد قبور ورقية صغيرة، جامدة وباردة، والصندوق نفسه له موات المدافن نفسه، طاقم شخصيات السيدة "وينتر" قليل جدًّا، وبينما أخلط الشخصيات بين يدى، أفزعتنى مدى هشاشتها، لقد قُدمت لى قصة، لكن على حد معلوماتى، أعرف أقل بكثير مما سأحتاجه.

أخرجت بطاقة بيضاء وبدأت أكتب.

"هيستر بارو".

معلمة.

منزل "آنجلفيلد".

ولدت: ؟

ماتت: ؟

توقفـت، فكـرت، أجريـت بعـض الحسـابات عـلى أصابعـى، كانـت سـن الفتاتـين ثلاثـة عـشر عامًـا فقـط، و"هيسـتر" لم تكـن عجـوزًا، فبـكل تلـك الحيويـة، لا يمكـن أن تكـون عجـوزًا، أكانـت سـنها ثلاثـين عامًـا؟ مـاذا لـو كان خمسـة وعشريـن فقـط؟ اثنـا عـشر عامًـا فقـط تكـبر بهـا عـن الفتاتـين.. أكان هـذا ممكنًـا؟ تسـاءلت، السـيدة "وينـتر"، فى سـبعيناتها وتحتـضر، لكـن هـذا لا يعنـى بالـضرورة أن شـخصًا أكـبر منهـا سـيكون ميتًـا، إلى أى مـدى هـذا مرجـح؟

لم أجد أمامى إلا شيئًا واحدًا.

أضفت ملاحظة أخرى إلى البطاقة، وشددت تحتها خطًا.

اعثرى عليها

هـل قـرارى أن أبحـث عنهـا هـو مـا جعلنـى أراهـا فى حلـم فى تلـك الليلـة؟

بنيـة عاديـة بقميـص نـوم محـزم بأناقـة، عـلى السـلم الـذى أصبـح معرضًـا، تهـز رأسـها وتـزم شـفتيها أمـام الجـدران التـى شـوهتها النـيران، وألـواح الأرضيـة المكسـورة المدببـة، وأشـجار اللبـلاب التـى تلتـف لتشـق طريقهـا صعـودًا عـلى الدرابزيـن الحجـرى وسـط كل تلـك الفـوضى، كـم بـدا كل شىء واضحًـا بالقـرب منهـا، كـم بـدا مريحًـا، اقتربـت، مجذوبـة إليهـا مثـل الفراشـة، لكـن حـين دخلـت دائرتهـا السـحرية، لم يحـدث شىء، كنـت لا أزال فى العتمـة، دارت عينـا "هيسـتر" السريعتـان هنـا وهنـاك، تسـتوعب كل شىء، واسـتقرت عـلى جسـد يقـف ورائى، توأمـى، أو هكـذا فهمـت فى الحلـم، لكـن حـين تجاوزتنـى عيناهـا، كانـت كأنهـا لا تـرانى.

اسـتيقظت، انتابـت جانبـى رجفـة سـاخنة مألوفـة، واسـتدعيتُ صـورًا مـن حلمـى لفهـم مصـدر خـوفى، لا شىء بـ"هيسـتر" نفسـها يخيفنـى، لا شىء يوتـرنى فى المـرور السـلس لعينيهـا عـلى وجهـى وعـبره، مـا رأيتـه فى الحلـم ليـس هـو السـبب، بـل مـا أنـا عليـه هـو مـا يجعلنـى أرتجـف فى

سريرى، لو لم ترنى "هيستر"، فلا بد أن السبب أننى شبح، ولو كنت شبحًا، فأنا ميتة، وكيف لا؟

قمت وذهبت إلى المرحاض لأغتسل من مخاوفى، نظرت إلى يدى تحت المياه متجنبة المرآة، لكن المشهد أمامى ملأنى رعبًا، ففى حين أنَّ يدى موجودتان هنا أجدهما على الجانب الآخر أيضًا، حيث هما ميتتان، والعينان اللتان أراهما، عيناى، ميتتان فى مكانيهما أيضًا، وعقلى الذى فكر بهذه الأفكار، أليس ميتًا أيضًا؟ سيطر علىّ رعب عميق، ما هذا الكائن الغريب الذى هو أنا؟ أى فظاعة هذه التى تقسم شخصًا بين جسدين قبل ولادته، ثم تقتل أحدهما؟ وما الذى تبقى منى؟ نصف ميتة، منفية فى عالم الأحياء نهارًا، فى حين أن فى الليل تتعلق روحى بتوأمى فى غياهب النسيان المظلمة.

أشعلت نيرانًا مبكرة فى الموقد، وأعددت كوب كاكاو، ولففت نفسى بثوب نوم وأغطية لأكتب رسالة إلى والدى، كيف حال المتجر؟ وكيف حال أمى؟ وكيف حاله؟ وتساءلت، كيف يبحث أحد عن شخص؟ هل المحققون الخاصون موجودون فى الحقيقة أم فى الكتب فقط؟ أخبرته بالقليل الذى أعرفه عن "هيستر"، أيمكن تدشين بحث بهذا القدر القليل من المعلومات؟ أيمكن لمحقق خاص أن يتولى مهمة كالتى ببالى؟ إن كان لا، فمن قد يفعل ذلك؟

أعدت قراءة الرسالة، حكيمة ومفعمة بالحيوية، ولا تشى بأى من مخاوفى، حينها كان الفجر يبزغ، وقد توقف الارتجاف، وقريبًا ستأتى "جوديث" بالإفطار.

# عين أشجار الصنوبر

ما من شىء لا تستطيع المعلمة فعله بمجرد أن تضعه نصب عينيها.

هكذا بدا الأمر فى البداية على أيّة حال.

لكن بعد فترة بدأت الصعوبات فى الظهور، أولها كان جدالها مع سيدة الخدم، فبعد أن ترتب "هيستر" الغرف وتنظفها وتتركها مقفلة وراءها، كانت تكتشف أنها غير مقفلة، فاستدعت سيدة الخدم وسألتها: "ما الحاجة إلى ترك الغرف مفتوحة وهى غير مستخدمة؟ نتيجة ذلك أن تدخل الفتاتان كيفما يحلو لهما وتحدثان الفوضى حيث كان النظام، إنه عبءٌ إضافى غير ضرورى لك ولى".

بدت سيدة الخدم موافقة تمامًا، وتركتها "هيستر" راضية جدًّا، لكن بعد أسبوع وجدت الأبواب مفتوحة مجددًا حين يُفترض أن تكون مقفلة، فاستدعت سيدة الخدم مجددًا عابسة، فى هذه المرة لن تقبل بوعود غامضة، وهى عازمة على التوصل إلى حقيقة الأمر.

أوضحـت سـيدة الخـدم: "إنـه الهـواء، ومـن دون حركـة الهـواء، يصبـح المنـزل رطبًـا عـلى نحـو سـخيف".

أعطـت "هيسـتر" سـيدة الخـدم محـاضرة مقتضبـة بمصطلحات بسـيطة عـن دورات الهـواء والرطوبـة وصرفتهـا، واثقـة بأنهـا حلـت المشـكلة هـذه المرة.

بعـد أسـبوع لاحظـت مجـددًا أن الأبـواب غـير مقفلـة، هـذه المـرة لم تسـتدعِ سـيدة الخـدم، بـل فكـرت، لهـذه المشـكلة أبعـاد أكـبر مـما تـرى، وقـررت أنهـا سـتراقب سـيدة الخـدم، وستكتشـف بالملاحظـة سر عـدم إقفـال الأبـواب.

أمـا المشـكلة الثانيـة فكانـت مـع "جـون ذا ديـج"، شـكوكه حولهـا لم تخـفَ عليهـا، لكـن هـذا لم يصدهـا؛ فهـى شـخص غريـب فى المنـزل، والأمـر بيدهـا أن تظهـر أن وجودهـا يصـب بمصلحـة الجميـع ولا يتسـبب بالمشـكلات، وعرفـت أنهـا مسـألة وقـت قبـل أن تكسـب وده، لكـن مـع أنـه بـدا يعتـاد وجودهـا، كانـت شـكوكه بطيئـة فى الاختفـاء عـلى نحـو غير متوقـع، وفى أحـد الأيـام اختمـرت شـكوكه لتكـوِّن شـعورًا آخـر، تحدثـت معـه لأمـر عـادى للغايـة، إذ رأت فى حديقتنـا -أو هكـذا أكـدت- طفـلاً مـن القريـة كان مـن المفـترض أن يكـون فى المدرسـة، فـأرادت أن تعـرف: "مـن هـذا الطفـل؟ مـن والـداه؟"

رد "جون": "لا شأن لى بالأمر"، بفظاظة فاجأتها.

ردت بهـدوء: "لا أقـول إن لـك علاقـة بالأمـر، لكـن الطفـل يجـب أن يكـون فى المدرسـة، واثقـة بأنـك سـتتفق معـى عـلى هـذا، لـو فقـط أخبرتنـى مـن هـو سـأتحدث مـع والديـه ومعلمتـه بشـأن الأمـر".

هـز "جـون ذا ديـج" كتفيـه بـلا مبـالاة وعـزم الانـصراف، لكنهـا ليسـت امـرأة تُصـد بهـذه الطريقـة، دارت حولـه وتوقفـت أمامـه، وكـررت طلبهـا،

ولم لا؟ إنه طلب منطقي للغاية، وقد طرحته بطريقة متحضرة، فلماذا يرفض؟

لكنه رفض ولم يقل سوى: "أطفال القرية لا يأتون إلى هنا".

تابعت: "لكن ذلك الطفل أتى".

"إنهم يبقون بعيدين خوفًا".

"هذا سخيف، مم قد يخافون هنا؟ كان الطفل يعتمر قبعة عريضة الحواف، ويرتدي بنطالاً رجاليًّا قصه ليلائمه، كان مظهره مميزًا جدًّا، بالتأكيد تعرفه".

جاء رده مستخفًا: "لم أر مثل هذا الطفل"، ومرة أخرى عزم الانصراف.

لا يميز "هيستر" شيء أكثر من المثابرة: "لكنك بالتأكيد رأيته..."

"بعض العقول فقط هي التي ترى ما ليس موجودًا يا آنسة، وأنا رجل عاقل لا أرى شيئًا حيث لا يوجد شيء، وإن كنت مكانك يا آنسة، سأفعل الأمر نفسه، يومك سعيد".

عند ذلك انصرف، وفي هذه المرة لم تحاول "هيستر" منعه، بل وقفت مكانها ببساطة، تهز رأسها حيرة وتساؤلاً حيال ما قد أصاب الرجل، يبدو أن منزل "آنجلفيلد" مليء بالألغاز، ومع ذلك، لم تحب "هيستر" شيئًا أكثر من تمرين ذهنها، إذ تصل سريعًا إلى حقيقة الأمور.

التبصر والذكاء من المواهب الاستثنائية لـ"هيستر"، لكن ما يضاهي مواهبها هو حقيقة أنها لم تكن تعرف من تواجه تحديدًا، مثال على ذلك عادتها أن تترك الفتاتين لتمارسا حيلهما لفترات قصيرة في حين تباشر هي أعمالها في مكان آخر، فكانت في البداية تراقب الفتاتين من كثب، وتلاحظ أنماط نشاطهما وراحتهما، وحين أخبرتها نتائج تحليلها أنهما تسترخيان بهدوء في المنزل لمدة ساعة، كانت تتركهما بلا

مراقبـة، فى إحـدى تلـك المـرات، كان لديهـا غـرض خـاص فى بالهـا، إذ جـاء الطبيـب وأرادت التحـدث معـه عـلى انفـراد.

مغفلة "هيستر"، فلا خصوصية حيث يوجد الأطفال.

قابلتـه عنـد البـاب الأمامـى: "إنـه يـوم لطيـف، هـلا نتمـشى فى الحديقـة؟"

انطلقا نحو الحديقة التوبيارية، غير مدركين أن أحدًا يتبعهما.

استهل الطبيـب: "لقـد صنعـت معجـزة يـا آنسـة (بـارو) لقـد تحوّلـت (إيميلاين)".

ردت: "لا".

"نعم، أؤكد لك، لقد تجاوزت توقعاتى، أنا منبهر".

أحنـت "هيسـتر" رأسـها وحولـت جسـدها عنـه بزاويـة بسـيطة، صمـت الطبيـب معتـبراً رد فعلهـا مـن صـور التواضـع، ظانًـا أنهـا مسـتغرقة الآن فى مـا أغـدق عليهـا مـن تقديـر، أتـاح لـه الصنوبـر المجـزوز حديثًـا شـيئًا ليعجـب بـه فى حـين تسـتعيد المعلمـة ربـاط جأشـها، مـن الجيـد أنـه كان مسـتغرقًا فى الأشـكال الهندسـية للصنوبـر، فلـولا ذلـك لـكان لمـح وجههـا السـاخر وأدرك خطـأه.

اعتراضهـا بكلمـة "لا" كان بعيـدًا عـن الابتسـامة الأنثويـة المتكلفـة التـى تصورهـا الطبيـب، لقـد كانـت إقـرارًا صريحًـا لحقيقـة، بالتأكيـد تحولـت "إيميلايـن"، ففـى وجـود "هيسـتر"، كيـف قـد يحـدث غـير ذلـك؟ مـا مـن شيء إعجـازى فى ذلـك، وهـذا مـا قصدتـه بقولهـا "لا".

لكنهـا لم تتفاجـأ بالتعطـف الـذى شـاب تعليـق الطبيـب، فهـذا ليـس عـالم يُرجـح فيـه أن تُلاحـظ علامـات العبقريـة عـلى المعلـمات المنزليـات، لكـن مـع ذلـك أظـن أنهـا شـعرت بخيبـة الأمـل، فقـد ظنـت أن الطبيـب هـو الشـخص الوحيـد فى آنجلفيلـد الـذى قـد يفهمهـا، لكنـه لم يفهمهـا.

التفتـت نحـو الطبيـب ووجـدت نفسـها تواجـه ظهـره، كان واقفًـا ويـداه فى جيبيـه، وكتفـاه مسـتقيمتان، متطلعًـا إلى نهايـة أشجار الصنوبـر وبدايـة السـماء، كان الشـيب يزحـف عـلى شـعره الأنيـق، ورأت دائـرة تامـة الاسـتدارة مـن فـروة الـرأس الورديـة قطرهـا أربـع سـنتيمترات عـلى قمـة رأسـه.

قالت "هيستر": "(جون) يصلح الخراب الذى أحدثته الفتاتان".

"ماذا جعلهما يصنعاه؟"

"فى حالـة (إيميلايـن) الإجابـة سـهلة: (آديلايـن) دفعتهـا إلى ذلـك، أمـا عـن سـبب فعـل (آديلايـن) ذلـك، فهـذا سـؤال أصعـب جـدًا، أشـك فى أن تكـون هـى نفسـها تعـرف، معظـم الوقـت تحركهـا اندفاعاتهـا، التـى تبـدو بـلا أى وعـى، وأيًـا كان السـبب، فـإن النتيجـة كانـت مدمـرة لـ(جـون)، لقد رعـت عائلتـه هـذه الحديقـة لأجيـال".

"هذا عمل بلا قلب والأفظع أن تأتيه طفلة".

تغـير تعبـير وجههـا، لكـن الطبيـب لم يـره، مـن الواضـح أنـه لم يعـرف الكثـير عـن الأطفـال: "بالتأكيـد بـلا قلـب، مـع أن الأطفـال قـادرون عـلى القسـوة الشـديدة، لكننـا فقـط لا نحـب أن نظـن بهـم ذلـك".

ببـطء شرعـا يمشـيان بـين الأشـكال التوبياريـة، يعجبـان بأشـجار الصنوبـر وهـما يتحدثـان عـن عمـل "هيسـتر"، تبعتهـما جاسوسـة صغـيرة، تنتقـل مـن حمـى شـجرة صنوبـر إلى أخـرى محافظـة عـلى مسـافة آمنـة تفصلهـا عنهـما، لكـن تجعلهـما دائمًـا ضمـن حـدود سـمعها، تحـركا يـسرة ويمنـة، وأحيانًـا يلتفتـا ليتجهـا مـن حيـث أتيـا، كانـت أشـبه رقصـة مطولـة بـين الأركان.

"أتصـور أنـك راضيـة عـن نتائـج جهـودك مـع (إيميلايـن) يـا آنسـة (بـارو)؟"

"نعـم، بعـد عـام آخـر أو حـول ذلـك مـن اهتمامـى بهـا، لا أرى سـببًا لـكى لا تتخـلى عـن الفظاظـة للأبـد، وأن تصبـح الفتـاة اللطيفـة التـى تعـرف هـى كيـف تكونهـا فى أفضـل حالاتهـا، لـن تكـون ذكيـة، لكـن مـع ذلـك، لا أرى سـببًا لكيـلا تعيـش حيـاة مرضيـة وهـى منفصلـة عـن أختهـا، ربمـا حتـى قـد تتـزوج، فـكل الرجـال لا يبحثـون عـن الـذكاء عنـد اختيـار زوجـة، و(إيميلايـن) حنـون جـدًّا".

"جيد، جيد".

"لكن مع (إيميلاين) الأمر مختلف تمامًا".

بلغـا طريقًـا مسـدودًا، قـرب شـجرة عـلى هيئـة مسـلة، وفى جانبهـا قطـع حـاد، تطلعـت المعلمـة إلى الأفـرع الداخليـة ولمسـت أحـد الأغصـان الجديـدة ذات الأفـرع الَخضـراء الزاهيـة التـى تنمـو مـن السـاق القديمـة نحـو الضـوء وتنهـدت.

"(آديلايـن) تحـيرنى أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، سـأقدر رأيـك الطبـى بشـأنها".

شـكرها الطبيـب بنصـف انحنـاءة مهذبـة: "سـأسـاعدك بـكل الوسـائل الممكنـة، مـا الـذى يزعجـك بشـأنها؟"

"لم أعـرف قـط طفلـة مربكـة مثلهـا"، وسـكتت برهـة، "اعـذر بطئـى فـلا توجـد طريقـة موجـزة لتوضيـح الغرابـة التـى لاحظتهـا فيهـا".

"خذى وقتكِ، لست متعجلاً".

أشـار الطبيـب إلى دكـة منخفضـة، فى ظهرهـا سـياج مـن الأشـجار جُـز ليشـكل قوسًـا مموجًـا عـلى نحـو متقـن، مـن النـوع الـذى يظهـر عـادة عـلى اللـوح الأمامـى مـن سريـر مزخـرف ببراعـة، جلسـا ووجـدا نفسـيهما يواجهـان الجانـب الجميـل مـن إحـدى أكبر القطـع الهندسـية بالحديقـة، علـق الطبيـب: "انظـرى، إنهـا عـلى شـكل مجسـم لـه اثنـا عـشر وجهًـا".

تجاهلت "هيستر" تعليقه وبدأت شرحها.

"(آديلايـن) طفلـة عدائيـة وعدوانيـة، إنهـا تمقـت وجـودى فى المنـزل وتقـاوم كل جهـودى لفـرض النظـام، وجباتهـا غـير منتظمـة، وترفـض الطعـام إلى أن ينـال منهـا الجـوع وحينهـا فقـط تـأكل، لكنهـا تكتفـى بأقـل لقمـة، يجـب أن تُحمـم بالقـوة، ورغـم نحولهـا، فـإن إبقاءهـا تحـت المياه يتطلـب شـخصين، وأى عاطفـة أبديهـا لهـا تقابلـه بـلا مبـالاة شـديدة، تبدو عاجـزة عـن إدراك كامـل النطـاق الطبيعـى للمشـاعر البشريـة، وبصراحـة أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، سـألت نفـسى إذا مـا كانـت بالأسـاس قـادرة عـلى العـودة إلى طيـات الطبيعـة الإنسـانية المشـتركة".

"هل هى ذكية؟"

"إنهـا ماكـرة، وخبيثـة، لكـن لا تمكـن اسـتثارتها لتهتـم بـأى شىء يتجـاوز نطـاق أمنياتهـا ورغباتها وشـهواتها".

"وفى غرفة الدراسة؟"

"بالتأكيـد تـدرك أن بوجـود فتـاة مثلهـا فى غرفـة الدراسـة لا يكـون الأمر كحـال الأطفـال الطبيعيـين، فـلا أدرِّس الحسـاب، ولا اللاتينيـة، ولا الجغرافيا، ومـع ذلـك، ولصالـح النظـام والروتـين، فـإنى أجعلهـما تحـضران سـاعتين يوميًّـا، مرتـين يوميًّـا، وأدرِّس لهـما عـبر حـكى الحكايـات".

"وهل تفهم هذه الدروس؟"

"كـم أتمنـى لـو كنـت أعـرف لهـذا السـؤال إجابـة! إنهـا جامحـة للغايـة أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، يجـب أن تُحبـس فى الغرفـة عـبر خدعـة مـا، وأحيانًـا أضطـر إلى جعـل (جـون) يجلبهـا بالقـوة، تفعـل أىّ شىء لتجنـب الدراسـة، تلـوح بذراعيهـا أو تصلّـب جسـدها لتجعـل حملهـا عـبر البـاب صعبًـا، جلوسـها وراء مكتـب يعـد -عمليًـا- مسـتحيلاً، فى غالـب الأحيـان يُضطـر (جـون) إلى تركهـا ببسـاطة عـلى الأرض، فهـى لـن تنظـر ولـن

تستمع إليَّ فى غرفة الدراسة، بل تنسحب إلى عالم ما داخلى خاص بها".

أنصت الطبيب وأومأ: "إنها حالة صعبة، يسبب سلوكها لك قلقًا أكبر وتخشين أن نتائج جهودك قد تكون أقل نجاحًا معها بالمقارنة بأختها، ومع ذلك". وكانت ابتسامته ساحرة، "اعذرينى يا آنسة (بارو) إن كنت لا أرى سببًا لتأكيدك أنها تخدعك، على العكس، تفصيلك لسلوكها وحالتها العقلية أكثر تماسكًا مما قد يقوله طالب طب إن أُعطِى المعطيات نفسها".

تطلعت إليه ببرود: "لم أصل إلى الجزء المحير بعد".

"نعم".

"هناك وسائل نجحت مع أطفال مثل (آديلاين) فى الماضى، وهناك إستراتيجيات خاصة لدى أملٌ بها، ولن أتردد فى تنفيذها حيث..."

ترددت "هيستر" وفى هذه المرة كان الطبيب ذكيًا كفاية لينتظرها أن تتابع كلامها، حين تابعت، كان كلامها بطيئًا، وفكرت فى كلماتها بعناية.

"كأن هناك غشاوة داخل (آديلاين)، غشاوة لا تعميها عن الإنسانية فقط، بل وعن نفسها أيضًا، وأحيانًا تخف الغشاوة، وأحيانًا تختفى، وأحيانًا أخرى تظهر (آديلاين)، ثم تعود الغشاوة وتعود هى كما كانت".

نظرت "هيستر" إلى الطبيب، تراقب تعبيرات وجهه، وقد عبس وجهه، لكن أعلى وجهه العابس، حيث يتراجع شعره، بشرته وردية غير متجعدة، "كيف تكون خلال تلك الفترات؟"

"العلامـات الخارجيـة ضئيلـة جـدًّا، فلمـدة أسـابيع لم أدرك تلـك الظاهـرة، وحتـى بعدمـا أدركتهـا انتظـرت قليـلاً قبـل أن أكـون واثقـة كفايـة لأخـبرك".

"فهمتك".

"أولاً هنـاك تنفسـها، إنـه يتغـير أحيانًـا، وأعـرف أن عـلى الرغـم مـن أنهـا تدعـى أنهـا فى عـالم خـاص بهـا، هـى تسـتمع إلى، ويداهـا..."

"يداها؟"

"عـادة مـا تكونـان متباعدتـين وجامدتـين هكـذا"، وأرتـه بيديهـا، "لكـن أحيانًـا ألاحـظ أنهـما مسـترخيتان، هكـذا"، وأرخـت يديهـا، "يبـدو أن اندماجهـا فى القصـة قـد جـذب انتباههـا، وهـو مـا أضعـف دفاعاتهـا، فتسـترخى وتنـسى مـا تظهـره مـن رفـض وتحـدٍّ، لقـد عملـت مـع الكثـير جـدًّا مـن الأطفـال صعبـى المـراس أيهـا الطبيـب (مودسـلى)، ولـدى خـبرة معتـبرة، ومـا رأيتـه منهـا يصـل إلى هـذا الحـد: عـلى عكـس كل التوقعـات، قـد يكـون بهـا اضطـراب".

لم يعلـق الطبيـب عـلى الفـور بـل فكـر، وبـدت "هيسـتر" ممتنـة لبذلـه هـذا الجهد.

"أهناك أى نمط لظهور هذه العلامات؟"

"ما من شىء أكيد لى حتى الآن.. لكن..."

يميل برأسه مشجعًا إياها على الكلام.

"على الأرجح أنها هراء، لكن هناك قصصًا ما..."

"قصص؟"

"قصة (جين أير) مثلاً، حكيت لهما نسخة قصيرة من الجزء الأول على مدار عدة أيام، وبالطبع لاحظتُ الأمر حينها، و(ديكنز) أيضًا، لم يكن للحكايات التاريخية والمواعظ قط التأثير نفسه".

عبس الطبيب: "وهل هذا مستمر؟ هل قراءة (جين أير) دائمًا تؤدى إلى التغيرات نفسها التى وصفتها؟"

"لا، وهنا المشكلة".

"ممم، فماذا تنوين؟"

"هناك أساليب للتعامل مع الأطفال الأنانيين والعنيدين مثل (آديلاين)، يمكن أن يكون النظام الصارم الآن كافيًا لكيلا تدخل مصحة لاحقًا فى حياتها، ولكن هذا النظام، الذى سيشمل فرض روتين صارم وإبعاد الكثير مما يثيرها، سيكون ضرره الأكبر على..."

"على الطفلة التى نراها عبر الغشاوة؟"

"بالتحديد، فى الواقع فإن بنظر هذه الطفلة، ليس هناك أسوأ من ذلك".

"وتلك الطفلة داخل الغشاوة، أى مستقبل ترين لها؟"

"إنه سؤال مبكر، لكن يكفى أن أقول إننى حاليًا لا أؤيد أن نضيعها منا، فمن يعرف ماذا قد تصبح؟"

جلسا فى صمت، يتطلعان إلى الأشكال الهندسية المصنوعة من أوراق الأشجار المقابلة لهما ويفكران فى المشكلة التى أوضحتها "هيستر"، إنما وفى غفلة منهما، تحملق إليهما المشكلة نفسها عبر الفراغات بين الأفرع وهى متخفية جيدًا بين الأشجار.

أخيراً تكلم الطبيب: "لا أعرف بشأن أيَّة حالة طبية تسبب آثارًا نفسية كالتى تصفينها، ولكن، قد يكون هذا جهلاً منى"، انتظرها أن تعترض، لكنها لم تفعل، "هممم، برأيى سيكون منطقيًا أن أفحص

الطفلة فحصًا شاملاً حتى أتثبت من حالتها الصحية عمومًا، العقلية والجسدية، وهذه خطوة أولى".

ردت "هيستر": "هذا ما فكرت فيه، والآن..." فتشت فى جيبها، "هذه ملاحظاتى، ستجد وصفًا لكل حالة شهدتها، مع بعض التحليل الأوَّلى، ربما تبقى بعد الفحص الطبى لنصف ساعة لتخبرنى بانطباعاتك الأولية، يمكننا حينها أن نقرر الخطوة التالية".

تطلع إليها ببعض الذهول، لقد خرجت عن دورها كمعلمة منزلية، وكانت تتصرف كأنها خبيرة زميلة!

وضعت "هيستر" نفسها فى موقف صعب.

ترددت، أيمكنها التراجع؟ هل فات الأوان؟ لكنها حسمت قرارها، ستخاطر بكل ما يلزم، فقالت له بخبث: "هذا ليس المجسم ذا الاثنى عشر وجهًا، بل هو رباعى الأوجه المثلثة".

انتصب الطبيب من على الدكة وتقدم نحو الشكل التوبيارى، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. تحركت شفتاه وهو يعد.

توقف قلبى، هل سيسير حول الشجرة ليُتم عده للأوجه والزوايا؟ هل سيتعثر بى؟

لكنه وصل إلى ستة وتوقف، أدرك أنها على حق.

كانت هناك لحظة فضولية سريعة حين لم يفعل كل منهما شيئًا إلا التطلع إلى الآخر، كان وجهه متحيرًا، ما هذه المرأة؟ وبأى حق تحدثت إليه بهذه الطريقة؟ إنها مجرد معلمة منزلية بدينة قصيرة ولها وجه يشبه البطاطس، أليس كذلك؟

حملقت إليه فى صمت، تشلُّها الحيرة البادية على وجهه.

بدا فى تلك اللحظة أن العالم يميل قليلاً عن محوره، وأبعد كل منهما نظره عن الآخر محرجًا.

كسرت "هيستر" الصمت: "الكشف الطبى".

اقترح: "ربما بعد ظهر الأربعاء؟"

"بعد ظهر الأربعاء مناسب".

وحينها عاد دوران العالم إلى محوره.

سارا عائدين إلى المنزل، وعند الانعطافة التى فى الطريق، ودعها الطبيب.

وخلف أشجار الصنوبر، عضت الجاسوسة الصغيرة أظفارها وتساءلت.

# خمس نوتات

إجهاد مزعج يغطي عينيّ، رأسي خفيف كالورقة، لقد عملت طوال اليوم ونصف الليل، والآن أخشى أن أخلد إلى النوم.

أيتلاعب عقلي بي؟ يبدو أنني أسمع نغمة، نعم، بالكاد تعتبر نغمة، خمس نوتات تائهة، فتحت النافذة لأتأكد، نعم، أصبحت واثقة بأنَّ ثمة صوتًا آتيًا من الحديقة.

أستطيع فهم الكلمات، أعطني جزءًا ممزقًا أو تالفًا من نص وسأتنبأ بما يجب أن يسبقه وما يجب أن يليه، وإن لم أستطع، فسأستطيع على الأقل أن أقلل الاحتمالات إلى الخيارات الأكثر ترجيحًا لكن الموسيقى ليست لغتي، أهذه النوتات الخمس افتتاحية تهويدة للأطفال؟ أم نهاية حزينة لمرثية؟ من المستحيل أن أحدد، فبلا بداية ولا نهاية تؤطر النوتات، وبلا لحن يضعها في مكانها المناسب، بدا أي ما يربط تلك النوتات ببعضها أنه متزعزع وعلى شفا الانهيار، ففي كل مرة تُضرب النوتة الأولى، تمر لحظة من القلق ريثما يتأكد لها ما إذا

كانت رفيقتها ما زالت موجودة أم انحرفت، وفُقدت للأبد فى مهب الريح، وكذا مع الثالثة والرابعة، أما الخامسة، فلا تبث أى ارتياح، بل تبث شعورًا بأن عاجلاً أو آجلاً ستنهار الروابط الهشة التى تربط هذه النوتات العشوائية، مثلما فعلت روابطها ببقية اللحن، وحتى هذا الفراغ الأخير سيذهب للأبد، تذروه الرياح مثل آخر أوراق شجرة شتوية.

تختفى النوتات بعند كلما حاول عقلى الواعى استدعاءها، وتأتى إلىّ من حيث لا أدرى حين لا أفكر بها، سأدرك وأنا غارقة فى عملى مساءً أنها كانت تكرر نفسها فى بالى لبعض الوقت، أو فى السرير حين أتقلب بين النوم واليقظة، سأسمع النوتات عن بعد، تغنى أغنيتها المبهمة لى.

لكننى سمعتها للتو، نوتة وحيدة أولاً، غرقت رفيقاتها فى الأمطار التى تضرب النافذة، قلت لنفسى إنها ليست شيئًا هامًّا واستعددت للعودة إلى النوم، لكن فى تلك اللحظة، لحظة ركود العاصفة الممطرة، طفت ثلاث نوتات على المياه.

الليل حالك جدًّا، والسماء مظلمة للغاية لدرجة أن صوت المطر وحده هو ما مكننى من تخيل الحديقة، صوت الدق هو صوت المطر على النوافذ، وصوت الزوابع الرقيقة العشوائية هو صوت هبوط الأمطار على الحشائش، أما صوت التقاطر فهو صوت هبوط المياه عبر المزاريب إلى المصارف، أسمع قطرة وراء الأخرى، المياه تهبط من على أوراق الأشجار إلى الأرض، ووراء كل هذا، وتحته، وبينه، لو لم أكن مجنونة أو أحلم، تسللت النوتات الخمس، لا لا لا لا لا.

انتعلت حذائى ذا الرقبة وارتديت معطفى وخرجت إلى الظلمة.

عجزت أن أرى يدى أمام وجهى، لا شىء يُسمع إلا خوض حذائى فى الحشائش، لكن عندها التقطت أثر النوتات، صوت خشن غير موسيقى، ليس آلة موسيقية، بل صوت بشرى ناشز وواهن.

تتبعت النوتات ببطء وبتوقفات متكررة، سرت بطول الحدود الطويلة للحديقة، وحدت إلى داخلها حين بلغت البِركة، أو على الأقل هكذا أعتقد أننى ذهبت، ثم ضللت طريقى، تقدمت متعثرة بتربة لينة حيث ظننت أن هناك طريقًا، ولم ينته بى الأمر بجانب أشجار الصنوبر مثلما ظننت، بل وسط بقعة من الشجيرات التى تصل إلى ركبتى ولها أشواك تشبثت بملابسى، منذئذ فقدت الأمل فى تحديد موقعى، وتهاديت بأذنى فقط، متبعة النوتات كأنها خيط أريادنى[1] عبر متاهة لم أعد أميز معالمها، صدر الصوت بمعدلات غير منتظمة، وفى كل مرة كنت أتقدم نحوه، حتى أوقفنى الصمت، منتظرة أيَّة إشارة، تُرى لكم من الوقت تخبطت فى الظلام بعد ذلك؟ ربع ساعة؟ نصف ساعة؟ كل ما أعرفه أننى فى نهاية هذا الوقت وجدت نفسى عدت مجددًا أمام الباب نفسه الذى خرجت عبره من المنزل، لقد تحركت -أو حركنى أحد- فى دائرة كاملة.

كان الصمت نهائيًّا للغاية، ماتت النوتات، وحلت محلها الأمطار التى هطلت مجددًا.

بدلاً من الدخول، جلست على الدكة، وأرخيت رأسى على ذراعى المشبوكين، أشعر بتقاطر الأمطار على ظهرى، ورقبتى وشعرى.

بدأ الأمر يبدو غبيًّا أننى تجولت فى الحديقة أطارد شيئًا بلا قيمة إلى هذه الدرجة، ونجحت فى إقناع نفسى، تقريبًا، بأننى لم أسمع إلا صنع خيالى، ثم تحولت أفكارى نحو اتجاهات أخرى، تساءلت عن

(1) أسطورة أريادنى مبنية على قصة أمير شاب تغلب على متاهة كهف عبر ترك طرف خيط عند مدخله وإرخائه كلما تقدم.

موعد إرسال والدى لنصيحته بشأن البحث عن "هيستر"، فكرت بشأن آنجلفيلد، وعبست: ماذا سيفعل "أوريليوس" حين يُهدم المنزل؟ التفكير بشأن آنجلفيلد جعلنى أفكر فى الشبح، وجعلنى أفكر فى شبحى، والصورة التى التقطها له، التى أتلفها اللون الأبيض، قررت أننى سأهاتف والدتى فى اليوم التالى، لكنه قرار آمن، فلا أحد سيحاسبك على قرار اتخذته فى منتصف الليل.

ثم أرسل إلى عمودى الفقرى إنذارًا.



شىء ما موجود هنا والآن بجانبى.

انتصبت سريعًا وتطلعت حولى.

الظلام دامس، ما من شىء ولا أحد لأراه، ابتلع الظلام كل شىء، حتى شجرة البلوط الضخمة، وانكمش العالم من حولى إلى عينين تراقباننى وجنون جامح فى قلبى.

ليست السيدة "وينتر"، لن تكون هنا، ليس فى هذا الوقت من الليل.

فمن إذًا؟

شعرت بها قبل أن أشعر بها، تلك اللمسة على جانبى، جاءت وذهبت...

إنه القط، "شادو".

نكزنى مجددًا، وحك خده بضلوعى مجددًا، وماء ببطء إلى حد ما ليعلن عن وجوده، مددت يدى وداعبته وقلبى يحاول العودة إلى إيقاعه، خرخر القط.

قلت له: "إنك مبتل تمامًا، تعالَ أيها السخيف، هذه ليست ليلة مناسبة للخروج من المنزل".

تبعنـى إلى غرفتـى، ولعـق نفسـه حتـى جـف وأنـا لففـت شـعرى فى منشـفة، وغططنـا فى النـوم معًـا عـلى السريـر، وللمـرة الأولى، لم تـزرنى أحلامـى، ربمـا بسـبب حمايـة القـط.

كان اليـوم التـالى مملاً وكئيبًـا، بعـد مقابلتـى المعتـادة، اصطحبـت نفـسى فى نزهـة بالحديقـة، حاولـت فى ضـوء أول فـترة العـصر أن أعيـد تتبـع مسـارى فى جنـح الليـل، كانـت البدايـة سـهلة كفايـة، سرت حتـى نهايـة حـدود الحديقـة الطويلـة وعندهـا حـدت إلى داخـل الحديقـة مـع البِركـة، لكـن بعدهـا ضللـت طريقـى، تحـيرت حـين تذكـرت أننـى خطـوت عـلى التربـة المبتلـة الليـنـة لأحـد أحـواض الأزهـار، لأن كل الأحـواض منبوشـة ومنتظمـة كأنهـا جديـدة، ومـع ذلـك، أجريـت بعـض التخمينـات غـير المنظمـة، واتخـذت قـرارًا أو اثنـين عشـوائيًّا، واصطحبـت نفـسى فى مسـار دائـرى تقريبًـا، ربمـا يتتبـع مسـار نزهتـى الليلـة، أو ربمـا لا، أو جـزء منهـا عـلى الأقـل.

لم أرَ شـيئًا غـير عـادى، إلا لـو حسـبت حقيقـة أننـى مـررت بـ"موريس"، وللمـرة الأولى تحـدث معـى، كان راكعًـا عـلى جـزء مـن تربـة منبوشـة، يسـويها وينعمهـا ويصلحهـا، شـعر بى أقـترب عـلى الحشـائش خلفـه، وتطلـع إلى متذمـرًا: "الثعالـب اللعينـة"، والتفـت مجـددًا إلى عملـه.

عدت إلى المنزل وبدأت تفريغ ملاحظاتى عن مقابلة الصباح.

# التجربة

جاء يوم الفحص الطبى وحضر الطبيب "مودسلى" أمام المنزل، وكالعادة لم يكن "تشارلى" هناك للترحيب بالزائر، أخبرته "هيستر" بشأن زيارة الطبيب بالطريقة المعتادة (رسالة متروكة على صينية خارج جناحه)، ولأنها لم تجد للأمر أى صدى، افترضت وهى محقة أنه لم يهتم بتاتًا لذلك.

كانت المريضة فى واحدة من حالاتها المزاجية المتجهمة لكن بلا مقاومة منها، سمحت بأن تُقاد إلى الغرفة حيث جرى الفحص، واستسلمت للكز والفحص، وحين طُلب منها أن تفتح فمها وتخرج لسانها رفضت، لكن على الأقل حين أدخل الطبيب أصابعه فى فمها وفصل بيده فكها العلوى عن فكها السفلى ليفحص الداخل، لم تعضه، انسابت عيناها بعيدًا عنه وعن أدواته، بدت واعية به وبفحصه وهو أمر نادر الحدوث، ولكن لم تمكن استمالتها لتتكلم ولو كلمة واحدة.

وجد الطبيب "مودسلى" أن مريضته مصابة بنقص الوزن وبشعرها قمل، فى ما عدا ذلك كانت سليمة جسديًّا من كل النواحى، لكن حالتها النفسية أصعب فى التشخيص، أكانت الطفلة -مثلما لمح "جون ذا ديج"- مختلة عقليًا؟ أم أن سلوك الفتاة ناتج عن إهمال الوالدين وغياب النظام؟ هذا رأى سيدة الخدم التى تميل دائمًا -فى العلن على الأقل- إلى العفو عن الفتاتين.

لم يكن هذان الخياران الوحيدين فى ذهن الطبيب حين فحص التوأم الجامحة، ففى الليلة الماضية ببيته، والغليون فى فمه، ويده على الموقد، كان مستغرقًا فى التفكر بصوت عالٍ بشأن الحالة (وقد استمتع باستماع زوجته له، فهذا يلهمه بلاغة أعظم)، يعدد مواقف سوء السلوك التى سمع بها، كالسرقة من بيوت القرويين، وتخريب الحديقة، والعنف الذى تُنزله بـ"إيميلاين"، وانبهارها بأعواد الكبريت، كان يفكر مليًا فى التفسيرات المحتملة، حين اقتحم عقله صوت زوجته الناعم: "ألا تعتقد أنها ببساطة شريرة؟"

لوهلة أعجزته مفاجأة أنها قاطعته عن أن يجيب.

قالت: "إنه مجرد اقتراح"، ملوحة بيدها تحثه على تجاهل عبارتها، تكلمت برقة، لكن هذا بالكاد مثل فارقًا، فحقيقة أنها تكلمت من الأساس كانت كافية لتعطى لكلماتها وزنًا.

ثم كانت "هيستر".

قالت له: "ما يجب أن تضعه باعتبارك هو أن فى غياب أىّ تعلق قوى بالأهل، وبلا أىّ إرشاد قوى من أىّ جهة أخرى، تَشَكل كامل نمو الطفلة حتى اليوم من خلال تجربة التوأم، أختها هى الشىء الوحيد الثابت والدائم فى وعيها، وبالتالى فإن عالمها بالكامل يتشكل من خلال منظور علاقتهما".

وبالطبع هى محقة جدًّا، لم تكن لديه فكرة عن من أى كتاب أتت "هيستر" بهذه الفكرة، لكنها بالتأكيد قرأتها بتمعن، لأنها شرحت الفكرة على نحو منطقى للغاية، استمع إليها وهو مندهش جدًّا من صوتها الرقيق الغريب، فعلى الرغم من طبقته الأنثوية بالفطرة، له قوة ذكورية ليست بالقليلة، كانت واضحة، ولديها عادة مسلية أن تعبر عن آرائها بالنبرة الآمرة الموزونة نفسها التى تشرح بها نظرية ما ذات مكانة قرأت عنها، وحين تسكت لحظة لتتنفس فى نهاية جملة، تلقى عليه نظرة سريعة -أحس الأمر مربكًا فى أول مرة، لكنه الآن يعتبره طريفًا جدًّا- لتعرِّفه إذا ما كان مسموحًا له بالكلام أم أنها تنوى متابعة حديثها.

"يجب أن أجرى بعض الأبحاث"، هكذا أخبر هيستر حين تقابلا لمناقشة أمر المريضة بعد الفحص، "وبالتأكيد سأدرس بتمعن أهمية كونهما توأمين".

أومأت هيستر وقالت: "هكذا أرى الأمر، يمكن أن ترى التوأمين بطرق عدة كأنَّ مجموعة من الصفات انقسمت بينهما، فالشخص العادى السليم يشعر بنطاق كامل من المشاعر المختلفة، ويظهر تنوعًا كبيرًا فى السلوكيات، أما التوأمان، فيمكن القول إن لديهما نطاق من المشاعر والسلوكيات مقسوم على اثنين، لكل منهما مجموعة، إحداهما جامحة وميالة إلى نوبات الثورة الجسدية، والأخرى كسول ومستسلمة، واحدة تفضل النظافة، والأخرى تشتهى القذارة، واحدة لديها شهية بلا نهاية للطعام، والأخرى تستطيع أن تجوِّع نفسها لأيام، والآن، إن كانت هذه القطبية -يمكن أن نتجادل لاحقًا بشأن مدى وعيهما بوجودها- مصيرية لشعور (آديلاين) بشخصيتها، ألا يبدو الأمر غير مفاجئ أن تقمع داخل نفسها كل شىء يقع برأيها ضمن حدود (إيميلاين)؟" كان السؤال بلاغيًّا، فهى لم تلمح للطبيب بأنه يمكنه التكلم بعد، لكنها أخذت نفسًا موزونًا وتابعت: "والآن فكر

فى صفـات الفتـاة التـى فى الغشـاوة، إنهـا تسـتمع إلى القصـص، وقـادرة عـلى الفهـم والتأثـر بلغـة غـير لغـة التوأمتـين، وهـذا يشـير إلى اسـتعداد للانخـراط مـع أشـخاص آخريـن، لكـن مـن منهـما خُصصـت لهـا مهمـة الانخـراط مـع الآخريـن؟ إنهـا (إيميلايـن)! لـذا تضطـر (آديلايـن) إلى قمـع هـذا الجـزء مـن طبيعتهـا البشريـة".

حولـت "هيسـتر" وجههـا إلى الطبيـب وأشـارت بنظـرة إلى أنـه دوره ليتحـدث.

أجـاب بحـذر: "إنهـا فكـرة مثـيرة للفضـول، لا بـد أننـى فكـرت فى العكـس، أن كونهـما توأمـين يجعلـك تتوقعـين أنهـما متشـابهتان أكـثر مـما هـما متناقضتـان".

قاطعته سريعًا: "لكننا نعرف من الملاحظة أن الأمر ليس هكذا".

"هممم".

لم تتكلـم، لكـن تركتـه يفكـر، حـدق هـو إلى الجـدار المصمـت، يفكـر بعمـق وهـى تلقـى نظـرات خاطفـة قلقـة تجاهـه، محاولـة التنبـؤ بوقـع نظريتهـا عليـه مـن وجهـه، ثـم كان مسـتعدًا للتصريـح بمـا ببالـه:

"فكرتـك هـذه مثـيرة للاهتـمام"، ورسـم ابتسـامة وديـة لتخفيـف وقـع رفضـه، "لكننـى لا أذكـر قـط قـراءتى عـن مثـل هـذا الانقسـام فى الشـخصية بـين توأمـين فى أيَّـة وثائـق".

تجاهلـت ابتسـامته ونظـرت إلى عينيـه بـبرود: "لا هـذا ليـس فى الوثائق، كان يمكـن أن يوجـد فى كتـب معينـة، لكنـه غـير موجود".

"وهل قرأت مثل تلك الكتب؟"

"بالتأكيـد، لا أتخيـل أن أصرح برأيـى بـأى موضـوع دون التأكـد مـن مرجعـى أولاً".

"أوه".

"تذكرنى هذه الحالة بحالة (توأمى بيرو) المذكورة فى أحد الكتب، مع أن الكاتب لا يذكر الاستنتاج الكامل الذى قد يخلص القارئ إليه".

"أذكر المثال الذى تقصدينه..." وحينها بدأ يلين قليلاً، "نعم! أرى الآن العلاقة بينهما! أتساءل إذا ما كانت دراسة حالة (براسينبى) لها أى أهمية هنا؟"

"لم أتمكن من الحصول على نسخة كاملة من الدراسة، أتمكنك إعارتها لى؟"

وحينها بدآ.

أمام انبهار الطبيب بفطنة ملاحظات "هيستر"، أعارها دراسة حالة (براسينبى)، وحين ردتها، وجد ورقة ملحقة بها تضم ملاحظات وأسئلة مصوغة ببلاغة، وفى غضون ذلك، كان هو قد حصل على عدد من الكتب الأخرى والمقالات لتكملة مكتبته عن التوائم، إضافة إلى مقالات منشورة حديثًا ونسخ من أعمال قيد التنفيذ من متخصصين عدة، وأعمال أجنبية، واكتشف بعد أسبوع أو اثنين أن كان بإمكانه توفير وقته عبر تمرير كل ذلك إلى "هيستر" أولاً، وأن يقرأ الخلاصة المختصرة والذكية التى كتبتها فقط، وفى ما بينهما، قرآ كل شىء تمكن قراءته، وعادا إلى ملاحظاتهما، كلاهما جمع ملاحظاته، ملاحظاته الطبية، وملاحظاتها النفسية، هناك توضيحات غزيرة بخط يده فى هوامش مخطوطاتها، وهى بدورها دونت ملاحظات أكثر على مخطوطاته، وأحيانًا كانت ترفق مقالاتها المفحمة فى أوراق منفصلة.

قرآ، وفكرا، وكتبا، والتقيا، وتناقشا، واستمرا فى ذلك حتى عرفا كل ما تمكن معرفته عن التوائم، لكن تبقى شىء لم يعرفاه، وهو الشىء الوحيد الهام.

قال الطبيب: "كل هذا العمل، وكل هذه الأوراق، ولم نقترب بعد"، ومرر يده عبر شعره بطريقة عصبية، لقد أخبر زوجته أنه سيعود

فى السابعة والنصف، وأنه سيتأخر، "هل بسبب (إيميلاين) تقمع (آديلاين) الفتاة فى الغشاوة؟ أعتقد أن إجابة هذا السؤال تقع خارج نطاق المعرفة الحالية"، وتنهد، وطرح قلمه على المكتب، بنصف انزعاج، ونصف استسلام.

"أنت محق، إنها خارجه"، يمكن أن تسامحها لأنها تبدو سريعة الغضب: فقد استغرق الأمر أربعة أسابيع ليتوصل إلى الاستنتاج الذى قالته له فى البداية، فقط لو كان مستعدًا للاستماع إليها.

التفت إليها.

قالت بهدوء: "هناك طريقة واحدة فقط لنعرف".

رفع حاجبه.

"خبرتى وملاحظاتى تقودنى إلى الاعتقاد بأن هناك مجالاً لمشروع بحثى أصلى هنا، بالتأكيد بما أننى مجرد معلمة منزلية ستواجهنى صعوبة فى إقناع جهة نشر مناسبة بنشر أى شىء سأتوصل إليه، سيلقون نظرة على مؤهلاتى ويظنون أننى لست إلا امرأة سخيفة لديها أفكار تتجاوز تخصصها"، هزت كتفيها وأطرقت عينيها إلى الأرض: " ربما هم محقون، وهذه حقيقتى، ولكن"، وتطلعت بعينيها بمكر، "رجل له خلفية ومعرفة مناسبة، بالتأكيد سيجد هنا مشروعًا مغريًا".

بدا الطبيب فى البداية متفاجئًا، ثم استغرق فى التفكير، بحث أصلى! الفكرة تبدو معقولة، وفاجأته أيضًا حقيقة أن فى هذه اللحظة وبعد تراكم قراءاته خلال الأشهر الأخيرة، هو بالتأكيد الطبيب الأكثر اطلاعًا بشأن التوائم فى البلاد! من غيره يعرف ما يعرفه؟ علاوة على ذلك، من غيره لديه دراسة الحالة المثالية بين يديه؟ بحث أصلى؟ لم لا؟

تركتـه يسـتمتع بالفكـرة لبضـع دقائـق، وحـين رأت أن اقتراحهـا قـد انغـرس فى قلبـه، غمغمـت: "بالتأكيـد إن احتجـت إلى مسـاعدة، سـيسرنى أن أسـاعد بـأى طريقـة ممكنـة".

"هـذا لطـف بالـغ منـك"، وأومـأ، "بالطبـع، لقـد عملـت مـع الطفلتـين.. الخـبرة العمليـة.. لا تُقـدر بثمـن.. لا تُقـدر بـأى ثمـن".

تـرك المنـزل وعـاد إلى بيتـه بعقـل خفيـف، فلـم يلحـظ أن العشـاء قـد بـرد، وأن زوجتـه بمـزاج سـيئ.

جمعـت "هيسـتر" الأوراق مـن عـلى المكتـب وتركـت الغرفـة، خطواتهـا المنتظمـة وإغلاقهـا البـاب بحـزم أعطيـا انطباعًـا بالرضـا.

بدت المكتبة خاوية، لكن هذا غير صحيح.

فهنـاك فتـاة تعـض أظفارهـا وتفكـر وهـى مسـتلقية بطولهـا أعـلى رفـوف الكتـب.

بحث أصلى.

هل بسبب (إيميلاين) تقمع (آديلاين) الفتاة فى الغشاوة؟

لم يتطلب الأمر عبقريًا ليستنتج ما سيحدث.

فعلا ذلك ليلاً.

"إيميلايـن" لم تـثر حـين أخذاهـا مـن سريرهـا، لا بـد أنهـا شـعرت بالأمـان بـين ذراعـى "هيسـتر"، ربمـا ميـزت رائحـة الصابـون خـلال نومهـا وهـى محمولـة إلى خـارج الغرفـة وبطـول الممـر، أيًـا كان السـبب، فإنهـا لم تـدرك فى تلـك الليلـة مـا يحـدث، لكـن اسـتيقاظها عـلى الحقيقـة كان عـلى بُعـد سـاعات.

لكـن الأمـر كان مختلفًـا مـع "آديلايـن"، فقـد اسـتيقظت فجـأة ولم تجـد أختهـا، اندفعـت نحـو البـاب لكنهـا وجدتـه قـد أُقفـل بالفعـل

بيدى "هيستر" السريعتين، وأدركت كل ما يحدث سريعًا، وشعرت به، أحست بشعور البتر، لم تصرخ، ولم تسدد لكماتها إلى الباب، ولم تخدش القفل بأظفارها، لقد غادرتها كل طاقة الغضب، سقطت إلى الأرض، انهارت إلى كومة صغيرة أمام الباب، وبقيت مكانها طوال الليل، ألواح الأرضية العارية وخزت عظامها البارزة، لكنها لم تشعر بالألم، لا توجد نار تدفئة بالغرفة، ورداء نومها رقيق، لكنها لم تشعر بالبرد، لم تشعر بشىء، كانت محطمة.

حين أتيا إليها فى الصباح التالى، لم يثرها صوت المفتاح فى القفل، ولم تتحرك حين أزاحها الباب المفتوح من طريقه، عيناها ميتتان، وبشرتها شاحبة كالموت، إنها باردة للغاية، ربما هى جثة، لولا فقط رعشة شفتيها التى لا تتوقف، تكرر تعويذة صامتة، ربما تقول: "إيميلاين"، "إيميلاين"، "إيميلاين".

رفعت "هيستر" "آديلاين" بين ذراعيها، بلا صعوبة، كانت سن الطفلة حينئذ أربعة عشر عامًا، لكنها لم تكن إلا جلدًا على عظم، كل قوتها فى إرادتها، وحين ذهبت إراداتها، كان ما تبقى لا يُذكر، هبطا بها السلم بسهولة كأنها وسادة من الريش على وشك أن تطير.

قاد "جون" السيارة صامتًا، فموافقته أو عدمها لم تشكل فارقًا، إذ تولت "هيستر" اتخاذ القرارات.

أخبرا "آديلاين" أنها ذاهبة لرؤية "إيميلاين"، وهى كذبة لم تكن ضرورية، كان بإمكانهما أخذ "آديلاين" إلى أى مكان وهى لن تقاومهم، إنها تشعر بالضياع، غائبة عن نفسها، هى لا شىء ولا أحد من دون أختها، ما أخذوه إلى منزل الطبيب كان مجرد هيكل بشرى، وتركوها هناك.

وفى المنزل، نقلوا "إيميلاين" من السرير بغرفة "هيستر" إلى سريرها من دون إيقاظها، ونامت لساعة أخرى، وحين فتحت عيناها كانت

متفاجئـة قليـلاً باختفـاء أختهـا، ومـع مـرور الصبـاح زادت مفاجأتهـا، متحولـة إلى قلـق فى فـترة العـصر، فتشـت المنـزل، فتشـت الحدائـق، ذهبـت إلى أبعـد مـا تجـرؤ عليـه فى الغابـة، والقريـة.

فى وقـت شـاى الظهـيرة، وجدتهـا "هيسـتر" عنـد حافـة الطريـق، محدقـة إلى الاتجـاه الـذى قـد يأخذهـا، لـو سـارت فيـه، إلى عتبـة بيـت الطبيـب، لكنهـا لم تجـرؤ عـلى السـير فيـه، وضعـت "هيسـتر" يدهـا عـلى كتـف "إيميلايـن" وجذبتهـا، وأخذتهـا إلى المنـزل، وبـين الحـين والآخـر، توقفـت "إيميلايـن"، مـترددة، تريـد العـودة، لكـن "هيسـتر" أخـذت بيدهـا وأرشـدتها بحـزم إلى طريـق البيـت، تبعتهـا "إيميلايـن" بخطـوات مستسـلمة، ومرتبكـة، بعـد الشـاى وقفـت إلى جـوار النافـذة وتطلعـت إلى الخـارج، ازداد خوفهـا مـع تـلاشى الضـوء، لكـن لم يكـن إلا حـين أقفلـت "هيسـتر" الأبـواب وبـدأت روتـين نـوم "إيميلايـن" أن أصابهـا الهلـع.

بكـت طـوال الليـل، شـهقات متقطعـة بـدا كأنهـا ستسـتمر للأبـد، فـما انكـسر فى لحظـة لـدى "آديلايـن"، اسـتغرق أربعًـا وعشريـن سـاعة مؤلمـة لينكـسر لـدى "إيميلايـن"، لكـن حـين جـاء الفجـر، كانـت هادئـة، لقـد انتحبـت وارتجفـت حتـى النسـيان.

إبعـاد كلتـا الفتاتـين عـن الأخـرى ليـس إبعـادًا عاديًّـا، تخيـل أن تنجـو مـن زلـزال، وبعدمـا تنجـو، تجـد العـالم قـد فقـد معالمـه المميـزة، الأفـق مكانـه مختلـف، والشـمس لونهـا مختلـف، لا شىء تبقـى مـن الأرض التـى عرفتهـا "إيميلايـن"، أنـت عـلى قيـد الحيـاة بنظـرك، لكـن الحيـاة لم تعـد كـما كانـت، لا عجـب أن الناجـين مـن مثـل هـذه الكـوارث كثـيراً مـا يتمنـون لـو هلكـوا مـع الهالكـين.

***

جلســت الســيدة وينــتر تحــدق إلى الفــراغ، شــعرها النحــاسى الشــهير يخفــت إلى لــون مشــمشى فاتــح، لقــد هجــرت بخــاخ شــعرها وحالــت لفافاتـه المتماسـكة إلى كتلـة متشـابكة ناعمـة بـلا ملامـح، لكـن وجههـا كان جامـدًا وجسـدها متيبسًـا، كأنهـا تقـوى نفسـها فى مواجهـة ريـاح عاتيـة لم يشـعر بهـا أحـد غيرهـا، وببـطء أدارت عينيهـا إلى عينـى.

سألتنى: "أأنت بخير؟ (جوديث) تقول إنك لا تأكلين كثيراً".

"هكذا أنا دائمًا".

"لكنك تبدين شاحبة".

"ربما متعبة قليلاً".

أنهينا قصة اليوم مبكرًا، أظن أن كلينا لم يرد الاستمرار.

# هل تصدقين وجود الأشباح؟

فى المرة التالية التى رأيتها فيها، بدت السيدة "وينتر" مختلفة، أغلقت عينيها بضجر واستغرقت أكثر مما تستغرق عادة لتستحضر الماضى وتبدأ فى الكلام، شاهدتها وهى تجمع خيوط القصة، ولاحظت أنها نزعت رموشها الصناعية، رأيت تظليل العينين الأرجوانى المعتاد، وخط العين الأسود الكبير، لكن فى غياب الرموش الطويلة بدت على نحو غير متوقع كطفلة كانت تلعب بصندوق مستحضرات تجميل والدتها.

***

لم تسرِ الأمور مثلما توقعت "هيستر" والطبيب، لقد استعدا لـ"آديلاين" التى سوف تصرخ وتغضب وتضرب وتثور، أما "إيميلاين"، فقد اعتمدا على عاطفتها تجاه "هيستر" لتصالحها على غياب أختها المفاجئ، باختصار، توقعا سلوك الفتاتين الذى عرفاه ولكن كل منهما

علـى حـدة، وبالتـالى تفاجـآ فى البدايـة بانهيـار الطفلتـين إلى دميتـين بـلا حيـاة.

ليسـتا بـلا حيـاة تمامًـا، فالـدم اسـتمر بالسريـان ببـطء فى عروقهـما، وابتلعتـا الحسـاء الـذى يوضـع بفميهـما فى أحـد المنزلـين بواسـطة سـيدة الخـدم، وفى الآخـر بواسـطة زوجـة الطبيـب، لكـن البلـع لا إرادى، وهـما بـلا شـهية، وأعينهـما المفتوحـة خـلال اليـوم لا تـرى، ولا تحظـى براحـة النـوم فى الليـل، مـع أنهـا مغلقـة، إنهـما مفصولتـان، تشـعران بالوحـدة، إنهـما فى غياهـب الضيـاع، كالبُـتر، لكـن المبتـور ليـس عضـوًا، بـل روحيهـما.

هــل شــكك العالمـان فى نفسـيهما؟ هــل توقفـا وتسـاءلا إذا مـا كان مـا يفعلانـه صحيحًـا؟ هـل سـلط جسـدا الفتاتـين المرتخيـين غـير الواعيـن ضـوءً مـن الشـك عـلى مشروعهـما الجميـل؟ بالتأكيـد لم يكونـا قاسـيين برغبتهـما، لكنهـما كانـا أحمقـين، ضللهـما مـا عرفـاه، وطموحهـما، والعمـى المخـادع للـذات.

أجـرى الطبيـب اختبـارات، ووقفـت "هيسـتر" لتلاحـظ، وتقابـلا يوميًـا لمقارنـة ملاحظاتهـما، ومناقشـة مـا اعتـبراه فى البدايـة عـلى نحـو متفائـل تقدمًـا، جلسـا معًـا وراء مكتـب الطبيـب، أو فى مكتبة "آنجلفيلد"، رأسـيهما منكبـين عـلى الأوراق التـى سـجلت كل تفصيلـة فى حياة الطفلتين، السـلوك، النظـام، النـوم، حيرهـما غيـاب الشـهية، والميـل إلى النـوم طـوال الوقـت، ذلـك النـوم الـذى لم يكـن نومًـا، اقترحـا نظريـات لتفسـير التغـيرات التـى طـرأت عـلى الطفلتـين، لم تـسر التجربـة عـلى مـا يـرام مثلـما توقعـا، بـل فى الواقـع بـدأت عـلى نحـو كارثى، لكـن العالمـان تغافـلا عـن احتماليـة أنهـما ربمـا يتسـببان بـأذى، بـل فضـلا التمسـك بالاعتقـاد بأنهـما معًـا يمكـن أن يصنعـا معجـزة.

اسـتمد الطبيـب الكثـير مـن الرضـا مـن حداثـة فكـرة العمـل للمـرة الأولى منــذ عقــود مــع عقــل علمــى مــن الدرجــة الأولى، وتعجــب مــن

قـدرة تلميذتـه عـلى فهـم مبـدأ علمـى ثـم تطبيقـه بأصالـة وفكـر احـترافى فى غضـون دقيقـة، لم يمـر الكثـير مـن الوقـت قبـل أن يعـترف لنفسـه بأنهـا تعـد زميلـة أكـثر مـن كونهـا تلميـذة، وسرت "هيسـتر" بفكـرة أن أخـيرًا عقلهـا يتغـذى ويواجـه التحديـات عـلى نحـو كافٍ، خرجـت مـن اجتماعاتهـما اليوميـة متقـدة بالحـماس والـسرور، لـذا فـإن عماهـما لم يكن إلا أمـرًا طبيعيًّـا، وكيـف يُنتظـر منهـما أن يفهـما أن مـا ينفعهـما إلى هـذا الحـد يمكـن أن يتسـبب بـأذىً كبـير للطفلتـين اللتـين تحـت رعايتهـما؟ إلا لـو ربمـا، وفى المسـاء فى حـين يجلـس كل منهـما وحيـدًا لتدويـن ملاحظـات اليـوم، رفعـا عينيهـما تجـاه الطفلـة السـاكنة ذات العينـين الميتتين الجالسـة عـلى الكـرسى فى الزاويـة ومـر الشـك بعقليهـما، ربمـا، لكـن إن حـدث ذلـك، فإنهـما لـن يسـجلاه فى ملاحظاتهـما، ولـن يتحدثـا بشـأنه.

اسـتغرقا كثـيرًا فى جهودهـما المشـتركة لدرجـة أنهـما لم يلحظـا أن مشروعهـما الضخـم لا يحـرز أيَتقـدم، فـ"إيميلايـن" و"آديلايـن" كانتـا كالمشـلولتين، والفتـاة فى الغشـاوة لم تظهـر مطلقًـا، لم يردعهـما غيـاب أى اكتشـافات، واسـتمر العالمـان فى عملهـما: رسـما الجـداول والرسـوم البيانيـة، واقترحـا نظريـات وطـورا تجـارب موسـعة لاختبـار النظريـات، ومـع كل فشـل، قـالا لنفسـيهما إنهـما قـد اسـتبعدا شـيئًا مـن مجـال التجـارب، وانتقـلا إلى الفكـرة اللامعـة التاليـة.

شـاركت سـيدة الخـدم وزوجـة الطبيـب أيضًـا، ولكـن بطريقـة مبـاشرة، فالعنايـة الجسـدية بالفتاتـين مسـئوليتهما، ترفعـان الملاعـق إلى فمـى الفتاتـين بالحسـاء بـلا مقاومـة منهـما ثـلاث مـرات يوميًّـا، تلبسـان الفتاتـين، وتحممانهـما، وتغسـلان ملابسـهما، وتمشـطان شـعرهما، كل منهـما لديهـا أسـبابها لرفض المـشروع، كل منهـما لديهـا أسـبابها للسـكوت بشـأن أفكارهـا، أمـا "جـون ذا ديج" فـكان بعيـدًا عـن كل هـذا، لم يطلـب أحـد رأيـه، لكـن ذلـك لم يمنعـه مـن الإدلاء بـه يوميًّـا لسـيدة الخـدم فى المطبـخ: "لـن يعـود هـذا بـأى خـير، حقًّـا، لا خـير مطلقًـا".

حينئذ جاءت لحظة ربما كان يجب أن يستسلما عندها، كل خططهما لم تتوصل إلى شيء، وفقدا أى أثر لأيَّة حيلة جديدة يريدان تجربتها، مع أنهما عذبا عقليهما فى سبيل ذلك، عند تلك اللحظة تحديدًا، اكتشفت "هيستر" علامات تحسن بسيطة لدى "إيميلاين"، إذ أدارت الطفلة رأسها نحو نافذة، ووجدتها "هيستر" تتشبث بدمية ما لامعة، ولا تنفصل عنها أبدًا، وبالتنصت عبر الأبواب (وهو بالمناسبة ليس سلوكًا سيئًا إن مورس باسم العلم)، اكتشفت "هيستر" أنها حين تترك الطفلة وحيدة، كانت تهمس لنفسها بلغة التوأمين القديمة.

قالت للطبيب: "إنها تهدئ نفسها عبر تخيل وجود أختها".

بدأ الطبيب نظام ترك "آديلاين" وحدها لفترات تمتد لساعات ويتنصت عبر الباب حاملاً مفكرة وقلمًا فى يديه، ولم يسمع شيئًا.

ذكّرت "هيستر" والطبيب نفسيهما بالحاجة إلى الصبر فى حالة "آديلاين" الأكثر خطورة، وهنّآ نفسيهما على التحسن فى حالة "إيميلاين"، ولاحظا بتفاؤل زيادة شهية "إيميلاين"، واستعدادها للوقوف، والخطوات الأولى لها من تلقاء نفسها، لاحقًا كانت تتجول فى المنزل والحديقة مجددًا بشىء من عشوائيتها القديمة، وبالطبع، اتفقت "هيستر" والطبيب على أن التجربة أصبحت الآن فى مسارها لتحقيق نتيجة! من الصعب معرفة ما إذا كانا قد توقفا للحظة للتفكير فى أن ما اعتبراه "تحسنًا" هو فى الواقع عودة "إيميلاين" إلى عاداتها التى أظهرتها قبل بدء التجربة.

لم تتوقف حركة "إيميلاين" على التجول العشوائى، ففى يوم مخيف، تبعت أنفها إلى خزانة ممتلئة بملابس قديمة اعتادت أختها ارتدائها، وحملتها إلى وجهها، واشتمت تلك الرائحة العفنة الحيوانية، ثم غطت نفسها بها بسرور، كان الأمر غريبًا، لكن الأسوأ لم يأت بعد؛ فبعدما ارتدت ملابسها، لمحت نفسها فى المرآة وظنت أن الانعكاس هو أختها،

فجـرت نحـوه بتهـور، كان صـوت اصطدامهـا عاليًـا كفايـة لتـأتى سـيدة الخـدم مسرعـة، حيـث وجـدت "إيميلايـن" تنتحـب بجـوار المـرآة، لا تبـكى لتألمهـا، بـل مـن أجـل أختهـا المسـكينة التـى تكـسرت إلى قطـع صغـيرة وتنـزف.

أخـذت "هيسـتر" منهـا الملابـس وأمـرت "جـون" بحرقهـا، وللمزيـد مـن الحـذر، طلبـت مـن سـيدة الخـدم أن تديـر كل المرايـا لتواجـه الجـدران، أصـاب ذلـك "إيميلايـن" بالحـيرة، لكـن لم يحـدث مثـل هـذه الحـوادث مجـددًا.

إنهـا ترفـض التكلـم، فعـلى الرغـم مـن كل الهمـس المنعـزل الـذى تهمسـه وراء الأبـواب المغلقـة، الـذى يكـون دائمًـا بلغـة التوأمـين القديمـة، تعـذر إقنـاع "إيميلايـن" بقـول كلمـة واحـدة بالإنجليزيـة إلى سـيدة الخـدم أو لـ"هيسـتر"، كان ذلـك شـيئًا يسـتدعى الاجتـماع والتشـاور، فعقـدت "هيسـتر" والطبيـب اجتماعًـا مطـولاً فى المكتبـة، خلصـا فى نهايتـه إلى أن لا داعـى للقلـق، "إيميلايـن" يمكـن أن تتكلـم، وسـتتكلم، إنهـا مسـألة وقـت فقـط، ورفضهـا للـكلام، وحادثـة المـرآة، هـى خيبـات أمـل بالطبـع، لكـن العلـم قـد يخيـب الأمـل أحيانًـا، المهـم هـو التقـدم المحـرز حتـى الآن! أليسـت "إيميلايـن" قويـة كفايـة ليُسـمح لهـا بالخـروج مـن المنـزل؟ وقـد قضـت وقتًـا أقـل هـذه الأيـام فى التلكـؤ عنـد جانـب الطريـق، عنـد الحاجز الخفـى الـذى لم تجـرؤ عـلى تجـاوزه، تحـدق فى اتجـاه منـزل الطبيـب، الأمـور تسـير بأفضـل نحـو يمكـن توقعـه.

تقـدم؟ لم يكـن ذلـك مـا أمـلاه فى البدايـة، لم يكـن ذلـك شـيئًا يُذكـر بالمقارنـة بمـا حققتـه "هيسـتر" مـع "إيميلايـن" حـين وصلـت، لكنـه كان كل مـا توصـلا إليـه، وقـد اسـتغلاه لأقـصى درجـة ممكنـة، ربمـا يشـعران سرًا بالارتيـاح، فـماذا يمكـن أن تكـون نتيجـة النجـاح الحاسـم؟ النجـاح الحاسـم

سيلغى كل أسباب تعاونهما المستمر، ومع أنهما كانا غافلين عن تلك الحقيقة، فإنهما لم يكونا ليريداها.

لن ينهيا التجربة من تلقاء نفسهما أبدًا، أبدًا، سيتطلب الأمر شيئًا آخر، شيئًا خارجيًا، لوضع نهاية لها، شيء جاء بلا مقدمات.

***

"ماذا حدث؟"

مع أنها نهاية وقتنا معًا، ومع أنها بدت كئيبة منسحبة مثلما تبدو حين يقترب موعد دوائها، ومع أننى كنت ممنوعة من الأسئلة، لم أستطع منع نفسى.

على الرغم من ألمها، كان هناك بريق أخضر من الشقاوة فى عينيها مع ميلها إلى الأمام بثقة.

"أتصدقين وجود الأشباح يا (مارجريت)؟"

هل أصدق وجود الأشباح؟ ماذا عساى أن أقول؟ أومأت.

تراجعت السيدة "وينتر" فى مقعدها راضية، وأصبح لدى الانطباع المألوف إلى حد ما بأننى بحت بأكثر مما ظننت.

"(هيستر) لم تصدق، فالأمر ليس علميًا، لذا، ولعدم تصديقها بوجودهم، فإنها تضطرب للغاية إن رأت شبحًا".

***

هكذا آلت الأمور:

فى نهار مشرق، بعد أن أنهت "هيستر" أعمالها وتبقى لها الكثير من وقت الفراغ، تركت المنزل مبكرًا وقررت أن تسلك الطريق الطويل إلى بيت الطبيب، كانت السماء زاهية بشكل رائع، والهواء

منعشًـا ونقيًـا، وشـعرت بأنهـا مليئـة بطاقـة شـديدة لم تعـرف لهـا اسـمًا، لكـن ذلـك جعلهـا تتـوق إلى ممارسـة نشـاط مرهـق.

الطريـق حـول الحقـول قادهـا إلى مرتفـع بسـيط، ليـس بارتفـاع هضبـة لكنـه كشـف لهـا مشـهدًا رائعًـا مـن الحقـول والأراضى حولهـا، كانـت فى منتصـف الطريـق إلى منـزل الطبيـب تقريبًـا، تشـد الخطـى بنشـاط، وقـد ارتفـع نبضهـا لكـن بـلا أدنى شـعور بالإرهـاق، لديهـا شـعور قـوى بـأن بإمكانهـا التحليـق فقـط لـو أرادت، حـين رأت شـيئًا جمدهـا مكانهـا.

رأت فى الأفـق "إيميلايـن" و"آديلايـن" تلعبـان معًـا فى أحـد الحقـول، لا تخطئهـما العـين، لديهـما عرفـان مـن الشـعر الأحمـر، وزوجـان مـن الأحذيـة السـوداء، إحـدى الطفلتـين ترتـدى الفسـتان القطنـى الأزرق الذى ألبسـته السـيدة لـ"إيميلايـن" فى هـذا الصبـاح، والأخـرى ترتـدى الأخـضر.

هذا مستحيل.

لكـن لا، "هيسـتر" مؤمنـة بالعلـم، إنهـا تراهـما، وبالتـالى هـما موجودتـان، لا بـد أن هنـاك تفسـيرًا لذلـك، هربـت "آديلايـن" مـن بيـت الطبيـب، وقـد تخـلى عنهـا سـباتها فجـأة مثلـما جـاء، واسـتغلت فرصـة وجـود نافـذة مفتوحـة أو مجموعـة مفاتيـح متروكـة بـلا رقيـب، وهربـت قبـل أن يلاحـظ أحـد تعافيهـا، وهـذا كل مـا فى الأمـر.

مـا العمـل؟ الجـرى نحوهـما سـيكون بـلا جـدوى، فهـى سـتضطر إلى الاقـتراب منهـما عـبر مسـاحة ممتـدة مـن الحقـول المفتوحـة وسـتريانها وتهربـان قبـل حتـى أن تقطـع نصـف المسـافة، لـذا ذهبـت مسرعـة إلى بيـت الطبيـب.

وصلـت فى لمح البـصر، تطـرق البـاب بصـبر نافـد، فتحـت لهـا السـيدة "مودسـلى"، زامـة شـفتيها أمـام الجلبـة التـى أحدثتهـا، لكـن "هيسـتر" ببالهـا أشـياء أهـم مـن الاعتـذار، فتجاوزتهـا مندفعـة إلى بـاب العيـادة، ودخلـت دون اسـتئذان.

تطلـع الطبيـب، واندهـش لرؤيـة وجـه زميلتـه فائـرًا مـن الجـرى، وشـعرها، الـذى يكـون عـادة منمقًـا جـدًا، خارجًـا عـن السـيطرة، كانـت تلهـث، أرادت أن تتكلـم، لكـن لوهلـة لم تسـتطع.

سـألها وهـو ينهـض عـن كرسـيه ويلتـف حـول المكتـب ليضـع يديـه عـلى كتفيهـا: "مـاذا حـدث؟"

قالت لاهثة: "(آديلاين)! لقد تركتها تخرج!"

عبـس الطبيـب مرتبـكًا، لـف "هيسـتر" بكتفهـا حتـى أصبحـت تواجـه الجانـب الآخـر مـن الغرفـة.

حيث وجدت "آديلاين".

التفتـت "هيسـتر" مجـددًا إلى الطبيـب: "لكننـى رأيتهـا للتـو! مـع (إيميلايـن)! عنـد حافـة الغابـات بعـد حقـل (أوتـس)..."، حـين بـدأت الـكلام كان صوتهـا قويًـا كفايـة، لكـن القـوة تخلـت عنـه حـين بـدأت تتسـاءل.

قال الطبيب: "هدئى من روعك، اجلسى، خذى رشفة ماء".

حاولـت هيسـتر أن تفسر الأمـر: "لا بـد أنهـا ركضـت، كيـف يمكـن أنهـا خرجـت وعـادت بهـذه السرعة؟"

"لقـد كانـت فى هـذه الغرفـة خـلال السـاعتين الماضيتـين، منـذ الإفطـار، لم تـُترك دون مراقبـة طـوال ذلـك الوقـت"، ونظـر إلى عينـى "هيسـتر" المنفعلتـين وأضـاف: "لا بـد أنهـا طفلـة أخـرى، مـن القريـة"، محافظًـا عـلى لياقتـه الطبيـة.

"لكـن..." وهـزت "هيسـتر" رأسـها: "كانـت ترتـدى ملابـس (آديلايـن)، ولهـا شـعر (آديلايـن)".

تحولـت "هيسـتر" لتنظـر إلى "آديلايـن" مجـددًا، عيناهـا المفتوحتـان كانتـا غـير مباليتـين بالعـالم، لم تكـن مرتديـة الفسـتان الأخـضر الـذى رأتـه

"هيستر" منذ بضع دقائق، بل الفستان الأزرق الأنيق، وشعرها لم يكن مفكوكًا، بل مضفرًا.

ملأت الحيرة عيني "هيستر" اللتين عادتا إلى الطبيب، وتنفسها لم يكن مستقرًا، ولا يوجد تفسير عقلاني لما رأته، كان شيئًا غير علمي، وقد عرفت "هيستر" أن العالم يتحرك على نحو علمي تمامًا، يمكن أن يكون هناك تفسير واحد: "لا بد أنني جننت"، أو هكذا همست، اتسع بؤبؤا عينيها وارتجف أنفها: "لقد رأيت شبحًا!"

امتلأت عيناها بالدموع.

أثار ذلك لدى الطبيب شعورًا غريبًا أن يرى زميلته خاضعة لمثل هذه الحالة من الانفعال العشوائي، ومع أن العالم بداخله هو من أعجب في البداية بـ"هيستر" لبرود أعصابها ورجاحة رأيها، فإن الرجل بداخله، بغريزته وحيوانيته، هو الذي استجاب لانهيارها عبر مد ذراعيه حولها ووضع شفتيه بقوة على شفتيها بتطويق شهواني.

لم تستجب "هيستر".

التنصت عبر الباب ليس تصرفًا سيئًا لو تم باسم العلم، وقد كانت زوجة الطبيب عالمة متحمسة حين يتعلق الأمر بدراسة زوجها، القبلة التي أدهشت الطبيب و"هيستر" لم تفاجئ السيدة "مودسلي" مطلقًا، التي كانت تتوقع شيئًا كهذا منذ فترة.

دفعت الباب واندفعت إلى داخل العيادة في نوبة من الطهارة الغاضبة.

قالت لـ"هيستر": "سأشكرك إن خرجت من هذا المنزل في الحال، يمكنك إرسال (جون) بعربة الأحصنة ليأخذ الطفلة".

ثم التفتت إلى زوجها: "سأتحدث معك لاحقًا".

انتهت التجربة، وانتهت أشياء أخرى عديدة.

أحضر "جون" "آديلاين"، ولم يرَ الطبيب ولا زوجته فى المنزل، لكنه عرف من الخادمة بشأن أحداث الصباح.

وفى البيت، أعاد "آديلاين" إلى سريرها القديم فى الغرفة القديمة وترك الباب مواربًا.

رفعت "إميلاين" فى أثناء تجولها فى الغابة رأسها، وتنشقت الهواء، وتحولت مباشرة إلى البيت، دخلت عبر باب المطبخ، وصعدت السلم دون التفات، تتجاوز درجتين فى كل خطوة وانطلقت بلا تردد نحو الغرفة القديمة، وأغلقت الباب وراءها.

و"هيستر"؟ لم يرها أحد تعود إلى المنزل، ولم يسمعها أحد ترحل، لكن حين طرقت سيدة الخدم على بابها فى الصباح التالى، وجدت غرفتها الصغيرة الأنيقة فارغة، وهى قد رحلت.

***

استفقت من سحر القصة فى مكتبة السيدة "وينتر" ذات الزجاج والمرايا.

سألت: "إلى أين ذهبت؟"

نظرت إلىّ السيدة "وينتر" ببعض العبوس: "ليست لدى فكرة، وما أهمية ذلك؟"

"لا بد أنها ذهبت إلى مكان ما".

نظرت إلى القاصة بطرف عينها: "آنسة (ليا)، لا يفيد أن تتعلقى بهذه الشخصيات الثانوية، إنها ليست قصصهم، إنهم يأتون، ويذهبون، وحين يذهبون فإنهم يختفون، وهذا كل ما فى الأمر".

أزلقت قلمى داخل حلزون مفكرتى ومشيت إلى الباب، لكن حين وصلت إليه، التفت.

"إذًا، فمن أين أتت؟"

"يا إلهى! لم تكن إلا معلمة منزلية! إنها غير هامة، أؤكد لك".

"لا بـد أن كان لهـا توصيـات، مثـل عملهـا السـابق، أو حتـى رسـالة تقـدم للعمـل عليهـا عنـوان منزلهـا، ربمـا جـاءت عـبر وكالـة؟"

أغلقـت السـيدة "وينـتر" عينيهـا، وظهـر عـلى وجههـا تعبـير عـن المعانـاة الطويلـة: "السـيد (لوماكـس)، محامـى عائلـة (آنجلفيلـد)، سـتكون لديـه كل التفاصيـل، أنـا متأكـدة، ليـس معنـى ذلـك أنهـا سـتفيدك، فهـذه قصتـى، وأنـا يجـب أن أعـرف، مكتبـه بشـارع ماركـت فى بانـبرى، سـأوصيه بالإجابـة عـن كل أسـئلتك".

كتبت رسالة إلى السيد "لوماكس" فى تلك الليلة.

# ما بعد "هيستر"

فى الصباح التالى، حين جاءت "جودث" بصينية الفطور، أعطيتها رسالتى إلى السيد "لوماكس"، وأعطتنى رسالة لى من جيب مئزرها، ميزت فيها خط يد والدى.

دائمًا ما تطمئننى رسائل والدى، وهذه الرسالة لم تكن استثناءً، تمنى أن أكون بخير، هل أحرز تقدمًا فى عملى؟ لقد قرأ رواية دنماركية غريبة وممتعة جدًّا من القرن التاسع عشر سيخبرنى بشأنها حين أعود، وفى مزاد صادف مجموعة من رسائل القرن الثامن عشر لم يبد أحد مهتمًّا بشرائها، هل أريدها؟ لقد اشتراها تحسبًا، المحققون الخاصون؟ حسنًا، ربما، لكن ألن ينفذ باحث فى الأنساب المهمة المطلوبة؟ بل وربما حتى أفضل؟ هناك رجل يعرفه لديه كل المهارات المطلوبة، وبالتفكير فى الأمر فإنه مدين لوالدى بمعروف: أحيانًا يأتى إلى المتجر ليستخدم التقاويم، إن أردت مباشرة الأمر، فها هنا عنوانه، وأخيرًا -وكالعادة- الكلمات الثلاث الجافة مع أنها حسنة النية: والدتك ترسل محبتها.

هـل قالـت ذلـك حقًّـا؟ لا أعـرف، والـدى قـال "سـأكتب رسـالة إلى (مارجريت)عـصر اليـوم"، وردت هـى - باعتياديـة؟ أم بحب؟-"أرسـل لهـا محبتـى".

لا، لم أسـتطع تصـور ذلـك، هـذه إضافـة مـن والـدى، مكتوبـة دون علمهـا، لمـاذا كلـف نفسـه عنـاء إضافتهـا؟ ليسـعدنى؟ ليحـدث ذلـك حقيقـة؟ هـل يفعـل هـذه الجهـود غـير المشـكورة ليعـزز صلتنـا مـن أجـلى أم مـن أجلهـا؟ إنهـا مهمـة مسـتحيلة، أنـا ووالـدتى مثـل قارتـين تتباعـدان ببـطء ولكـن بـلا تراجـع، ووالـدى، بنّـاء الجسـور، يوسـع باسـتمرار الـصرح الهـش الـذى بنـاه ليبقـى عـلى تواصلنـا.



العزيزة الآنسة "ليا"،

لم أكـن أعـرف أن "إيفـان ليـا" لـه ابنـة، لكننـى أصبحـت أعـرف، تـسرنى معرفتـك، وتـسرنى أكـثر مسـاعدتك، إعـلان الوفـاة القانـونى هـو مـا تظنينـه تحديـدًا: افـتراض قانـونى بوفـاة شـخص لا علـم بمـكان وجـوده لفـترة طويلـة مـن الوقـت، وفى ظـروف تجعـل الوفـاة الافـتراض الوحيـد المعقـول، الهـدف الأسـاسى منـه هـو تمكـين تمريـر ممتلـكات الشـخص المفقـود إلى ورثتـه.

لقـد أجريـت بعـض الأبحـاث اللازمـة وتعقبـت الوثائـق المتعلقـة بالقضيـة التـى تهمـك تحديـدًا، يبـدو أن السـيد "آنجلفيلـد" كانـت لـه عـادات انعزاليـة، ويبـدو أن تاريـخ وظـروف اختفائـه غـير معلومـة، لكـن العمـل المثابـر والمتعاطـف الـذى أجـراه شـخص اسـمه السـيد "لوماكـس" نيابـة عـن الورثـة (ابنتـا أختـه) سـمحت بإتمـام الإجـراءات الشـكلية عـلى أتـم وجـه، الممتلـكات قيمـة، عـلى الرغـم مـن انكماشـها بدرجـة مـا بفعـل حريـق جعـل المنـزل غـير صالـح للسـكن، لكنـك سـترين كل هـذا بنفسـك فى النسـخ التـى أرسـلتها لـك مـن الوثائـق ذات الصلـة.

ستـرين أن المحامـى نفسـه وقـع نيابـة عـن أحـد المسـتفيدين، وهـذا شـائع حـين يكـون المسـتفيد غـير قـادر لسـبب مـا (مثـل المـرض أو أىّ مانـع آخـر) عـلى العنايـة بشـئونه.

تطلـب الأمـر أشـد درجـات الانتبـاه لألاحـظ توقيـع المسـتفيدة الأخرى، إنـه غـير مقـروء تقريبًـا، لكننـى نجحـت فى ذلـك فى النهايـة، هـل صادفـت أحـد أكـثر أسرار العـصر خفـاءً؟ لكـن ربمـا أنـت تعرفـين كل هـذا؟ هـل هـذا مـا أثـار اهتمامـك بهـذه القضيـة؟

لا تخـاف! أنـا رجـل شـديد الحـذر! أخـبرى والـدك أن يعطينـى خصـمًا عـلى كتـب القانـون، ولـن أبـوح بكلمـة!

المخلص،

"وليام هنرى كادوالادر".

نظـرت مبـاشرة إلى أسـفل النسـخة الأنيقـة التـى أرسـلها البروفيسـور "كادوالادر"، هـذه مسـاحة توقيـع ابنتـى أخـت "تشـارلى"، ومثلـما قـال، وقـع السـيد "لوماكـس" نيابـة عـن "إميلايـن"، أخـبرنى هـذا أنهـا عـلى الأقـل قـد نجـت مـن الحريـق، وفى السـطر الثـانى، الاسـم الـذى كنـت أنتظـره: "فيـدا وينـتر"، وبعـده بـين قوسـين عبـارة: "المعروفـة سـابقًا باسـم (آديلايـن مـارش)".

إنه دليل.

"فيدا وينتر" هى "آديلاين مارش".

كانت تخبرنى الحقيقة.

وبوضع هذا فى الاعتبار، ذهبت إلى موعدى فى المكتبة، واستمعت ودونت فى مفكرتى الصغيرة فى حين تذكر السيدة "وينتر" ما حدث فى أعقاب مغادرة "هيستر".

***

قضت "آديلاين" و"إميلاين" الليلة الأولى واليوم الأول فى غرفتهما، فى السرير، كل منهما بين ذراعى الأخرى وأعينهما تتبادلان الحديث، هناك اتفاق ضمنى بين السيدة و"جون ذا ديج" على معاملتهما كأنهما فى فترة نقاهة، وعلى نحو ما، كانتا بالفعل فى فترة نقاهة، لقد جُرحتا، فاستلقيتا على السرير، أنفاهما متلامسان، وتحدق كل منهما إلى الأخرى بعينين حولاوين، من دون كلمة، من دون ابتسامة، ترمشان بتناغم، كان ذلك التحديق المتبادل لمدة أربع وعشرين ساعة أشبه بنقل الدماء لمصابى الحوادث، فشُفيت الصلة التى انقطعت، ومثل أى جرح يُشفى، ترك ندبة.

وفى أثناء ذلك، كانت السيدة فى حيرة بشأن ما حدث لـ"هيستر"، و"جون"، الذى يمانع تخييب أملها بشأن المعلمة المنزلية، لم يقل شيئًا، لكن صمته لم يكن إلا مشجعًا لها على التساؤل بصوت مرتفع، واختتمت أسئلتها ببؤس: "أفترض أنها ستخبر الطبيب إلى أين ستذهب، يجب أن أعرف منه متى ستعود".

ثم تحدث "جون"، بفظاظة: "لا تذهبى لتسأليه إلى أين ذهبت! لا تسأليه عن شىء إطلاقًا، ونحن لن نراه هنا مجددًا".

أبعدت السيدة نظرها عنه عابسة، ماذا حدث للجميع؟ لماذا "هيستر" غير موجودة؟ لماذا "جون" مستاء؟ والطبيب -الذى كان زائرًا مستمرًّا للمنزل- لماذا لن يأتى مجددًا؟ تحدث أشياء تتجاوز نطاق فهمها، يكثر جدًّا هذه الأيام، ولفترات أطول، أن يراودها شعور بأن

خطبًا ما أصاب العالم، فى أكثر من مرة بدا أنها تستيقظ فى بالها لتجد أن ساعات كاملة قد مرت دون أن تترك أثرًا فى ذاكرتها، أشياء بدت منطقية تمامًا للآخرين، لم تبد كذلك لها دائمًا، وحين تطرح أسئلة لتحاول أن تفهم، ترى فى أعين الناس نظرات غريبة يدارونها سريعًا، نعم، شىء غريب يحدث، وغياب "هيستر" غير المبرر ليس إلا جزءًا منه.

"جون"، على الرغم من أسفه لحزن السيدة، كان مرتاحًا لرحيل "هيستر"، إذ بدا أن رحيل المعلمة المنزلية قد أزاح همًّا كبيرًا عنه، فدخل المنزل بحرية أكبر، وفى المساء قضى ساعات أطول مع السيدة فى المطبخ، حسب طريقة تفكيره، فقدان "هيستر" لم يمثل أيَّة خسارة، فهى لم تضف إلا تحسنًا واحدًا إلى حياته -شجعته على العمل مجددًا فى الحديقة- وقد فعلت هذا على نحو رقيق جدًّا، وخفى جدًّا، لدرجة أن الأمر أصبح بسيطًا جدًّا أن يعيد ترتيب أفكاره حتى أقنعه عقله بأن ذلك كان قراره وحده، حين أصبح واضحًا أنها رحلت إلى الأبد، جلب حذاءه ذا الرقبة من الكوخ وجلس يلمعه بجانب الموقد، يرفع ساقيه على الطاولة، فمن سيمنعه الآن؟

وفى الحضانة، بدا أن غضب "تشارلى" وحنقه قد غادراه، تاركين مكانهما إرهاقًا محزنًا، يمكن أحيانًا أن تسمع جره البطىء لقدميه على الأرض، وأحيانًا، لو ألصقت أذنك بالباب، تسمعه يبكى بشهقات متعبة كطفل تعيس سنه عامان، أيمكن، بطريقة ما غامضة فى أعماقها مع كونها علمية، أن تكون "هيستر" قد أثرت فيه عبر الأبواب المقفلة وكبحت أسوأ أوجه يأسه؟ لم يبد الأمر مستحيلاً.

فلم يكن البشر فقط هم من تفاعلوا مع غياب "هيستر"، بل وتفاعل المنزل لحظيًّا، أول شىء كان الهدوء الجديد، لم تعد تُسمع نقرات قدمى "هيستر" صاعدة وهابطة السلم وبطول الممرات، ثم

توقف أيضًا طرق العمال على سطح المنزل، فبنّاء السقف، بعدما اكتشف عدم وجود "هيستر"، اختمر لديه الشك سليم الأساس أن مقابل عمله لن يُدفع له من دون أحد لتقديم الفواتير لـ"تشارلى" مباشرة، فحقب معداته ورحل، وعاد مرة ليأخذ سلالمه، ولم يره أحد مجددًا.

عاد المنزل مجددًا فى اليوم الأول من الصمت إلى مساره الطويل البطىء نحو التدهور، وكأن شيئًا لم يقاطعه قط. التفاصيل الصغيرة أولاً: بدأ التراب يزحف من كل شق فى كل شىء فى كل الغرف، وسربت الأسطح الغبار، وغطت النوافذ نفسها بأول طبقة من الأوساخ، كل تغييرات "هيستر" أصبحت ظاهرية فقط. فقد تطلب الحفاظ عليها عناية يومية، وتذبذبت مواعيد نظافة السيدة فى البداية، ثم انهارت تمامًا، بدأت الطبيعة الحقيقية الدائمة للمنزل فى فرض نفسها مجددًا، وجاء الوقت الذى تشعر فيه بالتماسك القديم للأوساخ على أصابعك إن التقطت أى شىء بالمنزل.

عادت الأشياء أيضًا سريعًا إلى حياتها القديمة، فكانت المفاتيح أول ما تجول من الأشياء، كانت تتسلل خلال الليل إلى خارج الأقفال وتغادر سلاسلها، ثم تجمعت فى صحبة مغبرة فى الفراغ تحت لوح أرضية مرتخ، والشمعدانات الفضية، التى لا تزال تحتفظ بآثار تلميع "هيستر"، شقت طريقها من رف الموقد بالمرسم إلى مخزن كنوز "إيميلاين" تحت السرير، وتركت الكتب رفوف المكتبة وصعدت السلالم حيث استقرت فى الزوايا وتحت الأرائك، ونزعت الستائر إلى إغلاق نفسها، وحتى الأثاث استفاد لأقصى درجة من غياب الرقابة وتجول، تقدمت أريكة قليلاً من مكانها المقابل للحائط، وتحرك مقعد نصف متر تقريبًا، كل الأدلة على وجود شبح فى المنزل أعادت تأكيد وجوده.

سطح المنزل الذى يُجرى إصلاحه تصبح حالته أسوأ قبل أن يرى أى تحسن، وبعض الثقوب التى تركها البناء كان أكبر من التى جُلب لإصلاحها، فلن تواجه مشكلة فى أن تستلق على أرضية العليا وتشعر بأشعة الشمس تداعب وجهك، لكن الأمطار كانت شأنًا آخر، فبدأت ألواح الأرضية فى الضعف، وقطرت المياه عبرها إلى الغرف تحتها، كانت هناك بقع تعرف أنك لا يجب أن تخطو عليها، حيث الأرضية مرتخية جدًّا تحت قدميك، ولاحقًا، ستنهار وسترى عبرها الغرفة السفلية، وكم سيمر من الوقت قبل أن تستلم أرضية تلك الغرفة وترى المكتبة؟ وهل تستلم أرضية المكتبة؟ أيمكن فى يوم ما أن تقف فى القبو وتتطلع عبر أربعة طوابق من الغرف لترى السماء؟

المياه، مثل الآلهة، تتحرك بطرق غامضة، بمجرد دخولها إلى منزل، فإنها تطيع قوانين الجاذبية بطرق غير مباشرة، داخل الجدران وتحت الأرضيات تجد لنفسها مجارى ومسارات، إنها تتسرب وتقطر فى اتجاهات غير متوقعة، وتظهر حيث لا تتوقعها، توجد خرق فى كل مكان بالمنزل لتمتص المياه، لكن لا أحد قط يعصرها، ووضعت القدور والأوعية لتجمع نقاط المياه، لكنها فاضت قبل أن يتذكر أحد تغييرها، الرطوبة المستمرة أسقطت الدهان عن الحوائط وبدأت تأكل الأسمنت، وفى العليا، توجد جدران مرتخية لدرجة أن بيد واحدة يمكنك هزها كأنه ضرس رخو.

والفتاتان وسط كل هذا؟

لقد أحدثت "هيستر" والطبيب جرحًا بالغًا، بالتأكيد لن تعود الأمور لسابق عهدها قط، ستتشارك الفتاتان دائمًا ندبة، وآثار الفصل بينهما لن تُمحى نهائيًا أبدًا، لكنهما شعرتا بالندبة على نحو مختلف، ففى النهاية، "آديلاين" راحت سريعًا فى حالة من فقدان الذاكرة بمجرد أن أدركت ما فعلته "هيستر" والطبيب، فقدت نفسها فى اللحظة نفسها

التى فقدت فيها أختها، وليست لديها أىّ ذكرى عن الوقت الذى مر بعيدًا عن أختها، وبقدر ما تعرف، فإن الظلمة التى تخللت فقدانها لأختها والعثور عليها مجددًا دامت لسنة أو ربما لثانية، ليس أن الأمر يهم الآن، لأنه انتهى، وهى عادت للحياة مجددًا.

الأمر كان مختلفًا لـ"إيميلاين"، فلم تحظَ بارتياح فقدان الذاكرة، لقد عانت أكثر ولفترة أطول، كل لحظة من الأسابيع الأولى كانت عذابًا، كانت كالبتراء فى الأيام التى تسبق التخدير، نصف مجنونة بفعل الألم، مندهشة أن الجسد البشرى يمكنه الشعور بكل هذا الألم دون أن يموت، لكن ببطء، بدأت تتحسن، خلية وراء الأخرى، بقدر ما فى ذلك من ألم، وجاء وقت لم يعد جسدها بالكامل يحترق ألمًا، بل قلبها فقط، ثم جاءت فترة يستطيع فيها قلبها، لبعض الوقت على الأقل، أن يشعر بأحاسيس أخرى غير الحزن، باختصار، تأقلمت "إيميلاين" مع غياب أختها، تعلمت أن تعيش بعيدة عنها.

ومع ذلك فإنهما اتصلتا مجددًا وأصبحتا توأمين مجددًا، لكن "إيميلاين" لم تعد الأخت نفسها مثلما كانت، وهذا شىء لم تلحظه "آديلاين" فى الحال.

فى البداية، لم تشعرا إلا ببهجة اللقاء مجددًا، كان افتراقهما مستحيلاً، فحيث تذهب إحداهما، تتبعها الأخرى، وفى الحدائق تتحلقان حول الأشجار القديمة، تلعبان أدوارًا بلا نهاية من الغميضة، كأنها تكرار لم تملّه "آديلاين" قط لتجربتهما الأخيرة فى الفقد واللقاء، أما بنظر "إيميلاين" فإن التجديد بدأ سريعًا بالخفوت، وتسلل بعض الخصومات القديمة، إذ أرادت "إيميلاين" أن تسلك طريقًا، وأرادت "آديلاين" الآخر، فتعاركتا، وكالسابق كانت عادة "إيميلاين" هى من تستسلم، ولكن فى نفسها الجديدة السرية، أصبحت تمانع ذلك.

مـع أن "إيميلايـن" كانـت فى وقـت مـا معجبـة بـ"هيسـتر"، فإنهـا لم تفتقدهـا، إذ تضـاءل حبهـا لهـا خـلال التجربـة، فقـد عرفـت فى النهايـة أن "هيسـتر" هـى مـن فصلتهـا عـن أختهـا، وليـس هـذا فقـط، بـل إن "هيسـتر" كانـت مسـتغرقة جـدًّا فى تقاريرهـا واستشـاراتها العلميـة لدرجـة أنهـا أهملـت "إيميلايـن"، ربمـا دون إدراك الأمـر، خـلال تلـك الفـترة، حـين تجـد نفسـها فى وحـدة غـير معتـادة، كانـت "إيميلايـن" تجـد طرق لتشـتيت نفسـها عـن حزنهـا، اكتشـفت طرقًـا للتسـلية أصبحـت تسـتمتع بهـا فى حـد ذاتهـا، ألعـاب لم تتوقـع أن تتخـلى عنهـا فقـط لأن أختهـا رجعـت.

لـذا فى اليـوم الثالـث بعـد اللقـاء، تركـت "إيميلايـن" الغميضـة فى الحديقـة، وهامـت إلى غرفـة البليـاردو حيـث أبقـت مجموعـة مـن أوراق اللعـب، وبـدأت لعبتهـا وهـى مسـتلقية عـلى بطنهـا فى منتصـف الطاولـة الخـضراء، كانـت نوعًـا مـن أنـواع لعبـة "سـوليتير"، النـوع الأبسـط والأكـثر طفوليـة، وهـى تفـوز فى كل مـرة، فقـد كانـت اللعبـة مصممـة بحيـث لا تخـسر، وفى كل مـرة كان الفـوز يسـعدها.

فى منتصـف اللعبـة، أدارت وجههـا، لم تسـمع شـيئًا بالمعنـى الحـرفى، لكـن أذنهـا الداخليـة، التـى كانـت مضبوطـة باسـتمرار عـلى موجـات أختهـا، أخبرتهـا أن "آديلايـن" تناديهـا، تجاهلـت "إيميلايـن" الأمـر، فقـد كانـت مشـغولة، وسـترى "آديلايـن" لاحقًـا حـين تنتهـى مـن اللعـب.

بعـد سـاعة، اندفعـت "آديلايـن" إلى داخـل الغرفـة وعيناهـا تشـعان غضبًـا، ولم يكـن لـدى "إيميلايـن" شىء تفعلـه لتدافـع عـن نفسـها، صعـدت "آديلايـن" إلى الطاولـة وانطلقـت كالصـاروخ نحـو "إيميلايـن" تحركهـا هسـتيريا الغضـب.

لم ترفـع "إيميلايـن" إصبعًـا لتدافـع عـن نفسـها، ولم تبـك، لم تصـدر صوتًـا، لا خـلال الهجـوم، ولا بعـده.

حين أفرغت "آديلاين" شحنة غضبها، توقفت لعدة دقائق تتفرج على أختها، كان الدم يسيل على الغطاء الأخضر، وأوراق اللعب مبعثرة فى كل مكان، كتفا "إيميلاين" يرتفعان ويهبطان بسرعة مع أنفاسها وهى تحتضن نفسها كالكرة.

استدارت "آديلاين" وابتعدت.

ظلت "إيميلاين" مكانها على الطاولة، حتى جاء "جون" ليجدها بعد ساعات، أخذها إلى السيدة، التى غسلت الدماء عن شعرها، ووضعت كمادة على عينها، وداوت كدماتها بخلاصة بندق الساحرة.

علقت: "ما كان هذا ليحدث لو كانت (هيستر) هنا، أتمنى حقًّا أن أعرف متى ستعود".

رد "جون": "لن تعود"، محاولاً احتواء انزعاجها، ولم يعجبه أيضًا أن يرى الطفلة هكذا.

"لا أفهم لِمَ ترحل بهذه الطريقة، بلا أى كلام، ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ أفترض أنه حدث طارئ ما، لدى عائلتها..."

هز "جون" رأسه، فقد سمع هذا عشرات المرات، تلك الفكرة التى تتعلق بها السيدة، أن "هيستر" ستعود، لكن القرية كلها تعرف أنها لن تعود، لقد سمعت خادمة "مودسلى" كل شىء، وزعمت أنها رأت كل شىء أيضًا، والمزيد غيره، وبحلول هذا الوقت يستحيل أن تجد شخصًا بالغًا فى القرية غير واثق بأن المعلمة ذات الوجه العادى كانت فى علاقة زنا مع الطبيب.

كان حتميًّا أن فى يوم ما ستصل شائعات "سلوك" (كناية القرية عن سوء السلوك) "هيستر" إلى مسامع السيدة، فى البداية شعرت بالصدمة، ورفضت فكرة أن "هيستر" -"هيستر" التى عرفتها- يمكن أن تأتى مثل هذا الفعل، لكن حين أبلغت "جون" بما يُقال غاضبة، لم يفعل شيئًا

إلا تأكيـده، وذكرهـا بأنـه ذهـب إلى منـزل الطبيـب فى ذلـك اليـوم، ليجلـب الطفلـة، وسـمع القصـة مـن فـم الخادمـة مبـاشرة فى يـوم حدوثهـا، عـلاوة عـلى ذلـك، لمـاذا قـد تغـادر "هيسـتر" فجـأة، بـلا تحذيـر، لـو لم يحـدث شىء غـير معتـاد؟

وتمتمت: "عائلتها، حدث طارئ..."

"أيـن الرسـالة إذًا؟ كانـت لترسـل رسـالة، لـو كانـت سـتعود، أليـس كذلـك؟ كانـت لتوضـح الأمـر، هـل وصلتـك أىّ رسـالة؟"

هزت السيدة رأسها.

"حسـنًا إذًا"، اختتـم "جـون" حديثـه، عاجـز عـن إخفـاء الرضـا فى صوتـه، "فعلـت شـيئًا لم يكـن يفـترض بهـا فعلـه، ولـن تعـود، لقـد ذهبـت إلى الأبـد، صدقينـى".

دار الكثـير فى ذهـن السـيدة، ولم تعـرف مـاذا تصـدق، أصبـح العـالم مكانًـا مربـكًا جـدًا.

# رحل!

طالـت آثـار رحيـل "هيسـتر" الجميـع، إلا "تشـارلى"، بالتأكيـد هنـاك تغـيرات، وجبـات الطعـام المغذيـة التـى كانـت توضـع خـارج غرفتـه حـين الإفطـار والغـداء والعشـاء فى وجـود "هيسـتر"، أصبحـت شـطائر، أو قطعـة لحـم بـارد وثمـرة طماطـم، أو وعـاء مـن البيـض المخفـوق المتخثر، وتظهـر تلـك الوجبـات فى أوقـات متباعـدة وبمعـدلات زمنيـة غـير متوقعـة، حينـما تتذكـر السـيدة، لم يمثـل الأمـر فرقًـا لـ"تشـارلى"، فـإن جـاع وكان الطعـام عنـده، قـد يـأكل لقيـمات مـن قطعـة لحـم الأمـس، أو طـرف جـاف مـن رغيـف خبـز، ولكـن إن لم يكـن الطعـام هنـاك فإنـه لـن يـأكل، وجوعـه لم يضايقـه، فقـد كان لديـه جـوع أقـوى ليقلـق بشـأنه، إنـه جوهـر حياتـه، وهـو شىء لم تغـيره "هيسـتر" بمجيئهـا ورحيلهـا.

ومـع ذلـك فقـد طـال التغيـير "تشـارلى"، ولكـن لم تكـن لـه علاقـة بـ"هيستر".

فمـن حـين لآخـر، تصـل رسـالة إلى المنـزل، ومـن حـين لآخـر يفتحهـا أحـد، بعـد بضعـة أيـام مـن تعليـق "جـون ذا ديـج" عـن عـدم تلقـى أى رسـائل مـن "هيسـتر"، وجـدت السـيدة نفسـها فى الردهـة ولاحظـت كومـة صغـيرة مـن الرسـائل تجمـع الغبـار عليهـا عـلى الحصـيرة تحـت صنـدوق البريـد، ففتحتهـا.

رسـالة مـن موظـف البنـك الـذى يديـر شـئون "تشـارلى": هـل يبحـث عـن فرصـة للاسـتثمار؟

الثانية فاتورة من البنائين لعملهم على سطح المنزل.

هل الثالثة من "هيستر"؟

لا، الثالثة من المصحة، لقد ماتت "إيزابيل".

حملقـت السـيدة إلى الرسـالة، ماتـت! "إيزابيـل"! هـل هـذا حقيقـى؟ تقـول الرسـالة إنهـا قضـت بسـبب الإنفلونـزا.

يجـب إخبـار "تشـارلى"، لكـن السـيدة خافـت مـن مجـرد احتماليـة ذلـك، فقـررت أن مـن الأفضـل أن تتكلـم مـع "ديـج" أولاً، فوضعـت الرسـائل جانبًـا، لكـن لاحقًـا، حـين كان "جـون" جالسًـا عـلى مقعـده عنـد طاولـة المطبـخ، صبـت شـايًا طازجًـا فى كوبـه، ولم يكـن للرسـالة أثـر فى ذاكرتهـا، لقـد لحقـت بغيرهـا مـن اللحظـات الضائعـة المتكـررة باطـراد، التـى عاشـتها وشـعرت بهـا لكنهـا غـير مسـجلة فى ذاكرتهـا، ومـن ثـم ضاعـت، ومـع ذلـك، بعـد بضعـة أيـام، كانـت تمـر عـبر الردهـة بصينيـة الخبـز واللحـم المقـدد المحترقـين، ووضعـت الرسـائل فى الصينيـة مـع الطعـام عـلى نحـو آلىّ، مـع أنهـا لم تتذكـر مطلقًـا محتوياتهـا.

ثـم مـرت الأيـام ولم يبـدُ أن شـيئًا قـد حـدث مطلقًـا، باسـتثناء أن طبقـات الغبـار زادت، وتراكمـت الأوسـاخ عـلى زجـاج النوافـذ، وزحفـت

أوراق اللعب أكثر خارج صندوقها فى المرسم، وأصبح نسيان أن فى يوم من الأيام كانت "هيستر" هنا أسهل كثيراً.

"جون ذا ديج" هو من لاحظ فى صمت الأيام أن شيئًا قد حدث.

إنه رجل يحب الأماكن المفتوحة، وليس معتادًا على العيش داخل المنزل، ومع ذلك فقد عرف أن فى وقت ما لن تصلح الأكواب لشرب الشاى من دون غسلها أولاً، كذا عرف أن الطبق الذى حمل لحمًا نيئًا يجب ألا يحمل بعده مباشرة لحمًا مطبوخًا، ولاحظ كيف تسير أمور السيدة: فهو ليس غبيًّا، كلما تصاعدت كومة الأطباق والأكواب المتسخة، كان يغسلها بنشاط، إنه مشهد غريب وهو واقف أمام الحوض بحذائه ذى الرقبة وقبعته، يبدو أخرق للغاية وهو ممسك بالخرقة والأوانى الصينية بعدما كان يبدو بارعًا بأوانيه الفخارية ونباتاته الغضة، وقد انتبه إلى أن عدد الأكواب والأطباق يتقلص، وقريبًا لن يتبقى منها كفاية، أين ذهبت الأوانى المفقودة؟ فكر فى لحظتها فى السيدة وهى تشق طريقها العشوائى صعودًا بطبق للسيد "تشارلى"، هل رآها قط تعود بطبق فارغ إلى المطبخ؟ لا.

صعد السلم، ورأى خارج الباب المقفل أطباقًا وأكوابًا مرتبة فى طابور طويل، وفر الطعام الذى لم يمسسه "تشارلى" وليمة لذيذة للذباب الذى طن فوقه، وأصدر رائحة قوية لا تسر، لكم من الأيام كانت السيدة تترك الطعام هنا دون ملاحظة أن طعام اليوم السابق لم يُمس؟ أحصى عدد الأطباق والأكواب، وعبس، وحينها عرف.

لم يطرق الباب، فما الفائدة؟ واضطر إلى أن يذهب إلى كوخه ليجلب عارضة خشبية قوية كفاية ليستخدمها كناطحة للباب، كانت ضوضاء نطح الباب المصنوع من البلوط، وأصوات الصرير والتحطيم فى حين تتكسر المفصلات المعدنية وتنفصل عن الخشب، كافية لتجمعنا كلنا عند الباب، وحتى السيدة نفسها.

حين سقط الباب المنطوح، وهو نصف مكسور عند مفصلاته، سمعنا طنين الذباب، وتصاعدت رائحة نتنة دفعت "إيميلاين" والسيدة بعيدًا بضع خطوات، حتى "جون" غطى فمه بيده وشحب قليلاً، "لا تتقدمن"، أمرنا بذلك وهو يدلف إلى الغرفة، وتبعته بفارق بضع خطوات.

تقدمنا بحذر عبر مخلفات الطعام المتعفن على أرضية الحضانة القديمة، ما أثار سحبًا من الذباب فى الهواء مع مرورنا، كان "تشارلى" يعيش كالحيوان، وجدنا أطباقًا قذرة يغطيها العفن على الأرض، وعلى رف الموقد، وعلى الكراسى وعلى الطاولة، باب غرفة النوم نصف مفتوح، فدفع "جون" الباب بحذر بطرف الخشبة الناطحة الذى لا يزال فى يده، فمر فأر متفاجئ مسرعًا على أقدامنا، كان مشهدًا مروعًا، المزيد من الذباب والطعام المتحلل، والأسوأ: كان الرجل مريضًا، فغطت بقعة من القىء الجاف المنقط بالذباب السجادة على الأرض، وعلى الطاولة المجاورة للسرير، تكومت مناديل دامية وإبرة الحياكة القديمة الخاصة بالسيدة.

كان السرير خاليًا إلا من ملاءات قذرة مطوية تلطخها الدماء وغيرها من القبائح البشرية.

لم نتكلم، حاولنا ألا نتنفس، وحين اضطررنا، استنشقنا عبر أفواهنا، ولكن الهواء الكريه المشبع بالمرض لم يفارق حلوقنا وجعلنا نتهوع، لكننا لم نرَ الأسوأ بعد، فهناك غرفة أخرى، اضطر "جون" إلى استجماع قوته ليفتح باب المرحاض، ولكن قبل حتى أن ينفتح الباب بالكامل، استشعرنا بشاعة ما ينتظرنا، فقبل أن تخترق الرائحة فتحتى أنفى، بدا أن جلدى يشمها، ونشع العرق البارد على كامل جسدى، كرسى المرحاض يبدو سيئًا بما يكفى، ومع أن غطاءه مغلق فإنه لم يتمكن تمامًا من احتواء القذارة الفائضة التى كان من المفترض أن يغطيها،

لكـن ذلـك لم يكـن شـيئًا يُذكـر، لأن فى حـوض الاسـتحمام -تراجـع "جـون" خطـوة سريعـة إلى الـوراء، وكان ليخطـو علـىّ لـو أننـى لم أتراجـع خطوتـين فى اللحظـة نفسـها- كانـت هنـاك مخلفـات داكنـة مـن النفايـات الجسـدية السـائلة، رائحتهـا جعلتنـا أنـا و"جـون" نتسـابق نحـو البـاب، نخطـو علـى فضـلات الفـئران والذبـاب، وخرجنـا إلى الممـر، وهبطنـا السـلم، ثـم خرجنـا مـن المنـزل.

تقيـأت، بـدت بقعـة قيئـى الأصفـر علـى العشـب الأخـضر طازجـة ونظيفـة ومسـكرة.

قال جون: "لا بأس"، وهدهد ظهرى بيد لا تزال ترتجف.

أمـا السـيدة، التـى تبعتنـا بخطواتهـا المهرولـة، فقـد اقتربـت منـا عـلى العشـب، تسـيطر الأسـئلة عـلى وجههـا، مـاذا يمكـن أن نقـول لهـا؟

وجدنـا دم "تشـارلى"، وجدنـا خـراء "تشـارلى"، وبـول "تشـارلى"، وقـىء "تشـارلى"، لكننـا لم نجـد "تشـارلى" نفسـه؟

قلنا لها: "إنه ليس هناك، لقد رحل".

***

عـدت إلى غرفتـى أفكـر فى القصـة، إنهـا مثيرة للفضـول مـن جوانـب عـدة، بالتأكيـد هنـاك اختفـاء "تشـارلى"، الـذى يمثـل تحـولاً مثـيراً للأحـداث، وقـادنى ذلـك إلى التفكـير فى التقاويـم، وذلـك الاختصـار المثير للفضـول: "إل دى دى"، لكـن ليـس هـذا كل مـا فى الأمـر، هـل أدركـت هـى أننـى لاحظـت؟ لم أبـد أيَّـة إشـارات خارجيـة، لكننـى لاحظـت، لقـد قالـت السـيدة "وينـتر" اليـوم "أنـا".

***

وجـدت مغلفًـا بنيًّـا كبـيرًا فى غرفتـى، عـلى صينيـة بجـوار شـطيرة اللحـم.

عـاد سـاعى البريـد ومعـه رد السـيد "لوماكـس" المحامـى عـلى رسـالتى، ألحـق برسـالته القصـيرة، والمهذبـة، نسـخًا مـن عقـد عمـل "هيسـتر"، الـذى رمقتـه بنظـرة سريعـة ووضعتـه جانبًـا، ورسـالة توصيـة مـن سـيدة مـن نابـولى اسـمها "ليـدى بلايـك"، تشـيد بمواهـب "هيسـتر"، والأهـم مـن كل هـذا، رسـالة قبـول عـرض التوظيـف، مكتوبـة بيـد الموظفـة العجيبـة نفسـها.

العزيز الطبيب "مودسلى"،

شكرًا على عرض التوظيف الذى قدمته لى بكرم منك.

يـسرنى أن أتـولى هـذه الوظيفـة فى آنجلفيلـد يـوم التاسـع عـشر مـن أبريـل مثلـما اقترحـت.

لقـد اسـتفسرت وعرفـت أن القطـارات تسـافر إلى بانـبرى فقـط، ربمـا يمكنـك أن ترشـدنى إلى أفضـل طريـق يوصلنـى إلى آنجلفيلـد مـن هنـاك، سـأصل إلى محطـة بانـبرى فى السـاعة العـاشرة والنصـف.

المخلصة،

هيستر بارو

هنـاك حـزم فى كتابـة "هيسـتر" للحـروف الكبـيرة القويـة، واتسـاق فى درجـة ميـل الحـروف، وانطبـاع بسلاسـة جريـان القلـم فى دوائـر حـرفى الـ"جـى" والـ"واى"، حجـم الحـروف متوسـط: صغـير كفايـة لتوفـير الحـبر والأوراق، وكبـير كفايـة ليكـون واضحًـا، لم تحـوِ الرسـالة أى زخـارف، ولا تموجـات ولا تعـثرات ولا زخـارف دقيقـة، نبـع جـمال هـذه الكتابـة مـن

الشـعور بالنظـام والتـوازن والتناسـب الـذى حكـم كل حـرف، تلـك يـد ماهـرة ونظيفـة، إنهـا كلـمات لم ترسـمها إلا "هيسـتر".

فى أعلى اليمين يوجد عنوان فى لندن.

قلت إن هذا جيد، يمكننى الآن أن أصل إليك.

تناولـت ورقـة وقبـل أن أبـدأ التفريـغ، كتبـت رسـالة إلى متخصـص الأنسـاب الـذى رشـحه والـدى، إنهـا رسـالة طويلـة: إذ يجـب أن أقـدم نفـسى، فهـو بـلا شـك لا يعـرف أن السـيد "ليـا" لـه ابنـة، اضطـررت إلى التلميـح بلطـف إلى مسـألة التقاويـم لتبريـر اسـتغلالى لوقتـه، وكان علـىّ سرد كل مـا أعرفـه عـن "هيسـتر": نابـولى، لنـدن، آنجلفيلـد، لكـن خلاصـة رسـالتى كانـت بسـيطة: اعـثر عليهـا.

# ما بعد "تشارلى"

لم تعلق السيدة "وينتر" على رسائلى مع المحامى، مع أننى واثقة بأنها على علم بمحتواها، مثلما أنا واثقة بأن الوثائق التى طلبتها ما كانت لتصل إلى لولا موافقتها، تساءلت إن كانت لتعتبر الأمر غشًّا، وإن مثّل ذلك "استراقًا للنظر إلى الصفحات الأخيرة" الذى رفضته بشدة، لكن يوم تلقيت مجموعة من الرسائل من السيد "لوماكس" وأرسلت طلب المساعدة إلى باحث الأنساب، لم تعلق ولو بكلمة، بل التقطت طرف قصتها من حيث تركته، كأن كل تلك المراسلات البريدية غزيرة المعلومات لم تكن تحدث.

***

كان "تشارلى" الخسارة الثانية، أو الثالثة لو احتُسبت "إيزابيل"، مع أننا فقدناها بكل الأشكال العملية قبل عامين، وخسارتها بالكاد تُحتسب.

تأثـر "جـون" باختفـاء "تشـارلى" أكـثر مـن "هيسـتر"، ربمـا كان "تشـارلى" منعـزلاً، أو غريـب الأطـوار، أو مترهبنًـا، لكنـه كان سـيد المنـزل، كان يخربـش توقيعـه عـلى ورقـة أربـع مـرات سـنويًا، بعـد أن يُطلـب منـه ذلـك للمـرة السادسـة أو السـابعة، فيفـرج البنـك عـن الأمـوال التـى تبقـى عـلى الحـد الأدنى مـن الحيـاة فى هـذا المنـزل، والآن رحـل "تشـارلى"، فـما مصـير المنـزل؟ مـاذا سـيفعلون ليحصلـوا عـلى الأمـوال؟

مـر "جـون" ببضعـة أيـام مروعـة، وأصر عـلى تنظيـف جنـاح الحضانـة -"وإلا سـتصيبنا كلنـا بالأمـراض"- وحـين لم يعـد يسـتطيع تحمـل الرائحـة، جلـس عـلى السـلم بالخـارج، يستنشـق الهـواء النظيـف مثـل رجـل نجـا مـن الغـرق، وفى المسـاء يسـتحم طويـلاً، يسـتخدم صابونـة كاملـة يحـك بهـا جلـده حتـى يتوهـج لونـه الـوردى، حتـى إنـه أوصـل الصابـون إلى داخـل أنفـه.

كـذا شـارك فى الطهـو، فقـد لاحظنـا كيـف أن السـيدة تفقـد مسـارها فى منتصـف إعدادهـا للطعـام، الخـضراوات تغـلى حتـى تصبـح كالعجـين، ثـم تحـترق فى أسـفل القـدر، لم يخـل المنـزل قـط مـن رائحـة الطعـام المتفحـم، ثـم فى يـوم مـن الأيـام وجدنـا "جـون" فى المطبـخ، اليـدان اللتـان اعتدنـا عـلى كونهـما قذرتـين تحصـدان البطاطـس مـن الأرض، أصبحتـا الآن تشـطفان الثمـرة الصفـراء بالميـاه، وتقشرهـا، وتحـرك أغطيـة القـدور عـلى الموقـد مصـدرة صليـلاً، أكلنـا لحـمًا جيـدًا أو أسـماكًا مـع الكثـير مـن الخـضراوات، وشربنـا شـايًا سـاخنًا ثقيـلاً، جلسـت السـيدة فى مقعدهـا بزاويـة المطبـخ، دون أى شـعور واضـح بـأن هـذه كانـت مهامهـا، وبعـد الاسـتحمام حـين يهبـط الليـل، يجلـس كلاهـما إلى مائـدة المطبـخ للحديـث، مخاوفـه لا تتغـير أبـدًا، مـاذا سـيفعلان؟ كيـف سـيصمدان فى الوضـع الحـالى؟ مـاذا سـيكون مصيرنـا كلنـا؟

قالت السيدة: "لا تقلق، سيعود".

سيعود؟ تنهد "جون" وهز رأسه، لقد سمع هذا من قبل: "إنه ليس موجودًا أيتها السيدة، لقد رحل، هل نسيت بالفعل؟"

"رحل!"، وهزت رأسها وضحكت كأنه أخبرها نكتة.

لحظة عرفت حقيقة رحيل "تشارلى"، مر الخبر بوعيها للحظات، لكنه لم يجد مكانًا ليجلس، فالممرات والردهات والسلالم التى فى عقلها، التى تربط أجزاءه بعضها ببعض، وكذا تفرقها بعضها عن بعض، كانت متهدمة، فعندما تلتقط طرف خيط فكرة، تتبعها عبر الثقوب فى الجدران، وتنزلق فى أنفاق انفتحت قد قدميها، وتصل إلى نهايات غامضة تجعلها متحيرة: ألم يكن هناك...؟ ألم تكن هى...؟ فحين فكرت فى أن "تشارلى" محبوس فى الحضانة، وقد خبله الحزن على حبه لأخته الميتة، سقطت عبر باب مسحور فى الزمان دون حتى أن تدرك ذلك، وأوصلها الباب إلى ذكرى والده، حين كان ثاكلاً حديثًا ومنعزلاً فى المكتبة حزنًا على زوجته الميتة.

قالت بغمزة: "أعرف كيف أخرجه من هناك، سآخذ الطفلة إليه، سيفى هذا بالغرض، بل سأذهب لأتفقد الطفلة الآن".

لم يوضح لها "جون" مجددًا أن "إيزابيل" ماتت، لأن ذلك لن يؤدى إلا إلى مفاجئة مفجعة، ومطالبة بأن تعرف كيف ولماذا ماتت، "مصحة؟" هكذا ستتعجب وتندهش، "لكن لماذا لم يخبرنى أحد أن الآنسة (إيزابيل) فى مصحة؟ يا لوالدها المسكين! كم كان شغوفًا بها! سيأتى هذا الخبر بأجله"، وستتوه لساعات فى ممرات الماضى المحطمة، ثكلى على مأساويات عفا عليها الزمن كأنها لم تحدث إلا البارحة، غافلة عن أحزان اليوم، لقد مر "جون" بهذا مرات عدة، ولن يتحمل مرة جديدة.

رفعت السيدة نفسها ببطء من المقعد، تجر القدم وراء الأخرى متألمة، ذاهبة لترى الرضيعة التى فى السنوات الضائعة من ذاكرتها،

كـبرت وتزوجـت وأنجبـت توأمـين وماتـت، ولم يوقفهـا "جـون"، فهـى ستنسى وجهتهـا قبـل حتـى أن تصـل إلى السـلم، لكنـه يضـع رأسـه بـين كفيـه ويتنهـد وراءهـا.

مـا العمـل؟ بشـأن "تشـارلى"، وبشـأن السـيدة، وبشـأن كل شىء؟ هـذا شـغله الشـاغل، بحلـول نهايـة الأسـبوع، كانـت الحضانـة نظيفـة وقـد ظهـرت خطـة مـا فى أمسـيات التشـاور، لم تـرد أى أخبـار عـن "تشـارلى" مـن قريـب ولا مـن بعيـد، لم يـره أحـد يذهـب، ولم يعـرف أحـد خـارج المنـزل أنـه قـد رحـل، فبالنظـر إلى أسـلوب حياتـه الشـبيه بالمترهبنـين، يرجـح ألا يلاحـظ أحـد غيابـه، تسـاءل "جـون" إن كان ملزمًـا عـلى أى نحـو بـأن يخـبر أحـدًا -الطبيـب؟ المحامـى؟- بشـأن اختفـاء "تشـارلى"، قلَّـب السـؤال فى بالـه مـرارًا وتكـرارًا، وفى كل مـرة توصـل إلى الرفـض إجابـة، فالرجـل لـه الحـق الكامـل فى مغـادرة منزلـه إن اختـار ذلـك، وأن يرحـل دون أن يبلـغ موظفيـه بوجهتـه، لم يـر "جـون" أيَّـة فائـدة مـن إخبـار الطبيـب، الـذى لم يجلـب تدخلـه السـابق فى شـئون المنـزل سـوى العلـل، أمـا المحامـى...

هنـا تباطـأ وتعقـد تفكـير "جـون" عـالى الصـوت، فمـن دون "تشـارلى"، مـن سـيوافق عـلى عمليـات السـحب مـن البنـك؟ لقـد عـرف دون أن يسـأل أن تدخـل المحامـى سـيكون ضروريًّـا إن طـال اختفـاء "تشـارلى"، لكـن مـع ذلـك كانـت ممانعتـه طبيعيـة، فسـكان "آنجلفيلـد" عاشـوا مولين ظهورهـم للعـالم لسـنوات، و"هيسـتر" هـى الوحيـدة الدخيلـة التـى دخلت عالمهـم، وانظـر إلى مـا آل إليـه أمرهـا! إلى جانـب ذلـك فـإن "جـون" يكـن ارتيابًـا غريزيًّـا تجـاه المحامـين، لا يوجـه "جـون" تهمـة محـددة إلى السـيد "لوماكـس"، الـذى يوحـى مظهـره بأنـه رجـل محـترم وعاقـل، ومـع ذلـك فإنـه لم يجـد فى نفسـه ثقـة كافيـة بفكـرة أن ينتظـر حـل المشـكلة المنزليـة مـن شـخص يتكسـب ممارسـو مهنتـه مـن حـشر أنوفهـم فى شـئون الآخرين الخاصـة، وإلى جانـب ذلـك، إن شـاعت معلومـة غيـاب "تشـارلى"، مثلما

شاعت معلومة غرابة سلوكه، هل سيسر المحامى أن يوقع على أوراقه البنكية، فقط حتى يستمر "جون" والسيدة فى دفع فواتير البقالة؟ لا، فقد عرف ما يكفى عن المحامين ليدرك أن الأمر لن يكون بهذه البساطة، عبس "جون" إثر تخيله للسيد "لوماكس" فى المنزل، وهو يفتح الأبواب، ويفتش الخزائن، ويلقى نظرة على كل ركن مظلم وكل ظل اختار مكانه بحذر فى عالم "آنجلفيلد"، سيكون ذلك بلا نهاية.

كذا فإن المحامى سيحتاج إلى زيارة واحدة ليعرف أن السيدة ليست على ما يرام، وسيصر على استدعاء الطبيب، وستئول السيدة نفس مآل "إيزابيل"، ستؤخذ بعيدًا، كيف سيأتى هذا بأى نفع؟

لا، لقد تخلصوا للتو من دخيلة، وهذا ليس وقتًا مناسبًا لدعوة دخلاء آخرين، ومن الآمن أكثر التعامل مع الشئون الخاصة على نحو خاص، ما يعنى، أن يتعامل معها بنفسه، بعدما عادت الأمور إلى حالها القديم.

لم يكن من داعٍ للتعجل، فعملية السحب الأخيرة كانت منذ أسابيع قليلة فقط، أى أنهم ليسوا مفلسين تمامًا، وقد رحلت "هيستر" دون أن تأخذ مستحقاتها، لذا فهذه الأموال أيضًا متاحة إذا لم تزدد الأحوال بؤسًا وترسل "هيستر" للمطالبة بها، وما من حاجة لشراء الكثير من الطعام: فهناك خضراوات وفواكه تكفى جيشًا فى الحديقة، والغابة مليئة بأنواع الطيور، وإذا تطلب الأمر، أو إن طرأ شىء ما، أو وقعت مصيبة (لم يدرك "جون" قصده بذلك، أليس ما يقاسونه بالفعل مصيبة؟ أيمكن أن ينتظرهم الأسوأ؟ لقد ظن ذلك بطريقة ما) فإنه يعرف شخصًا يمكن أن يأخذ بضع زجاجات نبيذ من القبو سرًّا مقابل شلن أو اثنين.

قال للسيدة وهو يدخن سيجارة فى إحدى الليالى فى المطبخ: "سنكون على ما يرام لفترة، على الأرجح لأربعة أشهر إن كنا حذرين، لا أعرف ماذا سنفعل حينها، ولكن سنرى".

كانت تلك حجة لمحاولة طمأنة الذات خلال المحادثة، لقد فقد الأمل فى تلقى أيَّة إجابات مباشرة من السيدة، لكنه مارس عادة الحديث معها طويلاً ومن الصعب التخلى عنها بسهولة، لذا اعتاد الجلوس فى الجهة المقابلة من المائدة فى المطبخ، ومشاركة أفكاره وأحلامه ومخاوفه معها، وحين ترد -بتدفق عشوائى غير مترابط من الكلمات- تحيره ردودها، فيحاول إيجاد الرابط بين إجاباتها وسؤاله، لكن المتاهة التى فى عقلها أكثر تعقيدًا من أن يتمكن من التجول فيها، والخيط الذى ساقها من كلمة إلى أخرى انساب من بين أصابعها فى الظلام.

ظل يورد الطعام من حديقة المطبخ ويطهو ويقطع اللحم على طبق السيدة ويضع ملء شوكة فى فمها، ويفرغ أكوابها من الشاى البارد ويعد مكانها أخرى ساخنة، هو ليس نجارًا، لكنه ركب ألواحًا جديدة على الألواح المتعفنة هنا وهناك، وأبقى على قدور مياه المطر فارغة فى الغرف الرئيسة، ووقف فى العليا يتطلع إلى ثقوب السقف ويحك رأسه ويقول بنظرة عازمة: "يجب أن نصلح هذا"، لكن تلك الفترة لم تكن غزيرة الأمطار، ولم تتساقط فيها الثلوج، فأمكن تأجيل هذه المهمة، هناك مهام كثيرة غيرها يجب إتمامها، فقد غسل ملاءات الأسرة والملابس، والتى تصبح جامدة ولزجة حين تجف بسبب بقايا قشور الصابون، وسلخ الأرانب ونتف الطيور وشواها، ومسح الحوض ونظفه، لقد عرف ما يجب فعله بعدما رأى السيدة تفعله مئات المرات.

بـين الحـين والآخـر كان يقـضى نصـف سـاعة فى الحديقـة، لكنـه لم يسـتمتع بهـا، فالـسرور الـذى يدخلـه عليـه وجـوده فى الحديقـة طغـى عليـه القلـق بشـأن مـا قـد يحـدث داخـل المنـزل فى غيابـه، وإلى جانـب ذلـك فـإن العنايـة السـليمة بالحديقـة تتطلـب وقتًـا أكـثر مـما خصصـه لهـا، وفى النهايـة فـإن الجـزء الوحيـد الـذى اعتنـى بـه حقًّـا هـو حديقـة المطبـخ، وتخـلى عـن البقيـة.

***

بمجـرد أن اعتدنـا الأمـر، شـعرنا بدرجـة مـا مـن الارتيـاح فى وضعنـا الجديـد، وفـر نبيـذ القبـو مصـدرًا سريًّـا وأساسـيًّا لتمويـل المنـزل، وبمـرور الوقـت، بـدأ أسـلوب حياتنـا يبـدو قابـلاً للاسـتدامة، الأفضـل حقًّـا أن يظـل "تشـارلى" غائبًـا، فهـو إن ظـل مفقـودًا دون عـودة، وغـير ميـت ولا حـى، لـن يسـبب أذى لأى شـخص.

لذا احتفظت بالمعلومة لنفسى.

فى الغابـة كـوخ حقـير، غـير مسـتخدم منـذ عقـود، تكسـوه الأشـواك وتحـاصره أعشـاب القـراص، حيـث اعتـاد "تشـارلى" و"إيزابيـل" أن يلتقيـا، بعدمـا نُقلـت "إيزابيـل" إلى المصحـة، ظـل تشـارلى يـتردد إلى هنـاك، عرفـت ذلـك، لأننـى رأيتـه هنـاك، يتبـاكى، وينقـش رسـائل الحـب عـلى عظامـه بتلـك الإبـرة القديمـة.

إنـه مـكان واضـح، لـذا ذهبت إلى هنـاك مجددًا حـين اختفى "تشـارلى"، أشـق طريقـى بـين نباتـات العليـق وغيرهـا مـن النباتـات المتدليـة التـى غطـت المدخـل إلى الكـوخ ذى الهـواء المشـبع بالتعفـن، وهنـاك، وجدتـه فى الظـلام، ملقـى فى إحـدى الزوايـا وبجانبـه مسـدس، ونصـف وجهـه منفجـر، ميـزت النصـف الآخـر رغـم الديـدان، إنـه "تشـارلى" حقًّـا.

تراجعت مـن المدخـل، غـير عابئـة لا بالأشـواك ولا بنبـات القـراص، لم أطـق انتظـار أن أبتعـد عـن مجـال رؤيتـه، لكـن صورتـه ظلـت معـى، فركضـت، وقـد بـدا مسـتحيلاً أن أهـرب مـن تحديقـه الأجـوف ذى العـين الواحـدة.

أين أجد راحتى؟

هنـاك منـزل أعرفـه، منـزل صغـير بسـيط فى الغابـة، سرقـت الطعـام مـن هنـاك مـرة أو مرتـين، فذهبـت إلى هنـاك، اختبـأت بجـوار النافـذة التقـط أنفـاسى، وأنـا مدركـة أننـى كنـت قريبـة مـن الحيـاة العاديـة، وحـين توقفـت عـن اللهاث لألتقـط أنفـاسى، انتصبـت أتطلـع إلى الداخـل، ورأيـت امـرأة تحيـك عـلى مقعدهـا، وهـدأنى وجودهـا مـع أنهـا لم تـدر بوجـودى، مثـل جـدة مـا فى حكايـة خياليـة، تطلعـت إليهـا لأطهـر عينـى، حتـى تلاشـت صـورة جثـة "تشـارلى" واسـتقر نبـضى.

سرت عائـدة إلى آنجلفيلـد ولم أخـبر أحـدًا، كان حالنـا أفضـل هكـذا، وعـلى أىّ حـال، لـن يُحـدث ذلـك فرقًـا لـ"تشـارلى"، أليـس كذلـك؟

وكان هو أول أشباحى.

***

بـدا لى أن سـيارة الطبيـب دائمًـا فى مدخـل منـزل السـيدة "وينـتر"، حـين وصلـت إلى يوركشـاير للمـرة الأولى كان يتصـل كل ثلاثـة أيـام، ثـم أصبحـت مكالماتـه يوميـة، والآن يـأتى إلى المنـزل مرتـين يوميًـا، درسـت السـيدة "وينـتر" بحـذر، وعرفـت حقائـق عنهـا، السـيدة "وينـتر" مريضـة، السـيدة "وينـتر" تحتـضر ومـع ذلـك، حـين كانـت تخـبرنى قصتهـا، كان يبـدو أنهـا تعتمـد عـلى بـئر مـن القـوة لا ينضـب بالشـيخوخة ولا المـرض، فـسرت تلـك المعضلـة بـأن قلـت لنفـسى إن انتظـام زيـارات الطبيـب تحديـدًا هـو مـا يجعلهـا تسـتمر عـلى هـذه الحـال.

لكن لا بد أنها تتدهور على نحو خطير بطرق لا ألاحظها، فماذا قد يفسر إعلان "جوديث" المفاجئ فى صباح أحد الأيام؟ إذ أخبرتنى فجأة تمامًا أن وعكة صحية تمنع السيدة "وينتر" من لقائى، وأنها لن تتمكن من استكمال مقابلاتنا لمدة يوم أو اثنين، وبما أننى لن يكون لدى ما أفعله، يمكننى أخذ إجازة صغيرة.

"إجازة؟ بعد الجلبة التى أحدثتها بشأن سفرى فى المرة الأخيرة، كنت أستبعد تمامًا فكرة أن ترسلنى فى إجازة الآن، خصوصًا أن عيد الميلاد بعد أسابيع قليلة!"

لكن "جوديث" احمرت خجلاً، فهى لم تأت بمعلومات أكثر، شىء ما ليس على ما يرام، وأنا أُزاح من الطريق.

عرضت "جوديث" مساعدتى: "يمكننى إعداد حقيبة لك إن كان ذلك يساعدك"، وابتسمت ابتسامة معتذرة، مدركة أننى عرفت أنها تخبئ شيئًا ما.

انزعاجى جعلنى فظة: "أستطيع أن أحقب أشيائى".

"اليوم إجازة (موريس)، لكن الطبيب (كليفتون) يمكنه أن يوصلك إلى المحطة".

مسكينة "جوديث"، إنها تكره الخداع ولا تجيد الحيل.

"والسيدة (وينتر)؟ أريد مقابلة سريعة معها، قبل أن أرحل".

"السيدة (وينتر)؟ أخشى أنها..."

"لن تقابلنى؟"

"لن تستطيع مقابلتك"، وتدفق الارتياح إلى وجهها وتردد الصدق فى صوتها مع تمكنها أخيراً من قول شىء حقيقى، "صدقينى يا آنسة (ليا)، إنها فقط لا تستطيع".

أيًّا كان ما تعرفه "جوديث"، فإن الطبيب "كليفتون" أيضًا يعرفه.

"أين فى كامبريدج يوجد متجر والدك؟" أراد أن يعرف ذلك و"هل يتاجربكتب تاريخ الطب مطلقًا؟" أجبته باختصار، فأنا مهتمة بأسئلتى أكثر من أسئلته، وبعد بعض الوقت بلغت محاولاته للدردشة السريعة آخرها، وحين بلغنا هاروجيت، كان الجو فى السيارة مثقلاً بصمت السيدة "وينتر" الجائر.

# "آنجلفيلد" مجددًا.

فى اليوم السابق وأنا فى القطار، تخيلت نشاطًا وضوضاء فى آنجلفيلد: أصوات تصيح بالتعليمات وأذرع ترسل رسائل سيمافورية[1] متعجلة، رافعات، مدوية وبطيئة، وحجارة تحطم حجارة، لكن بدلاً من ذلك كان كل شىء صامتًا وثابتًا حين وصلت إلى بوابات المنازل الحجرية الصغيرة وتطلعت نحو موقع الهدم.

لم يكن هناك ما يُرى، فالضباب المعلق فى الهواء أخفى كل شىء بعيد قليلاً، وحتى الطريق الخاص لم يكن واضحًا، كنت أرى قدمى فى لحظة، وتختفى فى اللحظة التالية، تقدمت رافعة رأسى دون أن أرى، متتبعة المسار مثلما أتذكره من زيارتى الأخيرة، ومثلما أتذكره من وصف السيدة "وينتر".

خريطته فى عقلى كانت دقيقة: فوصلت إلى الحديقة فى اللحظة التى توقعتها تحديدًا، تنتصب الأشكال المظلمة لأشجار الصنوبر كأنها

(1) إشارات تُرسل باستخدام أعلام صغيرة ملونة.

فى مشهد مسرحى يكسوه الغموض، مُسطح إلى بُعدين فقط بسبب الخلفية الفارغة، وقد طفا زوج من قبب أشجار الصنوبر أعلى سحب الضباب مثل قبعات الرماة، وتلاشى الجذعان اللذان يحملان القبتين فى الضباب الأبيض تحتهما، ستون عامًا جعلت الشجرتين متضخمتين وأفقدتهما هيئتهما، لكن من السهل اليوم افتراض أن الضباب هو ما يخفف الحدة الهندسية للأشجار، وأنه حين يتلاشى، سيكشف عن الحديقة مثلما كانت قديمًا، بكل كمالها الهندسى، فى أرض لا تستعد للهدم، وليست خرابًا، بل حول منزل سليم.

نصف قرن، عديم القيمة كالمياه المعلقة فى هذا الهواء، مستعد للتبخر مع أول شعاع لشمس الشتاء.

قربت رسغى من وجهى لأعرف الساعة، لقد رتبت لأقابل "أوريليوس"، لكن كيف أجده وسط هذا الضباب؟ يمكن أن أتجول للأبد دون أن أراه، حتى ولو مر على مسافة ذراع.

ناديت: "أمن أحد هنا؟" وجاء الرد بصوت رجل.

"نعم!"

يستحيل أن أعرف إن كان بعيدًا أم قريبًا: "أين أنت؟"

تخيلت "أوريليوس" يحدق إلى الضباب بحثًا عن أىّ علامة.

جاءت كلماته مكتومة: "أنا بجوار شجرة".

"وأنا كذلك، لا أعتقد أننا بجوار الشجرة نفسه، صوتك بعيد للغاية".

"لكن صوتك قريب جدًّا".

"حقًّا؟ لم لا تبق مكانك وتظل تتكلم، وأنا سأجدك!"

"أنـت محقـة! إنهـا خطـة ممتـازة! لكـن سـأضطر إلى التفكـير فى شيء لأقولـه، أليـس كذلـك؟ كـم هـو صعـب الـكلام حـين يُطلـب منـك، فى حـين أنَّـه يبـدو سـهلاً جـدًّا بقيـة الوقـت.. كـم هـذا الطقـس كئيـب، لم أرَ ضبابًـا مثـل هـذا مـن قبـل".

ظـل "أوريليـوس" يفكـر بصـوت عـالٍ، فى حـين خطـوت أنـا داخـل سـحابة وتبعـت خيـط صوتـه فى الهـواء.

كان هـذا حـين رأيـت شـيئًا مـا، ظِـل انسـاب بجـوارى، شـاحب فى الضـوء الرطـب، أظـن أننـى أدركـت أنـه ليـس "أوريليـوس"، أحسسـت فجـأة بنبـض قلبـى، ومـددت ذراعـى، يتقاسـم الخـوف والأمـل مشـاعرى، تملـص الظـل منـى وانسـاب مبتعـدًا.

"(أوريليوس)؟" بدا صوتى مهتزًا فى أذنى.

"ماذا؟"

"أما زلت هناك؟"

"بالتأكيد".

بـدا صوتـه فى الاتجـاه الخطـأ تمامًـا، فـماذا رأيـت للتـو؟ لم يكـن ذلـك "أوريليـوس"، لا بـد أنـه تأثـير الضبـاب، وقفـت مـكانى أحـدق إلى الهـواء الرطـب، مسـتعدة لظهـور الظـل مجـددًا، وخائفـة مـما قـد أرى لـو انتظـرت.

انطلـق صـوت قـوى مـن ورائى: "آهـا! هـا أنـت ذا!" إنـه "أوريليـوس"، قبـض عـلى كتفـى بيديـه مرتديًـا قفازيـه غـير المكتملـين واسـتدرت أنـا نحـوه: "يـا إلهـى يـا (مارجريـت)، أنـت بيضـاء مثـل ورقـة، تبديـن كأنـك رأيـت شـبحًا!"

***

تمشينا معًا فى الحديقة، بدا "أوريليوس" بمعطفه أطول وأعرض من حقيقته، وبجانبه شعرت أنا بالضآلة داخل معطفى ضبابى اللون.

"ما أخبار كتابك؟"

"إنه مجرد ملاحظات حاليًا، ومقابلات مع السيدة (وينتر)، والكثير من الأبحاث".

"اليوم تجرين الأبحاث، أليس كذلك؟"

"نعم".

"أردت فقط التقاط بعض الصور، لكن يبدو أن الطقس ليس فى صالحى".

"سترين بوضوح خلال ساعة، لن يستمر الضباب طويلاً".

وصلنا إلى ما يشبه الممشى، تصطف على جانبيه أشجار مخروطية عريضة للغاية لدرجة أنها تكاد تشكل سياجًا.

"لماذا تأتى إلى هنا يا (أوريليوس)؟"

تمشينا حتى نهاية الممر، ثم فى مساحة لم يبد أن بها شىء سوى الضباب، حين وصلنا إلى جدار من الصنوبر يبلغ ارتفاعه ضعف طول "أوريليوس" نفسه مشينا بمحاذاته، لاحظت لمعانًا على العشب وعلى أوراق الأشجار: لقد ظهرت الشمس، بدأت رطوبة الهواء فى التبخر واتسعت دوائر الرؤية بمرور كل دقيقة، قادنا حائط الصنوبر فى دائرة كاملة من المساحة الفارغة، إذ وصلنا إلى الممر نفسه الذى دخلنا منه.

بدا أن وقتًا طويلاً قد مر منذ طرحت سؤالى، لدرجة أننى لم أعد واثقة من أننى سألته، أجاب "أوريليوس": "لقد ولدت هنا".

توقفت فجأة، وتابع "أوريليوس" المشى، غير مدرك لتأثير كلماته على، مددت لبضع خطوات لألحق به.

"أوريليوس!" أمسكت بكم معطفه: "أهذا حقيقي؟ هل ولدت هنا حقًّا؟"

"نعم".

"متى؟"

ابتسم ابتسامة غريبة وحزينة: "في يوم مولدي".

أصررت بلا تفكير: "نعم، لكن متى؟"

"في يوم ما في يناير على الأرجح، ربما فبراير، ربما نهاية ديسمبر، قبل ستين عامًا تقريبًا، أخشى أنني لا أعرف أكثر من ذلك".

عبست، وتذكرت ما أخبرني إياه من قبل عن السيدة "لاف" وأن لا أم له، لكن ما الظروف التي تجعل طفلاً متبنّى يعرف القليل جدًّا عن ظروف ولادته، لدرجة أنه لا يعرف يوم مولده؟

"أتقصد أن تقول إنك كنت طفلاً لقيطًا يا (أوريليوس)؟"

"نعم، هذا وصفي، لقيط".

لم تسعفني الكلمات.

"أظن أن المرء يعتاد الأمر"، وأسفت لأنه اضطر إلى تعزيتي في مصابه هو.

"هل اعتدت الأمر حقًّا؟"

تطلع إلي بوجه فضولي، يفكر إلى أيّ حد سيخبرني: "في الواقع، لا".

بخطوات بطيئة وثقيلة كالمصابين، تابعنا نزهتنا، تلاشى الضباب تقريبًا، وفقدت أشكال الأشجار التوبيارية الساحرة سحرها، وبدت على حقيقتها، شجيرات وأسيجة غير مهذبة.

بادرت بالحديث: "إذًا فالسيدة (لاف) هي مَن..."

"وجدتنى، نعم".

"ووالداك..."

"لا فكرة لدى".

"لكنك تعرف أنهما كانا هنا؟ فى هذا المنزل؟"

دس "أوريليوس" يديه فى جيبيه، وشد كتفيه: "لا أنتظر من الآخرين التفهم، ليس لدى أىّ دليل، لكننى أعرف ذلك"، وألقى علىّ نظرة سريعة، وحثثته أنا، بعينى، على أن يستمر.

"أحيانًا قد تعرفين بعض الأشياء، أشياء عن نفسك، أشياء تتجاوز مدى ذاكرتك، لا أستطيع أن أشرح الأمر".

أومأت، وتابع "أوريليوس".

"ليلة العثور علىّكان هنا حريق كبير، أخبرتنى السيدة (لاف) بهذا حين كانت سنى تسعة أعوام، اعتقدت هى أنها يجب أن تخبرنى، بسبب رائحة الحريق بملابسى حين وجدتى، لاحقًا جئت لألقى نظرة، وانتظم مجيئى منذئذ، وبعدها بحثت فى أرشيف الصحيفة المحلية، على أىّ حال..."

ميز صوته خفة لا تخفى، تلك الخفة المميزة حين يقول شخص شيئًا شديد الأهمية، إنها قصة عزيزة للغاية لدرجة أنها يجب أن تُغطى باللامبالاة لإخفاء أهميتها، فى حال تبين أن المستمع غير متعاطف.

"على أىّ حال، عرفت فى اللحظة التى جئت فيها إلى هنا، قلت لنفسى هذا بيتى، لقد جئت من هنا، لا شك فى هذا، أعرف ذلك".

ومع كلماته الأخيرة، كان "أوريليوس" قد سمح للخفة بالانسياب، وسمح للحماس بالتسلل، تنحنح: "بالتأكيد لا أتوقع أن يصدق أحد

هـذا، ليـس لـدى دليـل عـلى ذلـك، بـل مجـرد صدفـة تواريـخ، وذاكـرة السـيدة (لاف) الضبابيـة عـن رائحـة دخـان، وقناعتـى الشـخصية".

قلت: "أنا أصدقك".

عض "أوريليوس" شفته وألقى إلى نظرة جانبية حذرة.

قادتنـا أسراره، وهـذا الضبـاب، عـلى نحـو غـير متوقـع إلى شـبه جزيـرة مـن الحميميـة، ووجـدت نفـسى عـلى وشـك أن أخـبره بمـا لم أخـبر بـه أحدًا مـن قبـل، قفـزت الكلـمات مسـتعدة إلى بـالى، نظمـت نفسـها لحظيًـا فى شـكل جمـل، سـطور طويلـة مـن الجمـل، لا تطيـق صـبراً لتنطلـق مـن فمـى، كأن التخطيـط لهـا قـد تـم قبـل سـنوات مـن تلـك اللحظـة.

كررتهـا: "أنـا أصدقـك"، ولسـانى مثقـل بـكل الكلـمات المنتظـرة: "راودنى أنـا أيضًـا ذلـك الشـعور، أن أعـرف أشـياء لا يمكـن أن أعرفهـا، مـن فـترة تتجـاوز مـدى ذاكـرتى".

وحينئــذ ظهــر مجــددًا! حركــة مفاجئــة عنــد طــرف عينــى، ظهــر واختفــى فى اللحظــة نفســها.

"هل رأيت هذا يا (أوريليوس)؟"

تتبـع تحديقـى نحـو الأشـجار الهرميـة ووراءهـا: "أرى مـاذا؟ لا، لم أرَ شـيئًا".

لقد اختفى، أو لم يكن هناك قط.

التفــت إلى "أوريليــوس"، لكننــى فقــدت مــا اســتجمعته مــن جــرأة، راحــت لحظــة الأسرار.

سأل "أوريليوس": "هل لك عيد ميلاد؟"

"نعم، لى عيد ميلاد".

تراجعت كل كلماتى التى لم أقلها إلى حيثما كانت طوال تلك السنوات.

"سأدونه إذًا"، قالها باسمًا، "بذلك سأتمكن من أن أرسل لك بطاقة معايدة".

تكلفت ابتسامة: "فى الواقع، لقد اقترب".

فتح "أوريليوس" مفكرة زرقاء صغيرة مقسمة إلى أشهر.

أخبرته: "التاسع عشر"، ودون اليوم بقلم رصاص صغير جدًّا، بدا كعود أسنان فى يده الضخمة.

# السيدة "لوف" وتقسيمة الكعب.

حين بدأت الأمطار تهطل رفعنا قلنسوتينا وهرولنا لنحتمي بالكنيسة، هززنا أنفسنا قليلاً في مدخلها لنسقط عن معطفينا قطرات المطر، ثم دخلنا.

جلسنا على أحد المقاعد الطويلة قرب المذبح وحملقت إلى السقف الباهت المقبب حتى شعرت بالغثيان.

قلت: "أخبرني عن فترة العثور عليك، ماذا تعرف عنها؟"

"أعرف ما أخبرتني به السيدة (لوف)، يمكنني أن أحكيه لك، وبالطبع هناك ميراثي".

"لك ميراث؟"

"نعم، ليس بالشيء الكثير، ليس ما يقصده الناس عادة حين يتحدثون عن الميراث، لكن مع ذلك... في الواقع يمكنني أن أريه لك لاحقًا".

"سيكون هذا لطيفًا".

"نعـم.. لأننـى كنـت أفكـر فى أن السـاعة التاسـعة مناسـبة لتنـاول الإفطـار أكـثر مـن تنـاول كعكـة، أليـس كذلـك؟" قالهـا بتكشـيرة ممانعـة، تحولـت إلى ابتسـامة مشرقـة مـع كلماتـه التاليـة: "لـذا فكـرت فى دعوتـك إلى تصبـيرة صباحيـة، فـما رأيـك بتنـاول كعكـة وشرب القهـوة؟ سـيكون تنـاول شىء مفيـدًا لـك، وسـأريك مـيراثى فى غضـون ذلـك، مهـما كانـت ضآلـة مـا سـترينه".

قبلت الدعوة.

أخـرج "أوريليـوس" نظارتـه مـن جيبـه وشرع بتلميعهـا مسـتخدمًا منديـلاً بعقـل شـارد.

"والآن"، أخـذ نفسًـا عميقًـا، وزفـر ببـطء، "السـيدة (لاف) وقصتهـا، مثلـما حُكيـت لى".

اسـتقر وجهـه موحيًـا بحيـاد غـير متأثـر، علامـة عـلى أنـه عـلى طريقـة كل رواة القصـص، كان يختفـى ليفسـح مجـالاً لصـوت القصـة نفسـها، ثـم بـدأ يـسرد، ومـن أول كلمـة قالهـا، وفى جوهـر صوتـه، كان صـوت السـيدة "لاف" هـو مـا سـمعته، لقـد اسـتحضرها مـن القـبر بواسـطة ذكـرى قصتهـا.

إنها قصتها وقصة "أوريليوس"، وعلى الأرجح، قصة "إيميلاين" أيضًا.

==============

كانـت السـماء فى تلـك الليلـة حالكـة السـواد، والعاصفـة تختمـر فيهـا، والريـاح تصفـر فى أعـالى الأشـجار والأمطـار غزيـرة تـكاد تكـسر النوافـذ، وأنـا أحـوك جوربًـا رماديًـا فى ذلـك المقعـد قـرب النـار، وهـو الجـورب الثـانى، وكنـت قـد وصلـت إلى تقسـيمة الكعـب، انتابتنـى قشـعريرة، ولكـن ليـس لأننـى شـعرت بالـبرد، فلـدى كومـة جيـدة مـن الحطـب جلبتهـا مـن الكـوخ منـذ عـصر اليـوم، وقـد أضفـت جذعًـا جديـدًا للتـو، لـذا لم أكـن

أشعر بالبرد، مطلقًا، لكننى قلت لنفسى يا لها من ليلة، أنا ممتنة لأننى لست روحًا مسكينة عالقة فى الخارج بعيدًا عن بيتها فى ليلة كهذه، والتفكير فى تلك الروح المسكينة هو ما جعلنى أقشعر.

كل شىء فى الداخل هادئ، إلا من طقطقة النار بين الحين والآخر، وصليل إبرتى الحياكة حين تصطكان، وتنهداتى، تستغرب تنهداتى؟ حسنًا هذا لأننى لم أكن سعيدة، فقد سقطت فى فخ التذكر، وهى عادة سيئة لامرأة فى الخمسين من عمرها، لدى موقد دافئ وسقف فوق رأسى وعشاء مطهو بداخلى، لكن هل أنا سعيدة؟ ليس أنا، لذا جلست هناك أتنهد أمام جوربى الرمادى، فى حين استمر هطول المطر، وبعد بعض الوقت، قمت لأجلب شريحة من كعكة الخوخ من الخزانة، حلوة وناضجة ومخبوزة بالبراندى، أبهجتنى بلا نهاية، لكن حين رجعت وأمسكت بأدوات حياكتى، تحول نبض قلبى، أتعرف لماذا؟ لقد حكت تقسيمة الكعب مرتين!

ضايقنى ذلك، ضايقنى حقًا، لأننى حائكة حذرة، لست متسرعة مثلما اعتادت أختى "كيتى" أن تكون، ولست شبه عمياء مثل والدتى المسكينة حين قاربت الرحيل، لقد ارتكبت هذا الخطأ مرتين فقط فى حياتى.

المرة الأولى التى حكت فيها تقسيمة الكعب أكثر من اللازم كانت وأنا صغيرة، كنت جالسة بجوار نافذة مفتوحة فى عصر يوم مشمس، استمتع برائحة كل شىء مزهر فى الحديقة، كان ذلك جوربًا أزرق، أحوكه من أجل.. رجل شاب، رجلى الشاب، لن أخبرك باسمه، فلا حاجة إلى ذلك، فى الواقع كنت مستغرقة فى حلم يقظة، الأمر سخيف، فساتين بيضاء وكعكات بيضاء والكثير من هذا الهراء، وفجأة نظرت إلى الأسفل ووجدت أننى حكت تقسيمة الكعب مرتين، كان ذلك واضحًا كالشمس، تقسيمة الساق، ثم كعب، ثم المزيد من التقسيم

مـن أجـل القـدم ثـم، كعـب آخـر، ضحكـت بصـوت عـالٍ، لم يهمنـى ذلـك، ففـك الخياطـة وإصلاحهـا سـهل كفايـة.

كنـت قـد سـحبت الإبـر بالفعـل حـين جـاءت "كيتـى" تركـض فى ممـر الحديقـة: "مـاذا بهـا؟" قلـت ذلـك لنفسـى بسـبب تعجلهـا، رأيـت وجههـا شـاحبًا ولونهـا متغـيرًا، ثـم توقفـت فجـأة لحظـة رأتنـى عـبر النافـذة، حينهـا عرفـت أنهـا ليسـت مشـكلة لهـا، بـل لى، فتحـت فمهـا لكنهـا لم تسـتطع حتـى أن تنطـق اسـمى، كانـت تبـكى، ثـم تحدثـت أخـيرًا.

وقـع حـادث، كان رجـلى الشـاب بالخـارج مـع أخيـه، يصطـادان بعـض الطيـور حيـث لا يجـب أن يصطـادا، رآهـما أحـد وخافـا فجـأة وركضـا، وصـل "دانيـال"، أخـوه، إلى السـور الخشـبى أولاً وقفـز، لكـن رجـلى الشـاب كان متعجـلاً للغايـة، علـق مسدسـه فى السـور، كان يجـب أن يبطـئ، ويعطـى نفسـه الوقـت الـلازم، سـمع وقـع أقـدام تطاردهـما وأصابـه الهلـع، حـاول بقـوة جـذب مسدسـه، لا يجـب أن أحـكى البقيـة، صحيـح؟ يمكنـك تخمـين مـا حـدث.

فككـت حياكتـى، كل تلـك العقـد الصغـيرة التـى تحيـك الواحـدة منهـا بعـد الأخـرى، صفًّـا تلـو الآخـر، لتصنـع جوربًـا، فككتهـا كلهـا، الأمـر سـهل، أخـرج الإبـر، وبشـدة صغـيرة سـتنهار العقـد، واحـدة تلـو الأخـرى، وصفًّـا تلـو الآخـر، فككـت الكعـب الزائـد وظللـت أفـكك فقـط، القـدم، الكعـب الأول، وتقسـيمة السـاق، كل تلـك الحلقـات تفـكك نفسـها وهـى تسـحب الخيـط الصـوفى، ثـم لم يتبـقَّ مـا يمكـن فكـه، فقـط كومـة مـن الصـوف الأزرق المتعـرج كالخريطـة فى حجـرى.

لا يسـتغرق الأمـر طويـلاً لتحـوك جوربًـا، ويسـتغرق فكـه وقتًـا أقـل جـدًّا.

أتوقـع أننـى لففـت الصـوف الأزرق عـلى هيئـة كـرة لأصنـع منـه شـيئًا آخـر، لكننـى لا أتذكـر ذلـك.

فى المرة الثانية التى حكت فيها تقسيمة الكعب مرتين كنت بدأت أكبر بالسن قليلاً، كنت أجلس و"كيتى" قرب الموقد معًا، مر عام منذ مات زوجها، وحوالى عام منذ انتقالها للعيش معى، ظننت أنها تتحسن كثيراً، أصبحت تبتسم أكثر، وتنمى اهتمامها ببعض الأشياء، أصبحت تسمع اسمه دون أن تبكى، جلسنا هناك وكنت أحوك زوجًا جميلاً من جوارب النوم من أجل "كيتى" من أنعم أصواف الخراف، ولونه ردى ليتلاءم مع ثوب نومها، وكان لديها كتاب فى حجرها، لكنها لم تكن تنظر إليه، لأنها قالت: "(جوان)، لقد حكت تقسيمة الكعب مرتين".

أوقفت عملى، وكانت محقة، قلت: "أنا متفاجئة للغاية".

قالت إنها ما كانت لتتفاجأ لو كانت تلك حياكتها، فهى دائمًا ما تحيك تقسيمة الكعب مرتين، أو تنسى أن تحيكها من الأساس، ففى أكثر من مرة كانت تحيك جوارب رجالية بلا كعوب، فقط ساق وقدم، ضحكنا، لكنها قالت إنها تفاجأت مما فعلته، إذ لم يكن معتادًا أن أكون شاردة الذهن جدًّا هكذا.

قلت لها إننى ارتكبت هذا الخطأ من قبل، مرة واحدة فقط، وذكرتها بما حكيته لك للتو، كل ما تعلق برجلى الشاب، وبينما أنا مستغرقة فى الذكريات بصوت عالٍ، فككت بحذر الكعب الثانى وبدأت فى إصلاحه، يتطلب الأمر بعض التركيز، والضوء كان يخفت، فأنهيت قصتى، ولم تقل هى أىّ شىء، وظننت أنها تفكر فى زوجها، فقد تحدثت عن خسارتى التى مرت عليها كل تلك السنين، وبالمقارنة فإن خسارتها حديثة جدًا.

كان الضوء أخفت من أن أُكمل القدم بشكل صحيح، فوضعت الجورب جانبًا وتطلعت، قلت: "(كيتى)؟ (كيتى)؟" ولم أجد ردًّا، فكرت للحظة فى أنها ربما نامت، لكنها لم تنم.

بـدت ملامحهـا مسـالمة جـدًّا بابتسـامة عـلى وجههـا، كأنهـا كانـت سـعيدة لاجتماعهـا معـه مجـددًا، اجتماعهـا مـع زوجهـا، لقـد انتقلـت إليـه إليـه وأنـا أنظـر إلى الجـورب فى الظـلام، وأثرثـر بشـأن قصتـى القديمـة.

أزعجنـى الأمـر فى تلـك الليلـة ذات السـماء الحالكـة أن أكتشـف أننـى حكـت كعبًـا ثانيًـا، ففـى أول مـرة فعلـت ذلـك فقـدت رجلـى الشـاب، وفى الثانيـة فقـدت أختـى، والآن الثالثـة، لم يعـد لـدى أحـد لأخسـره، لم يتبـق سـواى الآن.

نظرت إلى الجورب، صوف رمادى، شىء بلا ملامح صنعته من أجلى.

قلـت لنفسـى إنـه ربمـا لا يهـم، فمـن يمكـن أن يفتقـدنى؟ لـن يعـانى أحـد إثـر رحيـلى، وهـذه نعمـة، ففـى النهايـة، عـلى الأقـل عشـت حيـاة، عـلى عكـس رجـلى الشـاب، وتذكـرت أيضًـا النظـرة عـلى وجـه "كيتـى"، تلـك النظـرة المسـالمة السـعيدة، فكـرت فى أن الأمـر ليـس سـيئًا تمامًـا.

جلسـت أفـكك الكعـب الإضـافى، قـد تسـألنى عـن فائـدة ذلـك، حسـنًا، لم أرد أن يجـدنى أحـد بـه، تخيلتهـم يقولـون: "المـرأة المسـنة السـخيفة، لقد وجدوهـا وأدوات الحياكـة فى حجرهـا، وخمنـوا مـا فعلتـه! لقـد حاكـت تقسـيمة الكعـب مرتـين"، لم أرد أن يقولـوا ذلـك، لـذا فككتـه، وبينـما أنـا أبـاشر الفـك، كنـت أجهـز نفسـى فى عقـلى للرحيـل.

لا أعـرف لكـم مـن الوقـت ظللـت عـلى هـذا الوضـع، لكـن فى النهايـة، وجـدت ضوضـاء طريقهـا إلى أذنى مـن خـارج البـاب، صرخـة تشـبه صرخـة حيـوان تائـه، كنـت شـاردة بأفـكارى، لا أتوقـع حـدوث أى شىء بـين الآن ورحيـلى، لـذا لم أنتبـه فى البدايـة، لكننـى سـمعتها مجـددًا، وبـدت كأنهـا تناديـنى، لأن مـن غـيرى عالـق هنـا فى الفـراغ كان سيسـمعها؟ فكـرت فى أنهـا ربمـا قطـة، ضاعـت مـن أمهـا أو شىء كهـذا، ومـع أننـى كنـت أسـتعد لمقابلـة خالقـى، ظلـت صـورة تلـك القطـة الصغـيرة، بفرائهـا المبتـل، تشـتتنى، وفكـرت فى أن اسـتعدادى للمـوت ليـس سـببًا كافيًـا لأمنـع عـن

أحـد مخلوقـات الـرب بعـض الـدفء والطعـام، وقـد أخـبرك أيضًـا أننـى لم أمانـع فكـرة أن يجـاورنى فى تلـك اللحظـة أى كائـن حـى، لـذا ذهبـت إلى البـاب.

وماذا وجدت؟

رضيـع! ملفـوف ومـتروك فى المدخـل يحميـه مـن المطـر، مدثـر بالأقمشـة، يمـوء مثـل قطـة صغـيرة، ذلـك المخلـوق الصغـير المسـكين، كنـت تشـعر بالـبرد والجـوع، بالـكاد صدقـت عينـى، انحنيـت وحملتـك، ولحظـة رأيتنـى توقفـت عـن البـكاء.

لم أطـل البقـاء خـارج المنـزل، أردت طعامًـا وبعـض الكسـاء الجـاف، لـذا لا، لم أقـف طويـلاً فى المدخـل، ألقيـت نظـرة سريعـة فقـط، ولم أجـد شـيئًا هنـاك، ولا أحـد مطلقًـا، ليـس إلا ريـاح تجعـل الأشـجار تصـدر حفيفًـا عنـد طـرف الغابـة، ودخـان يتصاعـد إلى السـماء ناحيـة "آنجلفيلـد"، وهـذا غريـب.

قبضتك إلىّ، ودخلت وأغلقت الباب.

فى المرتـين اللتـين حكـت فيهـما تقسـيمة الكعـب مرتـين، حـام المـوت حـولى، وفى المـرة الثالثـة، طرقـت الحيـاة بـابى، علمنـى ذلـك ألا أسـتغرق كثـيرًا فى تفسـير الصـدف، وعـلى أيَـة حـال، لم يعـد لـدى بعـد ذلـك الكثـير مـن الوقـت للتفكـير فى المـوت.

انشغلت بالتفكير فيك.

وعشنا فى تبات ونبات.

***

ازدرد "أوريليوس" ريقه، أصبح صوته أجش ومكسورًا، خرجت الكلمات منه مثل تعويذة، كلمات سمعها آلاف المرات خلال طفولته، وتكررت داخله لعقود وهو بالغ.

حين انتهت القصة جلسنا صامتين، نتأمل المذبح، وفى الخارج استمر هطول المطر، غير متعجل، و"أوريليوس" ثابت كتمثال إلى جانبى، لكننى اعتقدت أن أفكاره ليست هادئة بأى شكل.

هناك الكثير مما يمكننى قوله، لكننى لم أقل شيئًا، انتظرته فقط ليعود إلى الحاضر وقتما يناسبه، وتكلم معى حين عاد.

"الأمر أن هذه ليست قصتى، أليس كذلك؟ أقصد، أنا فيها، وهذا واضح، لكنها ليست قصتى، إنها خاصة بالسيدة (لاف) والرجل الذى أرادت الزواج منه، وأختها (كيتى)، وحياكتها، ومخبوزاتها، كل هذا قصتها هى، ثم حين ظنت أن كل شىء على وشك النهاية، وصلت أنا وجلبت معى بداية جديدة للقصة.

لكن هذا لا يجعلها قصتى، صحيح؟ لأنها قبل أن تفتح الباب.. قبل أن تسمع الصوت فى تلك الليل.. قبل..."

سكت، وأنفاسه منقطعة، وقام بإشارة ليقطع جملته ويبدأ مجددًا: "لأنه حتى يجد أحد رضيعًا هكذا، وأن يجده فجأة، وحده تمامًا تحت المطر، فهذا يعنى أنه، قبل ذلك -وحتى يحدث ذلك- بالضرورة..."

وقام بإشارة عصبية أخرى ماحية لكلامه، يحرك عينيه باتساع فى أنحاء سقف الكنيسة كأنه سيجد فى مكان ما الفعل الذى احتاج إليه، والذى سيمكنه أخيرًا من أن يجد ما أراد قوله: "لأن إن وجدتنى السيدة (لاف)، فهذا لا يعنى إلا أنَّ قبل أن يحدث ذلك، لا بد أن أحدًا آخر، شخصًا آخر، أمًّا أخرى..."

ها هو، ذلك الفعل.

تجمـد وجهـه مـن اليـأس، وأوقفـت يـداه فى منتصـف إشـارة عصبيـة بطريقـة تشـير إلى رجـاء أو دعـاء.

هنـاك أوقـات يكـون فيـه الوجـه والجسـد البـشرى قـادران عـلى التعبير عـما يتـوق إليـه القلـب بدقـة شـديدة، لدرجـة أنـك تسـتطيع، مثلـما يُقال، أن تقرأهـما مثـل كتـاب، وأنـا قـرأت "أوريليـوس".

لا تتخلى عنى.

لمست يده بيدى، وعاد التمثال إلى الحياة.

همسـت: "مـا مـن فائـدة مـن انتظـار توقـف المطـر، سـتمطر طـوال اليـوم، ويمكـن لصـورى أن تنتظـر، يمكننـا أيضًـا أن ننطلـق".

قال: "نعم"، بنبرة خشنة فى حلقه، "يمكننا أيضًا أن ننطلق".

# الميراث

قـال مشـيرًا إلى داخـل الغابـة: "إنهـا مسـيرة كيلومتريـن ونصـف فى مسـار مبـاشر، وتطـول المسـافة إن سـلكنا الطريـق الرئيـس".

عبرنـا حديقـة الغـزلان وكدنـا نصـل إلى طـرف الغابـة حـين سـمعنا أصواتًـا، كان صـوت امـرأة يسـبح عـبر الأمطـار، مـن طريـق الحـصى إلى أطفالهـا، وعـبر الحديقـة وصـولاً إلينـا، "قلـت لـك يـا (تـوم)، المـكان مبتـل للغايـة، لا يمكنهـم العمـل حـين تمطـر هكـذا"، توقـف الطفـلان محبطـين لرؤيـة الرافعـات والآلات السـاكنة، لم أسـتطع التفريـق بينهـما وهـما يعتمـران قبعتـين واقيتـين مـن المطـر عـلى رأسـيهما الأشـقرين، لحقـت المـرأة بهـما، وتجمعـت العائلـة للحظـة فى اجتـماع سريـع للمعاطـف الطويلـة الواقيـة مـن المطـر.

استغرق "أوريليوس" فى نشوة مشاهدة تلك اللوحة الفنية العائلية.

قلت: "لقد رأيتهم من قبل، هل تعرفهم؟"

"إنهـم عائلـة تعيـش فى شـارع (ذا سـتريت)، بالمنـزل ذى الأرجوحـة، وتعتنـى (كاريـن) بالغـزلان هنـا".

"ألا يزال الصيد يحدث هنا؟"

"لا، إنها تعتنى بالغزلان فقط، إنهم عائلة لطيفة".

تطلـع إليهـم حاسـدًا، ثـم قطـع انتباهـه بهـزة لرأسـه: "السـيدة (لاف) أحسـنت معاملتـى، وأحببتهـا، كل تلـك الأشـياء الأخـرى..." وقـام بحركـة رافضـة، والتفـت إلى الغابـة: "هيـا بنـا، لنذهـب إلى المنـزل".

اسـتدارت العائلـة ذات المعاطـف الواقيـة مـن المطـر نحـو بوابـات المنـازل الحجريـة الصغـيرة، يبـدو أنهـم توصلـوا إلى القـرار نفسـه.

سرت و"أوريليوس" عبر الغابة بود صامت.

لم تكـن هنـاك أوراق أشـجار لتحجـب الضـوء، والأفـرع التـى سـودتها الأمطـار بـدت مظلمـة بعـرض السـماء الرطبـة، وحـين مـد "أوريليـوس" ذراعـه لإبعـاد الأفـرع الهابطـة أضـاف المزيـد مـن قطـرات المطـر إلى تلـك التـى تهبـط مـن السـماء، بلغنـا جـذع شـجرة سـاقط وانحنينـا إليـه، محدقـين إلى البركـة المظلمـة فى فراغـه، التـى خففـت اللحـاء المتعفـن لتجعلـه أشـبه بالفـراء.

أعلن "أوريليوس": "إنه البيت".

كان منـزلاً حجريًـا صغـيرًا، مصمـم للتحمـل وليـس للزينـة، لكـن مـع ذلـك مظهـره جـذاب، بخطوطـه البسـيطة والراسـخة، قـادنى "أوريليـوس" فى جولـة حـول المنـزل، هـل سـنه مئـة أم مئتـا عـام؟ صعـب أن أجـزم، ليـس مـن نـوع المنـازل التـى قـد تُحـدث مئـة عـام تغيـيرات كبـيرة بـه، باسـتثناء أن لـه امتـدادًا جديـدًا كبـيرًا فى الخلـف، بكـبر المنـزل نفسـه تقريبًـا، ويشـغل مطبـخ كامـل مسـاحته تقريبًـا.

علق وهو يقودنى إلى الداخل: "هنا ملاذى الآمن".

فـرن عمـلاق مـن الإسـتانلس، وجـدران بيضـاء، وثلاجتـان ضخمتـان، إنـه مطبـخ حقيقـى لطـاهٍ حقيقـى.

سـحب "أوريليـوس" كرسـيًا لى وجلسـت مقابـل طاولـة صغـيرة قـرب خزانـة للكتـب، الرفـوف ممتلئـة بكتـب الطبـخ، بالفرنسـية والإنجليزيـة والإيطاليـة، لكـن كتابًـا واحـدًا كان عـلى الطاولـة، عـلى خـلاف البقيـة، كان عبـارة عـن مفكـرة سـميكة، أثلـم الزمـن زواياهـا، ومغطـاة بـورق بنـى أصبـح شـفافًا بعـد عقـود مـن إمسـاكه بأصابـع مزبـدة، كتـب أحـد بحـروف كبـيرة "وصفـات" عـلى الغـلاف الأمامـى، بطريقـة مدرسـية قديمـة، بعـد بضـع سـنوات، رسـم الكاتـب علامـة "إكـس" عـلى حـرف الألـف، مسـتخدمًا قلـمًا مختلفًـا.

سألته: "أتسمح لى؟"

"بالتأكيد".

فتحـت الكتـاب وبـدأت أتصفحـه، كعكـة "فكتوريـا" الإسـفنجية، وخبـز التمـر والجـوز، وكعـكات غيرهـا، وكعكـة الزنجبيـل، وتـارت "مايـدز أوف أونـر"، وتـارت "بيكويـل"، والكعكـة الغنيـة بالفواكـه.. لاحظـت تحسـن خـط الكتابـة مـع طيِّـى للصفحـات.

شـغل "أوريليـوس" الفـرن، ثـم جمـع المقاديـر بخفـة، بعـد ذلـك كان كل شىء فى متنـاول يـده، ومـد ذراعـه ليجلـب غربـالاً أو سـكينًا دون أن ينظـر، تحـرك فى مطبخـه مثلـما يغـير السـائقون غيـارات السـيارة: يـد تمتـد بسلاسـة، دون الكثـير مـن الاهتـمام، تعـرف مـا سـتفعله تحديـدًا، فى حـين أنَّ عينيـه لا تغـادران قـط بقعـةً محـددة أمامـه: الوعـاء الـذى جمـع فيـه المقاديـر، غربـل الدقيـق، وقطـع الزبـدة إلى مكعبـات، وقـشر برتقالـة مـن أجـل النكهـة ، بـدت حركاتـه كلهـا تلقائيـة كالتنفـس.

قال: "أترين الخزانة؟ إلى يسارك؟ هلا فتحتها".

ظننته يريد أداة ما، ففتحت الخزانة.

"ستجدين داخلها حقيبة معلقة بوتد".

كانت أشبه بحقيبة أحادية الذراع، قديمة ولها تصميم غريب، جانباها ليسا مخيطين، بل مشبكان فقط، وقد رُبطت بمشبك وحزام جلدى عريض وطويل، مربوط بمشبك صدئ عند كل طرف، يُفترض أنه يسمح لحاملها بتعليقها مائلة على جسده، كان الجلد جافًا ومتشققًا، والقماش الذى ربما كان لونه ترابيًا فى يوم ما، أصبح الآن باهتًا بلون السنين.

سألته: "ما هذا؟"

تركت عيناه الوعاء وتطلعت إلىّ لثوانٍ.

"إنها الحقيبة التى وُجدت فيها".

وعاد إلى مزج مكونات الطعام.

الحقيبة التى وُجد فيها؟ تنقلت عيناى ببطء من الحقيبة إلى "أوريليوس"، حتى وهو عاكف على عجينه، يتجاوز طوله مترًا وثمانين سنتيمترًا، تذكرت أننى ظننته أحد عمالقة قصص الأطفال حين رأيته أول مرة، اليوم لن يكفى الحزام للالتفاف حول وسطه، ولكن منذ ستين عامًا كان صغيرًا كفاية ليكون بداخلها، جلست مجددًا، مشوشة الذهن بأفكار حول ما يستطيع الزمن فعله، مَن تلك التى وضعت رضيعًا فى هذه الحقيبة منذ زمن بعيد؟ لفت قماشها حوله، وربطت المشبك فى مواجهة الطقس وشدت الحزام حول جسدها لحمله، فى ثنايا الليل، إلى منزل السيدة "لاف"؟ مررت أصابعى على المواضع التى لمستها هى، القماش، المشبك، الحزام، باحثة عن أى أثر لها، أو عن دليل بلغة "برايل" أو بحبر خفى أو شيفرة، والذى ستكشفه لمستى فقط لو كانت تعرف طريقة لذلك، لكنها لم تعرف.

علق: "إنها مستفزة، أليس كذلك؟"

سمعته يدفع شيئًا إلى داخل الفرن، ثم شعرت به ورائى، ينظر من أعلى كتفى.

"افتحيها، يداى عليهما دقيق".

فككت المشبك وفتحت طيات القماش، كشفت عن دائرة مسطحة فى منتصفها تشابك من الأوراق والخِرق.

قال: "إنه ميراثى".

بدت تلك الأغراض ككومة من المخلفات غير المرغوب فيها التى تنتظر أن تُلقى فى سلة القمامة، لكنه حملق إليها بتركيز طفلٍ يحملق إلى كنز دفين: "هذه الأغراض هى قصتى، تلك الأشياء تخبرنى من أنا، الأمر يتوقف فقط على.. أن أفهمها". حيرته كانت قوية، على الرغم من استسلامها، "لقد حاولت طوال حياتى أن أحل هذا اللغز، أظل أفكر، فقط لو أمكننى إيجاد طرف الخيط.. سيصبح الأمر منطقيًا، انظرى إلى هذه كمثال..."

إنها قطعة ملابس من الكتان، كانت سابقًا بيضاء والآن صفراء، فصلتها عن بقية الأغراض ومددتها، مطرزة برسومات نجوم وأزهار باللون الأبيض أيضًا، وبها أربعة أزرار لؤلؤية، إنه ثوب نوم أو فستان رضيعة، غطى الدقيق أصابع "أوريليوس" العريضة، التى حام بها حول قطعة القماش الضئيلة، يريد لمسها، ولا يريد ترك علامة بالدقيق، الأكمام الضيقة تكفى الآن أحد أصابعه فقط.

علق "أوريليوس: "هذا ما كنت أرتديه".

"إنه قديم جدًا".

"أفترض أنه فى مثل سنى".

" أو أكثر".

"أتظنين ذلك؟"

"انظر إلى الرتق هنا.. وهنا، لقد رُتق أكثر من مرة، وهذا الزر مختلف عن البقية، لقد ارتدى رضع آخرون هذا قبلك".

حلقت عيناه من الخرقة إلىَّ وإلى الخرقة مجددًا، متعطشة للمعرفة.

"وهذه أيضًا"، وأشار إلى ورقة مطبوعة، لقد مُزقت من كتاب، وهى مليئة بالثنايا، بدأت أقرأ ما بها بعدما أخذتها.

"... لم أدرك ما ينتويه فى البداية، لكن حين رأيته يرفع الكتاب ويزنه ويقف مستعدًا لرشقه، وثبت جانبًا على نحو غريزى وأطلق صرخة ذعر..."

التقط "أوريليوس" طرف الجملة وتابع، لا يقرأ من الصفحة بل من ذاكرته: "... لكننى لم أكن سريعة كفاية، فقد رشق المجلد، وأصابنى، فسقطت على الأرض، وارتطم رأسى بالباب، وجُرح".

بالتأكيد ميزت هذا النص، وكيف لا؟ وقد قرأته عدد مرات لا يعرفه إلا الرب، قلت متعجبة: "رواية (جين إير)".

"هل عرفتيه؟ نعم هذا صحيح، سألت رجلاً فى المكتبة، لقد ألفتها كاتبة تدعى (تشارلوت) شىء ما، يبدو أنها كانت لها أخوات كثيرات".

"هل قرأتها؟"

"بدأت، إنها عن فتاة صغيرة فقدت عائلتها، لذا أخذتها عائلة عمتها، ظننت أنها ستقودنى إلى شىء ما، تلك المرأة -العمة- كريهة، ليست مثل السيدة (لاف) مطلقًا، فى هذه الصفحة، يقذفها أحد أبناء عمتها بكتاب، لكن لاحقًا تلتحق بمدرسة، مدرسة مريعة، بها طعام مريع، لكنها تكتسب صديقة هناك"، ابتسم، متذكرًا ما قرأه: "لكن حينها فقط تموت صديقتها"، كسا الإحباط وجهه، "وبعد ذلك.. يبدو أننى فقدت الاهتمام، لم أقرأ النهاية، لم أستطع توقعما ستئول الأمور

إليـه بعـد ذلـك"، وهـز كتفيـه متخليًـا عـن حيرتـه: "هـل قرأتهـا؟ مـاذا حـدث فى النهايـة؟ هـل هـى مهمـة؟"

"تقـع فى حـب مديرهـا، وزوجتـه -المجنونـة، التـى تعيـش فى المنـزل، لكنهـا فى الـسر- تحـاول أن تحـرق المنـزل حتـى ينهـار، فترحـل (جـين)، وحـين تعـود، تكـون الزوجـة ميتـة، والسـيد (رويشسـتر) كفيـف، وتتـزوج بـه (جـين)".

"آه"، تجعـدت جبهتـه وهـو يحـاول تفكيـك اللغـز، لكنـه استسـلم: "ألا يبـدو الأمـر غـير منطقـى تمامًـا؟ أو ربمـا البدايـة، الفتـاة التـى بـلا أم، لكـن بعـد ذلـك.. أتمنـى لـو يخـبرنى أحـد بمعنـى ذلـك، أتمنـى لـو يوجـد أحـد يسـتطيع فقـط أن يخـبرنى الحقيقـة".

التفـت إلى الصفحـة الممزقـة مـن الكتـاب: "ربمـا ليـس الكتـاب هـو المهـم، بـل هـذه الصفحـة فقـط، ربمـا لهـا معنـى سرى مـا، انظـرى".

داخـل الغـلاف الخلفـى لكتـاب وصفـات طفولتـه وجـدت صفوفًـا وأعمـدة مـن الأرقـام والأعـداد مكتوبـة بيـد طفوليـة كبـيرة: "اعتـدت الظـن أنهـا شـيفرة، وحاولـت فكهـا، جربـت الحـرف الأول مـن كل كلمـة، والحـرف الأول مـن كل سـطر، أو الثـانى، ثـم جربـت اسـتبدال حـرف مـكان الآخـر"، وأشـار إلى محاولاتـه الكثـيرة، بعينـين متحمسـتين، كأن لا تـزال الفرصـة قائمـة لأن يـرى شـيئًا فوتـه مـن قبـل.

أدركت أن لا أمل فى ذلك.

"مـاذا عـن هـذا؟" التقطـت الـشىء التـالى، ولم أسـتطع منـع نفـسى مـن القشـعريرة، يبـدو أنـه كان مـن قبـل ريشـة، لكنـه الآن شىء كريـه قبيـح المنظـر، إذ جفـت زيوتهـا، وانفصلـت شـعيراتها عـن بعضهـا لتشـكل مسـامير بنيـة جامـدة بطـول العمـود المكسـور.

هـز "أوريليـوس" كتفيـه وهـز رأسـيه بجهـل عاجـز، ورميـت الريشـة بارتيـاح.

ثـم كان هنـاك شيء واحـد آخـر، فقـال "أوريليـوس": "والآن هـذا..."، لكنـه لم يكمـل، كانـت قصاصـة ورق، ممزقـة بخشـونة، عليهـا لطخـة حـبر متلاشـية ربمـا كانـت فى يـوم كلمـة، حملقـت إليهـا مـن قـرب.

تمتـم: "أظـن.. ظنـت السـيدة (لاف).. اتفـق كلانـا، فى الواقـع..." نظـر إلى بعينـين آملتـين: "عـلى أن هـذا بـلا شـك اسـمى".

وأشـار: "لقـد بللهـا المطـر، لكـن هنـا فقـط..." وقـادنى إلى النافـذة، وأشـار إلى أن أرفـع القصاصـة قبالـة الضـوء: "رسـم يشـبه حـرف (إيـه) فى البدايـة، ثـم حـرف (إس)، هنـا، عنـد النهايـة، بالتأكيـد هـى متلاشـية قليـلاً بتأثـير السـنين، يجـب أن تمعنـى النظـر، لكـن بإمكانـك رؤيتهـا، صحيـح؟"

حملقت إلى اللطخة.

"صحيح؟"

قمت بحركة غامضة بدماغى، ليست إيماءة موافقة ولا هزة رفض.

"أترين! يكون الأمر واضحًا حين تعرفين عما تبحثين، أليس كذلك؟"

تابعـت النظـر، لكـن أشـباح الحـروف التـى رآهـا كانـت خفيـة عـن عينـى.

أضـاف: "وهكـذا، اسـتقرت السـيدة (لاف) عـلى تسـميتى (أوريليـوس)، مـع أننـى يمكـن بالبسـاطة نفسـها أن أكـون (ألفونـس)".

ضحـك عـلى نفسـه، بحـزن، عـلى نحـو غـير مريـح، والتفـت مبتعـدًا: "الـشيء الوحيـد المتبقـى هـو الملعقـة، لكنـك رأيتهـا بالفعـل"، مـد يـده إلى جيبـه العلـوى وأخـرج الملعقـة الفضيـة التـى رأيتهـا فى اجتماعنـا الأول، حـين أكلنـا كعكـة الزنجبيـل ونحـن نجلـس عـلى القطتـين العملاقتـين اللتـين تحـاصران منـزل "آنجلفيلـد".

تساءلت: "والحقيبة نفسها، ماذا عنها؟"

قال على نحو مبهم: "إنها مجرد حقيبة"، رفعها إلى وجهه وشمها برقة: "كانت تحمل رائحة الدخان، لكن ليس حتى الآن"، ومررها إلى، وقربت أنفى إليها: "أترين؟ لقد تلاشت الرائحة".

فتح "أوريليوس" باب الفرن وأخرج صينية من البسكويت الذهبى الباهت وتركها لتبرد، ثم ملأ غلاية المياه وأعد صينية، كوبين، وصحنيهما، ووعاء السكر، وإبريق لبن وطبقين صغيرين.

مرر الصينية إلىّ: "خذى هذه"، وفتح بابًا أظهر لمحة من غرفة صالون، كراسى قديمة مريحة، وأرائك مرسوم عليها ورود: "تصرفى كأنه بيتك، سأجلب بقية الأغراض خلال دقيقة"، وظل موليًا لى ظهره، ورأسه منحنٍ وهو يغسل يديه: "سأنضم إليك حين أعيد هذه الأغراض إلى أماكنها".

دلفت إلى غرفة السيدة "لاف" الأمامية وجلست على كرسى قرب الموقد، تاركة إياه يعيد تخزين ميراثه -ميراثه الذى لا يمكن فك تشفيره والذى لا يقدر بثمن- بأمان.

***

غادرت المنزل بشىء يزعج رأسى، هل كان شيئًا مما قاله "أوريليوس"؟ صدى أو صلة ما استدعت انتباهى على نحو غامض لكن بقية القصة جرفتها بعيدًا، لا يهم، فأيًا ما كان ذلك، سيعود إلىّ.

فى الغابة توجد أرض مقطوعة الأشجار، تهبط الأرض عندها بزاوية حادة وتغطى المنحدر أشجار منخفضة غير منظمة، ثم ترتفع وتظهر الأشجار مجددًا، وبسبب ذلك، توفر بقعة مراقبة غير متوقعة تمكن منها رؤية المنزل، توقفت فى تلك الأرض فى طريق عودتى من منزل "أوريليوس".

كان المشهد حالكًا، بدا المنزل، أو ما تبقى منه، مسكونًا، بقعة رمادية أمام سماء رمادية، الطوابق العلوية على الجانب الأيسر قد تهدمت، وبقى الطابق الأرضى، العتبة الحجرية الداكنة ودرجات السلم المؤدى إليه ترسم حدود إطار الباب، لكن الباب نفسه كان قد اختفى، لم يكن ذلك يومًا مناسبًا للبقاء فى العراء، وقد انتابتنى القشعريرة لرؤية المنزل نصف المفكك، حتى القطتان الحجريتان هجرتاه، لقد أبعدتا نفسيهما عن الرطوبة كحال الغزالة، أما الجانب الأيمن فكان فى غالبه لا يزال قائمًا، لكن يبدو أنه سيهدم تاليًا نظرًا لهيئة الرافعة، هل كل تلك الآلات ضرورية؟ وجدت نفسى أفكر فى ذلك، قد يبدو أن الجدران ستذوب ببساطة تحت المطر، وتلك الحجارة التى لا تزال قائمة، باهتة وبلا قيمة مثل ورق الأرز، تبدو كأنها مستعدة للذوبان أمام ناظرى لو ظللت واقفة طويلاً كفاية.

كانت كاميرتى متدلية حول عنقى، فككتها من تحت معطفى ورفعتها إلى عينى، أيمكن أن ألتقط المظهر المضمحل للمنزل عبر كل هذه المياه؟ شككت فى ذلك، لكننى مستعدة للمحاولة.

كنت أضبط عدسة المسافات البعيدة حين لمحت حركة طفيفة عند طرف الصورة، إنه ليس شبحى، لقد عاد الطفلان، رأيا شيئًا فى العشب، وانحنيا فوقه بحماس، ماذا كان؟ قنفذًا؟ ثعبانًا؟ دفعنى الفضول إلى تعديل تركيز العدسة لأرى بوضوح أكثر.

مد أحد الطفلين يده داخل العشب الطويل ورفع اكتشافهما خارجه، كانت قبعة بناء صفراء، وبابتسامة سرور رمى قبعته الواقية من المطر -أمكننى الآن أن أرى أنه الفتى، وليس أخته- واعتمر القبعة الجديدة، وقف جامدًا كجندى، مبرزًا صدره، رافعًا رأسه، وذراعيه إلى جانبيه، وجهه عازم على أن يحمى القبعة الكبيرة جدًّا من الانزلاق، وحين ثبت على تلك الهيئة، حدثت معجزة صغيرة، شعاع من ضوء

الشمس وجد طريقه عبر فتحة فى السحاب، وهبط على الفتى، مضيئًا إياه فى لحظة مجده، ضغطت زر التصوير والتقطت الصورة، الفتى بالقبعة، وأعلى كتفه اليسرى لافتة "ممنوع الدخول"، والمنزل على يمينه فى الخلفية، بقعة رمادية كئيبة.

اختفت الشمس، ورفعت عينى عن الطفلين لأدير الفيلم وأغطى الكاميرا لأحميها من المياه، وحين استدرت بعينى، كان الطفلان قد بلغا منتصف الطريق الخاص، يده اليسرى ممسكة بيدها اليمنى، كانا يدوران مرارًا وتكرارًا مع اقترابهما من بوابات المنازل الحجرية بخطوات واسعة متساوية، وبوزن متساوٍ، كأن كلاً منهما قوة مكافئة للآخر، وذيلا معطفيهما يطيران خلفهما، وأقدامهما بالكاد تلمس الأرض، بديا كأنهما على وشك أن يرتفعا إلى الهواء ويطيرا.

# "جين إير" والمحرقة

حين عدت إلى يوركشاير، لم أتلقَّ أى تفسير لإبعادى، حيتنى "جوديث" بابتسامة متكلفة، كآبة النهار تسللت تحت جلدها، وتجمعت فى صورة ظلال تحت عينيها، جذبت الستائر سنتيمترات قليلة فى الصالون، كاشفة عن جزء أكبر قليلاً من النافذة، لكن لم يشكل ذلك فارقًا فى الكآبة، قالت متعجبة: "طقس بغيض"، وفكرت فى أنها تبدو على وشك الانهيار.

شعرت كأن دهرًا قد مر مع أن لم يمر سوى أيام، فعادة خلال الليل وليس خلال النهار، يلقينا التأثير المُكئب للسماء الثقيلة خارج الزمن، وصلت السيدة "وينتر" متأخرة إلى أحد اجتماعاتنا الصباحية، وكان وجهها شاحبًا للغاية، ولم أعرف إن كانت ذكرى فاجعة حدثت مؤخرًا هى ما أطفأ عينيها أم شىء آخر.

بعدما استقرت فى دائرة الضوء خاصتها، قالت: "أقترح جدولاً زمنيًّا أكثر مرونة لاجتماعاتنا".

"بالتأكيد"، فقد عرفت بشأن لياليها السيئة من مقابلتى مع الطبيب، وأدركت متى يخفت تأثير الأدوية التى تأخذها لكبح ألمها، أو متى يكون تأثيرها غير سارٍ بالكامل بعد، ولذا اتفقنا على ألا آتى فى التاسعة من كل صباح، بل أنتظر طرقة على بابى.

فى البداية كانت الطرقة دائمًا تأتى بين التاسعة والعاشرة، ثم أصبحت تتأخر، بعدما غير الطبيب جرعتها من الدواء، اعتادت أن تطلبنى فى الصباح الباكر، لكن لقاءاتنا كانت أقصر، ثم استسلمنا لعادة أن نلتقى مرتين أو ثلاث مرات يوميًا، فى أوقات عشوائية، أحيانًا كانت تطلبنى حين تشعر بتحسن، وتتحدث باستفاضة، وبالتفصيل، وفى أحيان أخرى، تستدعينى حين تكون متألمة، وحينها لم تكن صحبتى هى ما تريده حقًّا بقدر ما كانت تريد الجانب التخديرى لحكى القصص.

أصبحت لقاءات الساعة التاسعة علامة زمنية أخرى فقدتها، استمعت إلى قصتها، وكتبتها، وحين نمت حلمت بها، وحين أكون مستيقظة تشكل القصة خلفية أفكارى، الأمر أشبه بأن أعيش بالكامل داخل كتاب، لم أحتج حتى إلى الخروج من غرفتى لآكل، لأن من الممكن أن أجلس عند مكتبى وأقرأ ما كتبته وأنا آكل الوجبات التى تجلبها "جوديث" إلى غرفتى، العصيدة تشير إلى أنه الصباح، والحساء والسلطة يشيران إلى وقت الغداء، وشريحة اللحم والفطيرة تعنيان أنه المساء، أذكر تفكيرى مليًّا لوقت طويل أمام طبق بيض مخفوق، ماذا يعنى هذا؟ قد يعنى أى شىء، فقد أكلت بضع لقيمات وأبعدت الطبق.

حدثت بضع وقائع مميزة خلال المرور الطويل غير المتمايز للوقت، دونتها كلها فى ساعتها، منفصلة عن القصة، وهى تستحق أن تُذكر هنا.

وهذه واحدة.

كنت فى المكتبة، أبحث عن رواية "جين أير"، ووجدت ما يقارب رفًا كاملاً من نسخها، إنها مجموعة خاصة بمحبة مجنونة: هناك نسخ حديثة رخيصة، بلا قيمة إن بيعت مستعملة، ونسخ نادرًا ما ظهرت فى السوق لدرجة أن من الصعب تحديد سعر لها، النسخة التى أبحث عنها عادية -مع أنها نسخة بعينها- من مطلع القرن، وبينما أتصفح، أدخلت "جوديث" السيدة "وينتر" إلى المكتبة وأجلستها فى مقعدها قرب الموقد.

حين غادرت "جوديث"، سألتنى السيدة "وينتر": "عم تبحثين؟"

"(جين أير)".

"أتحبين (جين أير)؟"

"نعم للغاية، وأنت؟"

"نعم".

ارتجفت.

"هل أذكى لهب الموقد من أجلك؟"

أخفضت جفنيها كأن موجة من الألم تعصف بها: "نعم، أعتقد ذلك".

بمجرد أن استعادت النار لهيبها قالت: "ألديك دقيقة؟ اجلسى يا (مارجريت)".

وبعد دقيقة من الصمت قالت:

"تخيلى حزام سير، حزام سير ضخمًا وفى نهايته فرن عملاق، وتوجد عليه كتب، كل نسخ كل كتاب أحببته مطلقًا فى حياتك، كلها مصفوفة، (جين أير)، (فيليت)، (ذات الرداء الأبيض)".

تابعت أنا: "و(مدل مارش)".

"شكرًا للإضافة، (مدل مارش)، وتخيلى مقبضًا عليه كلمتين، (تشغيل) و(إيقاف)، فى هذه اللحظة المقبض يشير إلى (إيقاف)، وبجواره يقف شخص، يده على المقبض، على وشك أن يشغل السير، ويمكنك إيقافه، لديك مسدس فى يدك، وكل ما عليك فعله هو الضغط على الزناد، ماذا تفعلين؟"

"لا، هذا سخف".

"يدير المقبض، ويشتغل السير".

"لكن هذا موقف متطرف جدًّا، إنه افتراضى".

"فى البداية تسقط رواية (شيرلى) من الحافة".

"لا أحب مثل هذه الألعاب".

"والآن تأكل ألسنة اللهب (جورج ساند)".

تنهدت وأغلقت عينىّ.

"الرواية التالية (مرتفعات ويذيرنج)، هل ستتركينها تحترق؟"

لم أستطع منع نفسى، رأيت الكتب، ورأيت العملية المستمرة لتغذية الفرن، وجفلت.

"كيفما تشائين، لقد سقطت فى اللهب، ستفعلين هذا مع (جين أير) أيضًا؟"

"جين أير"، فجأة جف فمى.

"كل ما عليك فعله هو أن تطلقى الرصاصة، لن أخبر أحدًا، لا يجب أن يعرف أحد بشأن هذا أبدًا"، وانتظرت، "إنها تبدأ فى السقوط، بضع النسخ الأولى فقط، لكن هناك الكثير من النسخ، لديك لحظة لتقررى".

فركت إبهامى بعصبية بحافة ظفر خشنة فى إصبعى الوسطى.

"إنها تسقط بسرعة أكبر الآن".

لم تبعد ناظريها عنى.

"سـقط نصفهـا، فكّـرى يـا (مارجريـت)، سريعًـا سـتختفى كل نسـخ (جـين أيـر) للأبـد، فكـرى".

رمشت السيدة "وينتر".

"سـقط ثلثاهـا فى النـار، إنـه شـخص واحـد يـا (مارجريـت)، شـخص واحـد ضئيـل لا قيمـة لـه".

رمشتُ.

"لا يـزال هنـاك وقـت، مـا يكفـى فقـط، تذكـرى، هـذا الشـخص يحـرق الكتـب، أيسـتحق حقًـا أن يعيـش؟"

رمشة تلو الأخرى.

"فرصتك الأخيرة".

رمشة تليها رمشتان.

لم تعد "جين أير" موجودة.

"مارجريـت!" انقلـب وجـه السـيدة "وينـتر" مـن الغيـظ وهـى تتكلـم، ضربـت بيدهـا اليـسرى عـلى ذراع الكـرسى، وحتـى يدهـا اليمنـى، عـلى الرغـم مـن إصابتهـا، انتفضـت فى حجرهـا.

لاحقًـا، حـين كتبـت هـذا، فكـرت فى أن هـذا هـو التعبـير الأكـثر عفويـة الـذى رأيتـه مـن السـيدة "وينـتر"، كان ذلـك مقـدارًا مفاجئًـا مـن المشـاعر المسـتثمرة فى مجـرد لعبـة.

ومشـاعرى؟ إنهـا مثـيرة للخجـل، لأننـى كذبـت، بالتأكيـد أحـب الكتـب أكـثر مـن البـشر، وبالتأكيـد أقـدر "جـين أيـر" أكـثر مـن الغريـب المجهـول ويـده التـى عـلى المقبـض، وبالتأكيـد كل أعـمال "شكسـبير" تسـاوى أكـثر

مـن حياة بشريـة، بالتأكيـد، ولكـن عـلى خـلاف السـيدة "وينـتر"، كنـت أخجـل مـن قـول هـذا.

فى طريـق خروجـى، رجعـت إلى رف "جـين أيـر"، وأخذت المجلـد الوحيد الـذى طابـق مواصفـاتى، السـن الصحيحـة، ونـوع الـورق الصحيـح، والخـط الصحيـح، وفى غرفتـى، تصفحتـه حتـى وجـدت مـا أبحـث عنـه.

"... لم أدرك مـا ينتويـه فى البدايـة، لكـن حـين رأيتـه يرفـع الكتـاب ويوزانـه ويقـف مستعدًا لرشـقه، وثبـت جانبًـا عـلى نحـو غريـزى وأطلقت صرخـة ذعـر، لكننـى لم أكـن سريعـة كفايـة، فقـد رشـق المجلـد، وأصابنـى، فسـقطت عـلى الأرض، وارتطـم رأسى بالبـاب، وجُـرح".

كان الكتـاب سـليمًا، لا تنقصـه ولـو صفحـة واحـدة، لم يكـن هـذا المجلـد الـذى مُزقـت منـه صفحـة "أوريليـوس". لكـن عـلى أيَّـة حـال، لم يجـب أن يكـون هـو؟ فلـو جـاءت صفحتـه مـن "آنجلفيلـد" -لـو كان ذلـك صحيحًـا- فـإن تلـك النسـخة قـد احترقـت مـع بقيـة المنـزل.

الـشيء الآخـر الـذى أتذكـره مـن تلـك الفـترة كان حادثـة الصـورة الفوتوجرافيـة، ظهـر طـرد صغـير فى صينيـة إفطـارى فى صباح مـا، موجه إلى بخـط يـد والـدى الصغـير، يحتـوى عـلى صـورى لـ"آنجلفيلـد". فقـد أرسـلت إليـه علبـة الفيلـم، وحمضهـا هـو مـن أجلى، وجـدت بضـع صـور واضحـة مـن يومـى الأول: نبـات العليـق ينمـو وسـط حطـام المكتبـة، واللبـلاب يشـق طريقـه عـلى السـلم الحجـرى مثـل الثعبـان، توقفـت عنـد صـورة غرفـة النـوم حيـث قابلـت شـبحى وجهًـا لوجـه، عـلى الموقـد القديـم لم يوجـد إلا وهـج انعـكاس وميـض الكامـيرا، ومـع ذلـك، أخـذت تلـك الصورة مـن وسـط المجموعـة ووضعتهـا داخـل غـلاف كتـابى، لأحتفـظ بهـا.

كانـت بقيـة الصـور مـن زيـارتى الثانيـة، حـين عارضنـى الطقـس، معظمهـا لم يظهـر شـيئًا سـوى تراكيـب محـيرة مـن الضبابيـة، مـا تذكرتـه كان درجـات مـن اللـون الرمـادى يغطيهـا اللـون الفـضى، يتحـرك الضبـاب

مثل حجاب من الشاش، وأنفاسى عند نقطة التحول بين الهواء والمياه، لكن كاميرتى لم تلتقط أيًّا من هذا، كذا لم يكن ممكنًا وسط البقع المظلمة التى شابت اللون الرمادى أن تميز حجرًا، أو جدارًا، أو شجرة، أو غابة، وبعد بضع من مثل تلك الصور، ضجرت من النظر، هبطت السلم إلى المكتبة مكدسة رزمة الصور فى جيب سترتى.

كنا فى منتصف المقابلة تقريبًا حين أحسست بصمت، كنت أحلم، تائهة كالعادة فى عالم توأمة الطفولة الخاص بها، أعدت تشغيل تسجيل صوتها فى بالى، وتذكرت تغيراً فى نبرة صوتها، وتذكرت حقيقة أنها قالت لى شيئًا، لكنى لم أستطع تذكر الكلمات.

قلت: "ماذا؟"

كررت: "جيبك، يوجد شىء فى جيبك".

"أوه.. إنها بعض الصور..." قلتها وأنا فى حالة النسيان تلك فى منتصف الطريق بين قصة ما وحياتك، حين تتيه بأفكارك، تابعت مغمغمة: "آنجلفيلد".

حين عدت من تيهى كانت الصور فى يديها.

فى البداية نظرت من كثب إلى كل منها، تضيق عينيها وراء نظارتها الطبية لتحاول تمييز الأشكال المبهمة، وفى حين تبعت صورة بلا ملامح الأخرى، تنهدت تنهيدة صغيرة بطريقة "فيدا وينتر"، تنهيدة أفادت أن توقعاتها المنخفضة قد تحققت بوفرة، وزمت فمها ليصبح خطًّا مستقيمًا، وبيدها السليمة بدأت تتصفح كومة الصور بفضول أكبر، لتظهر أنها لم تعد تتوقع أن ترى أى شىء ذى أهمية، كانت تقلب كل صورة على الطاولة بجوارها بعد أسرع نظرة ممكنة.

أذهلتنى الصور التى رفضتها وهى تهبط بمعدل منتظم على الطاولة، شكلت تلك الصور امتدادًا فوضويًا على الطاولة، تتخبط

فـوق بعضهـا وتنزلـق عـلى سـطح بعضهـا البعـض الزلـق بصـوت لـه وزن كالكلـمات: "بـلا فائـدة، بـلا فائـدة، بـلا فائـدة".

ثـم توقفـت تلـك النغمـة، كانـت السـيدة "وينـتر" تجلـس بجمـود عـازم، ترفـع إحـدى الصـور وتدرسـها بعبـوس، لقـد رأت شـبحًا، أو هكـذا ظننـت، ثـم بعـد لحظـة طويلـة، مدعيـة أنهـا لم تشـعر بنظـرتى إليهـا، وضعـت الصـورة خلـف المجموعـة المتبقيـة، ونظـرت إلى البقيـة، وقلبتهـا عـلى الطاولـة مثـل سـابقاتها، حـين ظهـرت مجـددًا الصـورة التـى أسرت انتباههـا بالـكاد نظـرت إليهـا، لكنهـا أضافتهـا إلى الأخريـات، وقالـت بـبرود شـديد: "مـا كنـت لأجـزم بـأن هـذه (آنجلفيلـد)، لكـن إن كنـت تقولـين ذلـك..." ثـم بحركـة تبـدو سـاذجة، التقطـت كومـة الصـور كلهـا ومدتهـا إلىّ، فأوقعتهـا.

غمغمـت: "إنهـا يـدى، اعذرينـى"، فى حـين أنىّ انحنيـت لأجمـع الصـور، لكننـى لم أنخـدع.

والتقطت خيط حكايتها من حيث تركته.

لاحقًـا تصفحـت الصـور مجـددًا، ورغـم أن وقـوع الصـور غـير ترتيبهـا، لم يكـن صعبًـا تحديـد أيَّـة صـورة صدمتهـا بهـذه القـوة، فوسـط حزمـة الصـور المبهمـة الرماديـة، كانـت هنـاك واحـدة تتميـز عـن غيرهـا حقًّـا، جلسـت عـلى طـرف السريـر، أنظـر إلى الصـور، أتذكـر تلـك اللحظـات جيـدًا، انقشـاع الضبـاب وتدفئـة الشـمس اجتمعـا فى اللحظـة المناسـبة للغايـة لتسـمحا بشـعاع ضـوء بـأن يسـقط عـلى ولـد انتصـب بجمـود أمـام الكامـيرا، ذقنـه مرفـوع، وظهـره مسـتقيم، وعينـاه تكشـفان معرفتـه القلقـة بـأن قبعتـه الصفـراء الصلبـة سـوف تنزلـق جانبًـا عـلى رأسـه فى أيَّـة لحظـة.

لِمَ كانـت مأخـوذة جـدًّا بهـذه الصـورة؟ فحصـت الخلفيـة، لكـن المنـزل، الـذى هُـدم نصفـه بالفعـل، كان مجـرد لطخـة مـن اللـون الرمـادى أعـلى

كتـف الطفـل اليمنـى، وقربـه، كل مـا كان واضحًـا هـو شـبكة حاجـز الأمـان وزاويـة لافتـة "ممنـوع الدخـول".



هل كان الفتى نفسه هو ما أثار انتباهها؟

حيرتنـى الصـورة لنصـف سـاعة، لكـن حـين وضعتهـا جانبًـا، لم أكـن قـد اقتربـت حتـى مـن أىّ تفسـير، ولأنهـا حيرتنـى، دسسـتها داخـل غـلاف كتـابى مـع صـورة فـراغ فى إطـار مـرآة.

بـصرف النظـر عـن صـورة الفتـى ولعبـة "جـين أيـر" والمحرقـة، لم يخترق الكثـير غـير ذلـك المعطـف الـذى غطتنـى بـه قصتهـا، مـا لم تضـع القـط فى الاعتبـار، فقـد لاحـظ سـاعات نشـاطى غـير المعتـادة، وجـاء يحـك مخلبـه ببـابى مـن أجـل بعـض الاهتـمام فى سـاعات عشـوائية مـن النهـار والليـل، ينهـى فتاتًـا مـن البيـض أو السـمك مـن طبقـى، يحـب أن يجلـس عـلى أكـوام أوراقـى، يشـاهدنى أكتـب، يمكـن أن أجلـس لسـاعات أخربـش فى أوراقـى، أتجـول فى المتاهـة المظلمـة لقصـة السـيدة "وينـتر"، لكـن لا يهـم إلى أىّ مـدى أنـسى نفـسى، إذ لم أفقـد قـط الشـعور بـأن أحـدًا يراقبنـى، وحـين شـعرت بالتيـه عـلى نحـو خـاص، بـدت نظـرة القـط كأنهـا تخطـو فى تشـوشى وتـضىء طريقـى إلى غرفتـى، وملاحظـاتى، ومـبراة أقلامـى، بـل ونـام معـى عـلى سريـرى فى بعـض الليـالى، وقـد اعتـدت عـلى تـرك سـتائرى مفتوحـة، حتـى يتمكـن إذا اسـتيقظ مـن الجلـوس عـلى حافـة النافـذة ليتابـع أشـياء تتحـرك فى الظـلام لا تراهـا العـين البشريـة.

وهــذا كل مـا فى الأمـر، لم يكـن هنـاك شىء آخـر بعيـدًا عــن تلــك التفاصيـل، فقــط الشــفق الأبـدى والقصــة.

# الانهيار

رحلت "إيزابيل"، ورحلت "هيستر"، ورحل "تشارلى"، وأخبرتنى السيدة "وينتر" للتو عن المزيد من الخسارة.

***

فى العليّة، أسندت ظهرى إلى الجدار المتصدع، ضغطت عليه لجعله يستسلم، ثم تركته، مرارًا وتكرارًا، كنت أغرى القدر، تساءلت عما قد يحدث لو انهار هذا الجدار؟ هل سينهار السقف؟ هل سيتسبب ثقل سقوطه فى انهيار ألواح الأرضية؟ هل ستهبط قراميد وعارضات وحجارة السقف ساحقة السقف وصولاً إلى الأسرَّة والصناديق كأنه زلزال؟ ثم ماذا؟ هل سيتوقف الأمر عند ذلك؟ إلى أى مدى سيستمر؟ هززته مرة تلو الأخرى، مستهزئة بالجدار، متحدية إياه أن يسقط، لكنه لم يسقط، فحتى تحت الضغط، قد تذهلك قدرة جدار ميت على الصمود.

استيقظت فى منتصف الليل، تلتقط أذنى خشخشة، كانت الضوضاء قد انتهت بالفعل، لكننى لا أزال أحس بصداها يتردد فى طبلتى أذنى وفى صدرى، قفزت من سريرى وركضت إلى السلم، و"إميلاين" فى أعقابى.

وصلنا إلى السلم ذى معرض الصور فى الوقت نفسه الذى وصل فيه "جون"، الذى ينام فى المطبخ، عند قاع السلم، وحملقنا جميعًا، فى منتصف المدخل كانت السيدة تقف بثوب نومها، تنظر إلى الأعلى، عند قدمها كتلة حجرية ضخمة، وفوق رأسها، فتحة ذات إطار مدبب فى السقف، الهواء معبأ بغبار رمادى، يصعد ويهبط فى الهواء، بلا وجهة محددة للاستقرار، وفتات الطلاء، والأسمنت، والخشب لا تزال تهبط من الطابق العلوى، مع صوت يشبه انتشار الفئران، ومن حين لآخر شعرت بـ"إميلاين" تقفز مع سقوط قراميد وألواح خشبية من الطوابق العلوية.

كانت درجات السلم الحجرية باردة، وحينئذ لكزت شظايا الخشب وقطع الطلاء والأسمنت قدمىّ، وقد وقفت السيدة مثل شبح فى منتصف حطام منزلنا المتهدم، مع استقرار دوامات الغبار حولها ببطء، وقفت بشعر ووجه بلون الغبار، ويدين بلون الغبار، وكذا ثنايا ثوب نومها الطويل كانت بلون الغبار، وقفت ثابتة بلا أيَّة حركة وتطلعت إلى الأعلى، اقتربت منها، وشاركتها التطلع، حملقنا عبر فتحة فى السقف، وأعلاها فتحة أخرى فى سقف آخر، ثم فتحة أخرى فى سقف آخر، رأينا ورق الحائط ذا الزهور فى غرفة النوم أعلانا، ورسمة مسارات اللبلاب الخاصة بالغرفة الأعلى، والجدران الرمادية الباهتة الخاصة بالعليا الصغيرة، وفوق كل هذا، فوق رأسينا، رأينا الفتحة فى السقف نفسه والسماء، لم تكن بها أى نجوم.

أخذت يدها: "هيا، لا نفع من التحديق إلى هناك".

قدتها بعيدًا، وتبعتني هي مثل طفلة صغيرة، قلت لـ"جون": "سأوصلها إلى سريرها".

أومأ بوجه شاحب كالأشباح وقال بصوت حشرجه الغبار: "حسنًا"، بالكاد استطاع أن ينظر إليها، وأشار إشارة بطيئة إلى السقف المحطم: "وأنا سأصلح هذا"، كانت إشارته كالحركة البطيئة لرجل يغرق ويجذبه التيار إلى الأسفل.

لكن بعد ساعة، حين أصبحت السيدة نظيفة، بثوب نوم جديد، موضوعة فى سريرها ونائمة، كان لا يزال هناك، تمامًا مثلما تركته، محملقًا إلى حيث كانت.

فى الصباح التالى، حين لم تظهر السيدة فى المطبخ، كنت أنا من ذهبت لإيقاظها، ولم تستيقظ، غادرت روحها عبر فتحة السقف، ورحلت.

قلت لـ"جون" فى المطبخ: "لقد فقدناها، إنها ميتة".

لم يتغير وجهه، تابع التحديق عبر مائدة المطبخ كأنه لم يسمعنى، قال أخيراً: "نعم"، بصوت لم يتوقع أن يُسمع، "نعم".

بدا كأن كل شيء قد بلغ نهايته، وكانت لدى أمنية واحدة: أن أجلس مثل "جون"، جامدة، أحدق نحو الفراغ ولا أفعل شيئًا، ولكن الوقت لم يتوقف، لا أزال أشعر بنبض قلبى يطارد الثوانى، لا أزال أشعر بالجوع ينمو فى معدتى، والعطش فى حلقى، كنت حزينة جدًّا لدرجة تمنى الموت، لكن بدلاً من ذلك كنت على قيد الحياة بشكل مخزٍ وسخيف، على قيد الحياة للغاية لدرجة أنى أقسم إننى استطعت الشعور بنمو شعرى وأظفارى.

على الرغم من الثقل الذى لا يُحتمل على قلبى، لم أستطع أن أستسلم للبؤس مثل "جون"، رحلت "هيستر"، ورحل "تشارلى"،

ورحلت السيدة، ورحل "جون" أيضًا على طريقته الخاصة، مع أنني أملت أن يجد طريق عودته، في أثناء ذلك، كانت الفتاة التي وراء الغشاوة مضطرة إلى الخروج من الظل، كان ذلك الوقت المناسب للنضج والتوقف عن اللعب.

قلت: "سأشغل غلاية المياه، سأعد كوب شاي".

هذا ليس صوتي، إنه صوت فتاة أخرى، فتاة ما عادية قادرة عاقلة وجدت طريقها إلى داخل جلدي وسيطرت علي، بدا أنها تعرف ما يجب فعله، تفاجأت جزئيًا فقط، ألم أقضِ نصف حياتي أتفرج على أشخاص يعيشون حياتهم؟ أتفرج على "هيستر"، أتفرج على السيدة، أتفرج على القرويين؟

تقوقعت بهدوء داخل نفسي في حين تغلي الفتاة القادرة المياه، وتأخذ أوراق الشاي، وتقلب الشاي وتصبه، وضعت ملعقتي سكر في شاي "جون"، وثلاثة في شايي، وحين أصبح جاهزًا شربته، وحين وصل الشاي الساخن الحلو إلى معدتي أخيرًا، توقف اضطرابي.

# الحديقة الفضية

قبل أن أستيقظ تمام الاستيقاظ راودنى شعور بأن هناك شيئًا مختلفًا، وبعد لحظة، قبل حتى أن أفتح عينى، عرفت ما هو، كان هناك ضوء.

رحلت الظلال التى تخفت فى غرفتى منذ بداية الشهر، ورحلت أيضًا الأركان الكئيبة وأجواء الحداد، النافذة مستطيل باهت، دلف منه اصفرار متلألئ أضاء كل جوانب غرفتى، مر الكثير من الوقت منذ رأيته لدرجة أننى شعرت بتدفق قوى للفرح، كأنها لم تكن مجرد ليلة التى انتهت، بل شتاء، بدا كأن الربيع قد حل.

القط على حافة النافذة، يتطلع بإمعان إلى الحديقة، سمعنى أتحرك، فقفز على الفور وخربش الباب ليخرج، جذبت ملابسى ومعطفى، وتسحبنا هابطين السلم معًا، إلى المطبخ، والحديقة.

أدركت خطاى فى اللحظة التى خطوت فيها خارج المنزل، هذا ليس النهار، وهذه ليست الشمس، بل ضوء القمر الذى سطع على

الحديقـة، يشـحذ أطـراف أوراق الشـجر بلـون فـضى، ويلمـس أطـراف التماثيـل المنحوتـة، وقفـت ثابتـة وحملقـت إلى القمـر، كان تـام الاسـتدارة، معلـق بشـحوب وسـط سـماء صافيـة، ولأننـى افتتنـت بالمشـهد، كان بإمـكانى أن أقـف هنـاك حتـى الفجـر، لكـن القـط، بـلا صـبر، ضغـط عـلى كعبـى طلبًـا لاهتمامـى، وانحنيـت لأمسـده، بمجـرد أن لمسـته ابتعـد، فقـط ليتوقـف عـلى بعـد أمتـار قليلـة، وينظـر إلى أعـلى كتفـه.

رفعت ياقة معطفى، وغرزت يدى الباردتين فى جيبى، وتبعته.

قـادنى فى البدايـة عـبر المسـار العشـبى بـين الحـدود الممتـدة، ولمـع سـياج الصنوبـر زاهيًـا عـلى يسـارنا، وعـلى يميننـا كان السـياج مظلـمًا فى الظـل، انعطفنـا إلى حديقـة الأزهـار حيـث بـدت الشـجيرات المهذبـة مثـل أكـوام مـن الأفـرع الميتـة، لكـن الحـدود العريضـة مـن الأشـجار التـى أحاطـت بهـا بشـكل إليزابيثـى متعـرج انحرفـت داخلـة إلى ضـوء القمـر وخارجـة منـه، يظهـر هنـا لـونٌ فـضى، وهنـاك لـونٌ أسـود، تباطـأت مـرات عـدة: فقـد قابلـت فـرع لبـلاب منفـرد منحـرف بزاويـة ليلتقـط ضـوء القمـر عـلى نحـو مثـالى، وظهـرت فجـأة شـجرة البلـوط العظيمـة التـى بـدت محفـورة بدرجـة وضـوح غـير بشريـة أمـام السـماء الباهتـة، لكننـى لم أسـتطع أن أتوقـف، فطـوال الوقـت كان القـط يتقدمنـى بخطـوات عازمـة متسـاوية، وذيلـه مرفـوع مثـل مظلـة مرشـد سـياحى تبـث إشـارة "اتبعينـى"، وفى الحديقـة ذات الجـدران، قفـز عـلى الجـدار المحيـط بالنافـورة ومـشى نصـف محيطـه متئـدًا، ومتجاهـلاً انعـكاس القمـر الـذى أضـاء فى الميـاه مثـل عملـة لامعـة فى قـاع البركـة، وحـين بلـغ المدخـل المقنطـر إلى الحديقـة الشـتوية، هبـط ومـشى نحـوه.

توقـف لوهلـة تحـت القنطـرة، وتطلـع يمنـة ويسرة بنظـرة عازمـة، ثـم رأى شـيئًا، فتسـلل نحـوه بعيـدًا عـن الأنظـار.

تقدمت على أطراف أصابعى لأقف حيث يقف بدافع من فضولى، ونظرت حولى.

تكون الحديقة الشتوية زاهية الألوان حين تراها فى الوقت الصحيح من اليوم، وفى الوقت الصحيح من السنة، وتعتمد بدرجة كبيرة على أن يبث ضوء النهار الحياة فيها، وقد اضطرت زائرة منتصف الليل إلى أن تنظر بتمعن أكثر لترى معالمها الجذابة، كانت الحديقة مظلمة أكثر من أن تسمح برؤية الانتشار الواسع المنخفض لأوراق الخربق على التربة الداكنة، ولم يحن بعد موعد ازدهار أزهار الثلج، والطقس أبرد من أن يسمح لزهور الغار بأن تطلق رائحتها، لكن مع ذلك يوجد نبات بندق الساحرة، الذى قريبًا ستتزين أفرعه بالشُرابات الصفراء والبرتقالية المهتزة، لكن الآن، الأفرع نفسها هى أكثر ما يلفت الانتباه، الأشجار ناعمة وبلا أوراق، وتصميم الحديقة معقود بدقة وبه تعرج عشوائى، وتحيط به الأناقة.

عند آخرها، رأيت خيالاً لجسد بشرى منحنٍ على الأرض.

تجمدت.

يلهث الجسد ويتحرك بمشقة، ويطلق نفخات لاهثة وهمهمات متعبة.

وخلال ثانية طويلة بطيئة، تسابقت الأفكار فى عقلى لإيجاد تفسير لوجود إنسان آخر فى حديقة السيدة "وينتر" ليلاً، أدركت بعض الأشياء لحظيًا من دون الحاجة للتفكير بشأنها، بداية، هذا ليس "موريس" الذى يركع على ركبتيه هناك، مع أنه أكثر من يُحتمل أن أجده فى الحديقة، لم يخطر ببالى قط أن أتساءل إن كان هو أم لا، ليس هذا هيكله النحيل، وهذه ليست حركاته الوئيدة، كذا فإنها ليست "جوديث"، "جوديث" الأنيقة الهادئة بأظفارها النظيفة، وشعرها

المثالى وحذائها الملمع تنبش الحديقة فى منتصف الليل؟ مستحيل، لم أحتج للتفكير بشأنيهما، ولذا لم أفعل.

بدلاً من ذلك، فى تلك الثانية، ترنح عقلى ذهابًا وإيابًا مئات المرات بين فكرتين.

إنها السيدة "وينتر".

لا يمكن أن تكون السيدة "وينتر".

إنها السيدة وينتر لأنها.. لأنها هى، أستطيع أن أجزم بذلك، أحسست بذلك، إنها هى وقد أدركت ذلك.

لا يمكن أن تكون هى، فالسيدة "وينتر" ضعيفة ومريضة، السيدة "وينتر" دائمًا جالسة على مقعدها المتحرك، السيدة "وينتر" مريضة أكثر من أن تستطيع أن تنحنى لقطف نبتة، فما بالك بالانحناء على الأرض الباردة لتنبشها بهذه الطريقة المجنونة.

إنها ليست السيدة "وينتر".

لكن على نحو ما، على نحو مستحيل، وعلى الرغم من كل شىء، إنها هى.

كانت الثانية الأولى طويلة ومربكة، وكانت الثانية، حين جاءت أخيراً، مفاجئة.

تجمد الجسد.. استدار.. وانتصب.. وعرفت.

إنهما عينا السيدة "وينتر"، بشكلهما الأخضر الخارق العبقرى.

لكنه ليس وجه السيدة "وينتر".

ترقيع من الجلد المنقط الذى به ندوب، تتقاطع فيه شقوق أعمق مما قد يفعله الزمن، خدان مكتنزان غير متساويين، شفتان غير متوازنتين، نصفهما على شكل قوس مضبوط الزاوية يدل على

جـمال سـابق، والنصـف الآخـر عبـارة عـن ترقيـع وتعرجـات مـن اللحـم الأبيـض.

"إيميلايـن"! أخـت السـيدة "وينـتر"! إنهـا عـلى قيـد الحيـاة، وتعيـش فى هـذا المنـزل!

اضطـرب عقـلى، واندفـع الـدم فى أذنى، وشـلتنى الصدمـة، حملقـت إلىّ دون أن ترمـش، وأدركـت أنـا أنهـا أقـل منـى اندهاشًـا، لكـن مـع ذلـك، بدا أنهـا خاضعـة للتعويـذة نفسـها مثـلى، كلتانـا ملقـاة فى بحـر مـن الجمـود.

خرجـت هـى منـه أولاً، رفعـت يدهـا المظلمـة المغطـاة بالطـين نحـوى بحركـة سريعـة، وبصـوت أجـش نطقـت مجموعـة مـن الأصـوات بـلا معنـى.

أبطـأت الحـيرة اسـتجابتى، لم أسـتطع حتـى أن أنطـق اسـمها بتلعثـم قبـل أن تسـتدير وتهـرول مبتعـدة، مائلـة إلى الأمـام، منحنيـة الكتفـين، ثـم ظهـر القـط مـن الظـلال، وتمـدد بهـدوء وتبعهـا متجاهـلاً إيـاى، اختفيـا تحـت القنطـرة وبقيـت وحيـدة، أنـا ورقعـة مـن التربـة المبعـثرة.

بالفعل إنها الثعالب.

بمجـرد أن ذهبـا، ربمـا تمكنـت مـن إقنـاع نفـسى بأننـى تخيلـت ذلـك، أننـى كنـت أسـير نائمـة، وأننـى حلمـت خـلال نومـى بـأن تـوأم "آديلايـن" ظهـرت لى وهمسـت رسـالة سريـة غـير مفهومـة، لكننـى عرفـت أنـه حقيقـة، ومـع أننـى لم أعـد أراهـا، فإننـى اسـتطعت أن أسـمع غناءهـا وهـى تغـادر، تلـك المعزوفـة المثيرة للغضـب ذات النوتـات الخمـس بـلا لحـن، لا لا لا لا لا.

وقفت أستمع إليها، إلى أن اختفت تمامًا.

ثم عدت إلى المنزل، بعدما أدركت أن قدمى ويدى تتجمد.

# الأبجدية الصوتية

مـرت سـنوات كثـيرة منـذ تعلمـت الأبجديـة الصوتيـة، بـدأ الأمـر بجـدول فى كتـاب لغويـات بمتجـر والـدى، مـا مـن سـبب لاهتمامـى فى البدايـة، سـوى أننـى لم أجـد مـا أفعلـه فى نهايـة أسـبوع مـا، وقـد فتنتنـى الإشـارات والرمـوز التـى احتواهـا الجـدول، وجـدت بـه حروفًـا مألوفـة وغيرهـا غريبـة، وجـدت بـه حـروف "إن" كبـيرة تختلـف عـن مثيلاتهـا الصغـيرة، وحـروف "واى" كبـيرة تختلـف عـن مثيلاتهـا الصغـيرة، وحـروف أخـرى، حـروف "إن" و"دى" و"إس" و"زيـد"، لهـا أذيـال ودوائـر صغـيرة غريبـة ملحقـة بهـا، ويمكـن أن تـرى حـروف "إتـش" و"آى" و"يـو" كأنهـا حـروف "تى"، أحببـت تلـك الأشـكال الهجينـة الجامحـة الفخمـة: فمـلأت صفحـات بحـروف "إم" تحولـت إلى "جـى"، وحـروف "فى" ارتفعـت عـلى نحـو غـير مسـتقر فـوق حـروف "أُو" مثـل الـكلاب الراقصـة عـلى الكـرات فى السـيرك، صـادف والـدى صفحـات الرمـوز خاصتـى وعلمنـى الصـوت المرتبـط بـكل منهـا، وبحسـب مـا اكتشـفت، يمكـن فى الأبجديـة الصوتيـة

الدوليـة أن تكتـب كلـمات تبـدو مثـل المعـادلات الرياضيـة، كلـمات تبـدو مثـل شـيفرة سريـة، كلـمات تبـدو مثـل اللغـات المندثـرة.

احتجـت إلى لغـة مندثـرة، لغـة يمكننـى بواسـطتها التواصـل مـع مـن اندثـروا، اعتـدت أن أكتـب كلمـة مميـزة تلـو الأخرى، اسـم أختـى، تعويذة، ثـم أطـوى الكلمــة لتصبـح أوريجامــى مصغـر دقيـق، وأبقــى أوراقــى المطويـة قريبـة منـى، وفى الشـتاء عاشـت فى جيـب معطفـى، وفى الصيـف دغدغـت كعبـى داخـل جـوربى، وفى المسـاء، غفـوت متشـبثة بهـا فى يـدى، وعـلى الرغـم مـن كل هـذا الاهتـمام، لم أحفـظ دائمًـا مـكان قصاصـات الـورق تلـك، فقدتهـا، وصنعـت غيرهـا، ثـم وجـدت تلـك الضائعـة، وحـين حاولـت والـدتى اقتنـاص واحـدة مـن بـين أصابعـى، ابتلعتهـا لأمنعهـا، مـع أنهـا مـا كانـت لتسـتطيع قراءتهـا، لكـن حـين رأيـت والـدى يلتقـط ورقـة قديمـة مطويـة أصبـح لونهـا رماديًـا مـن بـين الكراكيـب فى قـاع درج، ويفتحهـا، لم أفعـل شـيئًا لإيقافـه، وحـين قـرأ الاسـم الـسرى، بـدا الانكسـار عـلى وجهـه، وكانـت عينـاه حـين تطلعتـا إلىَّ مليئتـين بالحـزن.

كان ليتكلـم، فتـح فمـه ليتكلـم لكننـى أمرتـه بالصمـت برفـع إصبعـى إلى شـفتى، مـا كنـت لأسـمح لـه بـأن ينطـق اسـمها، ألم يحـاول هـو أن يحبسـها بعيـدًا، فى الظـلام؟ ألم يـرد أن ينسـاها؟ ألم يحـاول أن يبعدهـا عنـى؟ فـلا حـق لـه فيهـا الآن.

اقتنصـت الورقـة مـن بـين أصابعـه، وغـادرت الغرفـة مـن دون كلمـة، وعـلى كـرسى النافـذة فى الطابـق الثـانى، وضعـت قصاصـة الـورق فى فمـى، تذوقـت نكهتهـا الجافـة الخشـبية، وابتلعتهـا، لمـدة عـشرة أعـوام، دفـن والـداى اسـمها بالصمـت، يحـاولان النسـيان، والآن سـأحميها بصمتـى الخـاص، وسـأتذكرها.

كانـت الأبجديـة الصوتيـة واحـدة مـن الينابيـع العشـوائية السريـة للمعرفـة عديمـة الفائـدة التـى تبقـت معـى مـن طفولتـى العامـرة

بالكتب، إلى جانب نطقى الخطأ لكلمات مرحبًا والوداع وآسفة بسبع عشرة لغة، وقدرتى على تذكر الأبجدية اليونانية من البداية للنهاية والعكس (وأنا لم أتعلم قط كلمة يونانية فى حياتى)، تعلمتها فقط لأسلى نفسى -ولأغراض شخصية فقط- لذا بمرور السنين لم أبذل أى جهد خاص لأمارسها، ولهذا اضطررت إلى المحاولة مرات عدة حين رجعت من الحديقة ووضعت القلم على الورقة لأسجل أصوات الصفير والصوامت الاحتكاكية والصوامت الانفجارية والحروف التكرارية الواردة فى همسة "إيميلاين" السريعة.

بعد ثلاث أو أربع محاولات، جلست على السرير ونظرت إلى السطر الذى كتبته من الخطوط المائلة والرموز والإشارات، هل كان دقيقًا؟ بدأت الشكوك فى مهاجمتى، هل تذكرت الأصوات بدقة بعد رحلة الدقائق الخمس إلى المنزل؟ هل كان تذكرى للأبجدية الصوتية نفسه كافيًا؟ ماذا لو لوثت محاولاتى الأولية الفاشلة ذاكرتى؟

همست ما كتبته على الورقة، همسته مجددًا بسرعة، انتظرت تردد صدى ما فى ذاكرتى لديه الإجابات ليخبرنى أنها صحيحة، لكن لم يتردد أى صدى، إنَّ ذلك السطر تفريغ لتقليد ساخر لشىء لم يُسمع بوضوح، ومن ثم لم يُتذكر بوضوح، إنه بلا فائدة.

كتبت الاسم السرى بدلاً منه، والتعويذة، والسحر.

لم تنجح التعويذة من قبل، فأختى لم ترجع، وأنا لا أزال وحيدة.

برمتُ الورقة على شكل كرة وركلتها إلى إحدى الزوايا.

السُلم

"قصتى لا تضجرك يا آنسة (ليا)؟"

تحملت عددًا من مثل هذه التعليقات فى اليوم التالى وأنا أتململ وأحك عينى وأستمع إلى قصة السيدة "وينتر"، غير قادرة على كبح تثاؤبى.

"أنا آسفة، إنى متعبة فقط".

تعجبت: "متعبة! تبدين كالمحتضرة! ستجعلك وجبة لذيذة على ما يرام، ماذا حدث لك؟"

هززت كتفى بلا مبالاة: "أنا متعبة فقط، هذا كل ما فى الأمر".

زمت شفتيها ورمقتنى بنظرة صارمة، لكننى لم أعلق، واستغرقت هى فى قصتها.

***

تُركت الأمور على عواهنها لستة أشهر، عزلنا أنفسنا فى بضع من الغرف: المطبخ، حيث لا يزال "جون" ينام، والمرسم والمكتبة، ونحن الفتاتين استخدمنا سلمًا خلفيًا للوصول من المطبخ إلى إحدى غرف النوم التى بدت آمنة، المراتب التى نمنا عليها هى تلك التى جررناها من الغرفة القديمة، فالأسرَّة نفسها أثقل من أن نستطيع تحريكها، وعلى أيَّة حال فإن المنزل بدا كبيرًا للغاية منذ تقلص عدد ساكنيه، ونحن من نجونا، شعرنا بسهولة أكبر فى تأمين شئون مسكننا الأصغر وإدارته، ومع ذلك، لم ننجح فى نسيان بقية المنزل، الذى تتفاقم أحواله وراء الأبواب المغلقة، مثل طرف بشرى يحتضر.

قضت "إيميلاين" الكثير من وقتها فى ابتكار ألعاب بالبطاقات، فكانت تلح على: "العبى معى، هيا العبى معى"، وفى النهاية استسلمت ولعبت معها، كانت ألعابًا مبهمة، بقوانين دائمة التغير، ألعاب فهمتها هى وحدها، وفازت بها دائمًا، ما بث فيها سرورًا دائمًا، اعتادت أن تتحمم، فهى لم تفقد قط حبها للصابون والمياه

الساخنة، وكانت تقضى ساعات تدلل نفسها فى المياه التى سخنتُها لغسل الملابس والاغتسال، لم أبخل عليها بذلك، فمن الأفضل أن تكون إحدانا على الأقل قادرة على أن تكون سعيدة.

قبل أن نغلق الغرف، مرت "إيميلاين" على الخزانات التى استخدمتها "إيزابيل" وأخذت الفساتين والعطور والأحذية وراكمتها فى المخيم الذى اتخذناه غرفة نوم، كان الأمر أشبه بأن تحاول النوم فى صندوق للزينة، ارتدت "إيميلاين" الفساتين، بعضها كان قد مر عليه عشرة أعوام، وغيرها -الخاصة بوالدة "إيزابيل"، بحسب ما أفترض- كان عمرها ثلاثين وأربعين عامًا، اعتادت "إيميلاين" أن تسلينا فى المساء بدخولها إلى المطبخ مرتدية الأزياء التى تبدو باهظة الثمن، جعلتها الفساتين تبدو أكبر سنًا من خمسة عشر، كانت تبرز أنوثتها، تذكرت محادثة "هيستر" مع الطبيب فى الحديقة -لا أرى سببًا لكيلا تتزوج (إيميلاين) فى يوم ما- وتذكرت ما قالته السيدة لى عن "إيزابيل" والنزهات - كانت من نوع الفتيات اللاتى لا ينظر إليه رجل دون أن تراوده الرغبة فى لمسه- وشعرت بقلق مفاجئ، لكن عند ذلك ارتمت على أحد كراسى المطبخ، وأخرجت من حقيبة يدها الحريرية مجموعة من بطاقات اللعب، وقالت بكل طفولية: "هيا، العبى معى بالبطاقات"، طمأننى ذلك قليلاً، لكن مع ذلك، حرصت على ألا تغادر المنزل بأناقتها.

كان "جون" باردًا، ومع ذلك فقد دفع نفسه إلى فعل ما لا يُصدق: جلب فتى ليساعده فى الحديقة، قال: "سيكون الأمر على ما يرام، إنه ليس إلا ابن العجوز (بروكتور)، اسمه (أمبروز)، إنه شاب هادئ، ولن يطول وجوده، فقط حتى أصلح المنزل".

أدركت أن هذا سيستمر إلى الأبد.

جـاء الفتـى، كان أطـول مـن "جـون" وأعـرض منـه عنـد الكتفـين، وقفـا وأيديهـما فى جيوبهـما، وتناقشـا بشـأن عمـل اليـوم، ثـم بـدأ الفتـى عملـه، كان لـه أسـلوب دقيـق وصبـور فى الحفـر، فكانـت دقـات المجرفـة المسـتمرة فى الأرض تثـير أعصـابى: "لم يجـب أن يكـون موجـودًا؟" أردت أن أعـرف: "إنـه غريـب مثـل الآخريـن تمامًـا".

لكـن لسـبب مـا، لم يكـن الفتـى غريبًـا بنظـر "جـون"، ربمـا لأنـه قـادم مـن عـالم "جـون"، عـالم الرجـال، العـالم الـذى لم أعرفـه.

قـال "جـون": "إنـه شـاب صالـح"، مـرارًا وتكـرارًا إجابـة عـلى أسـئلتى: "إنـه جـاد فى عملـه، ولا يسـأل كثـيرًا، ولا يتكلـم كثـيرًا".

"قد لا يكون له لسان، لكنّ فى رأسه عينين".

هز "جون" كتفيه بلا مبالاة واستدار مستاءً.

قـال فى النهايـة: "لـن أظـل موجـودًا للأبـد، ولا يمكـن أن تسـتمر الأمـور للأبـد هكـذا"، وأشـار إشـارة غامضـة بيـده شـملت المنـزل وسـاكنيه وحياتنا داخلـه: "لا مفـر مـن تغـير الأمـور فى يـوم مـا".

"تغير؟"

"أنـت تكبريـن، لـن تظـل الأمـور عـلى حالهـا، أليـس كذلـك؟ أن تكونـا طفلتـين شىء، وأن تصبحـا بالغتـين..."

لكننى كنت قد تركته بالفعل، لم أرد أن أعرف ما أراد قوله.

كانـت "إميلايـن" فى غرفـة النـوم، تخلـع الترتـر مـن وشـاح ليـلىّ لتجمعـه فى صنـدوق كنوزهـا، جلسـت إلى جانبهـا، بـدت مسـتغرقة جـدًّا فى مهمتهـا لدرجـة عـدم التفاتهـا إلى حـين جئـت، أصابعهـا متدرجـة الامتـلاء التقطـت قطـع الترتـر بـلا هـوادة حتـى خلعتهـا كلهـا، ثـم ألقتهـا داخـل الصنـدوق، كان عمـلاً بطيئًـا، لكـن "إميلايـن" لديهـا كل الوقـت المطلـوب، وجههـا الهـادئ لم يتأثـر قـط مـع انعكافهـا عـلى الوشـاح، ضامـة شـفتيها،

ونظرتها عازمة وحالمة فى آن، بين الحين والآخر يهبط جفناها، مُخفِيَين حدقتين خضراوين، ثم بمجرد أن يلمسا الجفنين السفليين، يرتفعان مجددًا ليكشفا عن خضار لم يتبدل.

هل بدوت هكذا حقًّا؟ تساءلت، أدركت مدى تطابق عينى وعينيها فى المرآة، وأدركت أننا لدينا الخصلة الملتوية نفسها الشاطحة تحت ثقل الشعر الأحمر فى مؤخر عنقينا، وأدركت تأثيرنا على القرويين فى تلك المرات النادرة التى مشينا فيها متشابكتى الذراعين فى شارع "ذا ستريت" بفستانين متطابقين، لكن مع ذلك، لم أبد مثل "إيميلاين"، أليس كذلك؟ وجهى لم يستطع أن يُبدى ذلك التركيز الهادئ، فالإحباط سيشوهه، إذ سأعض شفتى، وسأرفع شعرى بعصبية وراء كتفى وخارج مجال بصرى، وسأنفخ ضجرًا، لن أكون هادئة مثل "إيميلاين"، سأعض قطع الترتر بأسنانى.

أردت أن أسألها، لن تتركينى، أليس كذلك؟ لأننى لن أتركك، سنبقى هنا إلى الأبد، معًا، أيًا كان ما يقوله "جون ذا ديج".

"لم لا نلعب؟"

تابعت عملها الصامت كأنها لم تسمعنى.

"لنلعب لعبة الزواج، يمكنك أن تكونى العروس، هيا، يمكنك ارتداء.. هذا"، وجذبت قطعة صفراء من الملابس الشفافة من كومة الأزياء الأنيقة فى الزاوية: "إنه مثل حجاب الزفاف، انظرى"، لكنها لم تنظر، ولا حتى حين رميتها على رأسها، أبعدتها برقة عن عينيها واستمرت فى خلع قطع الترتر.

فحولت انتباهى إلى صندوق كنوزها، مفاتيح "هيستر" لا تزال هناك، محتفظة بلمعانها، مع إن "إيميلاين"، على ما يبدو، قد نسيت أمر صاحبتها القديمة، توجد أجزاء وقطع من حلى "إيزابيل"، والأغلفة الملونة للحلوى التى أعطتها لها "هيستر" يومًا ما، وقطعة

مثـيرة للانتبـاه مـن زجاجـة خـضراء مكسـورة، وجـزء مـن شريـط لـه طـرف ذهبـى كان لى، أعطتـه لى السـيدة منـذ سـنوات لا أتذكـر عددهـا، وتحـت قطـع الخـردة الأخـرى لا تـزال الخيـوط الفضيـة التـى انتزعتهـا مـن السـتائر يـوم وصلـت "هيسـتر" موجـودة، وهنـاك شىء بـدا غريبًـا، نصفـه مختـفٍ تحـت ركام الياقـوت والزجـاج والخـردة، شىء مـن الجلـد، أملـت رأسى جانبًـا لأراه أفضـل، آه! لهـذا أرادت الاحتفـاظ بـه! لأن عليـه نقـش ذهبـى، إنهـا حـروف "أى إيـه آر"، مـا المقصـود بــ"أى إيـه آر"؟ أو مـن المقصـود بــ"أى إيـه آر"؟ أملـت رأسى إلى الجهـة المقابلـة ولمحـت شيئًا آخـر، قفـل صغـير، ومفتـاح صغـير، ليـس غريبًـا أنـه فى صنـدوق كنـوز "إيميلايـن، حـروف ذهبيـة ومفتـاح، لا بـد أنهـا غنيمتهـا الأعـلى قيمـة، وفجـأة صدمتنـى فكـرة، "أى إيـه آر"! إنـه دفـتر يوميـات!

مددت يدى.

نظـرات "إيميلايـن" يمكـن أن تكـون خادعـة، فقـد هبطـت يـد "إيميلاين" بسرعـة الـبرق وبـكل قـوة عـلى رسـغى، ومنعتنـى مـن لمسـه، ومـع ذلـك لم تنظـر إلى، بـل حركـت يـدى بعيـدًا بحركـة صارمـة، وأنزلـت غطـاء صندوقهـا.

وجدت علامات ضغط بيضاء على رسغى حيث أمسكت بى.

قلـت عـلى سـبيل التجربـة: "سـأذهب بعيـدًا"، لم يبـد صـوتى مقنعًـا للغايـة، "نعـم سـأفعل ذلـك، وسـأتركك هنـا، سـأكبر وأعيـش وحـدى".

ثـم وقفـت وغـادرت الغرفـة، تملـؤنى الشـفقة عـلى الـذات المغلفـة بالكبريـاء.

لم يكـن إلا فى نهايـة عـصر اليـوم أن جـاءت لتجـدنى عـلى مقعـد النافـذة فى المكتبـة، أغلقـت السـتائر لتخفينـى، لكنهـا جـاءت إلى مـكانى مبـاشرة ونظـرت حولـه، سـمعت خطواتهـا المقتربـة، وشـعرت بحركـة السـتائر حـين رفعتهـا، كنـت أشـاهد قطـرات المطـر عـلى زجـاج النافـذة وجبهتـى

مضغوطة على الزجاج، كانت الرياح تجعل قطرات المطر ترتعش، فتهدد باستمرار بأن تطلق قطرة بإحدى المسارات المتعرجة وتبتلع كل قطيرة فى طريقها وتترك وراءها طريقًا لامعًا مختصرًا، جاءت "إيميلاين" إلىَّ وأرخت رأسها على كتفى، هززت كتفى لأبعدها بغضب، ولم أستدر لأكلمها، فأخذت يدى، ووضعت شيئًا على أصابعى.

انتظرت أن تمشى قبل أن أنظر، إنه خاتم، لقد أعطتنى خاتمًا.

أدرت حَجَر الخاتم للداخل، إلى ناحية الكف، وقربته من النافذة، أعاد الضوء الحياة إلى الحجر، إنه أخضر، مثل عينى، أخضر مثل عينى "إيميلاين"، لقد أعطتنى خاتمًا، أغلقت أصابعى على كفى وجعلتها قبضة محكمة وفى قلبها الحجر.

***

جمع "جون" دلاء مياه المطر وأفرغها، وقشر الخضراوات ليضعها فى القدر، وذهب إلى المزرعة وعاد بالحليب والزبد، لكن بعد كل مهمة، يبدو أن طاقته التى جمعها ببطء تنفد، وفى كل مرة تساءلت هل ستكون لديه القوة اللازمة ليقيم عوده النحيل عن الطاولة لينفذ المهمة التالية؟

سألته: "أنذهب إلى الحديقة التوبيارية؟ يمكنك أن ترينى ما يجب فعله هناك".

لم يرد، أظن أنه بالكاد سمعنى، فتركت الأمر لبضعة أيام، ثم طلبت منه هذا مجددًا، ومرارًا وتكرارًا.

فى النهاية ذهب إلى الكوخ، حيث شحذ المجزات بإيقاع حركته السلس القديم، ثم أنزلنا السلم الطويل وحملناه مع المجزّات إلى الخارج، "هكذا"، ومد يده ليرينى مفتاح الأمان فى السلم، ومد السلم مقابل جدار الحديقة، جربت مفتاح الأمان بضع مرات، ثم صعدت

بضع درجات وهبطت، قال: "لن تشعرى أنه بهذا الثبات حين تسندينه إلى أشجار الصنوبر، لكنه سيكون آمنًا كفاية إن تعاملت معه على نحو صحيح، يجب أن تشعرى به".

ثم ذهبنا إلى الحديقة التوبيارية، وقادنى إلى شجرة صنوبر متوسطة الحجم بحاجة إلى تقليم، فذهبت لأسند السلم إليها، لكنه صاح: "لا، لا، أنت متسرعة للغاية". سار ثلاث مرات حول الشجرة، ثم جلس وأشعل سيجارة، وجلست أنا وأشعل واحدة لى أيضًا، "لا تقصى الأشجار فى ضوء الشمس المباشر أبدًا، وانتبهى إلى ظلك"، وسحب بضع أنفاس من سيجارته، "احذرى من السحاب، لا تدعيه يميل خط اتزانك وهو يتحرك، حددى شيئًا ثابتًا فى مجال رؤيتك، مثل سطح أو سياج، هذا محور حركتك، ولا تتسرعى أبدًا، ستقضين فى النظر ثلاثة أضعاف الوقت الذى تقضينه فى التشذيب"، لم يرفع عينه عن الشجرة طوال حديثه، كذا لم أفعل أنا: "يجب أن تشعرى بمؤخر الشجرة حين تقلمين مقدمها، والعكس كذلك، ولا تقطعى بالمجزات وحسب، بل استخدمى كامل ذراعك، استخدميه بالكامل حتى كتفيك".

أنهينا سيجارتينا وأطفأنا العقبين بمقدم حذاءينا.

"أبقى فى بالك شكل الشجرة الآن، مِن بُعد، حين تقتربين منها".

كنت مستعدة.

تركنى أسند السلم إلى الشجرة ثلاث مرات قبل أن يرضى عن درجة أمانه، ثم أخذت المجزات وصعدت.

عملت لثلاث ساعات، فى البداية كنت مدركة للارتفاع، وظللت أنظر إلى الأسفل، واضطررت إلى إجبار نفسى على الصعود درجة إضافية، وفى كل مرة حركت فيها السلم، استغرق الأمر محاولات عدة لأجعله آمنًا، لكن بالتدريج تمكنت من تلك المهمة، بالكاد انتبهت إلى مدى ارتفاعى، فعقلى كان مستغرقًا جدًا فى الشكل الذى أحاول صنعه،

وقف "جون" بالقرب منى، صامتًا غالب الوقت، يبدى تعليقًا بين الحين والآخر: انتبهى إلى ظلك! أو فكرى فى المؤخر! لكن فى الغالب كان يتفرج فقط، ويدخن، لم يكن إلا حين نزلت عن السلم للمرة الأخيرة، وفتحت مفتاح الأمان وضممته، أن أدركت كم تؤلمنى يداى بسبب وزن المجزّات، لكننى لم أهتم.

تراجعت للخلف كثيرًا لأفحص نتيجة عملى، وسرت ثلاث مرات حول الشجرة، تهلل قلبى، فالنتيجة كانت جيدة.

أومأ "جون": "ليس سيئًا، ستفلحين فى هذا".

***

ذهبت لأحضر السلم من الكوخ لتقليم القبعة المستديرة، لكننى لم أجده، الفتى الذى لا أحبه موجود فى حديقة المطبخ ومعه المجرفة، ذهبت إليه متجهمة: "أين السلم؟" وكانت تلك أول مرة أتحدث إليه.

تجاهل فظاظتى وأجاب بأدب: "أخذه السيد (ديجنس)، إنه ناحية مقدم المنزل يصلح السقف".

جلبت لنفسى واحدة من السجائر التى تركها "جون" فى الكوخ، ودخنتها، مرسلة نظرات خبيثة إلى الفتى الذى نظر إلى السيجارة بعينين حاسدتين، ثم شحذت المجزّات، ثم، بعدما أعجبنى الشحذ، شحذت سكين الحديقة، مستغرقة الوقت اللازم وأفعل ذلك بشكل جيد، ويسير وراء إيقاع الحجر والشفرة طوال الوقت إيقاع حفر مجرفة الفتى فى الأرض، ثم نظرت إلى الشمس وفكرت فى أننى أتأخر على بدء فى القبعة المستديرة الكبيرة، ثم ذهبت لأبحث عن "جون".

كان السلم ممددًا على الأرض، يصنع نصفاه زاوية غريبة تشبه عقارب الساعة، والقناة المعدنية التى كان يفترض أن تثبتهما فى

خـط مسـتقيم شُـدت بقـوة مـن الخشـب، وتـبرز شـظيتان كبيرتـان مـن الكسرالـذى فى جانـب السـلم، وبجـوار السـلم تمـدد "جـون"، لم يتحـرك حـين لمسـت كتفـه، لكنـه كان دافئًـا مثـل الشـمس التـى لمسـت أطرافـه المتباعـدة وشـعره الدامـى، كان يحملـق إلى السـماء الزرقـاء الصافيـة، لكـن أزرق عينيـه غائـم عـلى نحـو غريـب.

هجرتنـى الفتـاة العاقلـة، وفجـأة أصبحـت نفـسى فقـط، مجـرد طفلـة غبيـة، بـلا أىّ شىء تقريبًـا.

همست: "ماذا أفعل؟"

أخافنى صوتى: "ماذا أفعل؟"

راقبـت مـرور الوقـت وأنـا ممـددة عـلى الأرض، ويـد "جـون" معشـقة بيـدى، وحبـات الحـصى تنخـر صدغـى، امتـد ظـل الجـزء المرتـد مـن المنـزل الخـاص بالمكتبةعـلى الحـصى وبلـغ أبعـد درجـات السـلم، وتسـلل الظـل عـلى السـلم بتجاهنـا درجـة تلـو الأخـرى، وبلـغ مفتـاح الأمـان.

مفتـاح الأمـان، لمـاذا لم يتفقـد "جـون" مفتـاح الأمـان؟ أليـس أكيـدًا أنـه سـيتفقده؟ نعـم بالتأكيـد، ولكـن إن كان قـد تفقـده، فكيـف.. ولمـاذا...؟

لم أتحمل التفكير فى الأمر.

درجـة، تلـو الأخـرى، تلـو الأخـرى، يتسـلل ظـل ارتـداد المكتبـة ويصبـح أقـرب فأقـرب، وصـل الظـل إلى بنطـال "جـون" الصـوفى، ثـم قميصـه الأخـضر، ثـم شـعره، كـم أصبـح شـعره خفيفًـا! لمَ لمْ أهتـم بـه أفضـل؟

لم أتحمـل التفكـير فى الأمـر، ولكـن كيـف لا أفكـر؟ بينـما ألاحـظ شـحوب شـعر "جـون"، لاحظـت أيضًـا الحـزوز العميقـة فى الأرض التـى أحدثتهـا قاعـدة السـلم مـع تمايلـه بعيـدًا عـن "جـون"، ولا وجـود لعلامات أخـرى، الحـصى ليـس رمـلاً أو ثلوجًـا أو حتـى أرض منبوشـة حديثًـا، إنـه لا يحفـظ آثـار الأقـدام، لا أثـر يُظهـر كيـف أتى أحـد، أو كيـف عبـث أحـد

بقاعـدة السـلم، وكيـف ابتعـد بهـدوء حـين أنهـى مـا جـاء مـن أجلـه، فمـما يوضحـه الحـصى، ربمـا كان شـبحًا.

كان كل شيء باردًا، الحصى، ويد "جون"، وقلبى.

وقفـت وتركـت "جـون" دون النظـر إلى الـوراء، سرت حـول المنـزل إلى حديقـة المطبـخ، كان الفتـى لا يـزال هنـاك، وجدتـه يضـع المجرفـة والمكنسـة بعيـدًا، توقـف حـين رآنى أقـترب، وحملـق إلى، ثـم حـين توقفـت -قلـت لنفـسى لا تفقـدى الوعـى! لا تفقـدى الوعـى!- ركـض إلىّ ليمسـك بى، رأيتـه كأننـى بعيـدة جـدًّا، جـدًّا، ولم أفقـد الوعـى، ليـس تمامًـا، بـل أحسسـت بصـوت يعلـو داخـلى حـين اقـترب، كلـمات لم أخـتر أن أقولهـا، لكنهـا شـقت طريقهـا إلى خـارج حلقـى المخنـوق: "لم لا يسـاعدنى أحـد؟"

أمسـك بى مـن تحـت ذراعـى، وانهـرت تجاهـه، سـاعدنى برفـق لأتمـدد عـلى العشـب: "سأسـاعدك، سـأفعل ذلـك".

***

بينـما حادثـة مـوت "جـون ذا ديـج" حـاضرة فى ذهنـى، ووجـه السـيدة "وينـتر"، الشـكلى، لا يـزال مهيمنًـا عـلى ذاكـرتى، بالـكاد لاحظـت الرسـالة التـى كانـت تنتظـرنى فى غرفتـى.

لم أفتحهـا حتـى انتهيـت مـن التفريـغ، وحـين انتهيـت، لم يكـن لـدى الكثـير لأفعلـه.

العزيزة الآنسة ليا،

بعد المساعدة التى قدمها لى والدك على مر السنين، اسمحى لى أن أعبر عن مدى امتنانى لإتاحة الفرصة لرد الجميل لابنته ولو على نحو بسيط.

لم يتوصل بحثى الأوّلى فى المملكة المتحدة إلى أى أدلة على مكان وجود السيدة "هيستر بارو" بعد فترة عملها فى "آنجلفيلد"، وقد وجدت عددًا محددًا من الوثائق تتعلق بحياتها قبل تلك الفترة، وأعد تقريرًا أتوقع أن يصل إليك فى غضون أسابيع قليلة.

لم يصل بحثى إلى نهايته بأى نحو، ولم أنتهِ بعد من تحقيقى بشأن صلتها فى إيطاليا، ومن المرجح للغاية أن تؤدى تفصيلة ما من سنواتها المبكرة إلى مسار تحقيق جديد.

لا تيأسى! إن كان أحد يستطيع العثور على المعلمة المنزلية خاصتك، فهو أنا.

المخلص،

إيمانويل دريك.

وضعت الرسالة بعيدًا فى درج، ثم جذبت معطفى والقفازين.

قلت لـ"شادو": "هيا بنا".

تبعنى وهبطنا السلم وخرجنا من المنزل، واتخذنا الطريق بطول جانب المنزل، بين الحين والآخر نجد شجيرة أمام الحائط فتجعلنا ننحرف عن مسارنا، وبالتدريج تبعدنا عن الجدار، بعيدًا عن المنزل، وتؤدى بنا إلى إغراءات الحديقة الشبيهة بالمتاهة، قاومت ذلك الميل البسيط وتابعت طريقى المستقيم، أن أبقى حائط المنزل إلى يسارى يعنى أن أنحشر وراء أجمة آخذة فى الاتساع من الشجيرات الناضجة

الكثيفـة، لقـد علقـت سـيقانها المتشـابكة فى كعبـى، فاضطـررت إلى لـف وشـاحى حـول وجهـى لتجنـب الخـدش، صاحبنـى القـط حتـى الآن، ثـم توقـف، حيـث غلبتـه كثافـة الأشـجار المتشـابكة.

ظللـت أتقـدم، ووجـدت مـا كنـت أبحـث عنـه، وجـدت نافـذة تغطيهـا أشـجار اللبـلاب بالكامـل تقريبًـا، وفى وجـود مثـل تلـك الكثافـة لـلأوراق دائمـة الخضرة بـين النافـذة والحديقـة، فـإن أى بصيـص ضـوء يهـرب منهـا لـن يُـرى أبـدًا.

داخـل النافـذة مباشرة، جلسـت أخـت السـيدة "وينـتر" أمـام طاولـة، وأمامهـا جلسـت "جوديـث"، كانـت ترفـع ملاعـق الحسـاء إلى شـفتى المرأة المقعـدة الجافتـين المتشـققتين، وفجـأة، فى منتصـف الطريـق بـين الوعـاء وفمهـا، توقفـت "جوديـث" لوهلـة ونظـرت تجاهـى مباشرة، لم تسـتطع رؤيتـى، فقـد كان اللبـلاب كثيفًـا للغايـة، لا بـد أنهـا شـعرت بحملقتـى، وبعدمـا توقفـت لوهلـة، عـادت إلى مهمتهـا، ولكننـى لاحظـت شـيئًا غريبًـا فى الملعقـة، إنهـا ملعقـة فضيـة عليهـا حـرف "إيـه" ممـدد بشـكل منمـق يزيـن المقبـض.

رأيـت ملعقـة مثلهـا مـن قبـل، حـرف "إيـه"، "آنجـل"، "آنجلفيلـد"، كانـت لـدى "إيميلايـن" ملعقـة مثـل هـذه، وكذلـك "أوريليـوس".

تملصـت إلى الخلـف مـن بـين الشـجيرات، وأنا ملتصقـة بالجـدار والأفرع متشـابكة فى شـعرى، تفـرج القـط وأنـا أزيـل أجـزاء الأفـرع والأوراق الميتـة عـن كمـى وكتفـى.

اقترحت عليه: "إلى الداخل؟" وكان سعيدًا للغاية بأن يوافق.

لم يتمكـن السـيد "دريـك" مـن تعقـب "هيسـتر" مـن أجـلى، لكـن عـلى الجانـب الآخـر، وجـدت "إيميلايـن".

# الشفق الأبدى

دونت القصة فى مكتبى، وتجولت فى الحديقة، ومسدت القط فى غرفة نومى وكبحت كوابيسى بالبقاء مستيقظة، بدت لى الليلة المقمرة التى رأيت فيها "إيميلاين" فى الحديقة كأنها حلم، لأن السماء انغلقت مجددًا، وأصبحنا مغمورين من جديد فى شفق بلا نهاية، بموت السيدة والآن "جون ذا ديج"، تسلل المزيد من الرعب إلى قصة السيدة "وينتر"، أكانت "إيميلاين" - ذلك الجسد المخيف فى الحديقة- هى من عبثت بالسلم؟ لم يكن أمامى إلا أن أنتظر حتى تكشف القصة نفسها لى، وفى أثناء ذلك، مع مرور أيام ديسمبر، يصبح الظل الحائم على نافذتى أكثر قوة بلا توقف، قربه نفّرنى، وبُعده فطر قلبى، كلما رأيته ثار داخلى مزيج مألوف من الخوف والاشتياق.

وصلت إلى المكتبة قبل السيدة "وينتر" -لا أعرف صباحًا أم عصرًا أم مساءً، فقد أصبحت متشابهة- ووقفت قرب النافذة وانتظرت، ضغطت أختى الشاحبة أصابعها تجاه أصابعى، وحبستنى داخل

نظرتها المتوسلة، وغشيت الزجاج بنفسها البارد، ليس أمامى إلا أن أكسر الزجاج حتى أكون معها.

جاء صوت السيدة "وينتر"من خلفى: "إلامَ تنظرين؟"

استدرت ببطء.

صاحت بي: "اجلسى"، ثم قالت: "ضعى جذعًا آخر فى الموقد يا (جوديث) إذا سمحتى، وأحضرى لهذه الفتاة شيئًا تأكله".

جلست.

جلبت "جوديث" الكاكاو والخبز المحمص.

تابعت السيدة "وينتر" قصتها وأنا أرتشف الكاكاو الساخن.

***

قال: "سأساعدك"، لكن كيف يساعدنى؟ إنه مجرد فتى.

أبعدته عن طريقى، بعثته ليجلب الطبيب "مودسلى"، وبينما هو بعيد أعددت كوب شاى حلوًا وقويًا، وشربت ملء قدر من الشاى، فكرت بأفكار صعبة، وفكرت فيها بسرعة، وبوصولى إلى تفل الشاى، كان وخز الدموع قد تراجع تمامًا من عينى، لقد حان وقت العمل.

كنت مستعدة حين عاد الفتى مع الطبيب، حالما سمعت خطواتهما تقترب من المنزل، تجاوزت حزنى حتى أقابلهما.

"(إيميلاين)، أيتها الطفلة المسكينة!" صاح الطبيب وهو يقترب، رافعًا يده بإشارة متعاطفة، كأنه سيحتضننى.

تراجعت خطوة إلى الوراء، وتوقف هو، "(إيميلاين)؟" لمعت الحيرة فى عينيه، "آديلاين"؟ هذا غير ممكن، لا يمكن، مات الاسم على شفتيه، وتلعثم قائلاً: "سامحينى"، لكنه لم يكن بعد متأكدًا.

لم أساعده فى حيرته، بل بكيت.

ليست دموعًا حقيقية، فدموعى الحقيقية -وصدقينى، كانت لدى وفرة منها- كانت مُخزنة، وفى وقت ما، الليلة أو غدًا أو فى وقت قريب، لم أعرف متى تحديدًا، سأكون وحدى وسأبكى لساعات، سأبكى على "جون"، وعلى نفسى، سأبكى بصوت عال، سأصيح بدموعى، مثلما اعتدت أن أفعل وأنا طفلة صغيرة حين كان "جون" وحده هو من يهدئنى، ويمسد شعرى بيده التى كانت برائحة التبغ والحديقة، ستكون تلك دموعًا ساخنة وقبيحة، وحين تأتى النهاية -إن جاءت- ستكون عيناى منتفختين للغاية لدرجة أننى لن يتبقى لى سوى شقين يحاصرهما الاحمرار لأرى من خلالهما.

لكن هذه الدموع لها خصوصية، وهى ليست لهذا الرجل، الدموع التى أرضيته بها كانت زائفة، دموع جملت عينىَّ الخضراوين مثلما تجمل الجواهر الزمرد، ولقد نجحت، إن أبهرتِ رجلاً بعينين خضراوين، فإنه سيصبح منومًا مغناطيسيًّا لدرجة أنه لن يلاحظ أن أحدًا ما يتجسس عليه من داخل العينين.

قال منتصبًا من جانب الجثة: "أخشى أن ليس بوسعى شىء لمساعدة السيد (ديجنس)".

كان وقع اسم "جون" الحقيقى غريبًا.

"كيف حدث ذلك؟" تطلع إلى الدرابزين حيث كان "جون" يعمل، ثم انحنى إلى السلم: "هل تعطل مفتاح الأمان؟"

استطعت النظر إلى الجثة بلا تأثر، تقريبًا، وتساءلت بصوت عال: "أيمكن أنه انزلق؟ هل تشبث بالسلم وهو يسقط فأسقطه معه؟"

"ألم يره أحد وهو يسقط؟"

"غرفنـا فى الجانـب الآخـر مـن المنـزل، والفتـى كان فى حديقـة الخـضراوات"، وقـف الفتـى بعيـدًا قليـلاً عنـا، متحاشـيًا النظـر إلى الجثـة.

"هممم، ليست له عائلة، بحسب ما أتذكر".

"عاش دائمًا وحده تمامًا".

"حسنًا، وأين خالك؟ لماذا لم يخرج لمقابلتى؟"

لم تكــن لــدى أدنى فكـرة عــما قالــه "جــون" للفتــى عــن وضعنــا، اضطــررت إلى الارتجــال.

بصوت منتحب، قلت للطبيب إن خالى قد رحل بعيدًا.

عبس الطبيب: "بعيدًا!"

لم يتأثـر الفتــى، إذًا، فلـم يفاجئــه شىء حتــى الآن، وقــف ناظـرًا إلى قدميـه حتـى لا ينظـر إلى الجثـة، وكان لـدى وقـت لأفكـر فى أنـه جبـان قبل أن أتابـع بقـولى: "خـالى لـن يعـود قبـل بضعـة أيـام".

"كم يومًا؟"

"أوه! ومتـى تحديـدًا ذهـب...؟" عبسـت ومثلـت أننـى أعـد الأيـام، ثـم، سـامحة لعينـى بـأن تسـتقرا عـلى الجثـة، تركـت ركبتـى تترنحـان.

قفز الطبيب والفتى إلى جانبى، وأمسك كل منهما بأحد مرفقى.

"لا بأس، لاحقًا يا عزيزتى، لاحقًا".

سمحت لهما بأن يأخذانى حول المنزل نحو باب المطبخ.

قلت ونحن عند المنعطف: "لا أعرف ما يجب فعله!"

"بشأن ماذا؟"

"الجنازة".

"لسـت بحاجـة إلى فعـل أى شىء، سـأدبر أمـر الحانـوتى، والقـس سـيتولى البقيـة".

"لكن ماذا عن المال؟"

"سيتولى خالك هذا الأمر حين يعود، بالمناسبة، أين هو؟"

"لكن ماذا لو اضطر إلى التأخر؟"

"أتظنين أن تأخره مرجح؟"

"إنه.. رجل غير متوقع".

"حقًـا"، وفتـح الفتـى بـاب المطبـخ وقـادنى الطبيـب إلى الداخـل وجذب كرسـيًا، انهـرت عليه.

"سـيتولى المحامـى كل مـا هـو ضرورى، لـو بلـغ الأمـر هـذه الدرجـة، والآن، أيـن أختـك؟ هـل عرفـت بشـأن مـا حـدث؟"

لم أرمش: "إنها نائمة".

"جيد، أرى ألا توقظيها، أليس هذا أفضل؟"

أومأت.

"والآن، من يمكنه الاعتناء بكما إذًا، وأنتما وحدكما؟"

"يعتنى بنا؟"

"مـن الصعـب أن تبقيـا هنـا وحديكـما.. ليـس بعـد هـذا، كان طيشًـا مـن خالـك أن يترككـما مـن البدايـة بعـد فـترة وجيـزة مـن فقـدان مدبـرة المنـزل ومـن دون بديلـة، يجـب أن يـأتى أحـد".

سـألت: "هـل هـذا حقًـا ضرورى؟" وخضـار عينـى تملـؤه الدمـوع، فـ"إيميلايـن" ليسـت الوحيـدة التـى تسـتطيع التـصرف بأنوثـة.

"بالتأكيد أنت..."

"الأمـر فقـط أن فى آخـر مـرة أتى أحـد للاعتنـاء بنـا.. بالتأكيـد تتذكـر المعلمـة، أليـس كذلـك؟" ورمقتـه بنظـرة شـديدة اللـؤم والسرعـة لدرجـة أنـه بالـكاد صـدق أنهـا منـى، كان لديـه مـا يكفـى مـن الكياسـة ليخجـل وينظـر بعيـدًا، وحـين عـاد بنظـره إلى، لم يـرَ إلا الزمـرد والجواهـر.

تنحنـح الفتـى: "يمكـن لجـدتى أن تـأتى لتتلقـى نظـرة يـا سـيدى، لـن تقيـم هنـا، لكـن يمكنهـا أن تـأتى يوميًّـا، لبعـض الوقـت فقـط".

فكـر الطبيـب "مودسـلى" فى الأمـر وهـو مرتبـك، كان ذلـك مخرجًـا مـن هـذا الموقـف، وهـو يبحـث عـن مخـرج.

"حسـنًا يـا (أمـبروز)، أظـن أن هـذا سـيكون حـلاً مثاليًّـا، عـلى المـدى القريـب عـلى الأقـل، وبـلا شـك سـيعود خالـك خـلال أيـام قليلـة جـدًّا، وفى هـذه الحالـة لـن تكـون هنـاك حاجـة، مثلـما تقولـين، لــ.. آآآ.. لــ.."

"صحيـح"، وقمـت بسلاسـة مـن مقعـدى: "إن توليـت أمـر الحانـوتى، سـأتولى أمـر القـس"، ومـددت يـدى، "شـكرًا لمجيئـك سريعًـا".

فقـد الرجـل اتزانـه تمامًـا، ووقـف مسـتجيبًا لدعـوتى، وشـعرت باللمسـة السريعـة لأصابعـه عـلى أصابعـى، كانـت متعرقـة.

بحـث مجـددًا عـن اسـمى فى ملامحـى، "آديلايـن" أم "إيميلايـن"؟ "إيميلايـن" أم "آديلايـن"؟ وسـلك الطريـق الوحيـد لتجـاوز سـؤاله: "آسـف لوفـاة السـيد (ديجينـس)، أنـا حقًّـا آسـف يـا آنسـة (مـارش)".

"أشكرك أيها الطبيب"، وأخفيت ابتسامتى وراء حجاب من الدموع.

أومـأ الطبيـب "مودسـلى" إلى الفتـى فى طريقـه للخـروج، وأغلـق البـاب وراءه.

والآن ليس لدى إلا الفتى نفسه.

انتظـرت أن يبتعـد الطبيـب، وفتحـت البـاب ودعـوت الفتـى إلى الخـروج، قلـت: "بالمناسـبة"، وهـو يقـترب مـن العتبـة، بصـوت يوضـح أننى سـيدة المنـزل: "لا حاجـة إلى أن تـأتى جدتـك".

رمقنـى بنظـرة فضوليـة، لقـد رأى عينـى الخضراويـن والفتـاة التـى داخلهـما.

رد: "جيـد جـدًا"، بلمسـة مسـترخية لحافـة قبعتـه، "بمـا أننـى ليسـت لى جـدة".

***

قـال: "سأسـاعدك"، لكنـه مجـرد فتـى، ومـع ذلـك، فإنـه يعـرف كيـف يقـود العربـة ذات الإطاريـن.

فى اليـوم التـالى، قادهـا بنـا إلى المحامـى فى بانـبرى، جلسـت بجانبـه و"إيميلايـن" خلفـه، بعـد ربـع سـاعة مـن الانتظـار تحـت نظـر موظـف الاسـتقبال، طُلـب منـا أخـيرًا أن ندخـل إلى مكتـب السـيد "لوماكـس"، نظـر إلى "إيميلايـن" ونظـر إلىَّ وقـال: "لا حاجـة إلى السـؤال عـن هويتكـما".

أوضحـت: "نحـن بشـكل مـا فى مـأزق، خـالى متغيـب، والبسـتانى مـات فى حـادث، حـادث أليـم، وبمـا أنـه ليسـت لـه عائلـة وقـد عمـل لدينـا طـوال حياتـه، أشـعر أن العائلـة يجـب أن تدفـع تكلفـة الجنـازة، الأمـر فقـط أن لدينـا بعـض العجـز..."

تأرجحت عيناه بيننا ذهابًا وعودة.

"مـن فضلـك اعـذر أختـى، هـى ليسـت عـلى مـا يـرام"، وبالفعـل بـدت "إيميلايـن" غريبـة، تركتهـا تتحـلى بأناقتهـا قديمـة الطـراز، وعيناهـا مليئتـان بالجـمال فـلا تـتركان مسـاحة لأى شىء ممـل مثـل الـذكاء.

"نعم"، وخفض صوته إلى نبرة متعاطفة، "سمعت بشأن ذلك".

انحنيت نحو المكتب مستجيبة لطيبته وأفضيت إليه: "وطبعًا، خالى.. لقد تعاملت معه، لذا ستعرف، أليس كذلك؟ الأمور ليست دائمًا سلسة معه"، وواجهته بنظرتى الأكثر صدقًا: "فى الواقع، من دواعى السرور التعامل مع شخص عاقل على سبيل التغيير!"

قلَّب الشائعات التى سمعها فى باله، قالوا إن إحدى الفتاتين ليست على ما يرام، ويبدو واضحًا، بحسب ما استنتج، أن لا غبار على الأخرى.

"السرور متبادل بالتأكيد يا آنسة.. اعذرينى، ماذا كان اسم والدك؟"

"الاسم الذى تقصده (مارش)، لكننا اعتدنا على أن نُعرف باسم والدتنا، يطلقون علينا فى القرية توأمى (آنجلفيلد)، لا أحد يتذكر السيد (مارش)، خصوصًا نحن، لم نحظ قط بفرصة لقائه، كما تعرف، ولا تعامل لنا إطلاقًا مع عائلته، فكرت كثيرًا فى أن من الأفضل تغيير اسمينا رسميًا".

"هذا ممكن، لم لا؟ الأمر سهل حقًا".

"لكن هذا فى يوم آخر، طلب اليوم..."

"بالطبع، والآن دعينى أطمئنك بشأن هذه الجنازة، لا تعلمين متى سيعود خالك، صحيح؟"

قلت: "قد يستغرق ذلك وقتًا طويلاً"، وهذه ليست كذبة.

"لا يهم، إما أنه سيعود فى الوقت المناسب لتسوية المصروفات بنفسه، وإن لم يعد، فإننى سأسويها بالنيابة عنه وسأقوم باللازم حين يعود".

حولت وجهى إلى هيئة الارتياح التى كان ينتظرها، وبينما لا يزال مسرورًا لأنه استطاع أن يزيح همًا عن كاهلى، كدست أمامه الأسئلة بشأن ما قد يحدث فى حالة فتاة مثلى، لديها مسئولية شقيقة مثل أختى، إن اضطرت إلى مواجهة مصيبة فقدان الوصى عليها للأبد، وشرح

لى الوضع بالكامل ببضع كلمات، وعرفت بوضوح الخطوات التى يجب أن أتخذها ومتى يجب أن أتخذها، واختتم: "أى من هذا لا ينطبق عليك، فى وضعك الحالى!" كأنه قد تمادى فى تخيل هذا السيناريو المخيف، وتمنى لو يستطع سحب ثلاثة أرباع ما قاله: "ففى النهاية، خالك سيعود خلال بضعة أيام قصيرة".

ابتسمت له: "بمشية الرب!"

كنا عند الباب حين تذكر السيد "لوماكس" أمرًا مهمًّا.

"بالمناسبة، أفترض أنه لم يترك عنوانًا، صحيح؟"

"أنت تعرف خالى!"

"هذا ما ظننته، لكنك تعرفين نطاق رحلته صحيح؟"

أحببت السيد "لوماكس"، لكن هذا لم يمنعنى من الكذب عليه حين اضطررت إلى ذلك، الكذب كان فطرة ثانية لفتاة مثلى.

"نعم.. فى الواقع، لا".

رمقنى بنظرة جادة: "لأنه إن كنت لا تعرفين مكانه..." وراجع عقله كل الجوانب القانونية التى عددها لى للتو.

"يمكننى أن أخبرك بالمكان الذى قال إنه ذاهب إليه".

نظر إلىَّ رافعًا حاجبيه: "قال إنه ذاهب إلى بيرو".

جحظت عينا السيد "لوماكس"، وانفتح فمه.

واختتمتُ: "لكن بالطبع، كلانا يعرف أن هذا هراء، صحيح؟ لا يمكن أن يكون فى بيرو، أليس كذلك؟"

وبابتسامتى الأكثر اطمئنانًا وجرأة، أغلقت الباب خلفى، تاركة السيد "لوماكس" ليقلق بالنيابة عنى.

***

جاء يوم الجنازة ولم تأتنى فرصة للبكاء، فى كل يوم يحدث شىء ما، أولاً القس، ثم القرويون الذين يقتربون بحذر، يريدون أن يسألوا بشأن الإكليل والزهور، وحتى السيدة "مودسلى" جاءت، وكانت مهذبة لكنها باردة، وكأننى كنت على نحو ما ملوثة بجريمة "هيستر"، قلت لها: "السيدة (بروكتور)، جدة الفتى، مذهلة، هلا شكرتِ زوجك لاقتراحها".

خلال كل ذلك شككت فى أن الفتى "بروكتور" يراقبنى، مع أننى لم أمسك به متلبسًا قط.

جنازة "جون" ليست مكانًا مناسبًا للبكاء، بل هى أقل الأماكن ملائمة لذلك، لأننى الآنسة "آنجلفيلد"، ومن هو؟ البستانى لا غير.

فى نهاية قداس الجنازة، بينما القس يتحدث بلطف وبلا فائدة لـ"إيميلاين" -إن كانت تود أن تتردد إلى الكنيسة أكثر؟ فحب الرب نعمة لكل مخلوقاته- استمعت إلى السيد "لوماكس" والطبيب مودسلى اللذين ظنًا نفسيهما خارج مجال سمعى.

قال المحامى للطبيب: "إنها فتاة مقتدرة، لا أعتقد أنها مدركة لخطورة الموقف، أتدرك أن لا أحد يعرف مكان خالها؟ لكن حين تعرف هى، لا شك لدى فى أنها ستتأقلم مع الوضع، لقد أرسلت ما يلزم لتسوية الجانب المالى من الأمور، وهى كانت قلقة وسط كل هذا بشأن دفع مقابل جنازة البستانى، لديها قلب طيب يليق بعقلها الراجح".

قال الطبيب بصوت ضعيف: "نعم".

"كان لدى دائمًا انطباع -لا أعرف مصدره، عذرًا- بأن الفتاتين.. ليستا على ما يرام، لكن الآن بعدما قابلتهما، يبدو واضحًا كالشمس أن واحدة منهما فقط هى المصابة، إنها رحمة، بالطبع، أنت تعرف كيف آلت الأمور منذ البداية، كونك طبيبهما".

تمتم الطبيب بشيء لم أسمعه.

سأل المحامى: "ماذا؟ أتقول غشاوة؟"

لم أسمع ردًا، ثم طرح المحامى سؤالاً آخر: "لكنْ أىٌّ منهما مَن؟ لم أعرف ذلك قط حين جاءتا لزيارتى، ما اسم العاقلة منهما؟"

استدرت كفاية لأتمكن من رؤيتهما بزاوية عينى، كان الطبيب ينظر إلىّ بالنظرة نفسها التى كانت عليه طوال القداس، أين الطفلة الغبية التى أبقاها فى منزله لأشهر عدة؟ الفتاة التى لم تقدر على رفع ملعقة إلى شفتيها أو نطق كلمة إنجليزية، ناهيك بإعطاء التعليمات لإقامة جنازة وطرح أسئلة ذكية على المحامى، أدركت مصدر حيرته.

رمشت عيناه متأرجحتين منى إلى "إميلاين"، ومن "إميلاين" إلىّ.

"أعتقد أن هذه (آديلاين)"، رأيت شفتيه تنطقان الاسم، وابتسمت فى حين تتساقط نظرياته الطبية وتجاربه حول قدميه.

رفعت يدى إليهما والتقطت عينيه، قمت بإشارة لطيفة لشكرهما على المجىء إلى جنازة رجل بالكاد عرفاه من أجل مساعدتى، هكذا اعتبر المحامى الأمر، أما الطبيب فربما اعتبر الأمر على نحو مختلف.

***

لاحقًا، بعد ساعات عدة.

انتهت الجنازة، وأخيرًا يمكننى البكاء.

لكننى لم أستطع، ظلت دموعى حبيسة أطول مما ينبغى، لقد تحجرت.

الآن يجب أن تبقى داخلى إلى الأبد.

# دموع متحجرة

قالـت "جوديـث": "معـذرة..."، وسـكتت، ضغطـت شـفتيها بقـوة، ثـم تابعـت برعشـة يديـن لم أعتدهـا منهـا: "الطبيـب خـرج لأداء مهمـة ولـن يعـود قبـل سـاعة، مـن فضلـك..."

حزمــت ثــوب نومــى وتبعتهــا، وهــى تتقدمنــى ببضــع خطــوات مهرولـة، صعدنـا وهبطنـا السـلالم، وانعطفنـا إلى ممـرات وأروقـة، ووصلنـا إلى الطابـق الأرضى لكـن فى جـزء مـن المنـزل لم أره مـن قبـل، وأخـيراً وصلنـا إلى مجموعـة مـن الغـرف التـى اعتقـدت أنهـا الجنـاح الخـاص بالسـيدة "وينـتر"، وقفنـا لبرهـة أمـام بـاب مغلـق، ورمقتنــى "جوديــث" بنظـرة مضطربـة، تفهمـت قلقهـا جيـدًا، مـن وراء البـاب جـاءت أصـوات غامضـة غـير آدميـة، صيـاح متـألم يقاطعـه لهـاث حـاد يبحـث عـن الهـواء، فتحـت "جوديـث" البـاب الأخـير ودلفنـا.

كنـت مذهولـة، لا عجـب أن الضوضـاء لهـا مثـل هـذا الصـدى! فعـلى عكـس بقيـة المنـزل، بأثاثـه المنتفـخ بالحشـو، وسـتائره الوافـرة، وجدرانـه

ومفروشـاته الحاجبـة للصـوت، كانـت هـذه غرفـة إضافيـة صغـيرة عاريـة، الجـدران مـن الطـلاء العـارى، والأرض عبـارة عـن ألـواح بسـيطة، رف كتـب عـادى فى الزاويـة مملـوء بأكـوام مـن الأوراق المصفـرة، وفى الزاويـة يوجـد سريـر ضيـق عليـه أغطيـة بيضـاء بسـيطة، وعنـد النافـذة، تتعلـق سـتارة قطنيـة بشـكل هزيـل عنـد طـرف الزجـاج، تسـمح لليـل بدخـول الغرفـة، رأيـت السـيدة "وينـتر"، وكانـت منهـارة عـلى مكتـب مـدرسى صغـير بسـيط وظهرهـا لى، اختفـى اللـون البرتقـالى النـارى والأرجـوانى المتألـق، وكانـت ترتـدى قميصًـا أبيـض طويـل الكُمـين، وتنتحـب.

سـمعتُ الهـواء يكشـط حبالهـا الصوتيـة عـلى نحـو خشـن وواهـن، وعويـل صـارخ تحـول إلى تأوهـات حيوانيـة عـلى نحـو مخيـف، ارتفـع كتفاهـا وانسـحقا، وارتجـف جزعهـا، سـافرت تلـك القـوة عـبر عنقهـا الضعيـف إلى رأسـها، وبطـول ذراعيهـا إلى يديهـا اللتـين تضربـان سـطح المكتـب، سـارعت "جوديـث" إلى اسـتبدال الوسـادة التـى تحـت صـدغ السـيدة "وينـتر"، أمـا السـيدة "وينـتر"، المسـتغرقة تمامًـا فى هـذه الأزمـة، بـدا أنهـا غـير مدركـة لوجودنـا.

قالـت "جوديـث": "لم أرهـا هكـذا مـن قبـل"، وضغطـت أصابعهـا عـلى شـفتيها، وبنـبرة هلـع متصاعـدة: "لا أعـرف مـا يجـب فعلـه".

انفتـح فـم السـيدة "وينـتر" وكـشَّر، وتلـوى ليجسـد أشـكالاً قبيحـة متوحشـة بسـبب الحـزن الأكـبر منـه.

قلـت لـ"جوديـث": "لا بـأس"، عرفـت أنهـا تنـازع، جذبـت كرسـيًا وجلسـت إلى جانـب السـيدة "وينـتر".

"هـس، هـس، أعـرف مـا بـك"، ومـددت ذراع بطـول كتفيهـا، ووضعـت يديهـا بيـدى، كفنـت جسـدها بجسـدى، وأملـت أذنى بالقـرب مـن رأسـها وتابعـت تـلاوة التعويـذة: "لا بـأس، هـذا سـيمر، هـس أيتهـا الطفلـة، أنـت لسـت وحـدك"، هززتهـا وهدأتهـا ولم أتوقـف قـط عـن همـس الكلمات

السحرية، لم تكن كلماتى، بل كلمات والدى، كلمات أعرف أنها ستنجح، لأنها نجحت دائمًا معى، همست: "هس، أعرف ما بك، هذا سيمر".

لم تتوقف التشنجات، ولم تصبح الصرخات أقل ألمًا، لكن بالتدريج أصبحت أقل حدة، بات لديها وقت بين كل احتدام للنوبة والآخر لتلتقط أنفاسًا يائسة مرتعدة.

"لستِ وحدك، أنا معك".

فى النهاية كانت هادئة، طُبعت جمجمتها على خدى، ولمست خصلات من شعرها شفتى، وشعرت عند ضلوعى بالارتعاشات القصيرة لتنفسها، والتشنجات اللينة لرئتيها، ويداها باردتان جدًّا بين يدى.

"جيد، هذا أفضل".

جلسنا فى صمت لدقائق، جذبت الشال ووضعته بشكل أكثر دفءً حول كتفيها، وحاولت أن أفرك يديها من أجل بعض الدفء، كان وجهها يبدو مدمرًا، بالكاد استطاعت أن ترى عبر جفنيها المتورمين، وشفتاها متقرحتان ومتشققتان، وظهرت بدايات كدمة على رأسها حيث كانت تضرب المكتب.

قلت: "كان رجلاً صالحًا، رجلاً صالحًا، ولقد أحبك".

أومأت ببطء، وارتجف فمها، هل حاولت أن تقول شيئًا؟ تحركت شفتاها مجددًا.

مفتاح الأمان؟ أهذا ما قالته؟

"أكانت أختك هى من عبثت بمفتاح الأمان؟" بدا ذلك سؤالاً قاسيًا الآن، لكن فى هذه اللحظة لم تبد الصراحة غريبة مع إزاحة فيض الدموع لكل قواعد الإتيكيت بعيدًا.

تسبب سؤالى فى تشنج أليم أخير، لكن حين تكلمت كانت واضحة.

"ليست (إميلاين)، ليست هى، ليست هى".

"مَن إذًا؟"

أغلقت عينيها بشدة، وبدأت تتمايل وهزت رأسها من جانب إلى آخر، رأيت تلك الحركة نفسها لدى الحيوانات فى حديقة الحيوان حين يجن جنونها من آسريها، استشعرتُ الخوف من تجدد نزاعها، وتذكرت ما اعتاد والدى فعله ليهدئنى وأنا طفلة، برفق، وبلين، مسدت شعرها حتى لجأت بهدوء إلى كتفى لتسند رأسها.

أخيرًا أصبحت هادئة كفاية لتنيمها "جوديث" فى سريرها، وبصوت طفولى ناعس طلبت منى أن أبقى لذا بقيت معها، راكعة على ركبتى بجانبها وأشاهدها وهى تنام، من حين إلى آخر، أرَّقت رعشة نعاسها وبدت على وجهها النائم نظرة خوف، حين حدث هذا داعبت شعرها حتى استقر جفناها مجددًا.

متى هدأنى والدى هكذا؟ تجلت حادثة من أعماق ذاكرتى، لا بد أن سنى حينها كانت اثنى عشر عامًا أو نحو ذلك، كان يوم أحد، وكنت ووالدى نأكل الشطائر عند النهر حين ظهرت توأمتان، فتاتان شقراوان لهما والدان أشقران، زوار يوم واحد جاءوا للافتتان بالمعمار والاستمتاع بضوء الشمس، لاحظهم الجميع، لا بد أنهما اعتادتا حملقة الغرباء، لكن ليست حملقتى، رأيتهما وانتفض قلبى، كان ذلك أشبه بالنظر إلى المرآة ورؤية نفسى كاملة، حملقت إليهما بكل ما لدى من غيرة، ومن جوع، وهما بدورهما توترتا وابتعدتا عن الفتاة ذات النظرة الملتهمة ولجأتا إلى يدى والدتهما، رأيت خوفهما، وضغطت يد قوية على رئتى، حتى أظلمت السماء، ثم لاحقًا فى المتجر، وأنا على مقعد النافذة أجلس بين النوم والكوابيس، جثم هو أرضًا يمسد شعرى، ويتمتم تعويذته: "هس، هذا سيمر، لا بأس، لست وحدك".

بعـد بعـض الوقـت جـاء الطبيـب "كليفتـون"، وحـين خرجـت لرؤيتـه فى المدخـل، راودنى شـعور بأنـه كان موجـودًا منـذ بعـض الوقـت، تجاوزتـه فى طريقـى إلى الخـروج، وكان عـلى وجهـه تعبـير لم أعـرف كيـف أقـرؤه.

# التشفير تحت الماء

عـدت إلى جناحـي، تتحـرك قدمـاى ببـطء حركـة أفـكارى، لا شىء يبـدو منطقيًـا، لِمَ مـات "جـون ذا ديـج"؟ لأن أحـدًا عبـث بمفتـاح الأمـان فى السـلم، لا يمكـن أن يكـون الفتـى، فقصـة السـيدة "وينـتر" أعطتـه حجـة غيـاب واضحـة: بينـما "جـون" وسـلمه يتأرجحـان مـن الدرابزيـن عـبر الهـواء إلى الأرض، كان الفتـى يراقـب سـيجارتها، دون جـرأة عـلى أن يطلـب نفسًـا، وبالتـالى فإنهـا بالتأكيـد "إيميلايـن"، باسـتثناء أن فى القصـة مـا مـن شىء يشـير إلى أن "إيميلايـن" قـد تفعـل شـيئًا كهـذا، كانـت طفلـة مسـالمة، وحتـى "هيسـتر" قالـت ذلـك، والسـيدة "وينـتر" نفسـها كانـت أوضـح مـا يمكـن بهـذا الشـأن، لا، ليسـت "إيميلايـن"، مـن إذًا؟ "إيزابيـل" ماتـت، و"تشـارلى" رحـل.

وصلـت إلى جناحـى، دلفـت، ووقفـت قبالـة النافـذة، الظـلام يمنـع أى مجـال للرؤيـة، ولا يوجـد غـير ظـلى، ظـل شـاحب تـرى الليـل مـن خلالـه، سـألته: "مَـن؟"

في النهايـة اسـتمعت إلى الصـوت الهـادئ المثابـر داخـل رأسى الـذى كنـت أحـاول تجاهلـه، "آديلايـن".

قلت لا.

قال الصوت نعم إنها "آديلاين".

هـذا غـير ممكـن، صرخـات الحـزن عـلى "جـون ذا ديـج" لا تـزال تـتردد فى بـالى، لا أحـد يـرثى رجـلاً هكـذا بعـد قتلـه، صحيـح؟ لا أحـد يقتـل رجـلاً أحبـه كفايـة ليبـكى عليـه مثـل هـذه الدمـوع؟

لكـن الصـوت فى دماغـى سرد فصـلاً تلـو الآخـر مـن القصـة التـى عرفتهـا جيـدًا، الحادثـة العنيفـة فى الحديقـة التوبياريـة، كل جـزة بالمجزّات كانـت ضربـة إلى قلـب "جـون"، والهجـمات عـلى "إيميلايـن"، وشـد الشـعر، والـضرب المـبرح، والعـض، والرضيـع الـذى أزيـل مـن عربتـه وتـرك بـلا مبـالاة، ليمـوت أو ليجـده أحـد، لقـد قالـوا فى القريـة إن إحـدى التوأمـين لم تكـن عـلى مـا يـرام، تذكـرت ذلـك وتسـاءلت، هـل هـذا ممكـن؟ هـل الدمـوع التـى رأيتهـا للتـو دمـوع الذنـب؟ دمـوع النـدم؟ هـل احتضنـت للتـو قاتلـة وطمأنتهـا؟ أهـذا هـو الـسر الـذى أخفتـه السـيدة "وينـتر" عـن العـالم كل هـذا الوقـت؟ بـدأ شـك مزعـج يختمـر بداخـلى، أهـذا هـو الهـدف مـن قصـة السـيدة "وينـتر"؟ أن تجعلنـى أتعاطـف معهـا، أبرئهـا، أسـامحها؟ ارتعـدت.

لكـن تأكـد لى شىء واحـد عـلى الأقـل، كانـت تحبـه، وكيـف لا؟ تذكـرت حمـل جسـدها المعـذب المتـألم قبالـة جسـدى، وأدركـت أن الحـب المنسـحق وحـده يمكـن أن يتسـبب بمثـل هـذا اليـأس، تذكـرت تسـلل "آديلايـن" الطفلـة إلى "جـون" فى وحدتـه بعـد مـوت السـيدة، تعيـد إليـه الحيـاة عـبر تعليمـه لهـا تقليـم الحديقـة.

الحديقة التوبيارية التى خربتها.

ربما أنا لست واثقة من هذا فى النهاية!

تجولـت عينـاى فى الظـلام خـارج النافـذة، حديقتهـا الرائعـة، أهـى تحيتهـا إلى "جـون ذا ديـج"؟ توبتهـا المسـتمرة مـدى الحيـاة عـن الأذى الـذى أوقعتـه؟

فركـت عينـى المتعبتـين وأدركـت أننـى يجـب أن أخلـد إلى النـوم، لكننـى كنـت متعبـة إلى حـد منعنـى مـن النـوم، وأفـكارى، إن لم أفعـل شـيئًا لوقفهـا، سـتدور فى دوائـر طـوال الليـل، قـررت أن أتحمـم.

بينـما أنـا أنتظـر امتـلاء حـوض الاسـتحمام، بحثـت عـن شىء يشـغل بـالى، لفتـت كـرة مـن الـورق ظاهـرة جزئيًـا تحـت طاولـة الزينـة انتباهـى، فردتهـا، وسـاويتها، وجـدت بهـا سـطرًا مـن نـص صـوتى.

فى المرحـاض والميـاه تـدوى فى الخلفيـة، قمـت ببضـع محـاولات قصـيرة الأجـل لالتقـاط أى معنـى مـن سلسـلة الرمـوز تلـك، دائمًـا مـا كان هنـاك ذلـك الشـعور المقيـد بأننـى لم ألتقـط مـا تفوهـت بـه "إيميلايـن" بدقـة، تخيلـت الحديقـة تحـت ضـوء القمـر، التـواءات أشجار بنـدق السـاحرة، الوجـه الجروتسـكى اللاهـث، سـمعت مجـددًا صـوت "إيميلايـن" بمـا حملـه مـن مفاجـأة، لكـن مهـما حاولـت لا أسـتطيع تذكـر نطقـه.

نزلـت بحـوض الاسـتحمام، تاركـة قصاصـة الـورق عـلى الحافـة، والميـاه الدافئـة عـلى قدمـى وسـاقى وظهـرى، بـدت بـاردة بدرجـة مميـزة عـلى البقعـة التـى عـلى جانبـى، انزلقـت إلى داخـل الميـاه بعينـين مغلقتـين، غطـت الميـاه أذنى، وأنفـى، وعينـى وحتـى قمـة رأسى، رنـت الميـاه فى أذنى، وارتفـع شـعرى عـن جـذوره.

صعـدت مـن أجـل الهـواء، ثـم انغمسـت تحـت الميـاه مجـددًا، ثـم المزيـد مـن الهـواء، ثـم الميـاه.

بدأت الأفكار تسبح فى عقلى، بطريقة حرة، كأنها تحت المياه هى الأخرى، عرفت كفاية عن لغة التوأمين لأدرك أنها لم تُبتكر بالكامل، فى حالة "إيميلاين" و"آديلاين"، كانت مبنية على الإنجليزية والفرنسية، أو يمكن أن تضم عناصر من كلتيهما.

هواء، مياه.

تحريف مقصود، ربما فى طبقات الصوت، أو الحروف المتحركة، وأحيانًا، هناك أجزاء إضافية، من أجل التمويه وليس إضافة المعنى.

هواء، مياه.

إنها أحجية، كود سرى، شيفرة، لن تكون بصعوبة الهيروغليفية المصرية أو "النظام الخطى ب" اليونانى، كيف يمكن فكها؟ خذ كل مقطع لفظى على حدة، يمكن أن يكون كلمة أو جزء من كلمة، أزل عنه التنغيم أولاً، تلاعب بالنبرة، جرِّب مد الحروف المتحركة وتقصيرها وتقعيرها، ما الذى يشير إليه المقطع حينئذ بالإنجليزية؟ وبالفرنسية؟ ماذا لو تركته وتلاعبت بالبدايات والنهايات؟ ستجد عددًا هائلاً من التركيبات المحتملة، الآلاف منها، لكنه ليس عددًا لانهائيًّا، يمكن لحاسوب أن يتوصل إلى الحل، كذا يستطيع عقل بشرى خلال عام أو اثنين.

الموتى يواريهم التراب.

ماذا؟ جلست منتصبة ومصدومة، هبطت تلك الكلمات على فجأة، إنها تقرع صدرى على نحو مؤلم، كان ذلك سخيفًا، غير ممكن!

مددت يدى مرتجفة إلى حافة حوض الاستحمام حيث تركت ورقتى، وجذبتها بالقرب منى، فحصتها بقلق، ملاحظاتى، رموزى، وعلاماتى، وخطوطى المتمايلة ونقاطى، كلها راحت، كانت مستقرة على بركة من المياه وغرقت.

حاولـت مجـددًا تذكـر الأصـوات التـى وردت إلى تحـت الميـاه، لكنهـا مُحيـت مـن ذاكـرتى، كل مـا أمكننـى تذكـره كان وجههـا العـازم المشـحون، وتسلسـل النوتـات الخمـس التـى كانـت تغنيهـا وهـى تبتعـد.

الموتى يواريهـم الـتراب، كلـمات وصلـت بصيغتهـا الكاملـة إلى عقـلى، دون تـرك أى أثـر وراءهـا، مـن أيـن أتـت؟ أيَّـة حيـل كان عقـلى يمارسـها ليتوصـل إلى هـذه الكلـمات مـن لا شىء؟

لم أعتقد حقًّا أن هذا هو ما قالته لى، صحيح؟

قلت لنفسى هيا، كونى عقلانية.

مـددت يـدى إلى الصابونـة، وقـررت أن أخـرج خيـالات مـا تحـت الميـاه خـارج عقلى.

# شَعر

لم أنظر إلى الساعة قط فى منزل السيدة "وينتر"، فالكلمات كانت الثوانى، والدقائق كانت سطور النصوص بالقلم الرصاص، إحدى عشرة كلمة فى السطر، ثلاثة وعشرون سطرًا فى الصفحة، هذا هو نظام قياس الزمن الجديد الخاص بى، وعلى فترات زمنية منتظمة كنت أتوقف لأدير مقبض مبراة الأقلام، وأشاهد لفافات الخشب ذات الطرف الرصاصى تتدلى فى طريقها إلى سلة المخلفات الورقية، تلك التوقفات هى حدود "الساعات" فى نظامى.

كنت مشغولة البال للغاية بالقصة التى أسمعها وأكتبها، لدرجة أننى لم تكن لدى رغبة فى أى شىء آخر، حياتى نفسها - بكل ما كانت عليه- تقلصت إلى لا شىء، أفكار النهار وأحلام الليل باتت مسكونة بشخصيات ليست من عالمى، بل من عالم السيدة "وينتر"، "هيستر" و"إيميلاين" و"إيزابيل" و"تشارلى" هم من تجولوا فى مخيلتى، والمكان الذى تحولت نحوه أفكارى باستمرار هو "آنجلفيلد".

فى الواقـع، كنـت مسـتعدة إلى حـد مـا للتنـازل عـن حيـاتى، فالغطـس العميـق فى قصـة السـيدة "وينـتر" كان طريقـة لإيـلاء ظهـرى إلى حيـاتى، لكـن المـرء لا يسـتطيع ببسـاطة أن ينهـى أمـره بهـذه الطريقـة، فعـلى الرغـم مـن استعمائى عـن الواقـع، لم أسـتطع الهـرب مـن معلومـة أننـا فى ديسـمبر، ففـى مؤخـر عقـلى، وعـلى حافـة نومـى، وفى هوامـش الصفحـات التـى ملأتهـا كالمسـعورة بالنصـوص، كنـت مدركـة أن العـد التنـازلى لأيـام ديسـمبر قـد بـدأ، وشـعرت بـأن الذكـرى السـنوية تزحـف نحـوى طـوال الوقـت.

لم أرَ السـيدة "وينـتر" فى اليـوم التـالى عـلى ليلـة البـكاء، فقـد بقيـت فى سريرهـا، لا تـرى إلا "جوديـث" والطبيـب "كليفتـون"، وهـذا مريـح، فأنـا لم أنـم جيـدًا، لكـن فى اليـوم التـالى طلبتنـى، ذهبـت إلى غرفتهـا الصغـيرة البسـيطة، ووجدتهـا عـلى السريـر.

بـدا أن عينيهـا قـد كبرتـا فى وجههـا، لم تضـع نقطـة مـن مسـاحيق التجميـل، ربمـا كانـت أدويتهـا فى ذروة فاعليتهـا، لكـن كان بهـا هـدوء مـا بـدا جديـدًا عليهـا، لم تبتسـم لى، لكـن حـين تطلعـت وأنـا أدلـف، وجـدت بعينيهـا طيبـة.

قالـت: "لسـت بحاجـة إلى مفكرتـك وقلمـك، أريـدك أن تفعـلى شـيئًا آخـر لى اليـوم".

"ماذا؟"

دخلـت "جوديـث"، مـدت مـلاءة عـلى الأرض، ثـم جلبـت كـرسى السـيدة "وينـتر" مـن الغرفـة المجـاورة ورفعتهـا إليـه، وفى وسـط المـلاءة وضعـت الكـرسى، وضبطـت زاويتـه بحيـث تتمكـن السـيدة "وينـتر" مـن النظـر عـبر النافـذة، ثـم وضعـت منشـفة حـول كتفيهـا، ونـشرت شـعرها البرتقـالى عليهـا.

قبل أن تغادر ناولتنى مقصًا وقالت بابتسامة: "حظًا موفقًا".

سألت السيدة "وينتر": "لكن ماذا يفترض بى أن أفعل؟"

"بالتأكيد ستقصين شعرى".

"أقص شعرك؟"

"نعم، لا تقفى هكذا، ما من مشكلة فى ذلك".

"لكننى لا أعرف كيف".

"فقط خذى المقص وقصيه"، وتنهدت، "لا يهمنى كيف ستفعلين ذلك، لا يهمنى كيف سيبدو، فقط تخلصى منه".

"لكن أنا..."

"من فضلك".

وقفت خلفها على مضض، بعد يومين فى السرير، كان شعرها عبارة عن كتلة متشابكة من الخيوط البرتقالية الرقيقة، كان جاف الملمس، جافًّا للغاية لدرجة أننى توقعت أن أسمع له حفيفًا، وتتخلله عقد صغيرة قوية.

"الأفضل أن أمشطه أولاً".

كانت العقد كثيرة، ومع أنها لم تنطق بكلمة عتاب، شعرت بإجفالها مع كل تمسيدة بالفرشاة، وضعت الفُرشَة جانبًا، فالأفضل أن أقص العقد ببساطة.

قصصت أول قصة على سبيل التجربة، بضع سنتيمترات من النهايات، عند منتصف ظهرها، قطع المقص شعرها بلا زوائد، وسقطت القصاصات على الملاءة.

قالت السيدة "وينتر" برقة: "أقصر من هذا".

لمست كتفيها: "هنا؟"

"أقصر".

أخـذت خصلـة مـن شـعرها وقصصتهـا متوتـرة، وانزلقـت حيـة برتقالية إلى قدمـى، وبـدأت السـيدة "وينـتر" الحديث.

***

أذكـر أن بعـد الجنـازة ببضـع أيـام كنـت فى غرفـة "هيسـتر" القديمـة، لا لسـبب محـدد، كنـت أقـف هنـاك فقـط قبالـة النافـذة، أحـدق إلى الفـراغ، وجـدت أصابعـى نتـوءًا صغـيرًا فى السـتائر، مـزق كانـت قـد أصلحتـه، إن "هيسـتر" بارعـة جـدًّا فى اسـتخدام إبـر الحياكـة، لكننـى وجـدت طـرف خيـط طليـق عنـد النهايـة، وعـلى نحـو كسـول، وليـس شـارد، بـدأت أعبـث بهـا، لم أنـوِ شـده، حقًّـا لم تكـن لـدى أيَّـة نيـة لذلـك.. لكـن فجـأة، أصبـح حـرًّا بـين أصابعـى، الخيـط بطولـه كلـه متعـرج بتأثـير غُـرز الخياطـة، والثقـب فى السـتارة ينفتـح، الآن سـتبدأ فى التفسـخ.

لم يحـب "جـون" قـط وجـود "هيسـتر" فى المنـزل، كان ممتنًـا لرحيلهـا، لكـن الحقيقـة اسـتمرت: لـو كانـت موجـودة، مـا كان "جـون" ليصعـد إلى السـطح، لـو كانـت موجـودة، مـا كان أحـد ليعبـث بمفتـاح الأمـان، لـو كانـت موجـودة، لطلعـت شـمس هـذا اليـوم مثـل أى يـوم آخـر، ومثـل أى يـوم آخـر كان "جـون" ليهتـم بعملـه فى الحديقـة، وحـين يسـلط جنـاح المكتبـة ظلـه عـلى الحـصى، مـا كان السـلم ليكـون هنـاك، ولا درجاتـه، ولا "جـون" الممـدد عـلى الأرض يحتضنـه الظـل، كان اليـوم ليـأتى ويمـر مثـل أى يـوم وفى نهايتـه كان "جـون" سـيخلد إلى النـوم بسـلام، مـن دون حتـى أن يحلـم بالسـقوط فى الهـواء.

لو كانت "هيستر" موجودة.

أحسست بأن ذلك الثقب فى الستارة لا يُحتمل نهائيًّا.

***

كنت أقصقص شعر السيدة "وينتر" طوال الوقت وهى تتحدث، وحين بلغت شحمة أذنها، توقفت.

رفعت يدها إلى رأسها لتستشعر طوله.

قالت: "أقصر".

التقطت المقص مجددًا وباشرت مهمتى.

***

ظل الفتى يأتى كل يوم، حفر وأزال العشب الضار وزرع ورش السماد، افترضت أنه ظل يأتى بسبب المال المستحق له، لكن حين أعطانى المحامى بعض النقود -"لتسيِّرى أمورك حتى يعود خالك"- ودفعت للفتى، ظل يأتى، راقبته من نوافذ الطابق العلوى، فى أكثر من مرة نظر إلى الأعلى باتجاهى وسارعت أنا بالابتعاد، لكن فى إحدى المرات رآنى، وحينئذ لوح لى، ولم أرد التحية.

فى كل صباح كان يجلب الخضراوات إلى باب المطبخ، أحيانًا مع أرنب مسلوخ أو دجاجة منتوفة الريش، وفى كل مساء يأتى لجمع قشور الخضراوات من أجل السماد، كان يتسكع فى المدخل، والآن بعدما دفعت له، أراه فى غالب الأحيان بسيجارة بين شفتيه.

أنهيت سجائر "جون"، وقد أزعجنى أن الفتى يمكنه أن يدخن وأنا لا، لم أنبس بكلمة عن الأمر، لكن فى أحد الأيام، وكتفه مستند إلى إطار الباب، لمحنى أنظر إلى علبة السجائر فى جيب صدره.

قال: "سأعطيك واحدة مقابل كوب شاى".

دخل إلى المطبخ -كانت تلك أول مرة يدخل منذ موت "جون"- وجلس على كرسى "جون"، وأسند كوعيه إلى المائدة، وجلست أنا فى الكرسى بالزاوية، حيث اعتادت السيدة أن تجلس، شربنا الشاى فى

صمت، ونفثنا دخان السجائر الذى تصاعد نحو السقف الداكن فى صورة سحب وحلزونات بطيئة، حين التقطنا آخر نفسين وسحقنا العقبين فى صحنينا، قام من دون كلمة، ومشى إلى خارج المطبخ وعاد إلى عمله، لكن فى اليوم التالى، حين طرق الباب ومعه الخضراوات، دخل مباشرة، جلس على كرسى "جون"، ورمى إلىَّ سيجارة قبل حتى أن أشغل المغلاة.

لم نتحدث قط، لكن كانت لنا عاداتنا.

"إيميلاين"، التى لم تصحُ قبل موعد الغداء قط، أحيانًا تقضى فترات العصر فى الخارج تتابع الفتى وهو يعمل، وقد وبختها لهذا: "أنت ابنة هذا المنزل، وهو بستانى، بحق الرب يا (إيميلاين)!" لكن لم يُحدث ذلك أى تغيير، فهى ستبتسم ابتسامتها البطيئة لأى شخص يبدى لها اهتمامًا، تابعتهما من كثب، مدركة ما قالته السيدة لى عن الرجال الذين لا يستطيعون رؤية "إيزابيل" دون أن يرغبوا فى لمسها، لكن الفتى لم يبدِ أى مؤشر على أنه يريد لمس "إيميلاين"، لكن مع ذلك فقد تحدث معها بلطف، وأحب أن يضحكها، لكننى لم أشعر بالارتياح تجاه الأمر.

أحيانًا أشاهدهما معًا من نافذة الطابق العلوى، وفى يوم مشمس، رأيتها مسترخية على العشب، ورأسها على يدها وتستند إلى كوعها، أظهرت وضعيتها الارتفاع الذى بين خصرها وفخذيها، أدار رأسه ليرد على شىء قالته، وبينما هو ينظر إليها، تدحرجت لتصبح مستلقية على ظهرها، ورفعت يدًا ونحت خصلة ضالة من شعرها عن جبينها، كانت حركة حالمة وشبقة جعلتنى أعتقد أنها لن تمانع إن لمسها.

لكن حين أنهى الفتى ما كان يقوله، أولى لها ظهره كأنها لم يرَ وتابع عمله.

فى الصباح التالى كنا ندخن فى المطبخ، وكسرتُ صمتنا المعتاد.

قلت له: "لا تلمس (إيميلاين)".

بدا متفاجئًا: "لم ألمس (إيميلاين)".

"جيد، فلا تفعل إذًا".

اعتقدتُ أن الأمر انتهى عند ذلك، سحب كلانا نفسًا آخر من سيجارتينا واستعددت للتراجع مجددًا إلى صمتي، لكن بعد الزفير، تكلم مجددًا: "لا أريد أن ألمس (إيميلاين)".

سمعته، سمعت ما قاله، ذلك التنغيم القليل الغريب، لقد سمعت ما قصده.

سحبت نفسًا من سيجارتي ولم أنظر إليه، زفرت ببطء، لم أتطلع قط.

قال: "إنها ألطف منك".

لم أكن قد أنهيت حتى نصف سيجارتي، لكنني سحقتها، انطلقت نحو باب المطبخ وفتحته على آخره.

وقف أمامي لوهلة في المدخل، وقفت جامدة، أحدق أمامي مباشرة إلى أزرار قميصه.

صعدت وهبطت تفاحة آدم خاصته وهو يزدرد، صدرت منه غمغمة: "كوني لطيفة يا (آديلاين)".

رفعت عيني بنية أن أصب عليه جام غضبي والغضب يكتويني، لكن اللطافة البادية على وجهه حركتني، وللحظة كنت.. مرتبكة.

وقد استغل الفرصة، رفع يده، وكان على وشك مداعبة خدي.

لكنني كنت أسرع، رفعت قبضتي وضربت يده بعيدًا.

لم أوذه، لم أكن لأوذيه، لكنه بدا حائرًا، خائب الظن.

ثم رحل.

بدا المطبخ فارغًا بعد ذلك، السيدة رحلت، و"جون" رحل، والآن حتى الفتى رحل.

لقد قال: "سأساعدك"، لكن هذا كان مستحيلاً، كيف يمكن لفتى مثله مساعدتى؟ كيف يمكن لأى أحد مساعدتى؟

***

كانت الملاءة مغطاة بالشعر البرتقالى، أخطو على الشعر والشعر يلتصق بحذائى، كل الصبغة القديمة قُصت، والخصل المتفرقة المتعلقة بجمجمة السيدة "وينتر" بيضاء ناصعة.

أبعدت المنشفة، ونفخت قصاصات شعرها التائهة عن مؤخر عنقها.

قالت: "أعطنى المرآة".

ناولتها، بدت بشعرها المقصوص مثل طفلة شيباء.

حملقت إلى المرآة، والتقت عيناها ببعضها، بدت مجردة وكئيبة، ونظرت إلى نفسها مطولاً، ثم وضعت الجانب الزجاجى من المرآة على الطاولة.

"هذا هو ما أردته تحديدًا، شكرًا لك يا (مارجريت)".

تركتها، وحين عدت إلى غرفتى فكرت بشأن الفتى، فكرت بشأنه و"آديلاين"، وفكرت بشأنه و"إميلاين"، ثم فكرت بشأن "أوريليوس"، الذى عُثر عليه رضيعًا، يرتدى ملابس قديمة الطراز وملفوف داخل حقيبة، معه ملعقة من "آنجلفيلد" وصفحة من "جين أير"، فكرت بشأن الأمر مطولاً، لكن رغم كل تفكيرى، لم أتوصل إلى شىء.

لكـن شـيئًا مـا حـدث لى، فى واحدة مـن انحرافـات العقل غـير المفهومة، تذكـرت مـا قالـه "أوريليـوس" فى آخـر زيـارة لى إلى "آنجلفيلـد": "أتمنـى لـو يوجـد أحـد يسـتطيع فقـط أن يخـبرنى الحقيقـة"، ووجـدت صـدى لمقولتـه: "أخبرينـى الحقيقـة"، إنـه الفتـى ذو البذلـة البنيـة، هـذا يفـسر أن بانـبرى هيرالـد ليـس لديهـا أى سـجل للمقابلـة التـى سـافر مراسـلهم الشـاب إلى يوركشـاير مـن أجلهـا، لم يكـن مراسـلاً قـط، بـل كان "أوريليـوس" منـذ البدايـة.

# مطر وكعكة

استيقظت فى اليوم التالى على نداء: إنه اليوم، اليوم، اليوم، كأنه قرع جرس لا يسمعه أحد غيرى، بدا أن الشفق قد اخترق روحى، شعرت بإرهاق غير عادى، إنه يوم ميلادى، إنه يوم مماتى.

جلبت "جوديث" بطاقة من والدى مع صينية الإفطار، كعادته أرسل صورة زهور وتحيات مصاغة على نحو غامض وملاحظة، تمنى أن أكون بخير، وهو بخير، ولديه بعض الكتب لى، أيجب أن يرسلها؟ لم توقع والدتى البطاقة، وقعها هو بالنيابة عنها، بكل الحب من بابا ووالدتك، كان ذلك خطأ تمامًا، أدركت ذلك وأدرك هو ذلك، لكن ما الذى يمكن فعله؟

جاءت "جوديث": "تسأل السيدة (وينتر) إن كان هذا وقت...؟"

دفعت البطاقة تحت وسادتى قبل أن تراها: "الآن وقت مناسب"، والتقطت قلمى وأوراقى.

أرادت السيدة "وينتر" أن تعرف: "هل تنامين جيدًا؟" ثم قال: "تبدين شاحبة، أنت لا تأكلين كفاية".

طمأنتها: "أنا بخير"، مع أننى لم أكن بخير.

طوال الصباح كنت أصارع الشعور بأطياف ضالة من عالم تتسلل عبر شقوق عالم آخر، أتعرف ذلك الشعور حين تبدأ قراءة كتاب جديد قبل أن تحظى بالوقت الكافى لتجاوز الكتاب الأخير؟ تترك الكتاب السابق بأفكار وموضوعات -وربما حتى شخصيات- عالقة فى ثنايا ملابسك، وحين تفتح الكتاب الجديد تجدهم معك، كان الأمر شبيهًا بذلك، طوال اليوم كنت فريسة للإلهاء، أفكار، وذكريات، ومشاعر، وأجزاء غير مهمة من حياتى، كلها تعيث فسادًا فى ساحة تركيزى.

كانت السيدة "وينتر" تخبرنى شيئًا حين قاطعت نفسها: "هل تستمعين إلىّ يا آنسة (ليا)؟"

انسحبت سريعًا من ساحة خيالى، وتلعثمت بحثًا عن إجابة، هل كنت أستمع؟ ليست لدى فكرة، فى تلك اللحظة لم أستطع أن أخبرها بما كانت تقوله، مع أننى واثقة من أن كل كلامها مسجل فى مكان ما برأسى، لكن فى تلك اللحظة جعلتنى أنسحب سريعًا إلى خارج نفسى، كنت فى أرض ما محايدة، مكان بين مكانين، يمارس العقل كل أنواع الحيل، يفكر فى كل ما يخطر على البال فى حين نحن أنفسنا نغفو فى منطقة محايدة، تبدو للجميع كأنها لامبالاة، حملقت إليها لدقيقة بلا قدرة على التعبير، وهى تزداد انزعاجًا، ثم لجأت سريعًا إلى أول جملة متماسكة قدمت نفسها إلى.

"هل أنجبت طفلاً من قبل يا سيدة (وينتر)؟"

"يا إلهى، يا لهذا السؤال، بالتأكيد لا، هل جننت يا فتاة؟"

"ماذا عن (إيميلاين) إذًا؟"

"أبيننا اتفاق أم لا؟ لا أسئلة؟" ثم تغير تعبير وجهها، مالت إلى الأمام مدققة بوجهي من قرب: "هل أنت مريضة؟"

"لا أعتقد ذلك".

"حسنًا، يبدو واضحًا أنك لست في حالة تسمح بالعمل".

كان ذلك أمرًا بالانصراف.

بعد عودتي إلى غرفتي قضيت ساعة من الملل، مضطربة، مبتلاة بنفسي، جلست عند مكتبي، قلمي في يدي، لكنني لم أكتب، شعرت بالبرد ورفعت درجة حرارة المبرد، ثم شعرت بالحر الشديد، فخلعت سترتي، كنت لأود أن أتحمم، لكن لم تكن هناك مياه ساخنة، أعددت الكاكاو وأضفت إليها سكرًا زائدًا، ثم أصابتني حلاوته بالغثيان، هل أقرأ كتابًا؟ أيساعدني ذلك؟ في المكتبة تصطف على الرفوف كلمات ميتة، لا شيء هناك قد يساعدني.

حدث اندفاع من قطرات المطر، انتشرت على زجاج النافذة، وقفز قلبي من مكانه، الخروج، نعم، هذا هو ما أحتاج إليه، وليس فقط الحديقة، احتجت إلى أن أذهب بعيدًا، في الحال، نحو الأراضي البور.

أعرف أن البوابة الرئيسة تكون مقفلة، ولم تكن لدي أيَّة رغبة في أن أطلب من "موريس" أن يفتحها لي، بدلاً من ذلك، اتجهت عبر الحديقة إلى أبعد نقطة من المنزل، حيث يوجد باب في الجدار، لم يُفتح الباب الذي يكسوه نبات اللبلاب منذ فترة طويلة، واضطررت إلى إبعاد أوراق الشجر بيدي قبل أن أتمكن من فتح المزلاج، وحين تأرجح الباب نحوي، وجدت المزيد من اللبلاب الذي تجب إزاحته قبل أن أتمكن من أن أخطو خارج المنزل، وأنا شعثاء قليلاً.

اعتـدت الظـن أننـى أحـب المطـر، لكننـى فى الواقـع بالـكاد عرفتـه، المطر الـذى أحببتـه هـو مطـر البلـدة الرقيـق، الـذى تخففـه كل العقبـات التـى وضعتهـا أطـراف الأبنيـة فى طريقـه، وتدفئـه الحـرارة الصـادرة مـن البلـدة نفسـها، لكـن فى الأراضى البـور، كان المطـر شـديدًا، يكـدره الـبرد، وتزيـده الريـاح حـدة، إبـر مـن الثلـج لسـعت وجهـى وظهـرى، وأوعيـة مـن الميـاه المتجمـدة اندفعـت عـلى كتفـى.

عيد ميلاد سعيد.

لـو كنـت فى المتجـر، لـكان والـدى ليخـرج هديـة مـن تحـت المكتـب وأنـا أهبـط السـلم، قـد تكـون كتابـًا أو كتبـًا، اشـتراها مـن مـزاد ووضعهـا جانبـًا خـلال العـام، ودفـتر وعطـر وصـورة، كان ليغلفهـا فى المتجـر عنـد المكتـب، فى عـصر يـوم هـادئ وأنـا فى مكتـب البريـد أو المكتبـة، كان ليذهـب فى وقـت غـداء يـوم مـا وحـده ليختـار البطاقـة، وكان ليكتـب عليهـا "بـكل الحـب مـن بابـا ووالدتـك" عـلى المكتـب، وحـده، وحـده تمامـًا، كان ليذهـب إلى المخبـز مـن أجـل الكعكـة، وفى مـكان مـا بالمتجـر -لم أعـرف قـط أيـن، وهـذا واحـد مـن الأسرار القليلـة التـى لم أعرفهـا- أبقـى شـمعة، تخـرج فى ذلـك اليـوم مـن كل عـام، وتُشـعَل، لأطفئهـا أنـا، بأقـصى مـا يمكننـى جمعـه مـن تعبـيرات السـعادة، ثـم نـأكل الكعكـة مـع الشـاى ونجلـس مـن أجـل هضـم هـادئ وبعـض الفهرسـة.

عرفـت الأمـر مـن وجهـة نظـره، الأمـر أسـهل الآن وأنـا بالغـة بالمقارنـة مـع حـينَ كنـت طفلـة، فكـم كانـت أعيـاد الميـلاد أصعـب فى المنـزل، الهدايـا تُخبـأ ليـلاً فى الظـلام، ليـس منـى، بـل مـن والـدتى التـى لا تحتمـل رؤيتهـا، سـبب الصـداع الحتمـى هـو حراسـتها الصارمـة لطقـوس الذكـرى السـنوية، مـا يجعـل مـن المسـتحيل دعـوة أطفـال آخريـن إلى المنـزل، أو تركهـا بالمنـزل مـن أجـل متعـة زيـارة حديقـة الحيـوان أو الحديقـة، كانـت ألعـاب عيـد الميـلاد خاصتـى دائمـًا هادئـة، الكعـكات لم تكـن قـط منزليـة

الصنـع، والبقايـا يجـب تجريدهـا مـن الشـموع وطبقـة زينتهـا العلويـة قبـل أن توضـع فى الصفيحـة مـن أجـل اليـوم التـالى.

عيـد ميـلاد سـعيد؟ همـس والـدى تلـك الكلـمات فى أذنى مبـاشرة بسـعادة بالغـة، عيـد ميـلاد سـعيد، لعبنـا ألعـاب بطاقـات صامتـة، الفائـز تكسـو وجهـه تعبـيرات المـرح والخـاسر يكـشر وينهـار، ولا شيء مـن هـذا يُسـمع فى الغرفـة التـى أعلانـا، لا صـوت صفـارة، ولا صـوت نحنحـة، وبـين الألعـاب، كان والـدى المسـكين يصعـد ويهبـط، بـين الألم الصامـت فى غرفـة النـوم وعيـد الميـلاد الـسرى بالأسـفل، يغـير تعبـيرات وجهـه عـلى السـلم مـن البهجـة إلى التعاطـف، ومـن التعاطـف رجوعًـا إلى البهجـة.

عيـد ميـلاد غـير سـعيد، منـذ يـوم وُلـدت والحـزن دائمًـا حـاضر، اسـتقر مثـل الغبـار فى المنـزل، غطـى الـكل وكل شيء، غـزا أجسـادنا فى كل نفـس نتنفسـه، غلـف كل شـخص بمآسـيه.

تحملـت التفكـير فى هـذه الذكريـات فقـط لأننـى كنـت أشـعر بالـبرد للغايـة.

لمَ لم تسـتطع أن تحبنـى؟ ألم تعنـى حيـاتى لهـا أقـل مـما يعنيـه مـوت أختـى؟ هـل لامتنـى؟ ربمـا كانـت محقـة، أنـا عـلى قيـد الحيـاة الآن لأن أختـى ماتـت، وكلـما رأتنـى تذكـرت خسـارتها.

أكان الأمر ليكون أسهل عليها لو ماتت كلتانا؟

مشـيت كأننـى مخـدرة، قـدم أمـام الأخـرى، مـرارًا وتكـرارًا، منومـة مغناطيسـيًّا، بـلا أدنى اهتـمام بوجهتـى، لا أنظـر إلى شيء، لا أرى شـيئًا، فتعـثرت.

ثم اصطدمت بشيء ما.

"(مارجريت)! (مارجريت)!"

كنت أشعر بالبرد إلى درجة تمنع أيَّة استجابة منى، إلى درجة تمنع وجهى من التفاعل مع الهيئة العملاقة التى وقفت أمامى، مغلفًا فى كساء شبيه بالخيم من القماش الواقى من المطر، تحركت الهيئة وهبطت يدان على كتفى وهزتانى.

"(مارجريت)!"

إنه "أوريليوس".

"انظرى إليك! أنت مزرقة من البرد! بسرعة، تعالى معى"، أخذ ذراعى وقادنى بخفة، تعثرت قدماى بالأرض خلفه حتى وصلنا إلى طريق وسيارة، حملنى إلى الداخل، سمعت الأبواب تُصفق، وصوت تشغيل المحرك، ثم تيار دافئ عند كاحلى وركبتىّ، فتح "أوريليوس" قنينة حافظة للحرارة وصب كوبًا من الشاى البرتقالى.

"اشربى!"

شربت، كان الشاى ساخنًا وحلوًا.

"كلى!"

قضمت الشطيرة التى قدمها.

فى دفء السيارة، وأنا أشرب الشاى الساخن وآكل شطائر الدجاج، شعرت ببرودة لم أشعر بها من قبل، بدأت أسنانى تصطك، وارتجفت بلا توقف.

"يا إلهى!" تعجب "أوريليوس" بهدوء وهو يمرر لى شطيرة لذيذة تلو الأخرى: "رباه!"

بدا أن الطعام يعيدنى إلى رشدى قليلاً: "ماذا تفعل هنا يا (أوريليوس)؟"

"جئت لأعطيك هذا"، ومد يده إلى الخلف ورفع علبة صفيح بها كعكة من الفراغ الذى بين المقاعد.

وضع العلبة على حجرى، وابتسم إلى بسعادة غامرة وهو يرفع الغطاء.

رأيت بالداخل كعكة، كعكة منزلية الصنع وعليها كلمات بحروف زينة متعرجة: "عيد ميلاد سعيد يا (مارجريت)".

منعنى الشعور بالبرد من البكاء، بدلاً من ذلك، جعلنى خليط البرد والكعكة أتحدث، خرجت الكلمات منى على نحو عشوائى، مثل أشياء تلفظها الأنهار الجليدية وهى تذوب، غناء ليلى، حديقة لها أعين، أخوات، طفل رضيع، ملعقة، "إنها حتى تعرف المنزل"، هكذا ثرثرت فى حين جفف "أوريليوس" شعرى بمناديل ورقية، "منزلك ومنزل السيدة (لاف)، لقد نظرت عبر النافذة وظننت أن السيدة (لاف) شبيهة بجدة من الحكايات الخيالية.. ألا ترى ما يعنيه ذلك؟"

هز "أوريليوس" رأسه: "لكنها قالت لى..."

"لقد كذبت عليك يا (أوريليوس)! حين جئت لرؤيتها ببذلتك البنية، لقد كذبت، لقد اعترفت بذلك".

صاح "أوريليوس": "يا إلهى!"

"كيف عرفت بشأن بذلتى البنية؟ اضطررت للادعاء أننى صحفى"، لكن عندئذ، بعدما بدأ يستوعب ما قلته: "أقلتى ملعقة مثل ملعقتى؟ وهى عرفت المنزل؟"

"إنها خالتك يا (أوريليوس)، و(إيميلاين) هى والدتك".

توقف "أوريليوس" عن تمسيد شعرى، وللحظة طويلة حملق عبر نافذة السيارة فى اتجاه المنزل، غمغم: "والدتى، هناك".

أومأت.

ساد صمت آخر، ثم التفت إلى: "خذينى إليها يا (مارجريت)".

بدا أننى استيقظ: "المشكلة يا (أوريليوس) أنها ليست على ما يرام".

"مريضة؟ إذًا يجب أن تأخذينى إليها، بلا تأخير!"

"ليست مريضة تحديدًا"، كيف أشرح له ذلك؟ "لقد أصيبت فى الحريق يا (أوريليوس)، ليس فى وجهها فقط، بل فى عقلها".

استوعب تلك المعلومة الجديدة، وأضافها إلى مستودع الخسارة والألم خاصته، وحين تكلم مجددًا، تكلم بثبات مقصد حاسم: "خذينى إليها".

أكان المرض هو ما أملى على ردى؟ أكانت حقيقة أنه عيد ميلادى؟ أكان فقدانى لأمى؟ ربما أثرت هذه العوامل، لكن الأهم منها كلها كان وجه "أوريليوس" وهو ينتظر ردى، هناك مئة سبب وواحد لأرفض طلبه، لكن فى مواجهة ضراوة احتياجه، تلاشت الأسباب كلها.

قلت حسنًا.

# لم الشمل

نجح الاستحمام إلى حد ما في تدفئتي، لكنه أخفق في تلطيف الألم وراء عيني، تخليت عن كل أفكار العمل لبقية عصر اليوم وتسللت إلى السرير، وجذبت كل الأغطية الإضافية حتى تجاوزت أذني، تحتها كنت لا أزال أرتجف، ورأيت رؤى غريبة في نوم خفيف، رؤى حمل الكل فيها وجه شخص آخر، "هيستر" ووالدي والتوأمان ووالدتي، الكل متنكر في هيئة شخص آخر، وحتى وجهي نفسه كان مزعجًا لي، وتحول وتغير، أحيانًا أكون نفسي، وأحيانًا أكون شخصًا آخر، ثم ظهر رأس "أوريليوس" اللامع في حلمي: كان هو نفسه دائمًا، هو فقط، وابتسم وابتعدت الأشباح، ثم أطبق على الظلام مثل المياه، وغرقت في أعماق النوم.

استيقظت بصداع، ووجع في أطراف ومفاصلي وظهري، أثقلني إرهاق لا علاقة له بالمجهود ولا نقص النوم وأبطأ تفكيري، ازداد الظلام حلكة، هل نمت حتى موعدي مع "أوريليوس"؟ وبختني تلك الفكرة لكن عن بُعد فقط، ومرت دقائق طويلة قبل أن أتمكن من النهوض

لتفقد ساعتى، تشكل بداخلى خلال نومى شعور غامض -أهو ارتياب؟ أم حنين؟ أم حماس؟- وأثار بدوره شعورًا بالانتظار، الماضى يعود! أختى قريبة، لم يكن من شك فى ذلك، لم أستطع رؤيتها، ولا شمها، لكن أذنى الداخلية، المتناغمة دائمًا معها، ومعها فقط، التقطت موجاتها، وقد ملأنى ذلك ببهجة مخدِرة ومعتمة.

لا حاجة إلى تأجيل موعد "أوريليوس"، وأختى ستجدنى أينما كنت، أليست توأمى؟ فى الواقع كان أمامى نصف ساعة قبل موعد لقائه عند باب الحديقة، جررت نفسى متثاقلة من السرير، وارتديت تنورة ثقيلة وسترة فوقها حين شعرت بالبرد والإرهاق لدرجة منعتنى من خلع بيجامتى قبل ارتداء ملابس الخروج، هبطت إلى المطبخ مثقلة ومحزمة بملابسى مثل طفل فى ليلة العيد، تركت "جوديث" لى وجبة باردة لكنى لم أشعر بأيَّة شهية وتركت الطعام مثلما وجدته، لمدة عشر دقائق جلست إلى مائدة المطبخ، مشتاقة إلى إغلاق عينى ولا أجرؤ على ذلك، إذ قد أستسلم للخدر الذى يدعو رأسى إلى تحية سطح المائدة الصلب.

تبقت خمس دقائق، ففتحت باب المطبخ وتسللت إلى الحديقة.

لا يصدر أى ضوء من المنزل، ولا من النجوم، تعثرت بالظلام، وأخبرتنى التربة اللينة تحت قدمى وأجمة أوراق الأشجار وأفرعها حين انحرفت عن المسار، وفجأة خربش فرع شجرة وجهى وأغلقت عينى لحمايتهما، شعرت داخل رأسى باهتزازة نصفها ألم ونصفها الآخر بهجة، فهمت كل شىء، إنها أغنيتها، أختى قادمة.

وصلت إلى نقطة الالتقاء، شعرت بأن الظلام يتحرك، لكنها كانت حركته هو، ضربته يدى على نحو أخرق، ثم شعرت بأنها مشبوكة.

"أأنت بخير؟"

سمعت السؤال عن بُعد.

"أحرارتك مرتفعة؟"

الكلمات موجودة، لكن الغريب أنها بلا معنى.

كنـت لأود أن أخـبره عـن الذبذبـات الرائعـة التـى أشـعر بهـا، أن أخـبره أن أختـى قادمـة، وأنهـا سـتصل فى أيّـة لحظـة الآن، عرفـت ذلـك، عرفتـه مـن الحـرارة المنبعثـة مـن أثرهـا عـلى جانبـى، لكـن صوتهـا النقـى حـال بينـى وبـين كلـماتى وجعلنـى صـماء.

تـرك "أوريليـوس" رأسى لينـزع القفـاز، وشـعرت بكفـه البـارد عـلى نحـو غريـب فى الليـل الحـار عـلى جبهتـى، علـق: "يجـب أن تبقـى فى السريـر".

جذبـت كـم "أوريليـوس" جذبـة ضعيفـة لكنهـا كافيـة، وتبعنـى عـبر الحديقـة بسلاسـة كأنـه تمثـال عـلى عجـلات.

لا أتذكـر كيـف وصلـت مفاتيـح "جوديـث" إلى يـدى، لا بـد أننـى أخذتهـا، لا بـد أننـا مشـينا عـبر الممـرات الطويلـة إلى سـكن "إيميلايـن"، لكـن هـذا أيضًـا مُحـى مـن ذاكـرتى، أتذكـر البـاب، لكـن الصـورة التـى تـرد إلى بـالى هـى أنـه انفتـح متأرجحًـا حـين وصلنـا إليـه، ببطء ومـن تلقـاء ذاتـه، وهـو مـا أعـرف أنـه مسـتحيل، لا بـد أننـى فتحـت قفلـه، لكـن تلـك القصاصـة مـن الحقيقـة ضاعـت، وبقيـت صـورة البـاب مفتوحًـا.

ذاكـرتى عـما حـدث فى سـكن "إيميلايـن" تلـك الليلـة مفتتـة، انهـارت مسـارات زمنيـة كاملـة عـلى نفسـها، فى حـين أن ذاكـرتى بـدا فيهـا أن أحداثًـا أخـرى قـد حدثـت مـرارًا وتكـرارًا بتتـالٍ سريـع، تلـوح وجـوه وتعبـيرات كبـيرة عـلى نحـو مخيـف، ثـم تظهـر "إيميلايـن" و"أوريليـوس" كالدمـى المتحركـة بعيـدًا، أمـا أنـا فكنـت مأخـوذة، وناعسـة وأشـعر بالـبرد، ومشـتتة طـوال المقابلـة بشـغلى الشـاغل: أختـى.

بإعـمال العقـل والمنطـق، حاولـت أن أوجـد ترتيبًـا ذا معنـى للصـور التـى سـجلها عقـلى عـلى نحـو غـير مكتمـل وبطريقـة عشـوائية، مثـل أحـداث حلـم.

دخلـت وأوريليـوس سـكن "إيميلايـن"، خطواتنـا بـلا صـوت عـلى السـجاد الثقيـل، تقدمنـا عـبر مدخـل تلـو الآخـر، وجدناهـا جسـدًا لـه شـعر أبيـض يقـف فى المدخـل وظهرهـا إلينـا، كانـت تدنـدن، لا لا لا لا لا، ذلـك اللحـن المكسـور دون بدايـة ولا نهايـة الـذى طاردنى منـذ جئـت إلى المنـزل، شـق طريقـه إلى داخـل رأسى كأنـه دودة، حيـث تنافـس مـع ذبذبـات أختـى ذات النـبرة المرتفعـة، وبجانبـى انتظـر "أوريليـوس" لأقـدم كلينـا إلى "إيميلايـن"، لكننـى عجـزت عـن الـكلام، تقلـص الكـون فى رأسى إلى زغـردة لا تُحتمـل، وامتـد الوقـت ليكـون ثانيـة واحـدة أبديـة، وأحسسـت بالصمـم، رفعـت يـدى إلى أذنى، يائسـة مـن تخفيـف هـذا النشـاز، كان "أوريليـوس" هـو مـن تكلـم حـين رأى مـا فعلتـه: "(مارجريـت)!"

استدارت "إيميلاين" حين سمعت صوتًا لا تعرفه وراءها.

بـدا الشـعور بـالألم فى عينيهـا الخضراويـن أمـام تلـك المفاجـأة، انفتـح فمهـا منعـدم الشـفتين ليشـكِّل حـرف "أو" منحرفًـا، لكـن الدندنـة لا تتوقـف، فقـط تنحـرف وتتمايـل لتصبـح صرخـة حـادة، مثـل سـكين فى رأسى.

يتحـول "أوريليـوس" مصدومًـا نحـو "إيميلايـن"، مذهـولاً أمـام الوجـه المكسـور للمـرأة التـى هـى أمـه، يشـق الصـوت الصـادر مـن بـين شـفتيها الهـواء كأنـه مقـص.

لوهلـة كنـت بـلا بصر ولا سـمع، وحين ارتـد إلىَّ بصرى، رأيـت "إيميلاين" جاثمـة عـلى الأرض، يتحـول ركوعهـا إلى تشـنج، ويركـع "أوريليـوس" فوقهـا، يداهـا تخربشـه، ولا أعـرف إن كانـت تقصـد التشـبث بهـا أم صـده، لكنـه يأخـذ يدهـا بيـده، ويمسـكها.

يدها بيده، ودمها بدمه.

إنه وحدة متراصة من الحزن.

يستمر داخل رأسى عذاب ذلك الصوت النقى المبتهج.

أختى.. أختى...

ينسحب العالم وأجد نفسى وحيدة وسط عذاب الضوضاء.

أعـرف مـا حـدث لاحقًـا، حتـى لـو كنـت لا أتذكـره، يـترك "أوريليـوس" "إيميلايـن" برفـق عـلى الأرض إثـر سـماع خطـوات فى الردهـة، تتعجـب "جوديـث" حـين تـدرك أن مفاتيحهـا ليسـت معهـا، فى الوقـت الـذى تسـتغرقه لتجلـب مجموعـة مفاتيـح ثانيـة - مجموعـة "موريـس"، غالبًـا- ينطلـق "أوريليـوس" سريعًـا نحـو بـاب الحديقـة ويختفـى، وحـين تدخـل "جوديـث" الغرفـة أخـيراً تحملـق إلى "إيميلايـن" عـلى الأرض ثـم تتقـدم نحـوى وهـى تـصرخ ذعـرًا.

لكـن حينهـا لم أدرك أيًـا مـن ذلـك، فقـد احتضننـى النـور الـذى هـو أختـى، وتملكنـى، وحـررنى مـن وعيـى.

أخيراً.

# الكل له حكاية

قلق حاد مثل واحدة من نظرات السيدة "وينتر" الخضراء وخزني حتى استيقظت، ما الاسم الذي نطقته خلال نومي؟ من خلع عني ملابسي ووضعني في سريري؟ ماذا ظنوا بشأن العلامة التي على جلدي؟ وماذا حدث لـ"أوريليوس"؟ وماذا فعلت بـ"إميلاين"؟ وجهها المضطرب هو أكثر ما يعذب ضميري حين بدأ استفاقته البطيئة من النوم.

حين استيقظت لم أعرف أي يوم أو أيَّة ساعة هذه، "جوديث" موجودة، تراني أقلّب كوبًا وأرفعه إلى شفتي، وأشرب.

وقبل أن أتمكن من الكلام، يغلبني النوم مجددًا.

في ثاني مرة أستيقظ فيها، كانت السيدة "وينتر" بجانب سريري ولديها كتاب في يدها، كان كرسيها منفوخًا بوسائد مخملية، لكن خصلات الشعر الباهت حول وجهها العاري جعلتها تبدو مثل طفلة شقية تسلقت عرش الملكة على سبيل المزاح.

سمعتنى أتحرك، فرفعت رأسها عن الكتاب.

"جاء الطبيب (كليفتون)، كانت حرارتك مرتفعة للغاية".

لم أقل شيئًا.

تابعــت: "لم نعــرف أنــه عيــد ميــلادك، لم نســتطع أن نجــد بطاقــة معايـدة، لا نحظـى بالكثـير مـن أعيـاد الميـلاد هنـا، لكننـا جلبنـا لـك بعـض نبـات الدفنـة مـن الحديقـة".

رأيـت فى المزهريـة أفـرع داكنـة بـلا أوراق، لكـن عليهـا ورود أرجوانيـة رقيقـة بطولهـا، مـلأت الهـواء برائحـة حلـوة مسـكرة.

"كيف عرفت أنه عيد ميلادى؟"

"لقــد أخبرتنــا، فى أثنــاء نومــك، متــى ســتخبرينى حكايتــك يــا (مارجريــت)؟"

"أنا؟ ليست لى حكاية".

"بالتأكيد لك، الكل له حكاية".

هـزرت رأسى: "ليـس أنـا"، وسـمعت فى رأسى صـدى كلـمات ربمـا قلتهـا خـلال نومـى.

وضعت السيدة "وينتر" الشريط على صفحتها وأغلقت الكتاب.

"الـكل لـه حكايـة، الأمـر مثـل العائـلات، ربمـا لا تعرفـين عائلتـك، ربمـا تفقدينهـا، لكنهـا مـع ذلـك موجـودة، ربمـا تفترقـا، أو تـولى لهـا ظهـرك، لكـن لا يمكنـك قـول إن ليـس لديـك عائلـة، ينطبـق هـذا عـلى الحكايـات أيضًـا، لـذا، الـكل لـه حكايـة، متـى سـتخبرينى حكايتـك؟"

"لن أفعل".

أمالت رأسها إلى جانبه وانتظرتنى أن أتابع كلامى.

"لم أخبر أحدًا قط حكايتى، إن كانت لى حكاية، فها هى، ولا أرى دافعًا لتغييرها الآن".

قالت برقة: "فهمت"، وأومأت برأسها كأنها فهمت حقًّا، "حسنًا، بالتأكيد هذا شأنك"، أدارت يدها فى حجرها وحملقت إلى كفها المشوه، "أنت حرة ألا تقولى شيئًا إن كان هذا ما تريدينه، لكن الصمت ليس البيئة الطبيعية للحكايات، إنها بحاجة إلى كلمات، من دونها تصبح القصص شاحبة، وتمرض وتموت، ثم تطاردك". والتفتت عينيها إلىَّ مجددًا: "صدقينى يا (مارجريت)، أنا أعرف".

نمت لفترات ممتدة، وحينما أستيقظ، أجد وجبة للمرضى بجوار سريرى أعدتها "جوديث"، آكل لقيمة أو اثنتين فقط، حين جاءت "جوديث" لأخذ الصينية، لم تستطع أن تخفى خيبة أملها بسبب ما أتركه من الطعام، لكنها لا تذكر ذلك قط، لم أكن أشعر بأى ألم -لا صداع، ولا برد، ولا مرض- إلا إن احتسبت الإرهاق وتأنيب الضمير الشديدين الذين أثقلا عقلى وقلبى، ماذا فعلت بـ"إيميلاين"؟ و"أوريليوس"؟ تعذبنى ذكرى تلك الليلة خلال ساعات استيقاظى، ويدفعنى الشعور بالذنب إلى النوم.

سألت "جوديث": "كيف حال (إيميلاين)؟ أهى بخير؟"

كانت إجاباتها غير مباشرة: لِمَ يجب أن أقلق بشأن السيدة "إيميلاين" وأنا نفسى بهذه الحالة السيئة؟ كانت السيدة "إيميلاين" على غير ما يرام لفترة طويلة جدًّا، والسيدة "إيميلاين" تتقدم بالسن.

ممانعتها لقول الحقيقة أخبرتنى كل شىء أردت معرفته، "إيميلاين" ليست بخير، وهذا خطئى.

أما "أوريليوس"، فلم أستطع فعل شىء له سوى الكتابة، بمجرد أن أصبحت قادرة، طلبت من "جوديث" قلمًا وورقة، واستندت إلى وسادة وصغت رسالة، لم تعجبنى النتيجة، فجربت غيرها وغيرها،

لم أواجه قط مثل هذه الصعوبة فى استخدام الكلمات، ولما اكتسى غطاء سريرى بالنسخ المرفوضة لدرجة أننى يئست من نفسى، اخترت واحدة على نحو عشوائى وصنعت منها نسخة أنيقة:

العزيز أوريليوس،

هل أنت بخير؟

آسفة للغاية لما حدث، لم أقصد قط إيذاء أحد، كنت مجنونة، أليس كذلك؟

متى يمكننى مقابلتك؟

أما زلنا أصدقاء؟

"مارجريت".

يجدر بهذه أن تكون كافية.

جاء الطبيب "كليفتون" واستمع إلى نبضى وسألنى الكثير من الأسئلة: "الأرق؟ النوم غير المنتظم؟ الكوابيس؟"

أومأت ثلاث مرات.

"هذا ما ظننته"، أخذ ميزان الحرارة وأمرنى أن أضعه تحت لسانى، ثم نهض ومد الخطى نحو النافذة، سألنى وهو يولى إلىَّ ظهره: "وماذا تقرئين؟"

لم أستطع الرد والميزان فى فمى.

"مرتفعات ويذيرنج، هل قرأتها؟"

"مممممم".

"وجين أير؟"

"مممم".

"العقل والعاطفة؟"

"هممم".

التفت ونظر إليّ بوجه جاد: "وأفترض أنك قرأت هذه الكتب أكثر من مرة".

أومأت وعبس هو.

"قرأتها وأعدت قراءتها؟ مرات عدة؟"

أومأت مجددًا، وازداد عبوسه.

"منذ الطفولة؟"

أربكتنى أسئلته، لكن جدية نظرته أجبرتنى على الإيماء مجددًا.

تحت جفنه الداكن، ضاقت عينه لتصبح شقًا عرضيًّا، استطعت أن أرى بوضوح كيف أنه ربما يخيف مرضاه إلى درجة التعافى، فقط ليتخلصوا منه.

ثم انحنى بقربى لقراءة الميزان.

يبدو الناس مختلفين عن قرب، الجفن الداكن لا يزال جفنًا داكنًا، لكن يمكن تمييز الشعيرات المنفردة وسطه، وكيف أنها متراصة ومتقاربة، وآخر شعيرات الجفن، رقيقة للغاية، شبه خفية، شاردة فى اتجاه صدغه، موجهة نحو القوقعة الحلزونية التى تشكل أذنيه، وتوجد ثقوب دبابيس متراصة ومتقاربة فى حبيبات جلدهتخرج منها لحيته، وها هو مجددًا: ذلك الاتساع الدقيق جدًا لدرجة ألا يُلاحظ لفتحة الأنف، وذلك الانقباض عند طرف الفم، دائمًا ما اعتبرتها علامات على القسوة، ودليل على أنه يحتقرنى، لكن الآن، وأنا أراها

على بعد بضع سنتيمترات، خطر ببالى أن ذلك قد لا يكون رفضًا قط، سألت نفسى أيمكن أن يكون الطبيب "كليفتون" كان يسخر منى سرًا؟

أخذ ميزان الحرارة من فمى وثنا ذراعيه، وأدلى بتشخيصه: "تعانين من وعكة تصيب الآنسات ذوات المخيلات الرومانسية، الأعراض تشمل الإغماء، والإرهاق، وفقدان الشهية، وتعكر المزاج، وفى حين يمكن إرجاع الأزمة على أحد المستويات إلى التجول تحت الأمطار قارسة البرودة دون ما يكفى من ملابس الوقاية من المطر، فإن السبب الأعمق يرجح أن يكون جزءًا من صدمة عاطفية، ولكن على خلاف بطلات رواياتك المفضلة، لم تضعف صحتك الجسدية بسبب الحرمان من متطلبات الحياة فى القرون السابقة الأكثر قسوة، فلا وجود لمرض السل، ولا شلل الأطفال، ولا الأوضاع المعيشية غير الصحية، ستنجين من هذه الوعكة".

نظر إلى عينىّ مباشرة، وكنت غير قادرة على إبعاد نظرى حين قال: "لا تأكلين كفاية".

"ليست لدىّ شهية".

قال بالفرنسية، ورددت عليه بترجمة ما قاله: "الشهية تأتى بتناول الطعام".

"بالضبط، ستعود إليك شهيتك، لكن يجب أن تسعى نحوها، يجب أن تريدى عودتها".

كان هذا دورى أن أعبس.

"العلاج ليس معقدًا: كلى، وارتاحى، والتزمى بهذا..." كتب كلمات بسرعة على دفتر، ومزق صفحة ووضعها بجانب الطاولة، "سيختفى التعب والإرهاق خلال أيام قليلة"، مد يده إلى حقيبته، حيث أخفى

قلمـه والـورق، ثـم، وهـو يهـم بالمغـادرة، تـردد: "أود أن أسـألك عـن تلـك الأحـلام خاصتـك، لكننـى أظـن أنـك لـن تـودى إخبـارى..."

ودعته بلا مشاعر: "لن أخبرك".

ارتسم الإحباط على وجهه: "هكذا ظننت".

حيانى من عند الباب، ورحل.

مـددت يـدى إلى الروشـتة، وجدتـه قـد كتـب بخـط متعجـل ونشـيط: "كتـاب ملـف قضايـا شـيرلوك هولمـز للسـيد (آرثـر كونـان دويـل)، عـشرة صفحـات، مرتـين يوميًـا، حتـى نهايـة البرنامـج العلاجـى".

# أيام ديسمبر

اتبعت تعليمات الطبيب "كليفتون" وقضيت يومين فى السرير آكل وأنام وأقرأ قصص "شيرلوك هولمز"، أعترف بأننى تجاوزت جرعتى من الدواء متجرعة القصة تلو الأخرى، وقبل نهاية اليوم الثانى، كانت "جوديث" قد ذهبت إلى المكتبة وحصلت على مجلد آخر لـ"كونان دويل"، أصبحت فجأة طيبة تجاهى منذ انهيارى، لم تكن حقيقة أنها آسفة من أجلى هى ما غيرتها -مع أنها كانت بالفعل آسفة- بل حقيقة أن وجود "إيميلاين" لم يعد الآن سرًّا فى المنزل، أصبحت حرة لتترك مشاعرها الطبيعية تحكم محادثاتها معى، بدلاً من الإبقاء على ذلك المظهر المزيف الحذر باستمرار.

سألتنى وهى تتمنى لو يحدث ذلك فى يوم ما: "ألم تقل شيئًا قط بشأن الحكاية الثالثة عشر؟"

"ولا كلمة، أقالت لك شيئًا؟"

هـزت رأسـها: "أبـدًا، الأمـر غريـب، أليـس كذلـك؟ بعـد كل مـا كتبتـه، أن تكـون القصـة الأشـهر مـن بـين كل قصصهـا هـى التـى لم تُكتـب قـط، فقـط فكـرى بالأمـر: يمكنهـا عـلى الأرجـح أن تنـشر كتابًـا يضـم كل القصص الناقصـة، وسيُشـترى كأنـه كنـز"، ثـم هـزت رأسـها لتفـرغ بالهـا، وقالـت بنـبرة مختلفـة: "إذًا فـما رأيـك بالطبيـب (كليفتـون)؟"

حـين مـر الطبيـب "كليفتـون" بالمنـزل ليطمـئن عـلى تحسـنى، هبطـت عينـاه عـلى المجلـدات المجـاورة لسريـرى، لم يقـل شـيئًا لكـن فتحتـى أنفـه انتفضتا.

فى اليـوم التـالى، اسـتيقظت أشـعر بالضعـف كأنى طفلة رضيعـة، وغرقت غرفتـى فى الضـوء النقيّالمنعـش وأنـا أفتـح السـتائر، بالخارج امتدت السـماء الزرقـاء الزاهيـة بـلا غيـوم مـن الأفـق إلى الأفـق، ولمعـت تحتهـا الحديقـة بالثلـوج، بـدا كأن خـلال تلـك الأيـام الغائمـة الطويلـة كان الضـوء يتراكـم وراء السـحاب، والآن بعدمـا زال السـحاب لم يعـد شـيئًا يوقـف تدفقـه، ينقعنـا فى حصيلـة أسـبوعين مـن الضـوء فى مـرة واحـدة، شـعرت كأن الحيـاة بـدأت تـدب ببـطء فى عروقـى وأنـا أرمـش قبالـة هـذا الإشراق.

خرجـت مـن المنـزل قبـل الإفطـار، ببـطء وبحـذر خطـوت حـول العشـب وفى أعقـابى "شـادو"، كانـت الأرض تحتـى منتعشـة، والشـمس متألقـة فى كل مـكان عـلى أوراق الأشـجار المثلجـة، حمـل العشـب المكسـو بالثلـوج آثـار نعـلى، لكـن "شـادو" خطـا بجانبـى مثـل شـبح رقيـق بـلا آثـار، فى البدايـة شـعرت بالهـواء البـارد الجـاف مثـل سـكينة فى حلقـى، لكـن شـيئًا فشـيئًا أعـاد إلىّ حيويتـى، وابتهجـت بهـذا الانتعـاش، ومـع ذلـك، كانـت بضـع دقائـق كافيـة، فقـد آثـرت أن أعـود إلى الداخـل بعدمـا تخـدر خـداى، وأصبحـت أصابعـى ورديـة وتألمـت أصابـع قدمـى، وآثـر "شـادو" أن يتبعنـى، تناولـت الإفطـار أولاً، ثـم انتقلـت إلى أريكـة المكتبـة، والموقـد المسـتعر ومعـى شىء أقـرؤه.

أمكنني أن أستشعر مدى تحسني عبر حقيقة أن أفكاري لم تتحول نحو كنوز مكتبة السيدة "وينتر"، بل إلى قصتها، فقد استعدت كومة أوراقي التي أهملتها منذ يوم انهياري من الطابق العلوي، وجلبتها معي إلى دفء الموقد حيث قضيت أفضل ساعات النهار أقرأ، و"شادو" إلى جانبي، قرأت وقرأت بلا توقف، مستكشفة القصة بالكامل من البداية، وذكّرت نفسي بكل معضلاتها وألغازها وأسرارها، لكنني لم أكتشف أيّ جديد، وفي نهايتها كنت متحيرة مثلما كنت قبل أن أبدأ، هل عبث أحد بسلم "جون ذا ديج"؟ لكن من؟ وما ذلك الذي رأته "هيستر" حين ظنت أنها رأت شبحًا؟ واللغز الأعقد من كل هذا، كيف لـ"آديلاين" تلك الطفلة العنيفة المتشردة، العاجزة عن التواصل مع أيّ أحد سوى أختها الغبية، والقادرة على إتيان أفعال تدمر حدائق وتفطر قلوبًا، أن تكبر لتكون السيدة "وينتر"، المؤلفة المنضبطة ذاتيًّا، صاحبة عشرات الروايات الأكثر مبيعًا، وصانعة تلك الحديقة البديعة؟

دفعت كومة أوراقي جانبًا، ومسدت "شادو" وحملقت إلى الموقد، مشتاقة إلى الارتياح الذي تبعثه قصة جرى التخطيط لكل شيء فيها مسبقًا، حيث حيرة العقدة مصممة فقط لإمتاعي، وحيث يمكنني قياس مدى قربي من الحل عبر تفقد سُمك الصفحات المتبقية، لم تكن لدي فكرة عن عدد الصفحات المتبقية على اكتمال قصة "إيميلاين" و"آديلاين"، ولا حتى ما إذا تبقى وقت كاف لإكمالها.

على الرغم من انهماكي في أوراقي، لم أستطع منع نفسي من التساؤل عن سبب عدم رؤيتي للسيدة "وينتر"، في كل مرة أسأل عنها، كانت "جوديث" تعطني الإجابة نفسها: إنها مع السيدة "إيميلاين"، حتى المساء، حين جاءت برسالة من السيدة، "وينتر" نفسها: هل أنا بخير كفاية لأقرأ لها قليلاً قبل العشاء؟

حين ذهبت إليها وجدت كتابًا -سر السيدة "أودلى"- على الطاولة بجانب السيدة "وينتر"، فتحته عند الشريطة وقرأت، لكننى كنت قد قرأت فصلاً واحدًا حين توقفت، مستشعرة أنها تريد التحدث إلى.

سألتنى: "ماذا حدث فى تلك الليلة؟ ليلة مرضك؟"

كنت ممتنة على نحو متوتر لأننى حظيت بفرصة للتفسير: "كنت أعرف مسبقًا أن (إيميلاين) فى المنزل، سمعتها خلال الليل، رأيتها فى الحديقة، ووجدت جناحها، ثم فى تلك الليلة تحديدًا جلبت أحدًا ليراها، فتفاجأت (إيميلاين)، وأبعد ما قد أقصده هو أن أخيفها، لكنها تفاجأت حين رأتنا، و..." توقف صوتى فى حلقى.

"يجب أن تعرفى أن هذا ليس خطأكِ، فلا تتحاملى على نفسك، العويل والانهيار العصبى، إنه أمر رأيته و(جوديث) والطبيب كثيرًا، لو كان هناك مُلام فهو أنا، لأننى لم أخبرك قبلها أنها هنا، لدى ميل لأن أكون مفرطة فى الحماية، كنت مغفلة بألا أخبرك"، وسكتت: "هل تنوين إخبارى بهوية من جلبته معك؟"

قلت: "أنجبت (إيميلاين) طفلاً، هذا هو الشخص الذى جاء معى، الرجل ذو البذلة البنية"، وبعدما قلت ما أعرفه، هرعت الأسئلة التى لا أعرف لها إجابة إلى شفتى، كأن صراحتى قد تشجعها على أن تكون صادقة بالمقابل: "عم كانت (إيميلاين) تبحث فى الحديقة؟ كانت تحاول أن تحفر لتخرج شيئًا حين رأيتها، إنها تفعل ذلك كثيرًا، لقد قال (موريس) إنه عمل الثعالب، لكننى أعرف أنها ليست الحقيقة".

كانت السيدة "وينتر" صامتة وثابتة للغاية.

اقتبست عنها: "الموتى يواريهم التراب"، وتابعتُ: "هذا ما قالته لى، ما الذى تظن أنه مدفون؟ أهو طفلها؟ (هيستر)؟ عمن تبحث تحت التراب؟"

نـدت عـن السـيدة "وينـتر" همهمـة، ومـع أنهـا كانـت خافتـة، فإنهـا أيقظـت عـلى الفـور الذكـرى الضائعـة للصـوت الأجـش الـذى أطلقتـه "إيميلايـن" تجاهـى فى الحديقـة، إنهـا الكلـمات نفسـها تحديـدًا! أضافـت السـيدة "وينـتر": "أهـذا كل الأمـر؟ أهـذا مـا قالتـه؟"

أومأتُ.



"بلغة التوأمين؟"

أومأتُ مجددًا.

تطلعـت إلى السـيدة "وينـتر" باهتـمام: "أنـت تبلـين حسـنًا يـا (مارجريـت)، أفضـل مـما توقعـت، المشـكلة أن توقيـت هـذه القصـة يخـرج عـن سـيطرتى، نحـن نسـتبق الأحـداث"، وصمتـت محدقـةً إلى كفهـا، ثـم نظـرت إلىّمباشرة: "قلـت إننـى قصـدت إخبـارك الحقيقـة يـا (مارجريـت)، وهـذا مـا أفعلـه، لكـن قبـل أن أتمكـن مـن إخبـارك، يجـب أن يحـدث شىء أولاً، وهـو سـيحدث، لكنـه لم يحـدث بعـد".

"ما...؟"

لكـن قبـل أن أكمـل سـؤالى هـزت رأسـها: "هـلا نعـد إلى قصـة السـيدة (أودلى) وسرهـا".

قـرأت لنصـف سـاعة أخـرى أو نحـو ذلـك، لكـن عقـلى لم يركـز فى القصـة، وتشـكل لـدىّ انطبـاع بـأن انتبـاه السـيدة "وينـتر" أيضًـا كان يتجـول، حـين جـاءت "جوديـث" لتطـرق البـاب فى وقـت العشـاء، أغلقـت الكتـاب ووضعتـه جانبًـا، وقالـت السـيدة "وينـتر" كأن أحـد لم يقاطعنـا، وكأننـا نتابـع نقاشـنا السـابق: "لِمَ لا تأتـين لـترى (إيميلايـن) هـذا المسـاء إن لم تكـونى متعبـة؟"

# أختان.

ذهبت إلى سكن "إيميلاين" فى الوقت المحدد، إنها المرة الأولى التى أذهب فيها إلى هناك بصفتى ضيفة مدعوة، وأول ما لاحظته قبل حتى أن أدلف إلى غرفة النوم كان كثافة الصمت، توقفت لوهلة فى المدخل -إذ لم تلحظا قدومى بعد- وأدركت أن ذلك تأثير همسهما، فعند حافة السمع، يصنع احتكاك الأنفاس بالأحبال الصوتية تموجات فى الهواء، إنها الأصوات الانفجارية الرقيقة التى مرت قبل أن تسمعها، والأصوات الاحتكاكية التى ربما ظننتها صوت دمك فى أذنيك، وفى كل مرة أظن أنها توقفت، يمر بأذنى همس مكتوم مثل فراشة تهبط على شعرى ثم ترفرف مبتعدة.

تنحنحت.

"مارجريت"، وأشارت السيدة "وينتر"، وهى على كرسيِّها المتحرك الموضوع بجانب أختها، إلى كرسى على الجانب الآخر من السرير، "يا له من لطف منك".

نظـرتُ إلى وجـه "إيميلايـن" الأحمـر والأبيـض عـلى الوسـادة، كانـا الأحمـر والأبيـض نفسـيهما المميـزان لتشـوهات الحـروق والندبـات التـى رأيتهـا مـن قبـل، ولم تفقـد سـمنتها جيـدة التغذيـة، وشـعرها لا يـزال خصلـة متشـابكة مـن اللـون الأبيـض، تجولـت عيناهـا فى السـقف بخمـول، وبـدت غـير مباليـة بوجـودى، مـا الاختـلاف إذًا؟ فقـد بـدت مختلفـة، حـدث تحـول مـا داخلهـا، تغيـير واضـح مبـاشرة للعـين، مـع أنـه مـراوغ إلى حـد يمنـع تعريفـه، ومـع ذلـك فإنهـا لم تفقـد شـيئًا مـن قوتهـا، إحـدى يديهـا ممـدودة خـارج الغطـاء وتمسـك بيـد السـيدة "وينـتر" بقبضـة قوية.

سألتها بتوتر: "كيف حالك يا (إيميلاين)؟"

قالت السيدة "وينتر": "إنها ليست بخير".

تغـيرت السـيدة "وينـتر" أيضًـا فى الأيـام الأخـيرة، لكـن مرضهـا أشـبه بعمليـة التقطـير، كلـما أضعفهـا، أظهـر حقيقتهـا، كلـما رأيتهـا بـدت منكمشـة: أنحـف، وأضعـف، وأكـثر صدقًـا، وكلـما ضعفـت، ظهـرت صلابـة جوهرهـا.

ومـع ذلـك، كانـت "إيميلايـن" تمسـك بقبضتهـا الثقيلـة يـدًا نحيفـة وضعيفـة للغايـة.

سألتها: "أتودين أن أقرأ؟"

"بلا شك".

قـرأتُ فصـلاً، ثـم تمتمـت السـيدة "وينـتر": "إنها نائمـة"، عينـا "إيميلاين" مغلقتـان، وتنفسـها عميـق ومنتظـم، وقـد أرخـت قبضتهـا عـن يـد أختهـا، والسـيدة "وينـتر" تمسـدها كأنهـا تعيـد إليهـا الحيـاة، حينهـا رأيـت بدايـات كدمـات عـلى أصابعها.

حـين رأت اتجـاه نظـرى جذبـت يدهـا داخـل شـالها وقالـت: "آسـفة بشـأن هـذا التعطيـل لعملنـا، اضطـررت إلى إبعـادك مـرة مـن قبـل حـين

كانـت (إيميلايـن) مريضـة، والآن أيضًـا يجـب أن أقـضى وقتـى معهـا، ويجب أن ينتظر مشروعنـا، لكـن لـن يطـول ذلـك، وعيـد الميلاد قريـب، سـتريدين أن تغـادرى لتبقـى مـع عائلتـك، حـين تعوديـن بعـد الإجـازة سـنرى إلام آلـت الأمـور، أتوقـع..."-وكان هـذا أقـصر توقـف ممكـن- "أن نتمكـن مـن متابعـة عملنـا حينهـا".

لم أفهـم مـا تقصـده فى الحـال، كانـت كلماتهـا غامضـة، لكـن صوتهـا هـو مـا كشـفها، قفـزت عينايـإلى وجـه "إيميلايـن" النائـم.

"أتقصدين...؟"

تنهـدت السـيدة "وينـتر": "لا تنخدعـى بحقيقـة أنهـا تبـدو قويـة، لقـد كانـت مريضـة لفـترة طويلـة جـدًا، طـوال سـنوات افترضـت أننـى سـأعيش لأراهـا ترحـل أمامـى، ثـم حـين مرضـتُ لم أعـد متأكـدة جـدًا، والآن يبـدو أننـا فى سـباق إلى خـط النهايـة".

إذًا فهـذا مـا كنـا بانتظـاره، الحـدث الـذى لـولاه مـا كانـت القصـة لتنتهـى.

فجأة جف حلقى وارتعد قلبى مثل قلب طفلة.

إنها تحتضر، "إيميلاين" تحتضر.

"أهذا خطئى؟"

هـزت السـيدة "وينـتر" رأسـها: "خطـؤك؟ كيف يمكـن أن يكـون خطأك؟ تلـك الليلـة لا شـأن لهـا بهـذا"، ورمقتنـى بواحـدة مـن نظراتهـا القديمـة الحـادة التـى تفهـم منـى أكـثر مـما أقصـد كشـفه: "لِمَ يزعجـك هـذا يـا (مارجريـت)؟ أختـى غريبـة عنـك، ويصعـب علـىّ تصديـق أن التعاطـف هـو مـا يحزنـك هكـذا، أهـو التعاطـف؟ أخبرينـى يـا (مارجريـت): مـا الأمـر؟"

كانت مخطئة جزئيًّا، لقد تعاطفت معها، لأننى اعتقدت أننى أدرك ما تمر به السيدة "وينتر"، كانت على وشك الانضمام إلىّ فى صفوف البُتر، التوائم الثكالى يعيشون بنصف روح، بين الحياة والموت خيط رقيق ومظلم، والتوائم الثكالى يعيشون أقرب إليه من معظم الناس، ومع أنها عادةً سريعة الغضب وعنيدة، فقد ازداد حبى للسيدة وينتر، وبالتحديد، أحببت الطفلة التى كانت هى، الطفلة التى ظهرت على نحو متكرر أكثر فى هذه الأيام، بشعرها المقصوص، ووجهها العارى، ويديها الضعيفتين المتجردتين من أحجارهما الثقيلة، بدا أنها تزداد طفولة فى كل يوم، فى عقلى هى الطفلة التى تفقد أختها، وهناك التقى حزن السيدة "وينتر" وحزنى، فاجعتها ستحدث فى هذا المنزل خلال الأيام المقبلة، وهى الفاجعة نفسها التى شكلت حياتى، مع أنها حدثت لى قبل أن أدرك العالم.

رأيت وجه "إيميلاين" على الوسادة، إنها تقترب من البرزخ الذى أبعدنى عن أختى، قريبًا ستعبره وسنفقدها، ستكون وافدة جديدة فى ذلك الجانب الآخر، ملأتنى رغبة سخيفة فى أن أهمس بأذنها رسالة إلى أختى، بعهدة سيدة قد تراها قريبًا، لكن ماذا أقول؟

شعرت بحملقة السيدة "وينتر" الفضولية إلى وجهى، وكبحت حماقتى الوشيكة.

سألتها: "كم تبقى لها؟"

"أيام، ربما أسبوع، ليس كثيرًا".

أطلت السهر فى تلك الليلة مع السيدة "وينتر"، وحضرت مجددًا على جانب سرير "إيميلاين" فى اليوم التالى، جلسنا نقرأ بصوت مرتفع أو فى صمت لفترات طويلة، لا يقاطع سهرنا إلا الطبيب "كليفتون"، بدا أنه يعتبر وجودى هناك أمرًا طبيعيًّا، وشملنى بالابتسامة الجادة نفسها التى منحها للسيدة "وينتر" وهو يتحدث بلطف عن تدهور

"إيميلايـن"، وأحيانًـا كان ينضـم إلينـا لسـاعة أو نحـو ذلـك، يشـاركنا التيـه، يسـتمع وأنـا أقـرأ. كتـب مـن أى رف، مفتوحـة عنـد أيّـة صفحـة، أبدؤهـا مـن أى صفحـة وأنهيهـا فى أى صفحـة، فى منتصـف جملـة أحيانًـا، اصطدمـت روايـة "مرتفعـات ويذيرنـج" بروايـة "إيمـا"، والتـى أفسـحت الطريـق لروايـة "ذى يوسـتاس دايمونـدز"، والتـى تداخلـت مـع روايـة "أوقـات عصيبـة"، والتـى أفضـت إلى روايـة "ذات الـرداء الأبيـض"، كلهـا فتـات، لكـن ذلـك لم يهـم، فالفـن واكتمالـه وتشـكله وانتهـاؤه ليسـت لـه قـدرة عـلى التعزيـة، وعـلى الجانـب الآخـر كانـت الكلـمات حبـل نجـاة، لقـد تركـت الكلـمات إيقاعهـا المكتـوم وراءهـا، تـوازن الشـهيق والزفـير البطـىء لـ"إيميلايـن".

ثـم تـلاشى اليـوم وكانـت عشـية عيـد الميلاد فى اليـوم التـالى، وهـو يـوم رحيـلى، عـلى نحـو مـا لم أرد أن أرحـل، هـدوء هـذا المنـزل والعزلـة البديعة التـى توفرهـا حديقتـه هـما كل مـا أريـده مـن العـالم حاليًـا، بـدا المتجـر ووالـدى صغيريـن وبعيديـن جـدًا، ووالـدتى -كحالهـا دائمًـا- أبعـد، أمـا عيـد الميـلاد فى منزلنـا.. إنـه قريـب للغايـة مـن عيـد مولـدى، أقـرب مـن أن تتحمـل والـدتى الاحتفـال بطفـل امـرأة أخـرى فيـه، ولا يهـم كـم قرنًـا مـر عـلى ذلـك، فكـرت بشـأن والـدى وهـو يفتـح بطاقـات المعايـدة مـن أصدقـاء والـدى القليلـين، ويرتـب عنـد الموقـد صـور "بابـا نويـل" وطيـور روبـين والثلـوج غـير المؤذيـة وينحـى صـور مريـم العـذراء جانبًـا، ويجمـع سـنويًا كومـة سريـة مـن تلـك الصـور، صـور ملونـة بالأحجـار الكريمـة لـلأم المتطلعـة ببهجـة إلى رضيعهـا الوحيـد المكتمـل المثـالى، ويتطلـع الرضيـع إليهـا، ويشـكل كلاهـما دائـرة مباركـة مـن الحـب والكـمال، فى كل عـام يوضـع الكثـير مـن تلـك الصـور فى صنـدوق.

أعـرف أن السـيدة "وينـتر" لـن تعـترض لـو طلبـتُ البقـاء، بـل قـد تمتن لوجـود رفيقـة فى أيامهـا المقبلـة، لكننـى لم أطلـب، لم أسـتطع، لقـد رأيـت تدهـور "إيميلايـن"، وبينـما هـى تضعـف، اشـتدت القبضـة الضاغطـة

علـى قلبـى، ويخـبرنى عـذابى المتزايـد بـأن النهايـة ليسـت بعيـدة، هـذا جـبن منـى، لكـن حـين جـاء عيـد الميـلاد، وجـدت تلـك فرصـة للهـرب، واسـتغللتها.

فى المسـاء ذهبـت إلى غرفتـى وحقبـت أشـيائى، ثـم ذهبـت إلى سـكن "إيميلايـن" لأودع السـيدة "وينـتر"، رفرفـت كل همسـات الأختـين بعيـدًا، وأصبحـت العتمـة أثقـل، وثابتـة أكـثر مـن ذى قبـل، عـلى حجـر السـيدة "وينـتر" كتـاب، لكنهـا إن كانـت مـن قبـل تقـرأ، فإنهـا لم تعـد قـادرة عـلى الرؤيـة لتقـرأ، بـل تطلعـت عيناهـا بحـزن إلى وجـه أختهـا، واسـتلقت "إيميلايـن" بـلا حـراك عـلى سريرهـا، وارتفعـت الأغطيـة وهبطـت برقـة مـع أنفاسـها، عيناهـا مغلقتـان وتبـدو فى سـبات عميـق.

تمتمـت السـيدة "وينـتر": "مارجريـت"، مشـيرة إلى كـرسى، بـدت مـسرورة بقدومـى، وانتظرنـا معًـا خفـوت الضـوء، مسـتمعتين إلى حركـة أنفـاس "إيميلايـن".

دخلـت وخرجـت أنفـاس "إيميلايـن" بيننـا عـلى سريـر المـرض، بإيقـاع سـلس هـادئ، مريـح مثـل صـوت المـوج عـلى الشـاطئ.

لم تتكلـم السـيدة "وينـتر"، وكنـت أنـا أيضًـا صامتـة، أصـوغ فى بـالى رسـالة مسـتحيلة قـد أرسـلها إلى أختـى بواسـطة هـذه المسـافرة قريبًـا إلى العـالم الآخـر، ومـع كل زفـير، بـدا أن الغرفـة تمتلـئ بحـزن أعمـق وأبقـى.

تحرك ظل السيدة "وينتر" المظلم على النافذة.

قالـت: "يجـب أن تحصـلى عـلى هـذا"، وأخبرتنـى حركـة فى الظـلام أنهـا تمـد شـيئًا لى أعـلى السريـر.

أغلقـت أصابعـى عـلى شيء مسـتطيل مـن الجلـد لـه قفـل معـدنى، يبـدو كأنـه كتـاب.

"هـذا مـن صنـدوق كنـوز (إيميلايـن)، لا حاجـة إليـه بعـد الآن، غـادرى واقرئيـه، وسـنتكلم حـين تعوديـن".

قطعـت الغرفـة نحـو البـاب والكتـاب فى يـدى، أستشـعر طريقـى بواسـطة الأثـاث الـذى يقطعـه، وورائى مـد وجـذر أنفـاس "إيميلايـن".

# دفتر مذكرات وقطار.

كان دفتر مذكرات "هيستر" تالفًا، المفتاح مفقود، والمشبك صدئ للغاية لدرجة أنه ترك بقعًا برتقالية على أصابعى، الصفحات الثلاث الأولى ملتصقة معًا لأن صمغ الغلاف الداخلى ذاب عليها، الكلمة الأخيرة فى كل صفحة متلاشية إلى علامة بنية كأن المذكرات تعرضت للتراب والرطوبة معًا، مُزقت بضع صفحات، وتوجد قائمة محيرة من عدة حروف بطول الحواف الممزقة: "إيه بى إن"، "سى آر"، "تى إيه"، "أيإس تى". والأسوأ من كل ذلك، بدا أن المذكرات قد نُقعت فى وقت ما فى الماء، فالصفحات متموجة، وحين إغلاقها، يصبح الدفتر أسمك.

النقع هو أسوأ ما سأواجهه، بدا واضحًا من أول نظرة إلى إحدى الصفحات أنهاكتابة يدوية، وليست أىّ كتابة قديمة، بل كتابة "هيستر". هذه خطوطها الصاعدة بثبات، ودوائرها المتوازنة السلسة، وتلك خطوطها المائلة المرتاحة، ومسافاتها الاقتصادية مع أنها عملية، لكن عند تدقيق النظر، وجدت الكلمات باهتة ومتلاشية، أهذا الخط

حرف "آى" أم "تى"؟ أهذه الانحناءة حرف "إيه" أم "إى"؟ أم "إس"؟ أهذا الرسم يُقرأ "تائهة" أم "مائدة"؟

سيكون ذلك الدفتر لغزاً حقيقيًا، ومع أننى نسخت المذكرات لاحقًا، كان قطار الإجازة فى ذلك اليوم مزدحمًا للغاية لدرجة تمنع استخدام قلم وورقة، انحنيت فى مقعد النافذة خاصتى، وقرّبت الدفتر إلى أنفى، واستغرقت فى دراسة الصفحات مكرسة تركيزى على فك شيفراتها، نجحت فى قراءة كلمة من كل ثلاث كلمات فى البداية، ثم مع اندماجى وتدفق المعانى، بدأت الكلمات تلاقينى فى منتصف الطريق، تكافؤنى على جهودى ببوح سخى، حتى تمكنت من قلب الصفحات بسرعة تقارب سرعة القراءة، عادت "هيستر" إلى الحياة فى ذلك القطار، فى اليوم السابق على عيد الميلاد.

لن أختبر صبرك عبر نسخ مذكرات "هيستر" هنا مثلما وصلت إلى، مفتتة ومهشمة، بل على طريقة "هيستر" نفسها، سأصلحها وأرتبها وأنظمها، فأبعدت الفوضى والركام، واستبدلت اليقين بالشك، والوضوح بالضبابية، واللحام بالثغرات، ربما أقحمت أحيانًا فى صفحاتها كلمات لم تكتبها قط، لكننى أعد بأننى إن ارتكبت أخطاء فهى فى التفاصيل الصغيرة فقط، فقد تفحصت ودققت فى الأجزاء المهمة حتى تأكدت إلى مبلغ التأكد من أننى ميزت مقصدها الأصلى.

لم أهتم بالمذكرات كلها، بل فقط بأجزاء منتقاة ومحررة منها، اخترتها على أساس درجة أهميتها لهدفى، وهو أن أحكى قصة السيدة "وينتر"، وثانيًا رغبتى فى أن أقدم فكرة دقيقة عن حياة "هيستر" فى "آنجلفيلد".

***

يبدو منزل "آنجلفيلد" لطيفًا كفاية عن بُعد، مع أن واجهته تنظر إلى الاتجاه الخطأ ونوافذه موقعها سيئ، لكن عند الاقتراب منه، ترى فى الحال الخراب التى سُمح للمنزل بالانحدار إليه، أجزاء من البناء الحجرى تآكلت على نحو خطير بسبب الطقس، إطارات النوافذ متعفنة، يبدو كأن أجزاء من السقف متضررة من العواصف، سأجعل تفقد السقوف فى العليا أولوية لى.

رحبت بى مدبرة المنزل عند الباب، وفهمت فى الحال أنها تواجه صعوبة فى البصر والسمع مع أنها تحاول إخفاء الأمر، وهذا ليس مفاجئًا بالنظر إلى سنها الكبير، كذا فإنه يفسر الحالة القذرة للمنزل، لكننى أفترض أن عائلة "آنجلفيلد" لا تريد التخلص منها بعدما خدمتهم طوال حياتها فى المنزل، يمكننى استحسان تقديرهم للولاء، لكننى لا أجد سببًا لعدم مساعدتها بأيدٍ أصغر سنًّا وأقوى.

أخبرتنى السيدة "دان"بشأن المنزل، لقد عاشت العائلة هنا لسنوات بما يعتبر فى الغالب خفضًا كبيرًا لعدد العاملين، وأصبح ذلك مقبولاً باعتباره جزءًا من أسلوب الحياة فى المنزل، لم يتأكد لى بعد لمَ يجب أن يظل الوضع هكذا، لكن الأكيد لى أن باستثناء أفراد العائلة، يوجد بستانى يدعى "جون ديجنس"، وتوجد غزلان (مع أن الصيد قد توقف)، لكن الرجل الذى يعتنى بها لا يُرى قط قرب المنزل، بل يتلقى التعليمات من المحامى نفسه الذى جلبنى، والذى يتصرف كأنه بشكل ما مدير الممتلكات بقدر ما تحتاج الممتلكات إلى إدارة، وتتولى السيدة "دان" بنفسها ماليات المنزل المنتظمة، افترضت أن "تشارلز آنجلفيلد" يشرف على السجلات والفواتير أسبوعيًا، لكن لم يكن من السيدة "دان" إلا أن ضحكت وسألتنى إن كنت أظن أن نظرها يمكنها من تسجيل قوائم أرقام فى سجل، لا يسعنى سوى الظن أن هذا الوضع غير تقليدى للغاية، لا أقصد أن السيدة "دان" غير أهل للثقة، فمما رأيته، لديها كل ما يدل على أنها امرأة صادقة

طيبة القلب، وأملى أننى سأرجع تحفظها إلى الصمم حين أعرفها أكثر، كتبت مذكرة إلى السيد "آنجلفيلد" لأوضح مميزات الاحتفاظ بسجلات دقيقة، وفكرت فى عرض أن أتولى هذه الوظيفة بنفسى إن كان أكثر انشغالاً من أن يتولاها.

بالتفكير مليًّا فى الأمر، بدأت أرى أن الوقت قد حان لمقابلة مديرى، وبلغت مفاجأتى مبلغها حين أخبرتنى السيدة "دان" أنه يقضى يومه بالكامل فى الحضانة القديمة وأن من غير عاداته أن يغادرها، وبعد أسئلة كثير جدًّا، تأكد لى فى النهاية أنه يعانى من خلل ما فى عقله، أمر مؤسف حقًّا! أمن شىء محزن أكثر من عقل اختلت وظائفه؟

قدمت لى السيدة "دان" الشاى (الذى ادعيت أننى أشربه من باب الذوق، لكننى صببته لاحقًا فى الحوض لأننى لم أثق مطلقًا بنظافة الكوب بعدما رأيت حالة المطبخ) وحكت لى قليلاً عنها، إنها فى ثمانيناتها، ولم تتزوج قط وعاشت هنا طوال حياتها، من الطبيعى كفاية أن يتحول حديثنا حينئذ إلى العائلة، عرفت السيدة "دان" والدة التوأمين خلال طفولتها وشبابها، وأكدت ما فهمته بالفعل: رحيل الأم مؤخرًا إلى مصحة لمرضها العقلى هو ما عجل بتوظيفى، وحكت لى رواية ملتوية عن الأحداث التى عجلت بإيداع الأم بالمصحة جعلتنى غير واثقة إن كانت قد هاجمت زوجة الطبيب بالكمان أم لا، بالكاد يمثل هذا فارقًا: فمن الواضح أن للعائلة ماض من الاختلالات العقلية، وأعترف بأن قلبى أسرع قليلاً حين تأكد لى الأمر، فكيف تَقنع معلمة منزلية بإرشاد عقول غير مقيدة وتعمل بسلاسة؟ أين التحدى فى الحفاظ على التفكير المنظم لدى أطفال عقولهم مرتبة وأنيقة؟ لست مستعدة لهذه الوظيفة فقط، بل وقضيت سنوات أتطلع إليها، هنا سأكتشف أخيرًا قيمة أساليبى فى العمل!

سـألت عــن عائلــة الأب، لأنــه عــلى الرغــم مــن أن الســيد "مــارش" متــوفى والطفلتــان لم تعرفــاه قــط، فــإن دماءهــما دمــاؤه ولــه تأثــير عــلى طبيعتهــما، لكــن الســيدة "دان" لم تخــبرنى إلا القليــل جــدًا، وبــدلاً مــن ذلــك، بــدأت سلســلة مــن الحكايــات عــن الأم والخــال والتــى لــو قــرأت بــين ســطورها (وأنــا واثقــة بأنهــا أرادت منــى ذلــك) فــإن هنــاك تلميحــات إلى شىء فاضــح.. بالتأكيــد مــا تشــير إليــه ليــس مرجحًــا عــلى الإطــلاق، ليــس فى إنجلــترا عــلى الأقــل، وأظــن أنهــا متوهمــة بدرجــة مــا، الخيــال شىء صحــى، والكثــير مــن الاكتشــافات العلميــة العظيمــة مــا كانــت لتوجــد لــولا الخيــال، لكــن يجــب تســخيره مــن أجــل هــدف جــاد حتــى يحقــق أىّ نتائــج، ولــو تُــرك ليشــق طريقــه الخــاص، فإنه عــادة مــا يــؤدى إلى الحماقة، ربمــا الســن هــى مــا تجعــل عقلهــا يهيــم، لأنهــا تبــدو طيبــة بأشــكال أخرى، وليســت مــن النــوع الــذى يخــترع النمائــم حبًــا فيهــا فقــط، وعــلى أيّــة حــال، أبعــدت هــذا الموضــوع فى الحــال مــن دماغــى.

بينــما أنــا أكتــب هــذه الكلــمات أســمع أصواتًــا خــارج غرفتــى، لقــد خرجــت الفتاتــان مــن مخبئهــما وتتجــولان خلســة فى المنــزل، لم تحظيــا بــأى رعايــة وسُــمح لهــما بالتعــود عــلى هــذا الوضــع، ستســتفيدان جــدًا مــن نظــام الترتيــب والنظافــة الشــخصية والانضبــاط الــذى أنــوى تطبيقــه فى المنــزل، لــن أخــرج لهــما، بــلا شــك تتوقعــان أن أخــرج لهــما، وســيخدم أهــدافى أن أحبطهــما فى هــذه المرحلــة.

أخذتنــى الســيدة "دان" فى جولــة بغــرف الطابــق الأرضى، القــذارة فى كل مــكان، الأســطح كلهــا مغطــاة بطبقــة ســميكة مــن الغبــار، والســتائر فى حالــة يُــرثى لهــا، لكنهــا لا تراهــا، وتتصورهــا مثلــما كانــت منــذ ســنوات فى زمــن جــد التوأمــين، حــين كان هنــاك طاقــم عاملــين كامــل، يوجــد بيانــو ربمــا لا يمكــن إنقــاذه، لكننــى ســأرى مــا يمكــن فعلــه، ومكتبــة ربمــا تكــون مملــوءة بالمعرفــة، لكــن هــذا ســيتضح بعــد مســح الغبــار عنهــا ورؤيــة مــا بهــا.

استكشفت الطوابق الأخرى وحدى، إذ لم أرد أن تتضرر السيدة "دان" بصعود الكثير من السلالم دفعة واحدة، فى الطابق الأول سمعت تشاجرًا وهمسًا وضحكًا مكتومًا، وجدتُ مَن كُلفت بأمرهما، لقد أقفلتا الباب، وصمتتا حين حاولت فتحه، ناديت اسميهما مرة، ثم تركتهما إلى مكائدهما وصعدت إلى الطابق الثانى، إنها قاعدة أساسية أننى لا أطارد مَن كُلفت بأمرهم، بل أعلمهم أن يأتوا إلى.

وجدت أفظع درجات الفوضى فى غرف الطابق الثانى، إنها قذرة، لكننى توقعت ذلك، مياه المطر تسربت عبر السقف (توقعت ذلك أيضًا) ووجدت الفطريات تنمو على بعض ألواح الأرضية المتعفنة، إنها حقًّا بيئة غير صحية لتربية الأطفال، كان عدد من ألواح الأرضية مفقودًا، ويبدو كأنها أزيلت عن عمد، يجب أن أقابل السيد "آنجلفيلد" لأخبره بشأن إصلاح ذلك، يجب أن أوضح له أن أحدًا يمكن أن يسقط إلى الطابق السفلى، أو على الأقل جدًّا أن يلوى كاحله، وتحتاج المفصلات كلها إلى التزييت، وأطر الأبواب كلها معوجة، أينما ذهبت يتبعنى صرير الأبواب المتأرجحة على مفصلاتها، وصرير ألواح الأرضية، وتيار هواء يجعل الستائر ترفرف مع أن من المستحيل أن تعرف مصدره تحديدًا.

عدت إلى المطبخ حالما استطعت، كانت السيدة "دان" تعد لنا وجبة المساء، وأنا بلا أى رغبة فى تناول طعام مُعد فى قدور بشعة كالتى رأيتها، لذا علِقتُ مع كم هائل من الصحون المتسخة (بعد تنظيف الحوض بدرجة غير مشهودة منذ عقد)، وأبقيت عينى على السيدة وهى تعد الطعام، إنها تفعل كل ما بوسعها.

لا تأتى الفتاتان لتناول الطعام، ناديت عليهما مرة واحدة فقط، كانت السيدة "دان" تؤيد بشدة مناداتهما وإقناعهما، لكننى أخبرتها أن لى وسائلى الخاصة، وأنها يجب أن تدعمنى.

جاء الطبيب لتناول العشاء، ومثلما جعلونى أتوقع، لم يظهر كبير المنزل، ظننت أن الطبيب سيشعر بالإهانة بسبب ذلك، لكن بدا أنه يجد ذلك طبيعيًّا للغاية، لذا لم يكن هناك إلا كلانا، والسيدة "دان" تفعل ما بوسعها لتخدم المائدة، لكنها احتاجت إلى الكثير من مساعدتى.

الطبيب رجل ذكى ومثقف، لديه رغبة صادقة فى أن يرى تحسن حالة الفتاتين، وهو المحرك الأساسى لتعيينى فى "آنجلفيلد". شرح لى باستفاضة كبيرة الصعوبات التى يرجح أن أقابلها هنا، واستمعت إليه بكل ما لدى من تهذب، ستتكون لدى أىّ معلمة منزلية بعد الساعات القليلة التى قضيتها فى هذا المنزل صورة كاملة وواضحة للمهمة التى تنتظرها، لكنه رجل، وبالتالى فإنه لا يرى مدى إرهاق أن يُشرح لك باستفاضة ما فهمته بالفعل، لم يلحظ الطبيب مطلقًا تململى، ولا الحدة الطفيفة لواحدة أو اثنتين من إجاباتى، وأخشى أن طاقته ومهاراته التحليلية لا تعادل قدراته على الملاحظة، لا أنتقده بلا داعٍ لأنه يتوقع أن كل من سيقابله سيكون أقل منه قدرة، فهو رجل ذكى، والأهم من ذلك، إنه سمكة كبيرة فى بركة صغيرة، لقد تلبّس شخصية متواضعة هادئة، لكننى أستطيع تمييز ذلك بسهولة كافية، لأننى أخفيت حقيقتى بالطريقة ذاتها، ومع ذلك فإننى سأحتاج إلى دعمه فى المشروع الذى توليته، وسأعمل على جعله حليفى رغم عيوبه.

أسمع أصوات اضطراب من الطابق السفلى، وأفترض أن الفتاتين قد اكتشفتا القفل على باب خزانة الطعام، ستغضبان وتحبطان، لكن كيف بغير ذلك قد أعودهما على المواعيد المناسبة للوجبات؟ ومن دون مواعيد الوجبات، كيف يمكن استعادة النظام؟

غـدًا سـأبدأ بتنظيـف غرفـة النـوم هـذه، لقـد مسـحت الأسـطح بقطعـة قـماش رطبـة هـذا المساء، وأغرتنـى فكـرة تنظيـف الأرض، لكننـى امتنعـت، فسـأضطر إلى إعـادة تنظيـف الأرض غـدًا بعدمـا أنظـف الجدران، وسـأخلع السـتائر التـى يكسـوها الغبـار، سـأنام الليلـة فى الـتراب، لكـن غـدًا سـأنام فى غرفـة نظيفـة زاهيـة، سـتكون هـذه بدايـة جيـدة، لأننـى أخطـط لاسـتعادة النظـام والانضبـاط فى هـذا المنـزل، ولينجـح هـذا، يجـب قبـل أىّ شىء أن أوجـد لنفسـى غرفـة نظيفـة لأفكـر فيهـا، لا أحـد يسـتطيع أن يفكـر بذهـن صـاف ويحقـق تقدمًـا إن لم تحطـه النظافـة والنظـام.

الفتاتان تبكيان فى الردهة، حان وقت مقابلتى لمن كُلفت بأمرهما.

***

انشـغلت جـدًّا بتنظيـم المنـزل لدرجـة أننـى لم يكـن لـدى متسـع مـن الوقـت لمذكـراتى مؤخـرًا، لكـن يجـب أن أخصـص لهـا وقتًـا، لأن الكتابـة هـى طريقتـى الأساسـية فى تسـجيل وسـائلى وتطويرهـا.

أحـرزت تقدمًـا جيـدًا مـع "إيميلايـن"، وتجربتـى معهـا تتناسـب مـع نمـوذج السـلوك الـذى رأيتـه فى حـالات صعبـة أخـرى، أظـن أنهـا ليسـت مضطربـة بقـدر مـا قيـل لى، ومـع تأثـيرى سـتكون طفلـة لطيفـة، إنهـا عاطفيـة وقويـة، وتعلمـت تقديـر فوائـد النظافـة الشـخصية، وتـأكل بشـهية جيـدة، ويمكـن تعليمهـا إطاعـة التعليـمات بواسـطة الترغيـب اللطيـف والوعـد بجوائـز صغـيرة، قريبًـا يمكـن أن تفهـم أن الطيبـة مجزيـة عـبر نيـل تقديـر الآخريـن، ومـن ثـم سـأتمكن مـن تقليـل الرشـاوى، لـن تكـون ذكيـة أبـدًا، لكـن عندئـذ سـأعرف حـدود وسـائلى، وأيًـا كانـت نقـاط قـوتى، يمكننـى العمـل بمـا لـدى فقـط.

أنا مسرورة بنتائج عملى مع "إيميلاين".

حالة أختها أصعب، فقد رأيت العنف من قبل، ولم يفاجئنى الأمر كثيرًا أن "آديلاين" تفكر بواسطة ميولها التدميرية، لكننى متفاجئة بشىء واحد: يكون التدمير عمومًا لدى الأطفال الآخرين عرضًا جانبيًا للغضب، وليس هدفًا أساسيًا له، فالتصرف العنيف، بحسب ما لاحظت لدى حالات أخرى، يكون فى غالب الحالات محفَزًا بفيض الغضب، وصب الغضب يكون بالصدفة فقط فى صورة تدمير الممتلكات والأشخاص، لكن هذا النموذج لا ينطبق على حالة "آديلاين"، لقد رأيت حوادث لها، وحُكِىَ لى غيرها، وبدا التدمير فيها حافز "آديلاين" الوحيد، والغضب شىء تستخلصه وتخزنه داخلها حتى تولد الطاقة اللازمة للدمار، لأنها شىء صغير وضعيف، جلد على عظام، وتأكل الفتات فقط، أخبرتنى السيدة "دان" عن حادثة وقعت فى الحديقة، حيث يُعرف أن "آديلاين" دمرت عددًا من أشجار الصنوبر، لو كان هذا حقيقيًا فإنه عار كبير، فمن الواضح أن الحديقة كانت جميلة جدًا، ويمكن إصلاح ذلك، لكن "جون" فقد حماسه للأمر، وليست الحديقة التوبيارية فقط التى تعانى من نقص الاهتمام، بحديقة المنزل عمومًا، سأجد الوقت والوسيلة لأعيد إليه فخره، إن شعر بالسعادة بعمله، وعادت الحديقة إلى نظامها، سيعود ذلك بالكثير على المظهر والجو العام بالمنزل.

الحديث عن "جون" يذكرنى بشىء، يجب أن أتحدث معه بشأن الطفل، كنت أتجول عصر اليوم قرب غرفة الدراسة، واقتربت من النافذة، كانت السماء تمطر وأردت أن أغلق النافذة حتى لا يدخل المزيد من الرطوبة، فحافة النافذة من الداخل بالفعل تنهار، لو لم أكن قريبة للغاية من النافذة وأنفى يكاد يكون مضغوطًا على الزجاج، أشك فى أننى كنت لأراه، لكننى رأيته: طفل مقرفص فى حوض الأزهار يقتلع الأعشاب الضارة، كان يرتدى بنطالاً رجاليًا مقصوصًا عند الكاحل ويرفعه زوج من الدبابيس، غطى ظل القبعة عريضة الحواف

وجهه ولم تتح لى الفرصة لتقدير سنه بوضوح، لكنه على الأرجح فى الحادية أو الثانية عشرة، أعرف أنها ممارسة شائعة فى المناطق الريفية أن يشارك الأطفال فى أعمال البستنة، مع أننى ظننت أن الشائع أكثر أن يقوموا بأعمال الزراعة، وأقدر مميزات تعلمهم لمجال عملهم من سن صغيرة، لكننى لا أحب أن أرى طفلاً خارج المدرسة خلال ساعات الدراسة، سأتحدث مع "جون" بشأن ذلك، وسأتأكد من إدراكه أن الفتى يجب أن يقضى ساعات الدراسة فى المدرسة.

لكن عودة إلى موضوعى: حين يتعلق الأمر بشر "آديلاين" تجاه أختها، فقد تتفاجأ هى بمعرفة أننى رأيت كل هذا من قبل، الغيرة والغضب بين الإخوة أمر شائع، وتكثر بين التوائم المنافسة، سأتمكن مع الوقت من تقليل العدوانية، لكن إلى أن يتحقق ذلك ستكون اليقظة الدائمة مطلوبة لمنع "آديلاين" من إيذاء أختها، من المؤسف أن هذا سيعيق التقدم فى جبهات أخرى، لم أفهم بعد لمَ تترك "إيميلاين" نفسها تتعرض للضرب (وشد الشعر، ومطاردة "آديلاين" التى تشهر تجاهها ملاقيط النيران الممسكة بقطع الفحم الساخنة)، حجمها ضعف حجم أختها ويمكنها الدفاع عن نفسها بأشرس مما تفعل، ربما تحجم عن إيقاع الأذى بأختها، إن لها روحًا حنونًا.

***

انطباعى الأول عن "آديلاين" فى أيامى الأولى أنها طفلة قد لا تعيش قط حياة طبيعية مستقلة مثل أختها، لكن يمكن إيصالها إلى نقطة توازن، واستقرار، ويمكن احتواء نوبات غضبها عبر فرض روتين صارم، لم أتوقع قط أن أصل إلى تفاهم معها، المهمة التى توقعت أن أنفذها مع "آديلاين" أكبر من تلك الخاصة بأختها، لكننى توقعت شكرًا أقل بكثير مقابلها، لأنها ستبدو أقل بنظر الآخرين.

لكننـى تفاجـأت لدرجـة أنى غـيرت هـذا الـرأى بسـبب علامـات الـذكاء المشـوش والغامـض لديهـا، جـاءت فى هـذا الصبـاح إلى غرفـة الدراسـة تجـر قدميهـا، لكـن مـن دون أسـوأ مظاهـر انعـدام الرغبـة، وبمجـرد جلوسـها فى مقعدهـا، أرخـت رأسـها عـلى ذراعهـا مثلـما رأيـت مـن قبـل، بـدأتُ الـدرس الـذى لم يكـن إلا قصـة، إنهـا معالجـة أعددتهـا للفصـول الافتتاحيـة مـن "جـين أيـر"، قصـة يحبهـا الكثـير مـن الفتيـات، كنـت أركـز عـلى "إيميلايـن"، وأشـجعها عـلى متابعـة القصـة عـبر تمثيلهـا بقـدر مـا اسـتطعت، خصصـت صوتًـا للبطلـة، وآخـر للعمـة، وثالـث لابـن العمـة، وصاحبـت الحـكى بحـركات وتعبـيرات توضـح مشـاعر الشـخصيات، لم ترفـع "إيميلايـن" عينيهـا عنـى، وسرّنى تأثـيرى.

لمحـت بطـرف عينـى حركـة، أدارت "آديلايـن" رأسـها باتجاهـى، ظـل رأسـها مسـتقرًا عـلى ذراعهـا، وبـدت عيناهـا مغلقتـين، ومـع ذلـك كان لـدى انطبـاع قـوى بأنهـا تسـتمع إلى، حتـى لـو كان تغيـير وضعيتهـا بـلا معنـى (وهـذا غـير صحيـح، لقـد كانـت دائمًـا تديـر لى ظهرهـا)، هنـاك تغـير فى وضعيتهـا، فهـى عـادة تنهـار عـلى طاولتهـا حـين تنـام، فى حالـة مـن فقـدان الوعـى عـلى نحـو همجـى، اليـوم بـدا جسـدها كلـه منتبهًـا: وضعيـة الكتفـين بهـا درجـة مـا مـن الجمـود، كأنهـا مجذوبـة إلى القصـة، ولكـن مـع تصديـر انطبـاع بأنهـا فى سـبات خامـل.

لم أرد أن تنتبـه إلى ملاحظتـى لأىّ شىء، ظللـت أتـصرف كأننـى أقـرأ لـ"إيميلايـن" فقـط، ظللـت أمثـل بوجهـى وصـوتى، لكـن طـوال الوقـت كنـت أبقـى عينـى عـلى "آديلايـن"، وهـى لم تكـن تسـتمع فقـط، فقـد لمحـت رجفـة فى جفنيهـا، ظننـت أن عينيهـا مغلقتـان، لكـن لا عـلى الإطـلاق، إنهـا تراقبنـى مـن بـين رموشـها!

إنه تطور مثير للاهتمام للغاية، وأتوقع أنه سيكون محور مشروعى هنا.

***

ثـم حـدث آخـر مـا كنـت أتوقعـه، تغـير وجـه الطبيـب، نعـم، تغـير، أمـام عينـى مبـاشرة، كانـت واحـدة مـن اللحظـات التـى يتخـذ فيهـا وجهـه بُعـدًا جديـدًا، تظـل ملامحـه مألوفـة مثلـما كانـت مـن قبـل، لكـن يحـدث لهـا تحـول مذهـل وتقـدم نفسـها مـن منظـور جديـد غـير متوقـع، أود أن أعـرف الجـزء المسـئول داخـل العقـل البـشرى عـن تحـول وجـوه مـن نعرفهـم وتراقصهـا هكـذا، لقـد اسـتبعدتُ الخـداع البـصرى والظواهـر المرتبطـة بالضـوء ومـا إلى ذلـك، وتوصلت إلى اسـتنتاج أن التفسـير له جذور فى نفسـية الناظـر، عـلى أىّ حـال، الحركـة المفاجئـة وإعـادة ترتيـب ملامـح وجهـه جعلتنـى أحملـق إليـه لبضـع لحظـات، وهـو مـا بـدا غريبًـا جـدًّا لـه بـلا شـك، ورأيـت شـيئًا غريبًـا فى تعبـير وجهـه حـين توقفـت ملامحـه عـن الحركـة، شـيئًا لم أسـتطع، ولا أسـتطيع سـبر غـوره، ولا يعجبنـى مـا لا أسـتطيع سـبر غـوره.

تبادلنا الحملقة لبضع ثوان، كل ثانية محرجة كالأخرى، ثم غادر فجأة.

***

أتمنـى ألا تنقـل السـيدة "دان" كتبـى، كـم مـرة يجـب أن أقـول لهـا إن الكتـاب لا ينتهـى إلا حـين أنهيـه؟ وإن كان واجبًـا أن تنقلـه، لِمَ لا تعيـده إلى المكتبـة مـن حيـث جـاء؟ مـا الهـدف مـن تركـه عـلى السـلم؟

***

أجريت محادثة غريبة مع "جون" البستانى.

إنـه عامـل جيـد، وأصبـح الآن أكـثر ابتهاجًـا لأن حديقتـه التوبياريـة تتعـافى، ووجـوده مفيـد عمومًـا فى المنـزل، إنـه يـشرب الشـاى ويـدردش فى المطبـخ مـع السـيدة "دان"، أحيانًـا أجدهـما يتحدثـان بصـوت خفيـض، مـا يجعلنـى أعتقـد أنهـا ليسـت صـماء مثلـما تدعـى، كنـت لأتخيـل أن ثمـة علاقـة حـب بينهـما لـولا سـنها الكبـيرة، لكـن بمـا أن هـذا مسـتبعد فإننـى

فى حيرة بشأن سرهما، واجهت السيدة "دان" بالأمر، ولم يكن هذا من دواعى سرورى، لأنها وأنا لدينا تفاهم ودى بشأن غالب الأمور، وأظن أنها تؤيد وجودى هنا -لا أقصد أن عدم تأييدها كان ليشكل فارقًا- وقد أخبرتنى أنهما لا يتحدثان إلا عن شئون المنزل، الدجاجات التى ستُقتل، والبطاطس التى ستُقلع من الأرض، وما إلى ذلك، أصررت: "ولم الحديث بصوت خفيض هكذا؟" وأخبرتنى أنه ليس خفيضًا مطلقًا، أو على الأقل ليس هكذا بالضبط، قلت: "لكنك لا تسمعيننى حين أتحدث بصوت خفيض"، وردت بأن الأصوات الجديدة أصعب من التى اعتادتها، وإن كانت تفهم "جون" حين يتحدث بصوت خفيض فهذا لأنها عرفت صوته لسنوات، وصوتى لم تعرفه إلا منذ شهرين.

كنت قد نسيت تمامًا أمر الأصوات الخفيضة فى المطبخ، حتى ذلك الموقف الغريب مع "جون"، فى الصباح قبل بضعة أيام كنت أتمشى فى الحديقة قبل الغداء مباشرة حين رأيت الطفل الذى كان يقتلع النباتات الضارة من حوض الأزهار تحت نافذة غرفة الدراسة، تطلعت إلى ساعتى، ومجددًا، كان وقت الدراسة، لم يرنى الطفل، لأننى كنت مختفية وراء الأشجار، راقبته لدقيقة أو اثنتين، لم يكن يعمل مطلقًا، بل يسترخى على العشب، منهمك بشىء على العشب، تحت أنفه مباشرة، كان معتمرًا القبعة نفسها، تقدمت نحوه بنية أن أعرف اسمه وأعطيه محاضرة عن أهمية التعليم، لكن بمجرد أن رآنى هب واقفًا، وشد قبعته بإحكام على رأسه بيد واحدة، وركض بعيدًا بسرعة لم أرها من قبل، ذعره دليل كاف على ذنبه، الفتى يدرك تمامًا أنه يجب أن يكون بالمدرسة، بدا أنه يمسك كتابًا بيده وهو يجرى مبتعدًا.

ذهبت إلى "جون"، وحكيت له ما حدث للتو، قلت له إننى لن أسمح بعمل الأطفال لحسابه خلال ساعات الدراسة، وإن من الخطأ الإخلال بتعليمهم من أجل البنسات القليلة التى يتقاضونها، وإن لم يتقبل والداه ذلك فإننى سأذهب لمقابلتهما بنفسى، قلت له

إن كان ضروريًا للغاية أن يساعده أحد فى أعمال البستنة فإنه يجب أن يتحدث مع السيد "آنجلفيلد" ويعين رجلاً، كنت قد اقترحت هذا من قبل، أن نجلب المزيد من العمالة، للحديقة وللمنزل، لكن "جون" والسيدة "دان" عارضا الفكرة جدًا ففكرت فى أن من الأفضل أن أنتظر قليلاً حتى أتعرف أكثر على كيفية سير الأمور هنا.

رد "جون" بأن هز رأسه وأنكر معرفته بالطفل، وحين أكدت فكرة أننى رأيته بأم عينى، قال إنه لا بد أن يكون أحد أطفال القرية جاء إلى هنا ليتجول، وإن هذا يحدث أحيانًا، وإنه غير مسئول عن المتغيبين عن مدارسهم فى القرية الذين يأتون إلى الحديقة، قلت له حينئذ إننى رأيت الطفل من قبل، يوم وصلت، وبدا واضحًا أنه يعمل، كان "جون" صامتًا، فقط يكرر أنه ليس على علم بشأن الطفل، وأن أيًا من يريد يمكنه أن يقتلع النباتات الضارة من حديقته، وأن لا وجود لمثل هذا الطفل.

قلت لـ"جون" ببعض الغضب إننى لن أتراجع، وإننى أنوى الحديث إلى مديرة المدرسة بشأن الطفل، وإننى سأذهب إلى والديه وأحل الأمر معهما مباشرة، لوح بيده ببساطة، كأنه يقول إن لا علاقة له بالأمر وأن أفعل ما يحلو لى (وهو ما سأفعله حقًا)، أنا واثقة من أنه يعرف الفتى، وأنا مصدومة من رفضه لمساعدتى فى واجبى تجاهه، بدا غريبًا على شخصيته أن يعرقل جهودى، لكن حينئذ افترضت أنه بدأ تدريبه المهنى حين كان طفلاً واعتقد أن الأمر لم يضره مطلقًا، مثل تلك السلوكيات بطيئة الزوال فى المناطق الريفية.

=====================

كنت منهمكة فى المذكرات، وأجبرتنى المعوقات على القراءة ببطء لأحل الألغاز ولأستخدم كل خبرتى ومعرفتى وخيالى فى إكمال أشباح الكلمات، لكن يبدو أن المعوقات لا توقفنى، على العكس، بدا أن

الهوامش المتلاشية، وغياب الوضوح، والكلمات الباهتة تنبض بالمعنى، إنها حية بوضوح.

بينما أنا أقرأ بهذا الأسلوب المستغرق، كان قرار يتشكل فى جزء آخر تمامًا من عقلى، فحين دخل القطار المحطة التبادلية، وجدت القرار محسومًا فى عقلى، لن أذهب إلى البيت فى النهاية، سأذهب إلى "آنجلفيلد".

القطار المحلى إلى بانبرى مزدحم للغاية بمسافرى عيد الميلاد للدرجة التى تمنع جلوسى، وأنا لا أقرأ أبدًا وقوفًا، ومع كل هزة للقطار، وكل تدافع وتعثر للمسافرين معى، شعرت بالشكل المستطيل لمذكرات "هيستر" على صدرى، لقد قرأت نصفها فقط، ويمكن للبقية أن تنتظر.

سألت نفسى: ماذا حدث لك يا "هيستر"؟ إلى أين ذهبت؟

# هدم الماضى.

رأيـت عـبر النافـذة أن مطبخـه خـالٍ، ولم أجـد ردًا حـين عـدت إلى مقـدم البيـت وطرقـت البـاب.

ربمـا سـافر؟ يسـافر النـاس فى هـذه الفـترة مـن العـام، لكنهـم بالطبـع يذهبـون إلى عائلاتهـم، لـذا فـ"أوريليـوس"، الـذى بـلا عائلـة، سـيبقى هنـا، ورد سـبب غيـاب "أوريليـوس" إلى بـالى متأخـرًا: إنـه بالخـارج يوصـل الكعـكات إلى حفـلات عيـد الميـلاد، وأيـن غـير ذلـك قـد يكـون متعهـد أغذيـة قبـل عيـد الميـلاد مباشرة؟ يجـب أن أعـود لاحقًـا، وضعـت البطاقـة التـى اشـتريتها فى صنـدوق البريـد وانطلقـت عـبر الغابـة إلى منـزل آنجلفيلـد.

الجـو بـارد، بـارد كفايـة لدرجـة هبـوط الثلـوج، والأرض جليديـة تحـت قدمـى، والسـماء فوقـى بيضـاء عـلى نحـو مخيـف، تقدمـت بحـذر، ورفعـت شـالى بعلـو أنفـى فتدفـأت سريعًـا.

توقفت فى الأرض مقطوعة الأشجار، ورأيت نشاطًا غير عادى على مبعدة، عند المنزل، عبست، تُرى ماذا يحدث؟ كاميرتى معلقة برقبتى تحت معطفى، وتسلل البرد إلى الداخل بمجرد أن فككت أزرار المعطف، راقبت ما يحدث باستخدام عدستى طويلة المدى، رأيت سيارة شرطة فى مدخل العربات، وعربات البنائين وآلاتهم ساكنة، وهم أنفسهم محتشدون فى كتلة غير منتظمة، لا بد أنهم أوقفوا العمل قبل وهلة، لأنهم يضربون يدًا بيد وينبشون الأرض بأرجلهم للتدفئة، خوذاتهم إما على الأرض وإما متدلية بأربطتها عند أكواعهم، قدّم أحدهم علبة سجائر، وبين الحين والآخر يوجه أحدهم تعليقًا للآخرين، لكن تلك المحاولات لم تُبدأ أىّ محادثات، حاولت أن أفهم تعبيرات وجوههم غير المبتسمة، أهو ملل؟ قلق؟ فضول؟ وقفوا مولين ظهورهم للموقع، يواجهون الغابة وعدستى، لكن بين الحين والآخر يلقى أحدهم نظرة وراء كتفه على المشهد وراءهم.

انتصبت خيمة بيضاء لتغطى جزءً من الموقع وراء مجموعة الرجال، لقد اختفى المنزل، لكننى خمنت أن الخيمة منصوبة مكان المكتبة بناء على مكان استراحة العربات وطريق الحصى والكنيسة، وإلى جانب الخيمة يقف أحد زملائهم ورجل استنتجت أنه مديرهم، وكانا فى خضم محادثة مع رجلين آخرين، يرتدى أحد هذين الرجلين بذلة وعليها معطف، والآخر يرتدى زى الشرطة، كان المدير هو من يتحدث، بسرعة وبإيماءات وهزات رأس تدل على الشرح، لكن حين طرح الرجل ذو المعطف سؤالاً، كان البنّاء هو من أجابه، وحين أجابه، تطلع إليه الرجال الثلاثة باهتمام.

بدا غير متأثر بالبرد، وتكلم بجمل قصيرة، ولم يتكلم الآخرون بسبب وقفاته الطويلة والمتكررة، لكنهم تطلعوا إليه بصبر واهتمام، وفى لحظة ما، رفع إصبعًا باتجاه آلة وقلد أسنانها المدببة وهى تعض

الأرض، وفى النهاية، هز كتفيه وعبس وجهه، ومسح بيديه على عينيه كأنه يطهرها من الصورة التى استحضرها للتو.

انفتح باب فى جانب الخيمة البيضاء، وخرج منه رجل خامس وانضم إلى المجموعة، حدث تشاور سريع غير مبتسم وفى نهايته ذهب المدير إلى مجموعة الرجال خاصته وتحدث إليهم بضع كلمات، أومؤوا، وكأن ما قيل لهم هو ما كانوا يتوقعونه بالكامل، وبدؤوا جمع الخوذات والقوارير الحرارية عند أقدامهم واتخذوا طريقهم إلى سياراتهم المتوقفة قرب بوابات المنازل، تمركز الشرطى بزى الشرطة عند مدخل الخيمة، وأرشد الآخر البناء ومديره إلى سيارة الشرطة.

خفضت الكاميرا ببطء، لكننى تابعت الحملقة إلى الخيمة البيضاء، وميزت تلك البقعة، فقد ذهبت إليها بنفسى، وتذكرت الخراب الذى فى تلك المكتبة المدنسة، تذكرت رفوف الكتب المنهارة، والعوارض التى هبطتمحطمة الأرضية، وتذكرت تلذذى بالخوف وأنا أتعثر بالأخشاب المكسورة والمحترقة.

توجد جثة بتلك الغرفة، مدفونة فى الصفحات المحترقة، وتتخذ خزانة الكتب نعشًا لها، إنه قبر مخفى ومحمى لنصف قرن بالعارضات التى سقطت.

لم أستطع مقاومة ذلك الإحساس، لقد كنت أبحث عن شخص، ويبدو أن أحدًا قد عُثر عليه، ذلك التزامن لا يُقاوم، كيف لا أربط بين الحدثين؟ لكن "هيستر" غادرت قبل الحريق بعام، أليس كذلك؟ لِمَ قد تعود؟ ثم صدمتنى الفكرة، وبساطتها هى ما جعلتنى أفكر فى أنها قد تكون صحيحة.

ماذا لو أن "هيستر" لم تغادر بالأساس؟

حين بلغت حافة الغابة رأيت الطفلين الأشقرين قادمين عند الطريق الداخلى والبؤس بادٍ عليهما، تمايلا وترنحا وهما يمشيان،

وتوجد قنوات سوداء متعرجة من آثار حفر آلات البنائين الثقيلة فى الأرض تحت أقدامهما، ولم يكونا ينظران إلى حيث يخطوان، بل تطلعا وراء كتفيهما باتجاه مجيئهما.

الفتاة هى من التفتت ورأتنى أولاً، حين فقدت توازنها وكادت تسقط، فتوقفت، وحين رآنى أخوها اعتد بنفسه بسبب ما يعرفه وتكلم.

"لا يمكنك الذهاب إلى هناك، هكذا قال الشرطى، يجب أن تظلى بعيدة".

"أفهم ذلك".

أضافت الفتاة بخجل: "لقد نصبوا خيمة".

قلت لها: "رأيت ذلك".

ظهرت أمهما تحت قنطرة بوابة المنازل الصغيرة وكانت منقطعة الأنفاس قليلاً: "أنتما الاثنان بخير؟ رأيت سيارة الشرطة فى شارع (ذا ستريت)"، ثم التفتت إلى: "ماذا يحدث؟"

أجابتها الفتاة: "لقد نصبت الشرطة خيمة ولن يُسمح لك بالاقتراب، قالوا إننا يجب أن نعود إلى المنزل".

تطلعت المرأة الشقراء إلى الموقع وعبست باتجاه الخيمة البيضاء: "أليس هذا ما يفعلونه حين...؟" لم تكمل سؤالها أمام الطفلين، لكننى عرفت مقصدها.

قلت: "أعتقد أن هذا ما حدث"، رأيت رغبتها فى جذب طفليها نحوها لطمأنتهما، لكنها اكتفت بتعديل شال الولد وتمسيد شعر ابنتها لتبعده عن عينيها.

قالت للطفلين: "هيا، الطقس بارد ولا يجب أن نظل بالخارج على أىّ حال، لنعد إلى المنزل ونحتسِ الكاكاو".

اندفع الطفلان عبر بوابة المنازل وتسابقا فى شارع "ذا ستريت"، ربطهما معًا خيط خفى، وسمح لكليهما بالتأرجح حول الآخى أو الاندفاع فى أىّ اتجاه، وكل منهما مدرك أن الآخر سيظل قريبًا، على بُعد الخيط.

راقبتهما وشعرت بفراغ فظيع إلى جانبى.

تباطأت أمهما إلى جانبى: "سيفيدك أنت أيضًا بعض الكاكاو، أليس كذلك؟ تبدين شاحبة كالشبح".

تسايرنا وراء الطفلين وقلت لها: "اسمى (مارجريت)، أنا صديقة (أوريليوس لوف)".

ابتسمت: "أنا (كارين)، أعتنى بالغزلان هنا".

"أعرف، أخبرنى (أوريليوس)".

ضحكت الفتاة على أخيها أمامنا، فركض فجأة إلى نهر الطريق ليهرب منها.

صاحت رفيقتى: "(توماس أمبروز بروكتور)! عد إلى الرصيف!"

وقع هذا الاسم علىّ كالصاعقة: "ما اسم ابنك مجددًا؟"

التفتت إلىّ الأم، بفضول.

"الأمر فقط.. أن رجلاً عمل هنا منذ سنوات اسمه (بروكتور)".

"إنه والدى (أمبروز بروكتور)".

توقفت حتى أفكر بوضوح: "(أمبروز بروكتور).. الفتى الذى عمل مع (جون ذا ديج).. والدك؟"

"(جون ذا ديج)؟ أتقصدين (جون ديجنس)؟ نعم، هو من أمن لوالدى العمل هناك، لكن ذلك كان قبل مولدى بفترة طويلة، كان والدى فى خمسيناته حين وُلدت".

بـدأت ببـطء أتابـع السـير: "سـأقبل بعـرض الـكاكاو، إذا لم تمانعـى، ولـدى شيء أريـه لـك".

أخـذت علامتـى مـن دفـتر مذكـرات "هيسـتر"، وابتسـمت "كاريـن" لحظـة رأت الصـورة، وجـه ابنهـا الجـاد، يملـؤه الفخـر، تحـت حافـة الخـوذة، وكتفـاه جامدتـان، وظهـره مستقيم: "أذكـر يـوم عـاد إلى المنـزل وقـال إنـه سـيرتدى خـوذة صفـراء، سـيسر جـدًا إن أخـذ الصـورة".

"هل رأت ربة عملك، السيدة (مارش)، (توم) من قبل؟"

"رأت (تـوم)؟ بالتأكيـد لا! يوجـد اثنتـان كـما تعرفـين، السـيدتان (مـارش)، إحداهـما كانـت دومًـا متأخـرة ذهنيًـا قليـلاً، أعـرف ذلـك، لـذا فالأخـرى هـى مـن تديـر الأمـلاك، مـع أنهـا منعزلـة بعـض الـشيء، لم تعـد إلى آنجلفيلـد منـذ الحريـق، حتـى أنـا لم أرهـا قـط، محاموهـا هـم وسـيلتنا الوحيـدة للاتصـال بهـا".

وقفـت "كاريـن" أمـام الموقـد منتظـرة أن يسـخن الحليـب، ووراءهـا، أظهـرت النافـذة الصغـيرة الحديقـة ومـا يليهـا، إنهـا الحقـول حيـث جـرّت "آديلايـن" و"إيميلايـن" فى المـاضى عربـة "مـيرلى" والرضيـع بداخلهـا، ربمـا تغـيرت قليـلاً بضـع تفصيـلات منـذ حينهـا.

احتجـت إلى توخـى الحـذر لئـلا أحـكى أكـثر مـن الـلازم، لم تبـد "كاريـن" أىّ إشـارة إلى أنهـا تعـرف أن السـيدة "مـارش" خاصتهـا، سـيدة "آنجلفيلـد"، هـى نفسـها السـيدة "وينـتر" التـى رأيـت كتبهـا فى الخزانـة بالردهـة وأنـا أدلف.

أوضحـت: "الأمـر فقـط أننـى أعمـل لحسـاب عائلـة (آنجلفيلـد)، أكتـب عـن طفولتهـم هنـا، وحـين كنـت أُرى ربـة عملـك بعـض الصـور للمنـزل، وصلنـى انطبـاع بأنهـا تعرفـه".

"لا يمكن، إلا إذا..."

أخـذت الصـورة ونظـرت إليهـا مجـددًا، ثـم دعـت ابنهـا مـن الغرفـة المجـاورة: "(تـوم)؟ (تـوم)، هـلا أحـضرت تلـك الصـورة مـن رف المدفـأة، ذات الإطـار الفـضي".

جاء "توم" حاملاً الصورة تتبعه أخته.

قالت له: "انظر، الآنسة لديها صورة لك".

تسـللت ابتسـامة مفاجئـة سـارة إلى وجهـه حـين رأى نفسـه: "أيمكننـى الاحتفـاظ بهـا؟"

قلت: "نعم".

"اجلب لـ(مارجريت) صورة لجدك".

جاء إلى جانبى من المائدة وقدم الصورة المؤطرة إلىّ بخجل.

صـورة قديمـة لرجـل صغـير السـن جـدًّا، بالـكاد بلـغ شـبابه، سـنه ربمـا ثمانيـة عـشر عامًـا أو أصغـر، كان يقـف قـرب دكـة ووراءه أشـجار صنوبـر مقصوصـة، عرفـت المـكان فى الحـال، إنهـا الحديقـة التوبياريـة، خلـع الفتى قبعتـه وحملهـا بيـده، وتخيلـت حركتـه بعـين عقـلى، يزيـح قبعتـه بيـد ويمسـح بالأخـرى جبهتـه، رأسـه مائـل إلى الخلـف قليـلاً، يحـاول ألا يغمـض عينيـه تحـت الشـمس، وينجـح فى هـذا بدرجـة كبـيرة، كـماه مرفوعـان إلى أعـلى كوعيـه، والـزر الأعـلى مـن قميصـه مفتـوح، لكـن ثنايـا بنطالـه مكويـة بأناقـة، وقـد نظـف حـذاء البسـتنة خاصتـه مـن أجـل الصـورة.

"أكان يعمل هناك حين حدث الحريق؟"

وضعـت "كاريـن" أكـواب الـكاكاو عـلى الطاولـة وجـاء الطفـلان وجلسـا ليشربـاه: "أعتقـد أنـه التحـق بالجيـش بحلـول ذلـك الوقـت، لقـد غـاب عـن (آنجلفيلـد) لفـترة طويلـة، قرابـة خمسـة عـشر عامًـا".

نظـرت بتمعـن إلى الصـورة وقـد بـدا عليهـا القـدم، نظـرت إلى وجـه الفتـى، وأذهلنـى التشـابه بينـه وحفيـده، بـدا لطيفًـا.

"لم يتحدث كثيرًا عن شبابه، كان رجلاً متحفظًا، لكن هناك أمورًا أتمنى لو كنت عرفتها، مثل سبب زواجه متأخرًا جدًّا، كان فى منتصف أربعيناته حين تزوج بأمى، لا أستطيع مقاومة فكرة أن شيئًا ما حدث بماضيه، ربما انفطر قلبه؟ لكنك لا تفكرين بطرح مثل هذه الأسئلة وأنت طفلة، وحين كبرت..." وهزت كتفيها، بحزن، "كان والدًا لطيفًا، صبورًا، طيبًا، كان دائمًا ما يساعدنى بأية وسيلة، ولكن الآن وأنا بالغة، أحيانًا يراودنى شعور بأننى لم أعرفه حق المعرفة قط".

لفتت تفصيلة أخرى فى الصورة نظرى.

سألت: "ما هذا؟"

انحنت لتنظر: "إنها حقيبة لحمل الصيد، صيد الطيور تحديدًا، يمكن مدها على الأرض لوضع الصيد بداخلها، ثم تربطينها حوله، لا أعرف لِمَ تظهر فى الصورة، فهو لم يكن حارس الصيد قط، أنا واثقة بذلك".

قلت: "اعتاد أن يجلب للفتاتين أرنب أو طائرًا حين أرادتا"، وسُرّت هى لحصولها على هذه النبذة عن شباب والدها.

فكرت فى "أوريليوس" وميراثه، فالحقيبة التى حُمل فيها كانت حقيبة صيد، وبالطبع كان بها ريش، فقد استُخدمت لحمل الطيور، وفكرت فى قصاصة الورق، تذكرت قول "أوريليوس": "رسم يشبه حرف (إيه) فى البداية"، وهو يرفع القصاصة الباهتة إلى النافذة، "ثم حرف (إس)، هنا، عند النهاية، بالتأكيد هى متلاشية قليلاً بتأثير السنين، يجب أن تمعنى النظر، لكنك تستطيعين رؤيتها، صحيح؟" لم أتمكن من رؤيته، لكن ربما تمكن هو، ماذا لو لم يكن ذلك اسمه على قصاصة الورق؟ بل اسم والده، (أمبروز).

طلبت سيارة أجرة من منزل "كارين" إلى مكتب المحامى فى بانبرى، عرفت العنوان من تبادل الرسائل المتعلقة بـ"هيستر" معه، والآن تأخذنى "هيستر" إليه مجددًا.

لم ترد موظفة الاستقبال أن تزعج السيد "لوماكس" حين عرفت أننى لم أتفق على موعد: "إنها عشية عيد الميلاد، تفهمين قصدى".

لكننى أصررت: "قولى له إننى (مارجريت ليا)، وجئت بشأن منزل (آنجلفيلد) والسيدة (مارش)".

بمظهر يوحى بأن هذا لن يمثل فارقًا، نقلت الرسالة إلى مكتبه، وحين خرجت أخبرتنى، على مضض بعض الشىء، أن أدخل مباشرة.

السيد "لوماكس" الشاب ليس شابًا مطلقًا، إنه على الأرجح فى سن السيد "لوماكس" الكبير تقريبًا حين ظهرت الفتاتان فى مكتبه تريدان المال لجنازة "جون ذا ديج"، صافحنى بلمعة فضولية فى عينيه، وبنصف ابتسامة على شفتيه، وفهمت أننا بنظره متآمران، فلسنوات كان هو الوحيد الذى يعرف الهوية الأخرى لعميلته السيدة "مارش"، لقد ورث السر عن أبيه مع المكتب المصنوع من خشب الكرز وخزائن الملفات والصور على الجدار، والآن، بعد كل تلك الأعوام من السرية، جاءه شخص يعرف ما يعرفه.

"يسرنى لقاؤكِ يا سيدة (ليا)، كيف يمكننى أن أساعدكِ؟"

"لقد جئت من (آنجلفيلد)، من موقع البناء، والشرطة هناك، لقد وجدوا جثة".

"أوه، أوه، يا إلهى!"

"أتظن أن الشرطة ستريد التحدث إلى السيدة (وينتر)؟"

حين ذكرت الاسم، ترددت عيناه إلى الباب بتروى، ليتأكد من أن لا أحد يسمعنا.

"سيريدون الحديث مع مالكة المنزل كإجراء روتينى".

"ظننت ذلك"، وتابعت سريعًا، "الأمر أنها، ليست مريضة فقط.. أفترض أنك تعرف ذلك".

أومأ.

"فأختها تحتضر".

أومأ، بجدية، ولم يقاطعنى.

"سيكون من الأفضل فى ضوء هشاشتها وحالة أختها الصحية ألا تسمع بشأن الاكتشاف على نحو مفاجئ، يجب ألا تسمع الخبر من شخص غريب، ويجب ألا تكون وحيدة حين تعرف الخبر".

"ماذا تقترحين؟"

"بإمكانى العودة إلى يوركشاير اليوم، لو استطعت الوصول إلى المحطة خلال الساعة التالية، أستطيع أن أكون هناك هذا المساء، ستضطر الشرطة إلى التواصل معك للوصول إليها، أليس كذلك؟"

"نعم، لكن يمكننى تأخير الأمر لبضع ساعات، إنه وقت كافٍ لتصلى إلى هناك، يمكننى أيضًا أن أقلك إلى المحطة إن شئت".

فى هذه اللحظة رن الهاتف، تبادلنا نظرة قلقة وهو يرفع السماعة.

"عظام؟ حسنًا.. إنها مالكة العقار، نعم.. إنها مسنة وصحتها ليست على ما يرام.. أختها، مريضة على نحو خطير.. هناك احتمالية ما لشكل وشيك.. قد يكون من الأفضل.. فى ضوء الظروف.. أعرف أحدًا سيذهب إلى هناك شخصيًا هذا المساء.. جديرة بالثقة تمامًا.. جدًّا.. بالفعل.. بكل معانى الكلمة".

كتب ملاحظة على ورقة، ودفعها إلى عبر المكتب، عليها اسم ورقم هاتف.

"يريـدك أن تهاتفيـه حـين تصلـين إلى هنـاك لتخبريـه كيـف آلـت أمـور السـيدة، وسـيتحدث معهـا إن كانـت قـادرة، ويمكنـه الانتظـار إن لم تكـن قـادرة، فالبقايـا عـلى مـا يبـدو ليسـت حديثـة، والآن، متـى موعـد قطـارك؟ يجـب أن ننطلـق".

رآنى السـيد "لوماكـس" الكهـل قليـلاً غارقـة فى التفكـير فقـاد السـيارة فى صمـت، ومـع ذلـك فقـد بـدا أن حماسًـا هادئًـا يتغـذى عليـه، وفى النهايـة حـين انحـرف إلى طريـق المحطـة لم يعـد قـادرًا عـلى احتـواء نفسـه، قـال: "الحكايـة الثالثـة عـشرة.. لا أفـترض أنـك...؟"

قلت له: "أتمنى لو كنت أعرفها، آسفة".

كست خيبة الأمل وجهه.

حـين لوحـت المحطـة فى الأفـق، طرحـت سـؤالى: "أيتصـادف أنـك تعرف (أوريليوس لاف)؟"

"متعهد الطعام! نعم، أعرفه، إنه عبقرى فى المطبخ!"

"منذ متى عرفته؟"

أجـاب بـلا تفكـير -"فى الواقـع، ارتدنـا المدرسـة نفسـها"- وفى منتصـف جملتـه شـابت صوتـه رجفـة غريبـة، كأنـه اسـتوعب عواقـب سـؤالى، فلـم يفاجئـه سـؤالى التـالى.

"متـى عرفـت أن السـيدة (مـارش) هـى السـيدة (وينـتر)؟ أكان ذلـك حـين توليـت أعـمال والـدك؟"

ازدرد وقـال: "لا"، ورمـش، "قبـل ذلـك، كنـت لا أزال فى المدرسـة، جـاءت إلى المنـزل فى يـوم مـا لتقابـل والـدى، فالمنـزل أكـثر خصوصيـة مـن المكتـب، وكان لديهـما بعـض الأعـمال ليتفقـا بشـأنها، ومـن دون الخـوض فى تفاصيل سريـة، أصبـح واضحًـا خـلال المحادثـة أن السـيدة (مـارش) والسـيدة (وينـتر) هـما الشـخص نفسـه، لم أكـن أتنصـت، بـل حـدث ذلـك بغـير

قصد، كنت تحت مائدة الطعام حين دخلا -وقد كسا المفرشُ المائدةَ وجعلها شبيهة بالخيمة- ولم أرد أن أحرج والدى بالظهور فجأة، لذا ظللت هادئًا".

تُرى ماذا قالت له السيدة "وينتر"؟ فلا توجد أسرار فى بيت به أطفال.

توقفنا أمام المحطة، والتفت السيد "لوماكس" الصغير بعينيه المذهولتين إلى: "لقد قلت لـ(أوريليوس) يوم أخبرنى أنه عُثر عليه فى ليلة الحريق، قلت له إن السيدة (آديلاين آنجلفيلد) والسيدة (فيدا وينتر) هما الشخص نفسه، أنا آسف".

"لا تقلق بشأن هذا، لا يهم الآن على أيّحال، كنت أتساءل فقط".

"أتعلم هى أننى كشفت لـ(أوريليوس) هويتها؟"

فكرت بشأن الرسالة التى أرسلتها إلى السيدة "وينتر" فى البداية، وبشأن "أوريليوس" وبذلته البنية وهو عن قصة أصوله: "لو خمنت هى الأمر، فقد كان ذلك منذ عقود، وإن كانت تعرف، أظن أن من الممكن افتراض أنها لا تهتم".

زال الظل عن جبهته.

"شكرًا على التوصيلة".

وركضت نحو القطار.

# مذكرات "هيستر"
## (الجزء الثانى).

من المحطة أجريت اتصالاً بمتجر الكتب، لم يستطع والدى أن يخفى خيبة أمله حين أخبرته أننى لن آتى إلى البيت: "والدتك ستأسف لذلك".

"حقًّا؟"

"بالطبع".

"يجب أن أعود، أظن أننى وجدت (هيستر)".

"أين؟"

"لقد وجدوا عظامًا فى (آنجلفيلد)".

"عظامًا؟"

"أحد البنّائين اكتشفها وهو يحفر فى موقع المكتبة اليوم".

"رحمتك يا إلهى".

"يجب أن يتواصلوا مع السيدة (وينتر) ليسألوها عن الأمر، وأختها تحتضر، لا يمكننى تركها وحدها هناك، إنها بحاجة إلى".

بدا صوته جادًا: "فهمت".

حذرته: "السيدة وينتر وأختها توأمان، لكن لا تخبر والدتى".

صمت، ثم اكتفى بقول: "ستنتبهين لحالك، أليس كذلك يا (مارجريت)؟"

بعد ربع ساعة كنت قد استقررت فى مقعدى المجاور للنافذة وأخرجت مذكرات "هيستر" من جيبى.

***

يجب أن أهتم بفهم المزيد عن البصريات، فقد كنت جالسة مع السيدة "دان" فى المرسم لمراجعة خطة وجبات الطعام للأسبوع، حين لمحت حركة مفاجئة فى المرآة، صحت بانزعاج: "(إيميلاين)!" لأنها لم يكن من المفترض أن تكون موجودة فى المنزل من الأساس، بل فى الخارج، تمارس تمرينها اليومى وتستنشق الهواء المنعش، لكنه خطئى بالتأكيد، فما كان علىّ إلا أن أنظر عبر النافذة ولو لمرة لأرى إذا ما كانت بالخارج، هى وأختها، وتلعبان بلطف أم لا، ولا بد أن ما رأيته -أو لمحته بشكل مضلِل، لأكون دقيقة- كان وميض ضوء شمس جاء من النافذة وانعكس على المرآة.

عند التبصر بشأن الانعكاس (التبصر بشأن الانعكاس! إنها تورية غير مقصودة!)، نجد أن سيكولوجيا الرؤية هى ما سببت سوء فهمى، أو شىء ما له الغرابة نفسها فى عالم البصريات، فعند الاعتياد على رؤية الفتاتين تتجولان فى المنزل بأماكن لا يُتوقع وجودهما فيها، وحين يُتوقع أن تكونا فى مكان آخر، يعتاد المرء على تفسير كل حركة عند طرف عينه على أنها دليل على وجودهما، وبالتالى فإن انعكاس

وميض أشعة الشمس على المرآة يقدم نفسه بشكل مقنع جدًّا كأنه فتاة ترتدى فستانًا أبيض، وللوقاية من أخطاء كهذه، يجب أن يعلم المرء نفسه أن يرى كل شىء بلا تصورات مسبقة، حتى يهجر كل أنماط التفكير المبنية على إعادة، يمكن أن يُساق الكثير من القول دعمًا لهذا الأسلوب من حيث المبدأ، مثل حيوية العقل! والتفاعل مع العالم على نحو عذرى! فالكثير من الاكتشافات العلمية تقوم على التطلع من منظور جديد إلى ما رآه الناس وظنوا أنهم فهموه لقرون، ومع ذلك، لا يستطيع المرء عيش حياته العادية بمثل هذه المبادئ، تخيل الوقت الذى سنحتاج إليه إن اضطررنا إلى إعادة التدقيق فى كل جوانب الحياة فى كل دقيقة يوميًا، لا، حتى نحرر أنفسنا مما هو دنيوى، من الضرورى أن نعهد بالكثير من تفسيرنا للعالم إلى ذلك الجزء السفلى من المخ الذى يتعامل مع المحتمل والمفترض والمرجح، مع أن فى بعض الأحيان يقودنا ذلك إلى الضلال ويتسبب فى رؤيتنا لوميض شعاع الشمس على أنه فتاة ترتدى فستانًا أبيض، فى حين أن كلتيهما أبعد ما تكون عن الأخرى.

يتجول عقل السيدة "دان" أحيانًا، أخشى أنها استوعبت القليل جدًّا من محادثتنا عن خطط الوجبات، وأننا سنضطر إلى مراجعتها بالكامل مجددًا غدًا.

***

لدى خطة صغيرة بشأن نشاطاتى هنا والطبيب.

لقد أخبرته مطولاً عن اعتقادى أن "آديلاين" تظهر اضطرابًا عقليًا لم أره ولم أقرأ عنه من قبل، ذكرت الأوراق البحثية التى كنت أقرؤها عن التوائم ومشكلات النمو المرتبطة بهم، ورأيت وجهه يستحسن قراءاتى، أظن أن لديه فهم أوضح الآن لقدراتى وموهبتى، لم يكن يعرف أحد الكتب التى تحدثت عنها وقدمت له ملخصًا للحجج

والبراهين الواردة فيه، وتابعت بأن أشرت إلى أوجه التضارب الهامة والقليلة التى لاحظتها فيه، وأن أوضح كيف، لو كان كتابى، كنت لأعدل استنتاجاتى وتوصياتى.

ابتسم إلىّ الطبيب فى نهاية حديثى، وقال، بلطف: "ربما يجب أن تكتبى كتابًا خاصًا بك". وهذا تحديدًا هو ما أتاح لى الفرصة التى كنت أسعى لها منذ فترة.

أوضحت له أن دراسة الحالة المثالية لمثل هذا الكتاب موجودة، هنا فى منزل "آنجلفيلد"، وأننى يمكننى تكريس بضع ساعات يوميًا للعمل على كتابة ملاحظاتى، صغت عددًا من المحاولات والتجارب التى يمكن تنفيذها لاختبار نظريتى، وتعرضت باختصار للأهمية التى سيحظى بها الكتاب النهائى فى عيون المؤسسة الطبية، ثم أعربت عن أسفى لحقيقة أن خبراتى ومؤهلاتى الرسمية كلها ليست فخمة كفاية لإغراء ناشر، وفى النهاية اعترفت بأننى، بصفتى امرأة، لست واثقة من قدرتى على تنفيذ مثل هذا المشروع الطموح، لكن وجود رجل سيحقق أفضل نتائج، فقط لو وجدت رجلاً ذكيًا وواسع الحيلة، وحساسًا وعلميًا، ومطلعًا على تجربتى ودراسة الحالة خاصتى.

زرعت بذلك فى باله بذرة فكرة، وحققت المرجو منها تحديدًا: أن نعمل معًا.

***

أخشى أن السيدة "دان" ليست بخير، أقفل الأبواب وهى تفتحها، أفتح الستائر وهى تغلقها، وكتبى لا تزال تغادر أماكنها! إنها تحاول أن تتجنب المسئولية عن أفعالها عبر التأكيد أن المنزل مسكون.

يأتى حديثها عن الأشباح بالصدفة تمامًا فى اليوم الذى يختفى فيه الكتاب الذى قرأت نصفه، لتحل محله رواية قصيرة لـ"هنرى

جيمس"، لا أظن أن السيدة "دان" هى من أبدلتهما، فهى نفسها بالكاد تعرف القراءة، ولا تميل إلى نظم المقالب، من الواضح أنها إحدى الفتاتين، ما يجعل الأمر جديرًا بالملاحظة هو أن صدفة مذهلة جعلتها خدعة أذكى مما اعتقدتها، لأن الكتاب عبارة عن قصة سخيفة جدًّا عن معلمة منزلية وطفلين تلازمهما الأشباح، أخشى أن السيد "جيمس" قد فضح جهله، فهو يعرف القليل عن الأطفال ولا يعرف شيئًا عن المعلمات المنزليات.

***

قُضى الأمر، لقد بدأت التجربة.

كان الفصل بينهما مؤلمًا، ولو لم أعرف ما فيه من خير، لاعتبرت نفسى قاسية لأننى جلبته عليهما، تنجح شهقات "إيميلاين" فى فطر قلبى، تُرى كيف وقع الأمر على "آديلاين"؟ لأنها ستكون الأكثر تغيرًا بتجربة الحياة المستقلة، سأعرف غدًا فى اجتماعنا الأول.

***

ليس هناك وقت لأىّ شىء سوى الأبحاث، لكننى نجحت فى فعل شىء إضافى مفيد، أجريت محادثة مع معلمة المدرسة بالصدفة خارج مكتب البريد، أخبرتها أننى تحدثت إلى "جون" بشأن التلميذ الهارب، وأنها يجب أن تأتى إلىّ إن غاب الفتى مجددًا بلا سبب، تقول إنها معتادة على التدريس لنصف الفصل فقط فى أوقات الحصاد حين يذهب الأطفال لمساعدة والديهم فى الحقول، لكنه ليس وقت الحصاد، والطفل كان يقتلع الأعشاب الضارة من الحديقة، أو هكذا قلت لها، سألتنى أىّ طفل كان ذلك، وشعرت بالحماقة لأننى لم أستطع أن أخبرها، القبعة المميزة لا تساعد مطلقًا فى التعريف به، بما أن الأطفال

لا يرتدون قبعات فى الفصول، يمكننى سؤال "جون" بشأن ذلك، لكننى أشك بأن يعطينى معلومات أكثر من المرة السابقة.

***

لا أكتب يومياتى كثيرًا مؤخرًا، أجد أنى بعدما أنتهى بوقت متأخر من الليل من كتابة تقاريرى اليومية عن تقدم "إيميلاين"، أكون عادة متعبة للغاية إلى حد يمنعنى من متابعة تسجيل أنشطتى، وأريد أن أبقى سجلاً لتلك الأيام والأسابيع، لأننى أشارك الطبيب فى بحث مهم للغاية، وفى السنوات التالية حين أرحل بعيدًا وأغادر هذا المكان، ربما أود النظر إلى الوراء والتذكر، ربما جهودى مع الطبيب ستفتح لى بابًا للمزيد من العمل من هذا النوع، لأننى أجد العمل الفكرى والعلمى أكثر استحواذًا علىّ وأكثر إرضاءً لى من أىّ شىء فعلته مطلقًا، هذا الصباح مثلاً، أجريت والطبيب "مودسلى" المحادثة الأكثر إثارة بشأن موضوع استخدام "إيميلاين" للضمائر، إنها تظهر ميلاً أكبر من أىّ وقت سبق للتحدث إلى، وقدرتها على التواصل تتحسن يوميًا، لكن الجانب الوحيد من كلامها المقاوم للتطور هو استخدام ضمير المتكلمين، فتقول: "نحن ذهبنا إلى الغابة"، ودائمًا ما أصحح لها: "أنا ذهبت إلى الغابة"، ومثل ببغاء صغير ستكرر "أنا ذهبت"، لكن فى العبارة التالية مباشرة تقول: "نحن رأينا قطة صغيرة فى الحديقة"، أو شيئًا مثل هذا.

الطبيب وأنا مأسوران للغاية بهذه الخصلة الغريبة، إنها ببساطة عادة كلامية راسخة نقلتها من لغة التوأمين إلى الإنجليزية، هل ستصحح نفسها بمرور الوقت؟ أم أن التوأم راسخة فيها لدرجة أن حتى لغتها مقاومة لفكرة أن تكون لها هوية منفصلة عن أختها؟ أخبرت الطبيب بشأن الأصدقاء الخياليين الذين يبتكرهم الكثير من الأطفال المضطربين، واستكشفنا معًا آثار ذلك، ماذا لو أن اعتمادية الطفلة على توأمها كبيرة جدًّا لدرجة أن الفصل يسبب صدمة عقلية

تجعل العقل التالف يبث السلوى عبر خلق أخت خيالية، أو رفيقة خيالية؟ لم نصل إلى استنتاج مُرضٍ، لكننا افترقنا برضا عن أننا حددنا مجالاً آخر للدراسة المستقبلية: علم اللغويات.

***

بين ما يحدث مع "إيميلاين"، والأبحاث، وأعمال المنزل العامة التى يجب القيام بها، أجد نفسى أنام قليلاً جدًّا، وعلى الرغم من احتياطى من الطاقة، الذى أحافظ عليه بالنظام الغذائى الصحى والتمرين، يمكننى تمييز أعراض الحرمان من النوم، أزعج نفسى بأن أضع أشياء فى أماكن وأنسى أين تركتها، وحين أعود إلى كتابى ليلاً، تخبرنى علامتى أننى فى الليلة الماضية طويت الصفحات بلا قراءة، لأننى لا أتذكر مطلقًا الأحداث التى فى الصفحة السابقة أو التى قبلها، مسببات الإزعاج تلك والإرهاق الدائم هى الثمن الذى أدفعه مقابل رفاهية العمل بجانب الطبيب على مشروعنا.

ومع ذلك، فإن هذا ليس ما أردت الكتابة بشأنه، قصدت أن أكتب عن عملنا، ليس عن اكتشافاتنا الموثقة باستفاضة فى أوراقنا، بل عن أنماط عقلينا، الطلاقة التى يفهم بها كل منا الآخر فهمنا اللحظى المتبادل الذى يمكننا من التصرف بلا كلام تقريبًا، مثلاً حين يستغرق كلانا فى تسجيل التغيرات فى أنماط نوم مدروستينا، ويود لفت انتباهى إلى شيء، لا يكون بحاجة إلى الكلام، لأننى أشعر بعينيه على، عقله ينادينى، فأرفع رأسى عما أنشغل به، مستعدة تمامًا له ليوضح أيًّا كان ما سيوضحه.

المتشككون قد يعتبرون هذا صدفة بحتة، أو يظنون أننى أضخّم توالى الصدف وأتخيل أنه يحدث كأنه عادة، لكننى اكتشفت أنه حين يعمل شخصان معًا على نحو وثيق على مشروع مشترك -أقصد شخصين ذكيين- تتطور بينهما رابطة تواصل يمكنها تطوير عملهما،

فحين يكونان مستغرقين معًا فى مهمة، يكون كل منهما واعيًا بأدق حركات الآخر، ويكون حساسًا نحوها للغاية، ويمكنه تفسيرها على هذا الأساس، ويحدث ذلك من دون حتى رؤية الحركات لا متناهية الصغر، ولا يشتت عن العمل، على العكس، يحسنه، فسرعة فهمنا تصبح أكبر، دعونى أضيف مثالاً بسيطًا صغير، لكنه ينوب عن الكثير غيره من الأمثلة، فى صباح اليوم، كنت عاكفة على بعض الملاحظات، أحاول أن أرصد نمطًا سلوكيًا يظهر فى ملاحظاته عن "آديلاين"، وحين مددت يدى لآخذ قلمًا لتدوين تعليق توضيحى فى الهامش، شعرت بيد الطبيب تمس يدى برفق ومرر إلىّ القلم الذى أردته، تطلعت إليه لأشكره، لكنه كان مستغرقًا بشدة فى أوراقه، غير واع تمامًا بما حدث، نعمل معًا بمثل هذه الطريقة: العقل واليد دائمًا متزامنان، ويتوقعان احتياجات الآخر وأفكاره، وحين نكون بعيدين، وهى حالنا معظم اليوم، نفكر دائمًا فى الأفكار الصغيرة المتعلقة بالمشروع، أو ملحوظات أخرى عن الجوانب الأوسع للحياة والعلوم، وحتى هذا يوضح مدى تلاؤمنا للعمل معًا.

لكننى ناعسة، ومع أننى بإمكانى الكتابة مطولاً عن مباهج المشاركة فى تأليف ورقة بحثية، فإن الوقت قد حان حقًّا للنوم.

***

لم أكتب منذ أسبوع تقريبًا، ولن أقدم أعذارى المعتادة، لقد اختفى دفتر يومياتى.

تحدثت مع "إيميلاين" بشأن الأمر -بطيبة، وبجدية، وبعرض الشوكولاتة، وبالتهديد بالعقاب (نعم، لقد انهارت أساليبى، لكن بصراحة فقدان دفتر اليوميات يمس المرء على نحو شخصى أكثر من أىّ شىء)- لكنها تستمر فى إنكار كل شىء، محاولات إنكارها متسقة وتظهر علامات عدة على حسن النية، أىّ شخص لا يعرف السياق

العـام كان ليصدقهـا، وبنـاء عـلى معرفتـى الكبـيرة بهـا، وجـدت السرقـة غـير متوقعـة، وأجـد صعوبـة فى تفسـيرها ضمـن التقـدم العـام الـذى أحرزتـه، إنهـا لا تسـتطيع القـراءة وليـس لديهـا اهتـمام بأفـكار الآخريـن وشـئونهم الداخليـة، باسـتثناء مـا قـد يؤثـر فيهـا مبـاشرة، لم قـد تريـد الدفـتر؟ أفـترض أن لمعـان القفـل هـو مـا أغراهـا، فولعهـا بالأشـياء اللامعـة لا يقـل، ولا أحـاول أن أقللـه، فهـو عـادة غـير ضـار، لكننـى خائبـة الأمـل فيهـا.

لـو كنـت سـأحكم عـلى أسـاس محاولاتهـا للإنـكار وشـخصيتها فقـط، فإننـى سأسـتنتج أنهـا بريئـة مـن السرقـة، لكـن الحقيقـة تظـل أنـه لا يمكـن أن يكـون شـخصًا آخـر.

"جـون"؟ السـيدة "دان"؟ حتـى عنـد افـتراض أن الخادمـين كانـا يريـدان سرقـة دفـتر يومياتى، وهـو مـا لا أصدقـه لدقيقـة، أذكـر بوضـوح أنهـما كانـا منشـغلين فى مـكان آخـر فى المنـزل حـين اختفـى الدفـتر، وفى حـال كنـت مخطئـة بشـأن ذلـك، فإننـى وجهـت محادثـاتى معهـما إلى أنشـطتهما، وأكـد "جـون" أن السـيدة "دان" كانـت فى المطبـخ طـوال الصبـاح (قـال: "وأحدثـت الجلبـة المميـزة لهـا أيضًـا")، وأكـدت هـى أن "جـون" كان فى اسـتراحة العربـات يصلـح السـيارة ("إنهـا قديمـة مزعجـة")، لا يمكـن أن يكـون أحدهـما.

وبالتـالى، بعدمـا اسـتبعدت المشـتبه بهـم الآخريـن، أنـا مجـبرة عـلى تصديـق أنهـا "إيميلايـن".

وحتـى الآن لا أسـتطيع التخلـص مـن شـكوكى، حتـى الآن يمكننـى تخيـل وجههـا -ذى المظهـر الـبرىء للغايـة، والمكـروب للغايـة أمـام هـذا الاتهـام- وأنـا مجـبرة عـلى التسـاؤل، أيوجـد عامـل إضـافى مـا مؤثـر هنـا لم أضعـه فى الحسـبان؟ حـين أنظـر إلى الأمـر مـن هـذا المنظـور يثـير داخـلى اضطرابًـا: أجـد نفـسى فجـأة غارقـة فى الشـعور بأنـه ليـس مخططًـا لأىّ مـن خططـى

أن تُثمر، شىء ما يقف ضدى منذ جئت إلى هذا المنزل! شىء يريد أن يعيقنى ويحبطنى فى كل مشروع أنفذه! لقد فكرت وأعدت التفكير، وأعدت تتبع كل خطوة فى منطقى، لا أستطيع إيجاد أىّ عيب، ومع ذلك لا أزال أجد الشكوك تهاجمنى، ما الذى أخفق فى أن أراه؟

بعد إعادة قراءة تلك الفقرة السابقة، أنا مصدومة أمام نقص الثقة بالنفس غير المعهود فى نبرتى، بالتأكيد إنه الإرهاق فقط هو ما يجعلنى أفكر فى ذلك، فالعقل غير المرتاح محكوم عليه بالتجول فى سبل غير مجدية، وهو ليس بالشىء الذى لا يقدر نوم ليلة هنيئة على معالجته.

إلى جانب ذلك، فإن الأمر كله منتهٍ الآن، فها أنا، أكتب فى دفتر يومياتى المفقود، لقد حبست "إميلاين" فى غرفتها لأربع ساعات، ولستّ ساعات فى اليوم التالى، وعرفت هى أن فى اليوم التالى ستكون ثمانى ساعات، وفى اليوم الثانى، بعد فترة قصيرة من هبوطى بعد فتح قفل غرفتها، وجدت الدفتر على مكتبى فى غرفة الدراسة، لا بد أنها تسللت بهدوء جدًّا لتضعه هناك، لم أرها تمر من أمام باب المكتبة إلى غرفة الدراسة مع أننى تركت الباب مفتوحًا عمدًا، لكن الدفتر رُد، لذا لم يعد من مجال للشك، أليس كذلك؟

***

أنا متعبة جدًّا ومع ذلك لا أستطيع النوم، أسمع أصوات خطوات فى الليل، لكن حين أذهب إلى باب غرفتى وأنظر إلى الممر لا أجد أحدًا.

***

أعترف بأن الأمر أزعجنى -ولا يزال يزعجنى- أن أفكر فى أن هذا الكتاب الصغير لم يكن معى لمدة يومين، فكرة أن يقرأ شخص آخر

كلماتى هى أكثر ما يزعجنى، لا يسعنى إلا التفكير فى كيفية تفسير شخص آخر لأشياء معينة كتبتها، لأنى حين أكتب لنفسى فقط، وأعرف تمام المعرفة حقيقة ما أكتب، ربما أكون أقل حرصًا فى تعبيرى، وأكتب بسرعة، وربما أعبر أحيانًا عن نفسى بطريقة تمكن إساءة فهمها من قبل الشخص الآخر، الذى لن يحمل رؤيتى نفسها لما أقصده حقًّا، بالتفكير فى بعض الأمور التى كتبتها (الطبيب والقلم -حدث غير مهم كهذا- بالكاد يستحق أن يُذكر من الأساس) أدرك أنها قد تبدو لشخص غريب بشكل مختلف جدًّا عما قصدته، وأنا أتساءل إن كان يجب أن أمزق هذه الصفحات وأتلفها أم لا، لكننى لا أريد فعل هذا، لأن مثل هذه الصفحات هى أكثر ما أريد قراءته لاحقًا، حين أكون مسنة ورحلت من هنا، وألتفت إلى ما يبثه عملى من سرور، وإلى التحدى الكامن فى مشروعنا العظيم.

لمَ لا يجب أن تكون صداقة علمية مصدرًا للفرح؟ هذا لا يجعلها أقل علمية، أليس كذلك؟

لكن ربما الحل هو أن أتوقف عن الكتابة تمامًا، لأننى حين أكتب، حتى الآن وأنا أكتب هذه الجملة تحديدًا، وهذه الكلمة بالذات، أدرك وجود قارئ شبح يميل فوق كتفى ويشاهد قلمى، يلوى كلماتى ويشوه مقصدى، ويجعلنى غير مرتاحة فى خصوصية أفكارى.

الأمر مزعج للغاية أن يُقدَّم المرء لنفسه فى صورة مختلفة جدًّا عن الصورة المألوفة لديه، حتى حين يبدو بوضوح أنها صورة مزيفة.

سأتوقف عن الكتابة.

# النهايات

# الشبح فى الحكاية.

رفعت عينىّ عن الصفحة الأخيرة من يوميات "هيستر" والأفكار تزاحم رأسى، اخترق عدد من الأشياء مجال انتباهى وأنا أقرأ، والآن وقد أنهيت القراءة، لدى الوقت المناسب للتفكير فيها على نحو منهجى.

قلت فى بالى، أوه.

أوه.

ثم، أوه!

كيف أصف لحظة الإدراك؟ بدأت بسؤال "ماذا لو؟" ضال، ثم تخمين جامح، ثم فكرة لا تُصدق، لقد كانت.. حسنًا، ربما ليست مستحيلة، لكنها غير معقولة! فبداية...

كنت على وشك بدء ترتيب الحجج المضادة المعقولة لهذه الفكرة، لكننى تجمدت فى مكانى، لأن عقلى الذى يسابق نفسه بحدس لحظى

قد صدق بالفعل هذه الرواية المنقحة للأحداث، ففى لحظة واحدة، لحظة من الإبهار المحير، تفككت القصة التى حكتها لى السيدة "وينتر" وتشكلت من جديد، الأحداث جميعها متطابقة، والتفاصيل كلها متشابهة، لكن القصة مختلفة تمامًا وبعمق، مثل تلك الصور التى ترى فيها طائرًا صغيرًا إذا أمسكت الصفحة من ناحية، وعجوزًا شمطاء إذا أمسكت بها من الناحية الأخرى، مثل أجوبة الألغاز المخفية فى الصور، التى لن تحلها إلا إن تعلمت أن ترى الحلول، لقد كانت الحقيقة أمامى منذ البداية، لكننى لم أرها إلا الآن.

تلت ذلك ساعة من التفكير العميق، فكرت فى عنصر تلو الآخر، ونظرت عبر الزوايا المختلفة على حدة، وراجعت كل ما أعرفه، وكل ما قيل لى، وكل ما اكتشفته، قلت لنفسى، هذا صحيح، وهذا أيضًا صحيح، وذلك وذاك أيضًا، بث اكتشافى الحياة فى القصة، فبدأت تتنفس، وحين تنفست، بدأت تلتئم، فنعّمت الأطراف المدببة نفسها، وملأت الثغرات نفسها، وأعادت الأجزاء الناقصة تشكيل نفسها، وفسّرت الأحاجى نفسها، ولم تعد الألغاز ألغازًا.

فى النهاية، بعد كل الحكى وسرد الخطوط الطويلة، وبعد الستائر الدخانية والمرايا الخادعة والخدع المزدوجة، عرفت الحقيقة.

***

عرفت ما رأته "هيستر" يوم ظنت أنها رأت شبحًا.

عرفت هوية الطفل فى الحديقة.

عرفت من هاجم السيدة "مودسلى" بالكمان.

عرفت من قتل "جون ذا ديج".

عرفت من كانت "إيميلاين" تبحث عنه تحت الأرض.

سقطت التفاصيل فى مكانها الصحيح، كلام "إيميلاين" مع نفسها وراء باب مغلق فى أثناء إقامة أختها فى منزل الطبيب، و"جين أير"، الكتاب الذى يظهر ثميظهر مجددًا فى القصة، مثل خيط فضى فى زخارف سجادة حائط، وفهمت لغز علامة القراءة المتجولة الخاصة بـ"هيستر"، وظهور الكتاب واختفاء دفتر يومياتها، أفهم غرابة قرار "جون ذا ديج" بتعليم الفتاة التى دنست من قبل حديقته كيف تعتنى بها.

أفهم الفتاة وراء الغشاوة، وكيف ولماذا خرجت منها، أفهم كيف يمكن أن تذوب فتاة مثل "آديلاين" وتترك السيدة "وينتر" مكانها.

قالت لى السيدة "وينتر": "سأحكى لك حكاية عن توأمين"، فى المساء الأول بالمكتبة حين كنت على وشك المغادرة، كلمات أحدثت لقصتى صدى غير متوقع، وعلقتنى بقصتها على نحو لا يُقاوم.

فى يوم من الأيام كانت هناك فتاتان توأمان...

الاختلاف الوحيد أننى الآن أعرف أكثر.

لقد وجهتنى إلى الاتجاه الصحيح فى تلك الليلة الأولى، فقط لو كنت أعرف كيف أسمع.

"أتصدقين وجود الأشباح يا آنسة (ليا)؟" هكذا سألتنى، "سأحكى لك حكاية عن الأشباح".

وقلت لها: "فى فرصة أخرى".

لكنها حكت لى حكاية عن أشباح.

فى يوم من الأيام كانت هناك طفلتان رضيعتان...

أو بدلاً من ذلك: فى يوم من الأيام كانت هناك ثلاث.

فى يوم من الأيام كان هناك منزل، وكان المنزل مسكونًا.

كان الشبح، على الطريقة التقليدية للأشباح، خفيًا أغلب الوقت، ومع ذلك لم يكن خفيًّا تمامًا، فقد أُغلقت الأبواب التى تُركت مفتوحة، وفُتحت الأبواب التى تُركت مغلقة، والحركة السريعة فى المرآة التى تجعلك تتطلع إليها، وتيار الهواء وراء الستارة فى حين أنَّ كل النوافذ مغلقة، الشبح الصغير كان موجودًا فى الحركة غير المتوقعة للكتب من غرفة إلى أخرى، وفى الحركة الغامضة لعلامة القراءة من صفحة إلى أخرى، تلك كانت يدها التى رفعت دفتر مذكرات "هيستر" من مكان وأخفته فى آخر، ويدها التى بدلته لاحقًا، حين انعطفت إلى ممر، إن راودتك الفكرة الغريبة أنك لمحت نعل حذاء يختفى عند الزاوية البعيدة، فإن الشبح الصغير لم يكن بعيدًا، وحين فاجأك هذا الشعور فى مؤخر عنقك بأن أحدًا يراقبك، ورفعت رأسك لتجد الغرفة خاوية، يمكنك أن تثق بأن الشبح الصغير يختبئ فى الفراغ بمكان ما.

يمكن لمن يمكنه أن يرى أن يتكهن بوجودها بعدد لانهائى من الطرق، لكن أحدًا لم يرها.

لقد سكنت المنزل بلطف، ولم تُحدث قط صوتًا بأطراف قدميها العاريتين، ومع ذلك فقد ميزت موطئ قدم كل مَن سكنوا المنزل، وعرفت كل لوح أرضية وكل باب له صرير، كل ركن مظلم فى المنزل كان مألوفًا لها، كل ركن وكل زاوية، لقد عرفت الفراغات وراء الخزانات وبين الرفوف، وعرفت مؤخر الأرائك وتحت المقاعد، تكوّن المنزل فى عقلها من مئة مكان ومكان للاختباء، وقد عرفت كيف تنتقل بين هذه الأماكن على نحو خفى.

لم ترَ "إيزابيل" و"تشارلى" الشبح قط، فبأسلوب عيشهما خارج حدود المنطق وخارج حدود المعقول، لم يكونا من النوع الذى يحيره ما يتعذر تفسيره، إذ بدت لهما الأشياء الضائعة والمكسورة وتغير مكان الأغراض بعشوائية جزءًا من الكون الطبيعى، وسقوط ظل على

السجادة حيث لا يفترض أن يوجد ظل لم يجعلهما يتوقفان ويفكران، فمثل تلك الألغاز لم يبد إلا امتدادًا طبيعيًا للظلال التى فى قلبيهما وعقليهما، كان الشبح الصغير هو الحركة عند طرف عينيهما، والأحجية غير المعترف بها فى مؤخر دماغيهما، والظل الدائم المعلق بحياتهما دون معرفتهما، لقد فتشت عن بقايا الطعام فى خزانة طعامهما مثل الفأر، ودفأت نفسها بجمر موقدهما بعد خلودهما إلى النوم، واختفت فى تجاويف خرابهما لحظة ظهور أحد.

كانت هى سر المنزل.

ومثل كل الأسرار، كان لها أمناؤها.

رأت مدبرة المنزل الشبح الصغير بوضوح الشمس، على الرغم من ضعف بصرها، وهذا جيد، فمن دون تعاونها ما كان ليوجد بقايا كافية فى خزانة المؤن ولا فتات كاف من خبز الإفطار لتغذية الشبح الصغير، لأن من الخطأ الاعتقاد أن ذلك الشبح عبارة عن طيف أثيرى روحى، لا، إن له معدة، وحين تفرغ يجب ملؤها.

لكنها كسبت قوتها، لأنها كانت تقدم بقدر ما تأخذ، أما الشخص الآخر الذى لديه بصيرة رؤية الأشباح فهو البستانى، وكان ممتنًا للحصول على بعض المساعدة، إذ ارتدت قبعة عريضة الحواف وأحد بناطيل "جون" القديمة، بعدما قُص من كاحله وشكّلته الدبابيس، فكان سكنها للحديقة مثمرًا، حيث أصبحت البطاطس تحت الأرض أكبر حجمًا تحت رعايتها، وفوق الأرض ازدهرت شجيرات الفاكهة، مثمرة عناقيد التوت التى قطفتها يداها تحت الأفرع المنخفضة، لم تكن لها لمسة سحرية على الفواكه والخضراوات فقط، بل وازدهرت الورود مثلما لم تزدهر من قبل، وعرفت لاحقًا الرغبة السرية لدى الأشجار بأن تتخذ شكلاً هندسيًا، فإن أرادت الصغيرة، تُنمى الأفرع والأوراق أركانًا وزوايا، ومنحنيات وخطوط مستقيمة رياضيًا.

لم يحتج الشبح الصغير إلى الاختباء فى الحديقة وفى المطبخ، فمدبرة المنزل والبستانى هما حامياها، والوصيان عليها، لقد علماها سبل المنزل وكيف تكون آمنة فيه، وأطعماها، واعتنيا بها، وحين جاءت غريبة للعيش فى المنزل، بعينين أكثر حدة من البقية، وبرغبة بإبعاد الظلال وإغلاق الأبواب، قلقا بشأنها.

لم يُكِنا لها شيئًا أكثر من الحب.

لكن من أين أتت؟ وما قصتها؟ فالأشباح لا يظهرون على نحو عشوائى، بل يأتون إلى حيث يعرفون أنه بيتهم، وقد كان الشبح الصغير ببيته فى هذا المنزل، ووسط هذه العائلة، ومع أنها لم يكن لها اسم، مع أنها لم تكن أحدًا، عرف البستانى ومدبرة المنزل من هى جيدًا، فقد كُتبت قصتها فى شعرها النحاسى وعينيها الزمرديتين.

هذا الجزء هو الأغرب فى القصة بالكامل، فقد حمل الشبح شبهًا خارقًا بالتوأمين اللتين تعيشان فى المنزل، وكيف غير ذلك يمكن أن تعيش هناك دون أى شكوك طوال هذا الوقت؟ ثلاث فتيات بشعر نحاسى يغطى ظهورهن، ثلاث فتيات لهن أعين زمردية مذهلة، الأمر غريب، ذلك الشبه الذى تتشاركه ثلاثتهن، أليس كذلك؟

قالت لى السيدة "وينتر": "حين ولدت، لم أكن إلا حبكة فرعية"، وبدأت الحكاية التى ذهبت فيها "إيزابيل" إلى النزهة، وقابلت "رولاند" وفى النهاية هربت للزواج به، فارة من عشق أخيها المظلم غير الأخوى، أما "تشارلى"، أمام تجاهل أخته له، فقد انطلق فى حالة هياج، ينفس عن غضبه وعشقه وغيرته مع الأخريات، بنات الإيرلات[1] أو أصحاب المتاجر، بنات موظفى البنوك أو منظفى المداخن، لم تمثل هويتهن فارقًا حقيقيًا له، وبموافقتهما أو من دونها، ألقى بنفسه عليهن يائسًا من أجل النسيان.

---

(1) إيرل لقب إنجليزي يعادل لورد.

ولـدت "إيزابيـل" توأميهـا فى مستشـفى بلنـدن، فتاتـين بـلا أى ملامـح مـن زوج أمهـما، شـعرهما نحـاسى، مثـل خالهـما تمامًـا، وأعينهـما خـضراء، مثـل خالهـما تمامًـا.

هنـا تـأتى الحبكـة الفرعيـة: فى الوقـت ذاتـه، فى إسـطبل مـا أو فى غرفـة نـوم منـزل ريفـى معتـم، ولـدت امـرأة أخـرى، ليسـت ابنـة إيـرل، حسـبما أظـن، ولا موظـف بنـك، فمُتيـسّرو الحـال لديهـم وسـائل للتعامـل مـع المشـكلات، لا بـد أنهـا كانـت ابنـة امـرأة مـا مجهولـة عاديـة بـلا حيلـة، وقـد ولـدت فتـاة أيضًـا، بشـعر نحـاسى وعينـين زمرديتـين.

إنها طفلة الغضب، طفلة الاغتصاب، إنها طفلة "تشارلى".

فى يوم من الأيام كان هناك منزل اسمه "آنجلفيلد".

فى يوم من الأيام كانت هناك توأمان.

فى يـوم مـن الأيـام جـاءت إلى "آنجلفيلـد" ابنـة خـال، أو عـلى الأرجـح نصـف شـقيقة.

أجلـس فى القطـار ويوميـات "هيسـتر" مغلقـة عـلى حجـرى، وقـد تقلصـت نوبـة التعاطـف الشـديد التـى بـدأت أشـعر بهـا تجـاه السـيدة "وينـتر" حـين تبـادر إلى ذهنـى طفـل آخـر غـير شرعـى، "أوريليـوس"، وتحـول تعاطفـى إلى غضـب، لمَ فُـرِّق عـن أمـه؟ ولمَ هُجِـر؟ ولمَ تُـرِك ليدافـع عـن نفسـه فى العـالم دون أن يعـرف قصتـه؟

فكـرت أيضًـا فى الخيمـة البيضـاء والبقايـا التـى تحتهـا التـى أعـرف الآن أنهـا لا تخـص "هيسـتر".

تـؤدى كل تلـك المسـارات إلى ليلـة الحريـق، إنـه حريـق متعمـد، وقتـل، وهجـر رضيع.

حين وصل القطار إلى هاروجيت ونزلت إلى الرصيف، تفاجأت حين وجدت الثلوج تصل إلى كاحلى، فمع أننى كنت أحدق عبر نافذة القطار لمدة ساعة، لم أرَ أى شىء من المشهد بالخارج.

ظننت أننى عرفت كل شىء حين جاءتنى لحظة الإدراك.

حين أدركت أن "آنجلفيلد" لم يضم فتاتين فقط، بل ثلاثًا، ظننت أن بين يدى مفتاح القصة كلها.

فى نهاية تأملاتى، أدركت أننى إلى أن أعرف ما حدث فى ليلة الحريق، أنا لا أعرف شيئًا.

# عظام

إنهـا عشـية عيـد الميـلاد والثلـوج تهطـل بكثافـة، رفـض سـائق التاكـسى الأول والثـانى أن يقلّنـى إلى مـكان بعيـد هكـذا خـارج البلـدة فى ليلـة كهذه، أمـا الثالـث فـلا بـد أنـه تأثـر بحماسـة طلبـى، لأنـه هـز كتفيـه بـلا مبـالاة ودعـانى للركـوب، وقـال بخشـونة: "سـنحاول أن نذهـب".

أخذتنـا السـيارة إلى خـارج المدينـة واسـتمر هطـول الثلـوج، متراكـمًا بشـكل دقيـق للغايـة، رقاقـة تلـو الأخـرى، عـلى كل سـنتيمتر مـن الأرض وكل قمـة سـياج وكل غصـن شـجرة، وبعـد القريـة الأخـيرة، وآخـر بيـت ريفـى، وجدنـا نفسـينا وسـط مشـهد أبيـض، والطريـق غـير مميـز أحيانًـا عـن الأرض المسـطحة حولـه، فانكمشـت فى مقعـدى، متوقعـة أن يستسـلم السـائق ويعـود أدراجـه فى أيَّـة لحظـة، توجيهـاتى الواضحـة فقـط هـى مـا طمأنـه بأننـا عـلى الطريـق الصحيـح، نزلـت لأفتـح البوابـة الأولى، ثـم وجدنـا نفسـينا أمـام الثانيـة، البوابـة الرئيسـة للمنـزل.

قلت: "آمل أن ترجع بخير".

قال بهزة كتف أخرى: "أنا؟ أنا سأكون بخير".

ومثلما توقعت، كانت الأبواب مقفلة، لم أرد أن يظن السائق بشكل ما أننى سارقة، فمثّلت أننى أبحث عن مفاتيحى فى حقيبتى فى حين أدار هو السيارة، وحين ابتعد أمسكت بقضبان البوابة وتسلقتها.

لم يكن باب المطبخ مقفلاً، فخلعت حذائى، ونفضت الثلوج عن معطفى وعلقته، سرت عبر المطبخ الفارغ، واتخذت طريقى إلى سكن "إيميلاين" حيث أعرف أن السيدة "وينتر" ستكون موجودة، أذكيت غضبى الملىء بالاتهامات، والملىء بالأسئلة، من أجل "أوريليوس" والمرأة التى استلقت عظامها لستين عامًا فى حطام مكتبة "آنجلفيلد" المحترقة، ورغم كل ما يعصف بداخلى، اقتربت بهدوء واستوعبت السجادة خطواتى الغاضبة.

لم أطرق بل دفعت الباب ودخلت مباشرة.

كانت الستائر لا تزال مغلقة، وتجلس السيدة "وينتر" بهدوء بجوار "إيميلاين"، فاجأها دخولى وحملقت إلىّ، رأيت لمعة استثنائية فى عينيها.

همست لها: "عظام! لقد وجدوا عظامًا فى (آنجلفيلد)!"

كلى أعين ناظرة، وآذان صاغية، تنتظر على أحر من الجمر أن يصدر منها اعتراف، لا يهم إن كان بالكلمات أو بتعبيرات وجهها أو بحركاتها، ستدلى به، وسأقرؤه.

باستثناء أن شيئًا فى الغرفة يحاول تشتيتى عن التدقيق فيها.

قالت السيدة "وينتر": "عظام؟" كانت شاحبة كالورقة وبعينيها محيط شاسع كفاية ليُغرق غضبى المستعر.

قالت: "أوه".

أوه، كم هذا المقطع الصوتى الواحد غنى بالمشاعر! الخوف، واليأس، والحزن والاستسلام، والارتياح، المظلم غير المعزى، والحزن العميق والقديم.

ثم تضخم ذلك التشتيت العنيد فى الغرفة بسرعة جدًّا فى عقلى لدرجة أنه لم يترك مساحة لأى شىء آخر، ما هذا؟ يوجد شىء دخيل على صدمة العظام خاصتى، شىء ما سبق اقتحامى، وأصابتنى حيرة عاجزة لمدة ثانية، ثم تجمعت كل الأشياء التافهة التى لاحظتها دون اهتمام، الجو فى الغرفة، والستائر المغلقة، الشفافية المائية بعينى السيدة "وينتر"، وحقيقة أن الصلابة التى كان دائمًا جوهرها قد تركتها ببساطة.

تقلص مجال انتباهى إلى شىء واحد: أين مد وجزر أنفاس "إيميلاين" البطيئة؟ لم يعد صوتها يبلغ أذنى.

"لا! إنها..."

هبطت على ركبتى بجانب السرير وحملقت.

قالت السيدة وينتر برقة: "نعم"، "لقد رحلت، منذ بضع دقائق".

حملقت إلى وجه "إيميلاين" الخاوى، لم يتغير شىء حقًّا، ندباتها لا تزال حمراء بشكل غاضب، وبشفتيها الميل الجانبى نفسه، ولا تزال عيناها خضراوين، لمست يدها ذات الجلد المُرقَّع ووجدته دافئًا، أصحيح أنها رحلت؟ بالتأكيد، رحلت بلا رجعة؟ بدا مستحيلاً أن يحدث ذلك، بالتأكيد هى لم تهجرنا بالكامل؟ بالتأكيد سيبقى شىء منها ليواسينا؟ أليست هناك تعويذة ولا طلسم ولا سحر يمكنه ردها إلينا؟ أليس هناك ما يمكننى قوله ليصل إليها؟

دفء يدها هو ما أقنعنى بأنها يمكنها سماعى، دفء يدها هو ما جلب كل الكلمات إلى صدرى، يسقط بعضها على بعض فى توق للطيران إلى أذن "إيميلاين".

"اعثرى على أختى يا (إيميلاين)، أرجوك اعثرى عليها، أخبريها أننى أنتظرها، أخبريها..." ضاق حلقى للغاية بكل الكلمات وقد تحطم بعضها أمام بعض وهى تخرج منى مختنقة، "أخبريها أننى أفتقدها! أخبريها أننى وحيدة!" أطلقت الكلمات بتهور وسرعة من بين شفتى، وطارت بحماسة تطارد "إيميلاين"، "أخبريها أننى لا أطيق الانتظار! أخبريها أن تأتى!"

لكننى كنت قد تأخرت جدًا، لقد فرض الرحيل نفسه علينا، إنه خفى وبلا رجعة وعنيد.

طارت كلماتى مثل طيور فى لوح زجاج النافذة.

"يا طفلتى المسكينة"، شعرت بلمسة يد السيدة "وينتر" على كتفى، وظلت هناك بخفة وأنا أبكى على جثث كلماتى المحطمة.

فى النهاية جففت عينى، وتبقت بضع كلمات فقط، تخشخش فى الأنحاء بحرية من دون رفيقاتها القديمات، قلت: "إنها توأمتى، كانت هنا، انظرى".

سحبت الكنزة المطوية داخل تنورتى، وكشفت جذعى للضوء، كشفت ندبتى، نصف القمر الخاص بى، لونه بين الوردى الفضى الباهت، شفاف كأم اللؤلؤ، إنه الخط الذى يفصل بيننا.

"هنا كانت، هنا كنا موصولتين، ثم فصلونا، وماتت، لم تستطع العيش من دونى".

شعرت بارتعاش أصابع السيدة "وينتر" وهى تتبع الهلال المرسوم على جلدى، ثم شعرت بالتعاطف الحنون فى عينيها.

"الأمـر أن..." (هـذه كلـماتى الأخيرة عـن الأمـر، كلـماتى الأخيـرة تمامًـا، بعدهـا لـن أحتـاج إلى قـول أى شيء، مطلقًـا) "أننـى لا أعتقـد أننـى يمكننى العيـش مـن دونهـا".

"يا صغيرتى"، ونظرت إلىَّ السيدة "وينتر"، وحملتنى بتعاطف عينيها.

لم أفكـر بـشىء، بـدا عقـلى جامـدًا تمامًـا، لكـن بداخلـه كان يتغـير ويتقلـب، شـعرت بتيـار خفـى يتضخـم بداخلـه، فقـد اسـتقر الحطـام لسـنوات فى الأعـماق، إنهـا سـفينة صدئـة عليهـا حمولـة مـن العظـام، والآن تغـيرت، لقـد بعثرتهـا، وأحدثـت اضطرابًـا رفـع سـحبًا مـن الرمـل مـن قـاع البحـر، ذرات مـن الرمـل تتحـرك فى دوامـات جامحـة فى الميـاه المظلمـة المضطربـة.

احتضنتنى السيدة "وينتر" طوال الوقت بحملقتها الخضراء الطويلة.

ثـم اسـتقر الرمـل ببطـء مجـددًا وعـادت الميـاه إلى هدوئهـا، ببـطء، واسـتقرت العظـام مجـددًا فى حصنهـا الصـدئ.

قلت: "سألتنى من قبل عن قصتى".



"أخبرتنى أن ليس لك قصة".

"الآن تعرفين أن لى قصة".

"لم أشـك بالأمـر قـط"، وابتسـمت ابتسـامة مسـكينة آسـفة، "حـين دعوتـك لتـأتى كنـت أظـن أننـى أعـرف قصتـك بالفعـل، كنـت قـد قـرأت مقالـك عـن الأخويـن (لانديـير)، يـا لـه مـن مقـال جيـد، أنـت تعرفـين الكثـير عـن الإخـوة، قلـت لنفسـى إنهـا معرفـة عـن تجربـة، وكلـما نظـرت إلى مقالـك أكـثر، فكـرت أكـثر فى أنـه لا بـد مـن أن لـك توأمًـا، لـذا اسـتقررت عـلى اختيـارك كاتبـة لسـيرتى الذاتيـة، لأن بعـد كل تلـك السـنوات مـن سرد القصـص لـو أغرتنـى فكـرة أن أكـذب عليـك فإنـك ستكشـفيننى".

"لقد كشفتك".

أومأت، بهدوء وبحزن وبلا مفاجأة، "وفى الوقت المناسب أيضًا، إلى أى حد تعرفين؟"

"أعرف ما أخبرتنى به، إنها ليست إلا حبكة ثانوية، هكذا وصفتِ الأمر، حكيت لى حكاية (إيزابيل) وتوأميها، ولم أكن منتبهة، والحبكة الثانوية كانت (تشارلى) ونوبات اهتياجه، ظلت توجهنى نحو (جين أير)، كتبه الغريبة عن العائلة، ابنة الخال التى بلا أم، لا أعرف من أمك ولا كيف انتقلت للعيش فى (آنجلفيلد) من دونها".

هزت رأسها بحزن، "أى شخص يمكن أن يعرف إجابات هذه الأسئلة مات يا (مارجريت)".

"ألا تتذكرين؟"

"أنا إنسان، وكحال كل البشر، لا أتذكر مولدى، فحين ندرك العالم، نكون أطفالاً صغارًا، ويكون قد مر على قدومنا إلى العالم دهر، إنه بداية الزمن، إننا نعيش مثل من وصلوا إلى المسرح متأخرين، يجب أن نلحق بركب الأحداث بأقصى سرعة، فنتوقع البداية بناء على الأحداث التالية، كم مرة عدت إلى حدود ذاكرتك وتطلعت إلى الظلمة الكامنة وراءها؟ لكنها ليست الذكريات فقط هى ما يحوم هناك عند الحدود، فهناك توجد كل أشكال الوهم، كوابيس طفلة وحيدة، وقصص خيالية استولى عليها عقل متعطش للقصص، وخيالات طفلة صغيرة جامحة الخيال متلهفة لمعرفة ما لا يمكن أن تعرفه بنفسها، أيًا كانت القصة التى ربما اكتشفتها عند حافة النسيان، لا أدعى أمام نفسى أنها الحقيقة".

"كل الأطفال ينسجون الأساطير عن مولدهم".

"بالضبط، الشىء الوحيد الأكيد لى هو ما أخبرنى به (جون ذا ديج)".

"وماذا أخبرك؟"

"أننى ظهرت مثل نبتة ضارة، بين شجرتى فراولة".

وحكت لى القصة.

***

كان أحد يعبث بأشجار الفراولة، ليست طيورًا، لأن الطيور تنقر الفراولة وتتركها منقورة، وليس الفتاتين لأنهما سحقتا الأشجار وتركتا آثار أقدامهما فى كل مكان، لا، إنه لص خفيف الحركة يأخذ ثمرة فراولة من هنا وثمرة أخرى من هناك، وبشكل أنيق دون أن يبعثر شيئًا، لم يكن بستانى آخر ليلاحظ، لكن فى اليوم نفسه وجد "جون" بركة مياه تحت صنبور الحديقة، فقد كان الصنبور يقطر، فأدار المقبض، وضيقه، وحك رأسه وعاد إلى عمله، لكنه ظل منتبهًا.

فى اليوم التالى رأى أحدًا عند أشجار الفراولة، رث الثياب، بالكاد يبلغ طوله ركبة "جون"، يعتمر قبعة كبيرة للغاية تهبط على وجهه، ثم هرب حين رآه، لكن فى اليوم التالى كان عازمًا على أخذ فاكهته لدرجة أنه اضطر إلى الصياح والتلويح بذراعيه ليبعده، بعدها فكر فى أنه لا يعرف اسمه، من فى القرية لديه مخلوق بهذا الحجم، صغير ولا يتغذى كفاية؟ من فى الأنحاء قد يترك طفله ليسرق فاكهة من حدائق الآخرين؟ تحير "جون" بحثًا عن إجابة.

ودخل أحد كوخ البستنة؛ فـ"جون" لم يترك الصحف القديمة على هذه الحالة، وتلك الصناديق وُضعت جانبًا بشكل مرتب، لقد كان واثقًا بذلك.

فوضع قفلاً للمرة الأولى على الباب قبل أن يعود إلى المنزل.

وحين مر بصنبور الحديقة لاحظ التقطير مجددًا، فأدار مقبضه نصف دائرة بقوة دون حتى أن يفكر فى الأمر، ثم أدار المقبض ربع دائرة أخرى مستخدمًا وزنه فى ذلك، يجب أن يكون هذا كافيًا.

استيقظ فى الليل، غير مرتاح البال لأسباب لم يستطع تذكرها، وجد نفسه يتساءل: أين قد تنام إن لم تستطع أن تدخل كوخ البستنة وتصنع سريرًا لنفسك من الصحف داخل صندوق؟ ومن أين قد تحصل على المياه إن كان الصنبور مغلقًا بقوة لدرجة أن يصعب تحريكه؟ ثم فتح النافذة ليستشعر درجة الحرارة وهو يؤنب نفسه على حماقته فى منتصف الليل، لقد ولت فترة هطول الثلوج، لكن الجو أبرد من المتوقع بهذا الوقت من السنة، وكم سيصبح أبرد إن كنت جائعًا؟ وكم سيصبح العالم أكثر ظلامًا لو كنت طفلاً؟

هز رأسه وأغلق النافذة، لم يهجر أحد طفلاً فى حديقته، أليس كذلك؟ بالتأكيد لا، ومع ذلك، كان قد غادر سريره قبل مرور خمس دقائق، وتمشى حول الحديقة مبكرًا يرصد أحوال خضراواته والحديقة التوبيارية، ويخطط لعمله اليوم، ظل منتبهًا طوال الصباح بحثًا عن قبعة عريضة وسط شجيرات الفاكهة، لكن لم يظهر شىء.

حين جلس صامتًا عند مائدة مطبخها يشرب كوب قهوة قالت السيدة: "ماذا بك؟".

قال: "لا شىء".

أنهى كوبه وعاد إلى الحديقة، وفحص شجيرات الفاكهة بعينين قلقتين.

لا شىء.

فى وقت الغداء أكل نصف شطيرة، واكتشف أن لا شهية لديه، وترك النصف الآخر على أصيص زهور مقلوب بجوار صنبور الحديقة، ووضع إلى جواره قطعة بسكويت، وقال لنفسه إنه كان غبيًا، وفتح

الصنبـور، الـذى تطلـب فتحـه بعـض الجهـد حتـى منـه هـو، وتـرك المياه تهبـط محدثـة ضوضـاء داخـل صفيحـة قصديريـة للـرى، وأفرغهـا فى أقـرب حـوض وأعـاد ملأهـا، دوى المياه المتناثـرة تـردد قـرب حديقـة الخضـراوات، وانتبـه إلى ألا يتطلـع إلى الأعـلى أو حولـه.

ثـم أبعـد نفسـه قليـلاً، وركـع عـلى العشـب، موليًـا ظهـره إلى الصنبـور، وبـدأ تنظيـف بعـض الأصـص القديمـة، وذلـك مهـم ويجـب فعلـه، إذ يمكـن أن تنتـشر الأمـراض لـو لم تنظـف الأصـص عـلى النحـو السـليم بـين مـرات زراعتهـا.

سمع صرير الصنبور وراءه.

لم يلتفـت عـلى الفـور، بـل أنهـى الأصيـص الـذى كان ينظفـه، عـلى مهلـه.

ثم كان سريعًا، انطلق على قدميه نحو الصنبور، أسرع من الثعلب.

لكن لم تكن من حاجة إلى مثل هذه العجلة.

فقـد حـاول الطفـل الخائـف أن يهـرب لكنـه تعـثر، أقـام نفسـه، وعـرج لبضـع خطـوات، ثـم تعـثر مجـددًا، أمسـك بـه "جـون"، ورفعـه -وزنـه لا يزيـد عـن وزن قطـة- وقلبـه ليواجهـه، وسـقطت القبعـة.

الغـلام عبـارة عـن كيـس مـن العظـام، يتضـور جوعًـا وتحيـط قـشرة قاسـية بعينيـه، وشـعره اسـودّ بسـبب الـتراب، ورائحتـه قـذرة، لديـه بقعتـان حمـراوان توضحـان مـكان خديـه، ثـم وضـع "جـون" يـده عـلى جبهـة الطفـل ووجدهـا مشـتعلة، أخـذه إلى كـوخ البسـتنة حيـث رأى قدميـه، وجدهـما بـلا حـذاء ومظهرهـما حقـير ومتـورم، ويتـسرب منهـما الصديـد مـن بـين الـتراب، إذ بلغـت شـوكة أو شىء يشـببها عمـق القـدم، وارتعـد الطفـل، إنـه يعـانى مـن الحمـى، والألم، والجـوع، والخـوف، قـال

"جـون" لنفسـه إنـه لـو وجـد حيوانًـا عـلى هـذه الحـال لجلـب مسدسـه وأنهـى معاناتـه.

حبسـه فى كوخـه وذهـب لإحضـار السـيدة، وحـين جـاءت السـيدة تطلعـت إليـه واقتربـت، وحـين استنشـقت رائحتـه تراجعـت.

"لا، لا، لا أعرف ابن من هذا، ربما نعرف لو نظفناه قليلاً؟"

"تقصدين أن نغمره فى برميل مياه كبير؟"

"برميل مياه كبير! سأذهب وأملأ الحوض فى المطبخ".

خلعـا قطـع القـماش النتنـة عـن الطفـل، "سـنرميها فى الموقـد"، هكـذا قالـت السـيدة ورمتهـا نحـو الفنـاء، وشـق الـتراب الـذى كسـا الطفـل طريقـه إلى البالوعـة، وتحولـت أول مـلأة حـوض بالميـاه فى الحـال إلى اللـون الأسـود، فرفعـا الطفـل منـه حتـى يفرغـاه ويعيـدا مـلأه، وقـد وقـف الطفـل متمايـلاً عـلى قدمـه الأفضـل، يقـف عاريًـا ويقطـر مـاءً، وتجـرى عـلى جسـده نهـيرات صغـيرة مـن الميـاه البنيـة الرماديـة.

نظرا إلى الطفل، وتبادلا النظرات، ثم نظرا إليه مجددًا.

"(جون)، ربما أنا نظرى ضعيف، أخبرنى، أترى شيئًا لا أراه؟"

"لا".

"أى غلام! إنها فتاة صغيرة".

غليـا إنـاءً تلـو الآخـر، وحـكا جلدهـا وشـعرها بالصابـون، وأزالا الـتراب المتصلـب مـن تحـت أظفارهـا، بمجـرد أن أصبحـت نظيفـة، عقـما الملاقيـط وسـحبا الشـوكة مـن قدمهـا -جفلـت لكنهـا لم تبـكِ- وضمـدا الجـرح وغطيـاه، وحـكا بلطـف زيـت خـروع دافئًـا بالقـشرة المحيطـة بالعينـين، ووضعـا غسـول الكالامـين عـلى عضـات البراغيـث والفازلـين عـلى شـفتيها المتشـققتين الممزقتـين، ومشـطا شـعرها الطويـل المتشـابك لفـك تشـابكه، وضغطـا بعـض الأقمشـة البـاردة عـلى جبهتهـا وخديهـا المشـتعلين، وأخـيرًا،

لفاهـا فى منشـفة نظيفـة وأجلسـاها عنـد مائـدة المطبـخ، حيـث صبـت السـيدة ملاعـق الحسـاء فى فمهـا، وقـشر "جـون" لهـا تفاحـة.

تبتلـع الفتـاة رشـفات الحسـاء، وتنتـزع شرائـح التفـاح، لكنهـا تسـتطيع بلعهـا بسرعـة كافيـة، فقطعـت السـيدة شريحـة مـن العيـش وغطتهـا بالزبـد، فأكلتهـا الطفلـة بشراهـة.

راقباهـا، وجـدا عينيهـا بعدمـا نُظفتـا مـن القـشرة عبـارة عـن قطعـين مـن أخـضر الزمـرد، وجـف شـعرها ليصبـح أحمـر ذهبيًّـا لامعًـا، وعظـام خديهـا بـارزة وعريضـة وسـط وجههـا الجائـع.

قال "جون": "أتفكرين فى ما أفكر به؟"

"نعم".

"أسنخبره؟"

"لا".

"لكنها تنتمى إلى هذا المنزل".

"نعم".

فكرا لدقيقة أو اثنتين.

"ماذا عن الطبيب؟"

البقـع الورديـة فى وجـه الطفلـة ليسـت لامعـة جـدًّا، وحـين وضعـت السـيدة يدهـا عـلى جبهـة الطفلـة وجـدت حرارتهـا لا تـزال مرتفعـة.

"سنرى كيف ستبلى الليلة، وسنجلب الطبيب فى الصباح".

"إن كان ضروريًّا".

"نعم، إن كان ضروريًّا".

***

قالت السيدة "وينتر": "وقُضى الأمر، وبقيت فى المنزل".

"ماذا كان اسمك؟"

"حاولت السيدة مناداتى (مارى)، لكن الاسم لم يلتصق بى، ودعانى "جون" بـ"شادو"، لأننى التصقت به مثل ظله، علمنى القراءة بواسطة فهارس البذور فى الكوخ، لكننى اكتشفت المكتبة سريعًا، ولم تنادنى "إيميلاين" بأى اسم، لم تحتج إلى ذلك لأننى كنت دائمًا موجودة، تحتاجين إلى أسماء للغائبين فقط".

فكرت بشأن الأمر لوهلة فى صمت، الطفلة الشبح، بلا أم وبلا اسم، الطفلة التى كان وجودها سرًا، يستحيل ألا تتعاطف معها، ومع ذلك...

"ماذا عن (أوريليوس)؟ لقد عرفت كيف يكون الأمر حين تكبرين من دون أم! لماذا هُجر؟ والعظام التى وجدوها فى (آنجلفيلد).. لا بد أن (آديلاين) هى التى قتلت (جون ذا ديج)، لكن ماذا حدث لها بعد ذلك؟ أخبرينى، ماذا حدث فى ليلة الحريق؟"

كنا نتحدث فى الظلام، ولم أتمكن من رؤية تعبير وجه السيدة "وينتر"، لكنها بدت مرتجفة وهى تلقى نظرة على الجسد الذى على السرير.

"هلا جذبت الغطاء على وجهها، سأخبرك عن الرضيع، وسأخبرك عن الحريق، لكن أولاً، ربما يمكنك مناداة (جوديث)؟ فهى لم تعرف بعد، ويجب أن تتصل بالطبيب (كليفتون)، هناك أشياء يجب فعلها".

حين جاءت، كان اهتمام "جوديث" الأول بالأحياء، من أول نظرة إلى شحوب وجه السيدة "وينتر" أصرت على وضعها فى سريرها وجلب أدويتها قبل أى شىء، دفعنا كرسيها معًا إلى جناحها، وساعدتها

"جوديـث" فى ارتـداء ثـوب النـوم، ومـلأت أنـا زجاجـة ميـاه سـاخنة وطويـت غطـاء السريـر.

قالـت "جوديـث": "سـأهاتف الطبيـب (كليفتـون) الآن، هـلا بقيـت مع السيدة (وينـتر)"، لكـن بعـد بضـع دقائـق فقـط ظهـرت مجـددًا فى مدخـل غرفـة النـوم وأشـارت لى للدخـول إلى غرفـة الانتظـار.

همسـت إلى: "لم أتمكـن مـن الوصـول إليـه، لقـد عطلـت الثلـوج خطـوط الهاتـف".

لقد عُزلنا.

تذكـرت رقـم هاتـف الشرطـى عـلى قصاصـة الـورق فى حقيبتـى وشـعرت بالارتيـاح.

اتفقنـا عـلى أن أبقـى مـع السـيدة "وينـتر" لأول مناوبـة، حتـى تتمكـن "جوديـث" مـن الذهـاب إلى غرفـة "إيميلايـن" وتفعـل مـا يجـب فعلـه، وسـتريحنى لاحقًـا، حـين يحـين موعـد دواء السـيدة "وينـتر" التـالى.

ستكون هذه ليلة طويلة.

# الرضيع

السيدة "وينتر" على سريرها الضيق، ولا يميز جسدها إلا أصغر التضاريس فى أغطية السرير، استرقت كل نفس بحذر، كأنها توقعت أن يُنصَب لها كمين فى أيَّة لحظة، سعى ضوء المصباح إلى رأسها: فغطى عظمتى خديها وأضاء القوس الأبيض بجبينها، فأغرق عينيها فى بركة عميقة من الظلال.

على ظهر مقعدى استقر شال حريرى ذهبى، فعلقته على المصباح لعله ينشر الضوء ويدفئه ويجعله يهبط بقسوة أقل على وجه السيدة "وينتر".

جلستُ بهدوء، وراقبتها بهدوء، وحين تكلمت، بالكاد سمعت همسها.

"الحقيقة؟ لنرَ..."

انجرفت الكلمات من بين شفتيها إلى الهواء، وتعلقت فيه مرتجفة، ثم وجدت طريقها وبدأت رحلتها.

***

لم أكـن طيبـة مـع "أمـبروز"، كان ذلـك بإمـكانى، ربمـا كنـت لأفعـل ذلـك فى عـالم آخـر، مـا كان الأمـر ليكـون بهـذه الصعوبـة: فقـد كان طويـلاً وقويًـا وشـعره ذهبـى تحـت الشـمس، وعرفـت أنـه معجـب بى، وأنـا لم أكـن غـير مباليـة بذلـك، لكننـى قسّـيت قلبـى، فأنـا ملزمـة بـ"إيميلايـن".

سـألنى فى يـوم: "هـل أنـا غـير جيـد كفايـة بنظـرك؟" كان سـؤاله مبـاشرًا واضحًـا هكذا.

ادعيت أننى لم أسمعه، لكنه أصر.

"إن كنت غير جيد كفاية، فقليها إلى وجهى!"

قلت: "أنت لا تجيد القراءة، ولا تجيد الكتابة!"

ابتسـم، وأخـذ قلـمًا مـن عتبـة نافـذة المطبـخ وبـدأ بنقـش الحـروف عـلى قصاصـة ورق، كان بطيئًـا، والحـروف غـير متسـاوية، لكنهـا كانـت واضحـة كفايـة، "أمـبروز"، كتـب اسـمه وحـين انتهـى منـه، أخـذ الورقـة ورفعهـا إلى ليرينــى.

انتزعتها من يده، وشكلتها على هيئة كرة ورميتها إلى الأرض.

توقـف عـن المجـىء إلى المطبـخ فى اسـتراحة الشـاى خاصتـه، وشربـت الشـاى عـلى مقعـد السـيدة، مفتقـدة سيجارتى، وأنـا أسـتمع إلى أصـوات خطواتـه أو إيقـاع مجرفتـه، حـين جـاء إلى المنـزل باللحـم، مـرر الكيـس بـلا كلام، يتفـادى تلاقـى نظراتنـا، وبوجـه مجمـد، لقـد استسـلم، وصادفـت لاحقًـا قصاصـة الـورق التـى عليهـا اسـمه وأنـا أنظـف المطبـخ، شـعرت بالخجـل مـن نفسـى ووضعـت الورقـة فى حقيبـة صيـده المعلقـة وراء بـاب المطبـخ، حتـى أبعدهـا عـن ناظـرىّ.

متـى أدركـت أن "إيميلايـن" حبـلى؟ بعـد بضعـة أشـهر مـن توقـف الفتـى عـن المجـىء لـشرب الشـاى، عرفـتُ قبـل أن تعـرف هـى نفسـها، فهـى بالـكاد كانـت لتلاحـظ التغـيرات فى جسـدها، أو لتـدرك العواقـب،

استجوبتها بشأن "أمبروز"، كان من الصعب جعلها تفهم معنى أسئلتى، وفشلت تمامًا فى إدراك سبب غضبى، "كان حزينًا للغاية" هو كل ما قالته لى، "لقد كنتِ فظة معه للغاية"، تكلمت بلطف جدًّا، يملؤها التعاطف تجاه الفتى، وموجهة عتابها إلى.

كان بإمكانى أن أصدمها.

"أنت تدركين أنك ستلدين رضيعًا، صحيح؟"

مر بوجهها ذهول ضعيف، ثم عاد لهدوئه السابق، بدا أن لا شىء يمكن أن يعكر سكونها.

صرفتُ "أمبروز"، أعطيته أجره حتى نهاية الأسبوع وأبعدته، لم أنظر إليه وأنا أتحدث إليه، لم أقدم له أى أسباب، وهو لم يسأل أى أسئلة، قلت له: "بإمكانك أيضًا المغادرة فى الحال"، لكن هذه لم تكن طريقته، بل أنهى غرس صف النباتات الذى قاطعته أنا، ونظف أدواته بدقة، مثلما علمه "جون"، وأعادها إلى كوخ الحديقة تاركًا كل شىء نظيف ومرتب، ثم طرق باب المطبخ.

"ماذا ستفعلين لتحصلى على اللحم؟ أتعرفين كيف تقتلين دجاجة على الأقل؟"

هززت رأسى نافية.

"تعالى".

هز رأسه باتجاه الحظيرة، وتبعته.

أرشدنى: "لا تضيعى أى وقت، أفضل طريقة هى أن تكونى نظيفة وسريعة، لا تترددى".

انقض على أحد الطيور ذات الريش النحاسى التى تنقر عند أقدامنا، وثبت جسدها بقوة، وقلَّد الحركة التى ستكسر عنقها، "أترين؟"

أومأت.

"أرينى إذًا".

أطلق سراح الطائر، الذى سقط إلى الأرض وأصبح سريعًا غير مميز وسط أقرانه.

"الآن؟"

"ماذا ستأكلان الليلة؟"

كانت أشعة الشمس تلمع على ريش الدجاجات وهى تنقر الأرض لتتناول البذور، مددت يدى إلى إحداها، لكنها هرولت مبتعدة، الثانية انزلقت من بين أصابعى بالطريقة نفسها، حاولت الإمساك بالثالثة، وأمسكت بها على نحو أخرق، قرقرت وحاولت التخفيق بجناحيها، وتساءلتُ كيف حملها الفتى بهذه السهولة، وأنا أعانى لأبقيها ثابتة تحت ذراعى وألف يدىّ حول عنقها فى الوقت نفسه، شعرت بعينى الفتى الحادتين تحملقان إلى.

ذكَّرَنى: "بنظافة وبسرعة"، لقد شكك بى، يمكننى استشعار ذلك من صوته.

سوف أقتل الطائر، لقد قررت أن أقتله، لذا ضغطت وأنا ممسكة بعنق الدجاجة، لكن يدىّ لم تطيعانى حتى النهاية، حلقت صرخة مختنقة من حلق الدجاجة، وترددتُ للحظة، فانزلقت من تحت ذراعى بالتواء وخفقة جناحين قوية، حدث ذلك فقط لأن الهلع شل حركتى وأنا ممسكة بعنقها بين يدى، الجناحان يضربان، والمخلبان يتخبطان بجموح فى الهواء، كادت الدجاجة أن تترنح مبتعدة عنى.

بسرعة وبقوة، أخذ الفتى الدجاجة من قبضتى وبحركة واحدة أنهى الأمر.

قدمها إلىّ وأجبرت نفسى على أخذها، كانت دافئة وثقيلة، وجامدة.

لمعت الشمس على شعره وهو ينظر إلى، كانت نظرته أسوأ من المخالب، وأسوأ من الأجنحة الضاربة، أسوأ من الجسد اللين بين يدى.

التفت وسار مبتعدًا دون أن ينطق كلمة.

ما نفع الفتى لى؟ لم يكن قلبى لى لأقدمه له، بل انتمى إلى أحد آخر، مثلما كان دائمًا.

لقد أحببت "إيميلاين".

وأعتقد أن "إيميلاين" أحبتنى أيضًا، لكنها أحبت "آديلاين" أكثر.

الأمر مؤلم أن تحب توأمين، حين تكون "آديلاين" موجودة، يمتلئ قلب "إيميلاين"، لم تكن لها حاجة إلىّ، وأُترك أنا بالخارج منبوذة، كأننى شىء زائد، مجرد مراقبة للتوأمين وتوأمهما.

يصبح بقلب "إيميلاين" مكان لأحد آخر فقط حين ذهبت "آديلاين" لتهيم وحيدة، حينئذ يصبح حزنها فرحى، استملتها إلى خارج وحدتها شيئًا فشيئًا، أقدم لها هدايا من الخيوط الفضية والحلى اللامعة، حتى كادت تنسى أن أحدًا قد هجرها، واستسلمت للصداقة والرفقة التى عرضتها، لعبنا بالبطاقات قرب الموقد، وغنينا، وتحدثنا، كنا سعيدتين معًا.

حتى تعود "آديلاين" غاضبة بسبب البرد والجوع، كانت تأتى إلى المنزل مهتاجة، وفى لحظة وصولها تأتى معها نهاية عالمنا الثنائى، وأصبح أنا بالخارج مجددًا.

لم يكن ذلك عادلاً، فمع أن "آديلاين" كانت تضربها وتشد شعرها، أحبتها "إيميلاين"، ومع أن "آديلاين" هجرتها، أحبتها "إيميلاين"، أيًّا كان ما تفعله "آديلاين"، لا شىء يتغير، لأن حب "إيميلاين" لها كان كاملاً، وأنا؟ كان شعرى نحاسيًّا مثل "آديلاين"، وعيناى خضراوين مثل

"آديلايـن"، وفى غيـاب "آديلايـن"، يمكننـى خـداع أى شـخص بجعلـه يظـن أننـى هـى، لكننـى لم أخـدع "إيميلايـن" قـط، لقـد عـرف قلبهـا الحقيقـة.

وضعت "إيميلاين" رضيعها فى يناير.

لم يعـرف أحـد بشـأن الأمـر، فقـد أصبحـت أكسـل مـع تضخـم حجمهـا، ولم يكـن صعبًـا عليهـا ألا تغـادر حـدود المنـزل، كانـت سـعيدة لبقائهـا بالداخـل، تتثـاءب فى المكتبـة، والمطبـخ، وغرفـة نومهـا، لم يلحـظ أحـد انسـحابها، ولِمَ قـد يلحظـه أحـد؟ فالزائـر الوحيـد للمنـزل كان السـيد "لوماكـس"، وهـو يـأتى فى أيـام وسـاعات منتظمـة، والأمـر سـهل للغايـة أن أبعدهـا عـن طريقـه حـين يطـرق البـاب.

كان تواصلنـا مـع الآخريـن طفيفًـا، لأننـا مكتفيـات ذاتيًّـا مـن اللحـوم والخضـراوات، لم أتعلـم قـط أن أحـب قتـل الدجاجـات، لكننـى تعلمـت قتلهـا، أمـا بقيـة المـؤن، فكنـت أذهـب إلى المزرعـة بنفسى لأجلـب الجبن والحليـب، وحـين يرسـل المتجـر فتـى عـلى دراجـة باحتياجاتنـا الأخـرى مرة أسـبوعيًّا، أقابلـه عنـد الطريـق الخـاص، وأحمـل السـلة إلى المنـزل بنفـسى، ظننتـه سـيكون احتياطًـا معقـولاً أن يـرى أحـد إحـدى التوأمـين بـين الحـين والآخـر عـلى الأقـل، مـرة حـين بـدت "آديلايـن" هادئـة كفايـة، أعطيتهـا العملـة المعدنيـة وأرسـلتها لمقابلـة الفتـى عـلى الدراجـة، أتخيلـه يقـول حـين يعـود إلى المتجـر: "جـاءت لى الأخـرى اليـوم، الغريبـة"، وتسـاءلت عـما قـد يسـتنتجه الطبيـب مـن ذلـك، لـو بلغـت روايـة الصبـى أذنيـه، لكـن سريعًـا أصبـح مـن المسـتحيل اسـتخدام "آديلايـن" هكـذا، فحمـل "إيميلايـن" أثـر فى توأمهـا عـلى نحـو غريـب: فللمـرة الأولى فى حياتهـا اكتشـفت أن لهـا شـهية، وبعدمـا كانـت كيـس عظـام هزيـل، أصبـح لهـا منحنيـات ممتلئـة ونهـدان كامـلان، فى بعـض الأحيـان -فى ضـوء ضعيـف، ومـن زوايـا محـددة- حتـى أنـا لم أسـتطع التمييـز بينهـما للحظـات، لـذا فبـين الحـين والآخـر فى صباحـات الأربعـاء، أكـون "آديلايـن"، أعبـث بشـعرى،

وأوسخ أظفارى، وأرسم وجهًا صارمًا محتدًا، وأخرج إلى الطريق الخاص لمقابلة الفتى على الدراجة، وحين يرى سرعة مشيتى وأنا أتقدم عبر الطريق الخاص الحصَوى لمقابلته، كان يعرف إن كنت الأخرى، فأرى أصابعه تلتف بقلق حول مقود دراجته، يسلمنى السلة وهو يراقبنى خلسة، ثم يضع بقشيشه فى جيبه ويكون مسرورًا لأنه يبتعد، فى الأسبوع التالى، يقابلنى وأنا نفسى، وأجد فى ابتسامته صدى ارتياح.

لم يكن إخفاء الحمل صعبًا، لكننى كنت قلقة خلال أشهر الانتظار تلك بشأن الولادة نفسها، فقد عرفت ما يمكن أن تحمله مخاطر الولادة، والدة "إيزابيل" لم تنج من الولادة الثانية، ولم أستطع إبعاد هذه الفكرة عن رأسى لأكثر من بضع ساعات فى كل مرة، لم يكن هذا واردًا.. أن تعانى "إيميلاين"، وأن تُعرِّض حياتها للخطر، وعلى الجانب الآخر، لم يعد الطبيب صديقنا وأنا لم أرد وجوده بالمنزل، لقد رأى"إيزابيل" وأبعدها، لا يمكن السماح بحدوث ذلك لـ"إيميلاين"، لقد فصل "إيميلاين" و"آديلاين"، ولا يمكن السماح بحدوث ذلك لى و"إيميلاين"، وعلاوة على ذلك، كيف يمكن أن يأتى دون أن تحدث تعقيدات فورية؟ ومع أنه اقتنع -على الرغم من عدم فهمه للأمر- بأن الفتاة داخل الغشاوة اخترقت درع "إيميلاين" الدمية القماشية البكماء التى قضت فى السابق شهورًا معه، فإنه سيدرك الحقيقة فورًا إن عرف فجأة أن بمنزل "آنجلفيلد" ثلاث فتيات، خلال زيارة وحيدة منه من أجل الولادة، يمكننى حبس "آديلاين" فى الحضانة القديمة ولن يشعر الطبيب بالأمر، لكن بمجرد أن يُعرف أن هناك رضيعًا فى المنزل، لن تنتهى الزيارات، وسيكون مستحيلاً أن نحفظ سرنا.

كنت مدركة جيدًا لهشاشة وضعى، أدرك أننى أنتمى إلى هنا، أدرك أنه مكانى، ليس لى بيت سوى "آنجلفيلد"، ولا حب سوى "إيميلاين"، ولا حياة سوى هذه هنا، ومع ذلك لم تكن لدى أى أوهام بشأن كم سيبدو استحقاقى هشًا فى نظر الآخرين، من أصدقائى؟ يصعب توقع

أن يدافـع الطبيـب عنـى، ومـع أن السـيد "لوماكـس" لطيـف معـى الآن، فإنـه بمجـرد أن يعـرف أننـى أنتحـل شـخصية "آديلايـن"، سـيكون حتميًـا أن يتغـير أسـلوبه، تعلـق "إيميلايـن" بى وتعلقـى بهـا لـن يكـون لـه أى وزن.

"إيميلايـن" نفسـها، الغارقـة فى جهلهـا وسـكونها، تركـت أيـام حبسـها تمـر بـلا قلـق، أمـا أنـا فقـد قضيـت تلـك الفـترة فى عـذاب مـن الحـيرة، كيـف أُبقـى "إيميلايـن" آمنـة؟ كيـف أبقـى نفـسى آمنـة؟ فى كل يـوم أؤجـل القـرار إلى اليـوم التـالى، كنـت واثقـة خـلال الشـهور الأولى بـأن الحـل سـيأتى إلىَّ فى الوقـت المناسـب، ألم أحـل كل المشـكلات الأخـرى مـع أن ذلـك لم يكـن مرجحًـا؟ إذًا فهـذا أيضًـا يمكـن حلـه، لكـن مـع اقـتراب الموعـد، ازدادت المشـكلة إلحاحًـا، وأنـا لم أقـترب مـن الحـل، تـرددت لمـدة دقيقـة بـين أخـذ معطفـى والذهـاب إلى منـزل الطبيـب، فى التـو واللحظـة، لأخـبره بـكل شىء، والفكـرة المضـادة: أننـى حتـى أفعـل ذلك سأكشـف نفـسى، وأن كشـف نفـسى لـن يـؤدى إلا إلى إبعـادى.

غـدًا، هكـذا قلـت لنفـسى وأنـا أعيـد معطفـى إلى الشـماعة، سـأفكر بحـل غـدًا.

لكن حينئذ كان قد فات الأوان.

أيقظتنى صرخة، "إيميلاين"!

لكنهـا لم تكـن "إيميلايـن"، فـ"إيميلايـن" كانـت تنفـخ وتلهـث، وتشـخر وتتعـرق كأنهـا وحـش، وبـرزت عيناهـا وأظهـرت أسـنانها، لكنهـا لم تـصرخ، تغـذت عـلى ألمهـا وتحـول إلى قـوة بداخلهـا، الصرخـة التـى أيقظتنـى، والصرخـات التـى ظلـت تـتردد بجميـع أنحـاء المنـزل، لم تكـن منهـا بـل مـن "آديلايـن"، ولم تتوقـف حتـى الصبـاح، حـين وُلـد رضيـع "إيميلايـن".

كان يوم السابع من يناير.

نامت "إيميلاين"، وابتسمت فى نومها.

حممتُ الرضيع، وفتح عينيه وحملق، مذهولاً بملمس المياه الدافئة.

أشرقت الشمس.

جاء وقت اتخاذ القرارات وراح، ولم يُتخذ أى قرار، ومع ذلك ها نحن ذو، على الشاطئ الآخر من الكارثة، بأمان.

يمكن لحياتى أن تستمر.

# الحريق

بدا أن السيدة "وينتر" استشعرت وصول "جوديث"، فحين ظهرت مدبرة المنزل عند حافة الباب، وجدتنا صامتتين، جلبت لى الكاكاو على صينية، لكنها عرضت أيضًا أن تحل محلى إن أردت النوم، هززت رأسى: "أنا على ما يرام، شكرًا".

ورفضت السيدة "وينتر" حين ذكرتها "جوديث" بأنها يمكنها تناول المزيد من الأقراص البيضاء إن احتاجت إليها.

حين ذهبت "جوديث"، أغلقت السيدة "وينتر" عينيها مجددًا.

سألتُ: "كيف حال الذئب؟"

قالت: "هادئ فى الركن، ولم لا؟ إنه واثق بانتصاره، لذا فهو سعيد بانتظار الحين المناسب، يعرف أننى لن أحدث ضجيجًا، لقد اتفقنا على شروط".

"أى شروط؟"

"سيدعنى أنهى حكايتى، ثم سأدعه ينهينى".

حكت لى قصة الحريق، والذئب يعدّ المتبقى من الكلمات.

***

لم أفكر كثيرًا بشأن الطفل قبل أن يولد، بالتأكيد درست الجوانب العملية لإخفاء رضيع فى المنزل، وكانت لدى خطة لمستقبله، إن تمكنا من إبقائه سرًّا لفترة، كانت نيتى أن أسمح بالمعرفة بوجوده لاحقًا، ومع أن هذا بلا شك سيثير القيل والقال، يمكن تقديمه على أنه الطفل اليتيم لأحد الأقارب البعيدين، وإن اختار الناس التساؤل حول نسبه الدقيق، فإن لهم مطلق الحرية فى ذلك، لا شىء بإمكانهم سيجبرنا على كشف الحقيقة، حين رسمت تلك الخطط، تصورت الرضيع على أنه مشكلة يجب حلها، ولم أضع فى اعتبارى أنه من لحمى ودمى، لم أتوقع أن أحبه.

إنه رضيع "إميلاين"، وهذا سبب كافٍ، وهو ابن "أمبروز"، وهذا موضوع لم أسهب بالتفكير فيه، لكنه رضيعى أنا أيضًا، لقد ذهلت أمام بشرته اللؤلؤية، والنتوء الوردى فى شفتيه، والحركة المترددة ليديه الدقيقتين، غمرتنى رغبتى الشديدة فى حمايته: أردت حمايته من أجل "إميلاين"، وأن أحميها من أجله، وأن أحمى كليهما من أجلى، حين كنت أشاهدهما معًا، لم أستطع إبعاد عينى عنهما، كانا جميلين، كانت رغبتى الوحيدة أن أبقيهما آمنين، وعرفت سريعًا أنهما بحاجة إلى وصى ليبقيهما بأمان.

شعرت "آديلاين" بالغيرة من الرضيع، تجاوزت تلك الغيرة غيرتها من "هيستر"، وغيرتها منى، بالطبع كان هذا متوقعًا، فـ"إميلاين" كانت متعلقة بـ"هيستر"، وأحبتنى، لكن مشاعرها تجاه كلينا لم تمس قط

مستوى حبها لـ"آديلايـن". لكـن الرضيـع، كان وضعـه مختلفًـا، استحوذ الرضيـع عـلى كل مشـاعرها.

مـا كان يجـب أن أفاجـأ بحجـم الكراهيـة التـى لـدى "آديلايـن". أعـرف مـدى البشـاعة التـى قـد يصـل إليهـا غضبهـا، ورأيـت مـدى عنفهـا، ولكـن يـوم فهمـت للمـرة الأولى الأشـواط التـى قـد تقطعهـا فى سـبيل ذلـك، صَعُـب عـلىّ التصديـق، فبينـما أنـا أمـر بغرفـة نـوم "إيميلايـن"، دفعـت البـاب بصمـت لأرى إن كانـت لا تـزال نائمـة، وجـدت "آديلايـن" فى الغرفـة منحنيـة أعـلى سريـر الرضيـع بجـوار سريـر "إيميلايـن"، ثـم اسـتدارت واجتازتنـى مندفعـة إلى خـارج الغرفـة، وتشـبثت يداهـا بوسـادة صغـيرة.

شـعرت بـضرورة أن أندفـع إلى سريـر الرضيـع، كان مسـتغرقًا فى النـوم، ويـداه مضمومتـان عنـد أذنيـه، ويتنفـس تنفـس الرضـع الخفيـف الرقيـق.

إنه بأمان!

حتى المرة التالية.

بـدأت أتجسـس عـلى "آديلايـن"، أصبـح عهـدى القديـم بحيـاة الأشـباح مفيـدًا مجـددًا، إذ راقبتهـا مـن وراء السـتائر وأشـجار الصنوبـر، كانـت تصرفاتهـا عشـوائية داخـل المنـزل وخارجـه، كانـت تنشـغل بتصرفـات متكـررة بـلا معنـى، بـلا تقيـد بوقـت أو بطقـس محـدد، كانـت تطيـع إمـلاءات تتجـاوز إدراكى، لكـن بالتدريـج اسـترعى أحـد أنشـطتها انتباهـى عـلى نحـو خـاص، إذ كانـت تذهـب إلى اسـتراحة العربـات مـرة ومرتـين وثـلاث مـرات يوميًـا وتغادرهـا فى كل مـرة حاملـة صفيحـة بنزيـن، تأخـذ الصفيحـة إلى المرسـم أو إلى المكتبـة أو إلى الحديقـة، ثـم يبـدو أنهـا تفقـد الاهتـمام، إنهـا تعـرف مـا تفعلـه، لكـن الفكـرة غـير تامـة الوضـوح، وهـى كثـيرة النسـيان، كنـت آخـذ الصفائـح فى غفلـة منهـا، تُـرى مـاذا اسـتنتجت مـن اختفـاء الصفائـح؟ لا بـد أنهـا ظنـت أن للصفائـح إرادة خاصـة بهـا، وأن بإمكانهـا التنقـل حسـب رغبتهـا، أو ربمـا اعتـبرت ذكرياتهـا عـن نقـل

الصفائح أحلامًا أو خططًا لم تتحقق بعد، وأيًا كان السبب، لم يبد أنها تجد اختفاء الصفائح غريبًا، لكن على الرغم من تمرد صفائح البنزين، استمرت فى جلبها من الاستراحة وإخفائها فى أماكن عدة بأنحاء المنزل.

بدا أننى أقضى نصف يومى فى إعادة الصفائح إلى الاستراحة، لكن فى أحد الأيام، ولعدم رغبتى فى ترك "إيميلاين" والرضيع نائمين بلا حماية، وضعت أحد الصفائح فى المكتبة، بعيدة عن الأنظار وراء الكتب وعلى رف مرتفع، وفكرت فى أن هذا قد يكون مكانًا أفضل، لأن بإعادتى للصفائح دائمًا إلى الاستراحة، كل ما كنت أفعله هو أن أضمن أن يستمر هذا إلى الأبد، كدوامة الملاهى، وبإخراج الصفائح من الدائرة تمامًا، ربما أضع نهاية لهذا الهراء.

مراقبتها أتعبتنى، أما هى! فلا تتعب أبدًا، بعض النوم يبقيها نشطة لفترة طويلة، يمكن أن تكون مستيقظة ونشيطة فى أية ساعة من الليل، وأنا أنعس، وفى أحد الأيام، لاذت "إيميلاين" إلى سريرها بساعة مبكرة من المساء، وكان الفتى فى سريره بغرفتها، كان مصابًا بالمغص وظل مستيقظًا ويبكى طوال اليوم، لكنه الآن مستغرق فى النوم بعدما شعر بتحسن.

أسدلتُ الستائر.

حان الوقت لأتفقد "آديلاين"، كنت متعبة من كونى متيقظة دائمًا، أراقب "إيميلاين" وطفلها خلال نومهما، وأراقب "آديلاين" خلال صحوهما، بالكاد نمت مطلقًا، كم كانت الأجواء مسالمة فى الغرفة، تنفس "إيميلاين" يبطئنى ويجعلنى أسترخى، وبجواره نسمة الهواء الخفيفة التى يتنفسها الرضيع، أذكر الاستماع إليهما والتناغم بينهما، وأفكر بمدى طمأنة ذلك، أفكر بطريقة لوصفه -هكذا سليت نفسى دائمًا، أن أصف بالكلمات ما أراه وما أسمعه- وفكرت فى أننى يجب أن أصف كيف أشعر بأن تنفسهما يخترقنى ويستولى على أنفاسى، كأن

ثلاثتنا جزء من الشىء نفسه، أنا و"إيميلاين" ورضيعنا، نحن الثلاثة بنفس واحد، سيطرت علىّ هذه الفكرة، وشعرت بنفسى أنجرف معهما، إلى النوم.

شىء ما أيقظنى، كنت مثل القطة أستيقظ قبل أن تُفتح عيناى، لم أتحرك، أبقيت تنفسى منتظمًا، وراقبت "آديلاين" من بين رموشى.

انحنت على سرير الرضيع ورفعته، وكانت فى طريقها إلى خارج الغرفة، كان بإمكانى أن أصرخ لأوقفها، لكننى لم أصرخ، فإن صرخت ستؤجل خطتها، لكن إن تركتها تستمر بها، تمكننى معرفة ما تنويه ووقفه لمرة وللأبد، تحرك الرضيع بين ذراعيها، كان يفكر فى الاستيقاظ، لم يحب أن يُحمل بين أى ذراعين غير ذراعى "إيميلاين"، والرضع لا ينخدعون بالتوائم.

تبعتها هبوطًا إلى المكتبة، واختلست النظر عبر الباب الذى تركته مواربًا، كان الرضيع على المكتب، بجوار كومة كتب التى لم تُرد إلى رفوفها لأننى أعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا، وإلى جوار مستطيل الكتب المنظم، رأيت حركة فى ثنايا بطانية الرضيع، وسمعت همهماته المكتومة، لقد استيقظ.

كانت "آديلاين" راكعة على الأرض بجوار الموقد، أخذت قطع فحم من القفة، وجذوع أشجار من مكانها بجوار الموقد، وأودعتها فى الموقد بعشوائية، لم تكن تعرف الطريقة الصحيحة لإشعال الموقد، ولقد تعلمت من السيدة الترتيب الصحيح للأوراق والمادة الملتهبة، وقطع الفحم والجذوع، ونيران "آديلاين" عبارة عن شىء عشوائى وجامح لا يفترض أن يشتعل على الإطلاق.

ببطء تكشف ببالى ما كانت تنويه.

لن تنجح، أليس كذلك؟ كان بالرماد أثر دفء، لا يكفى ليشعل قطع فحم أو جذوع، وأنا لم أترك قط المادة الملتهبة أو الثقاب فى

المتناول، حريقها كان أخرق، لا يمكن أن يشتعل، عرفت أنه لا يمكن أن يشتعل، لكننى لم أستطع طمأنة نفسى، فرغبتها فى رؤية ألسنة اللهب كانت هى المادة الملتهبة التى تحتاج إليها، وكل ما احتاجت إلى فعله هو أن تبحث عن شىء لتشعلها به، سحرها الحارق كان قويًا للغاية لدرجة أنها تستطيع إشعال النار فى المياه لو أرادت ذلك بشدة.

راقبتها برعب وهى تضع الرضيع الملفوف ببطانيته على قطع الفحم.

ثم جالت بنظرها فى الغرفة، عم تبحث؟

حين تحركت نحو الباب وفتحته، عدت قفزًا إلى الظل ولم تكشف تجسسى، كانت تبحث عن شىء آخر، انعطفت إلى الممر تحت السلم، واختفت.

ركضت نحو الموقد وأخرجت الرضيع من المحرقة، لففت بطانيته سريعًا حول وسادة من الأريكة أكلتها العثة ووضعتها على قطع الفحم مكانه، لكن لم يتبق وقت للهرب، سمعت خطوات على البلاط الحجرى، وصوت جر يحدثه كشط صفيحة البنزين بالأرض، وانفتح الباب بمجرد أن تراجعت إلى إحدى مدات المكتبة.

"صه، لا تبكِ الآن"، صليت بصمت، وحملت الرضيع قرب جسدى حتى لا يفتقد دفء بطانيته.

فحصت "إيميلاين" الموقد وهى تميل رأسها إلى الجانب، ما المشكلة؟ هل لاحظت التغيير؟ لكن يبدو أنها لم تلحظه، تجولت بعينيها فى الغرفة، ما الذى تبحث عنه؟

تحرك الرضيع، رعشة بذراعيه وركلة بقدميه وانقباضة بعموده الفقرى والتى عادة ما تسبق بكاءه، غيرتُ وضعية جسده، رأسه ثقيل على كتفى وأنفاسه على عنقى، "لا تبكِ، أرجوكَ لا تبكِ".

عاد لسكونه مجددًا، وعدت أنا للمراقبة.

كتبي التي على المكتب، الكتب التي لا أمر بها دون أن أفتحها على صفحة عشوائية، لأحظى بمتعة بضع كلمات، وتحية سريعة، كم يبدو هذا متناقضًا حين أرى الكتب بين يديها، "آديلاين" والكتب؟ بدا المشهد خطأ تمامًا، حتى حين فتحت الغلاف، فكرتُ للحظة طويلة وغريبة أنها سوف تقرأ.

مزقت الصفحات بملء يدها ونثرتها على المكتب وانزلق بعضها على الأرض، وحين انتهت من التمزيق، أمسكت حفنة منها وصنعت منها كرات، بسرعة! كانت أشبه بدوامة هوائية! مجلداتى الصغيرة المنظمة، فجأة أصبحت جبلاً من الورق، من المذهل أن كتابًا يمكن أن يحتوى على كل هذا الورق! أردت الصياح، لكن بماذا؟ كل الكلمات، الكلمات الجميلة، تمزقت وتكومت، وأنا فى الظلام عاجزة عن الكلام.

جمعت من الأوراق ملء ذراعيها ورمتها على قمة البطانية البيضاء فى الموقد، راقبتها تتردد من المكتب إلى الموقد ثلاث مرات، تمتلئ ذراعاها بالصفحات، حتى تكدس الموقد وارتفع بالكتب الممزقة، "جين أير"، و"مرتفعات ويذيرنج"، و"ذات الرداء الأبيض". سقطت كرات من الورق من قمة المحرقة، البعض الآخر تدحرج وصولاً إلى السجاد، لينضم إلى الكرات التى أسقطتها فى طريقها إلى الموقد.

توقفت إحدى الكرات عند قدمى، وهبطت بصمت لأستردها.

أوه! ذلك الشعور الشنيع الخاص بالورق المتجعد، كلمات جن جنونها، تطير فى كل الاتجاهات بلا معنى، لقد فُطر قلبى.

اجتاحنى الغضب، وحملنى مثل قطعة من حطام سفينة، لا أرى ولا أتنفس، اعتلج مثل المحيط فى رأسى، كان يمكن أن أصرخ، أو أن أقفز كالمجنونة من مخبئى وأفاجئها، لكن كنز "إيميلاين" كان بين ذراعى،

ولذا وقفت متفرجة، أرتجف وأنتحب فى صمت، فى حين تدنس أختها الكنز الذى يخصنى.

فى النهاية كانت راضية بمحرقتها، ولكن أيًّا كان رأيك، فإن الجبل فى الموقد كان هو الجنون بعينه، كانت السيدة لتقول إنه منقلِب، ولن يشتعل أبدًا، يجب أن تكون الأوراق فى الأسفل، ولكن حتى إن أعدته "آديلاين" على نحو سليم فلن يشكل ذلك فارقًا، فهى لن تستطيع إشعاله لأنها ليست تملك ثقابًا، وحتى إن استطاعت الحصول على ثقاب، فإنها لن تحقق هدفها المتعلق بالفتى، الضحية التى تقصدها، الذى بين ذراعى، أما الجنون الأكبر من كل هذا: لنفترض أننى لم أكن موجودة لأوقفها؟ لنفترض أننى لم أنقذ الرضيع وأنها أحرقته حيًّا! كيف تصورت أن حرق طفل أختها سيعيدها إليها؟

كان ذلك حريق امرأة مجنونة.

بين ذراعى تحرك الرضيع، وفتح فمه ليبكى، ماذا أفعل؟ انسحبت بخفة وراء ظهر "آديلاين"، وهربت إلى المطبخ.

يجب أن أوصل الرضيع إلى مكان آمن، ثم أتعامل مع "آديلاين" لاحقًا، كان عقلى يعمل بشراسة، يفكر بخطة تلو الأخرى، لن يتبقى لدى "إيميلاين" أى حب لأختها حين تعرف ما حاولت فعله، سنبقى أنا وهى، سنخبر الشرطة أن "آديلاين" قتلت "جون ذا ديج"، وهم سيأخذونها بعيدًا، لا! سنخبر "آديلاين" أننا سنخبر الشرطة إن لم تغادر "آنجلفيلد"، لا! ثم فجأة وجدتها! سنترك "آنجلفيلد"، نعم! سأغادر و"إيميلاين" مع الرضيع، وسنبدأ حياة جديدة دون "آديلاين" ودون "آنجلفيلد"، لكن معًا.

وقد بدت الفكرة بسيطة جدًّا لدرجة أنى تعجبت من أننى لم أفكر فيها من قبل.

تتعلـق حقيبـة صيـد "أمـبروز" بخطـاف عـلى بـاب المطبـخ، فككـت أبازيمهـا سريعًـا ولففـت الرضيـع بـين ثناياهـا، ووضعـت فى حقيبـة الصيـد تلـك الصفحـة مـن روايـة "جـين أيـر"، مـن أجـل الحمايـة، وملعقـة أخذتهـا مـن عـلى مائـدة المطبـخ، سـنحتاج إليهـا فى طريقنـا نحـو حياتنـا الجديـدة، وفى بـالى مسـتقبل مـشرق للغايـة لدرجـة أنـه بـدا حقيقـة أكـثر مـن الحاضر.

والآن إلى أيـن؟ مـكان ليـس بعيـدًا عـن المنـزل، حيـث لا شىء قـد يؤذيه، حيـث سيشـعر بالـدفء كفايـة خـلال بضـع الدقائـق التـى سأسـتغرقها حتـى أعـود إلى المنـزل وأجلـب "إيميلايـن"، وأقنعهـا باتباعـى.

ليـس فى اسـتراحة العربـات، فأحيانًـا تذهـب "آديلايـن" إلى هنـاك، بـل الكنيسـة، فهـذا مـكان لا تذهـب إليـه مطلقًـا.

ركضـت عـلى الطريـق الخـاص، وعـبر المدخـل المسـقوف، وإلى داخـل الكنيسـة، توجـد فى الصفـوف الأماميـة وسـائد منسـوجة صغـيرة للركـوع، رتبتهـا عـلى شـكل سريـر ووضعـت الرضيـع عليهـا بحقيبتـه الكتانيـة.

والآن، يجب أن أعود إلى المنزل.

كـدت أصـل حـين تحطـم مسـتقبلى، رأيـت شـظايا زجاجيـة تطـير فى الهـواء، ونافـذة تنكـسر تلـو الأخـرى، وشـعاع لهـب مشـئوم يطـوف فى المكتبـة، يظهـر إطـار النافـذة الفـارغ نـيران سـائلة تُـرش بالغرفـة، وصفائـح بنزيـن تنفجـر بسـبب الحـرارة، وجسـدين بشريـين.

"إيميلاين"!

ركضـت، تصـل رائحـة الحريـق إلى فتحتـى أنفـى حتـى وأنـا فى ردهـة المدخـل مـع أن الأرض والجـدران الحجريـة بـاردة ولـن يصـل إليهـا الحريـق، لكننـى توقفـت عنـد بـاب المكتبـة، الألسـنة يطـارد بعضهـا بعضًـا وهـى تصعـد السـتائر، رفـوف الكتـب مشـتعلة، والموقـد نفسـه جحيـم، والفتاتـان فى وسـط الغرفـة، تجمـدت مـكانى مندهشـة للحظـة وسـط

ضوضاء وحرارة الحريق، لأن "إيميلاين" الساكنة، الطيِّعة، ترد الضربة بضربة، والركلة بركلة، والعضة بعضة، لم ترد الأذى لأختها من قبل، لكنها تفعل هذا الآن، من أجل طفلها.

أرى ضوءًا منفجرًا تلو الآخر حولهما وفوق رأسيهما مع انفجار صفائح البنزين، والأمطار النارية تهبط على الغرفة.

أفتح فمى لأقول لـ"إيميلاين" إن الرضيع بخير، لكن مع أول نفس أستنشقه لا أجد إلا حرارة، وأختنق.

أقفز فوق النيران، وأخطو من حولها، وأبعد النيران التى تهبط على من الأعلى، وأصد النيران بيدى، وأضرب النيران التى تمسك بملابسى، حين أبلغ الأختين دون أن أستطيع رؤيتهما، لكننى أمد يدى كالعمياء عبر الدخان، لمستى تفاجئهما فتتباعدان على الفور، تأتى لحظة أرى فيها "إيميلاين"بوضوح وهى ترانى، أمسك بيدها وأجذبها عبر ألسنة اللهب وعبر الحريق، حتى وصلنا إلى الباب، لكنها تتوقف حين تدرك ما أفعله، أقودها بعيدًا عن النار إلى الأمان، فأشدها بقوة.

"إنه بأمان"، جاءت كلماتى أجشة مبحوحة، لكنها واضحة كفاية.

لِمَ لا تفهم؟

أحاول مجددًا: "الرضيع، لقد أنقذته".

بالتأكيد سمعتنى، أليس كذلك؟ لكنها تقاومنى على نحو عجزت عن تفسيره، وتنزلق يدها من قبضتى، أين هى؟ لا أرى إلا الظلام.

أتعثر إلى الأمام نحو ألسنة اللهب، وأصطدم بجسدها، فأمسك بها وأشد.

لكنها لا تبقى معى، بل تستدير وتعود إلى الغرفة مجددًا.

لِمَ؟

إنها معلَّقة بأختها.

إنها معلقة.

أتبعها إلى داخل الدخان بلا بصر وبرئتين تحترقان.

سأكسر الرابطة بينهما.

اقتحمـت المكتبـة وعينـاى مغلقتـان فى مواجهـة الحـرارة وأبحـث وذراعـى أمامـى، لا أتركهـا حـين تبلغهـا يـداى وسـط الدخـان، لـن أدعهـا تمـوت، سـوف أنقذهـا، أجرهـا بشراسـة إلى البـاب وخارجـه عـلى الرغـم مـن مقاومتهـا.

البـاب مصنـوع مـن البلـوط وثقيـل، ولا يحـترق بسـهولة، فأدفعـه لأغلقـه وراءنـا، وأُعشّـق مـزلاج البـاب.

تتقـدم هـى إلى جانبـى وتوشـك أن تفتحـه مجـددًا، هنـاك شىء أقـوى مـن الحريـق يجذبهـا إلى هـذه الغرفـة.

المفتـاح الـذى اسـتقر فى القفـل، غـير المسـتخدم منـذ أيـام "هيسـتر"، سـاخن، فيحـرق كفـى وأنـا أديـره، لم يـؤذنى شىء آخـر فى تلـك الليلـة، لكـن المفتـاح يكـوى كفـى وأشـم رائحـة جلـدى وهـو يحـترق، تمـد "إيميلايـن" يدهـا لتقبـض عـلى المفتـاح وتفتحـه مجـددًا، فيحرقهـا المعـدن وتصيبهـا صدمـة.

أجذب يدها بعيدًا.

تمـلأ رأسى صرخـة قويـة، أهـى صرخـة بشريـة؟ أم هـو صـوت الحريـق نفسـه؟ لا أعـرف حتـى إن كانـت آتيـة مـن داخـل الغرفـة أم مـن الخـارج معـى، تبـدأ بدايـة حلقيـة وتسـتجمع قوتهـا وهـى تتصاعـد، وتصـل إلى ذروة صاخبـة، وحـين أظـن أن هـذه نهايـة نَفَسـها، تسـتمر، بصـوت منخفـض وطويـل عـلى نحـو مسـتحيل، صـوت لا نهـائى يمـلأ العـالم ويبتلعه ويحتويـه.

ثم يختفى الصوت ولا يتبقى سوى أجيج النار.

تهطل الأمطار خارج المنزل، والعشب غارق فى المياه، فهبطنا على الأرض، وتدحرجنا على العشب المبتل لنبلل ملابسنا وشعرنا الداخن بلا لهب، ونشعر بالبلل البارد على جلدنا المحروق، استقررنا على ظهرينا هناك، مسطحتين على الأرض، أفتح فمى وأشرب المطر، ويسقط على وجهى، ويبرد عينى، ويرتد إلىّ بصرى، لم أرَ قط سماء كهذه، لون أزرق داكن عميق به سحب سوداء أردوازية سريعة الحركة، والمطر يهبط بلون فضى كحواف الشفرات، وبين الحين والآخر يتصاعد من المنزل وابل من اللون البرتقالى اللامع، كأنه نافورة من النيران، وتقسم صاعقة السماء إلى شطرين، وتظل تقسمها مرارًا وتكرارًا.

الرضيع، يجب أن أخبر "إيميلاين" بشأن الرضيع، ستسر لأننى أنقذته، سيجعل هذا الأمور على ما يرام.

التفتُّ إليها وفتحت فمى لأتكلم، وجهها.

وجهها الجميل المسكين أمسى أسود وأحمر، يغطيه الدخان والدم والنار.

عيناها، نظرتها الخضراء مدمرة، لا ترى، ولا تعرف.

أنظر إلى وجهها ولا أجد فيه محبوبتى.

أهمس: "(إيميلاين)؟ (إيميلاين)؟"

لا ترد.

أشعر بموت قلبى، ماذا فعلتُ؟ هل قمتُ...؟ أيمكن أن...؟

لن أحتمل أن أعرف.

ولن أحتمل ألا أعرف.

"(آديلاين)؟" قلتها بصوت مكسور.

لكنها -هذه الإنسان، هذه الفتاة، هذه أو الأخرى، هذه قد تكون أو قد لا تكون، هذه الحبيبة، هذه الوحش، هذه التى لا أعرف من هى- لا ترد.

الناس يتوافدون، يجرون على الطريق الخاص، وهناك أصوات تنادى بتعجل فى الليل.

أنهض جاثمة وأركض سريعًا مبتعدة، وأظل منحنية ومختبئة، ويصل الناس إلى الفتاة على العشب، وحين يتأكد لى أنهم وجدوها أترك أمرها لهم، ثم ذهبت إلى الكنيسة، وعلقت الحقيبة على كتفى، وتشبثت بالرضيع فى حقيبته بجانبى، وانطلقت.

الغابة هادئة، فالمطر الذى تبطئ أوراق الشجر هبوطه، ينزل برقة على الأشجار المتشابكة، والطفل يتذمر ثم ينام، تحملنى قدماى إلى المنزل الصغير عند حافة الغابة، أعرف ذلك المنزل، رأيته كثيراً خلال سنوات حياة الأشباح، تعيش به امرأة وحدها، دائمًا ما اعتقدت أنها تبدو لطيفة وأنا أتجسس عليها عبر النافذة وهى تحوك أو تخبز، وحين أقرأ عن الجدات الطيبات والعرابات الخياليات فى الكتب، أزودهن بوجهها.

آخذ الرضيع إليها وأتطلع عبر النافذة مثلما فعلت من قبل، وأراها فى مكانها المعتاد قرب النار، تحوك وهى هادئة وتفكر، إنها تفكك ما حاكته، لا تفعل شيئًا سوى الجلوس وفك الغرز، والإبر على الطاولة بجوارها، هناك مكان جاف فى المدخل المسقوف للرضيع، فأضعه هناك وأنتظر وراء الشجرة.

فتحت الباب ورفعت الرضيع، وأدركت حين رأيت تعبير وجهها أنه سيكون بأمان معها، تنظر إلى الأعلى وحولها وباتجاهى، تبدو كأنها رأت شيئًا، هل أحدثت حفيفًا بأوراق الشجر فكشفت مخبئى؟ تمر ببالى فكرة أن أتقدم من مكانى، بالتأكيد ستصادقنى، أليس كذلك؟

ترددتُ، وغيرت الرياح اتجاهها، وشممت رائحة الحريق فى اللحظة نفسها مثلها، تلفتت بعيدًا ونظرت إلى السماء، وشهقت أمام الدخان المرتفع من البقعة التى يقف فيها منزل "آنجلفيلد"، ثم تظهر الحيرة على وجهها، قربت الرضيع إلى أنفها وشمته، انتقلت رائحة الحريق إليه من ملابسى، عندها ألقت نظرة أخرى إلى الدخان وتراجعت بخطوات حازمة إلى المنزل وأغلقت الباب.

أنا وحدى.

بلا اسم.

بلا منزل.

بلا عائلة.

أنا لا شىء.

ليس لى مكان أذهب إليه.

ليس لى أحد ينتمى إلىّ.

أحملق إلى كفى المحترقة لكننى لا أشعر بالألم.

ما أنا؟ هل أنا حتى على قيد الحياة؟

يمكننى الذهاب إلى أى مكان، لكننى سرت رجوعًا إلى "آنجلفيلد"، إنه المكان الوحيد الذى أعرفه.

أبرز من بين الأشجار وأقترب من المشهد، هناك سيارة إطفاء، والقرويون يتراجعون بدِلائهم، مذهولين بوجوه سوَّدها الدخان، ويراقبون رجال الإطفاء وهم يحاربون ألسنة اللهب، والنساء مذهولات بالدخان المتصاعد نحو السماء السوداء، هناك سيارة إسعاف، والطبيب "مودسلى" راكع بجوار جسد على العشب.

لا أحد يرانى.

أقف خفية على حافة كل ما يحدث، ربما أنا بالفعل لا شىء، ربما لا أحد يرانى مطلقًا، ربما مت فى الحريق ولم أدرك الأمر بعد، ربما أصبحت أخيرًا ما كنته دائمًا: شبحًا.

حينها نظرت إحدى النساء باتجاهى.

صاحت وهى تشير بإصبعها: "انظروا، إنها هنا!" فالتفت الواقفون وحملقوا، وركضت إحدى النساء لتنبيه الرجال، فصرفوا نظرهم عن الحريق ونظروا إلىّ، قال أحدهم: "الشكر للرب!"

فتحت فمى لأقول.. لا أعلم ماذا، لم أقل شيئًا، وقفت هناك فقط، أصنع أشكالاً بفمى، بلا صوت، وبلا كلمات.

الطبيب "مودسلى" بجانبى الآن: "لا تحاولى الكلام".

أحملق إلى الفتاة التى على العشب، ويقول الطبيب: "إنها ستنجو".

أنظر إلى المنزل.

ألسنة اللهب، كتبى، لا أظن أننى يمكننى تحمل هذا، أذكر صفحة "جين أير"، وكرة الكلمات التى أنقذتها من المحرقة، لقد تركتها مع الرضيع.

أبدأ البكاء.

يقول الطبيب لإحدى النساء: "إنها فى حالة صدمة، أبقيها دافئة وابقَى معها ونحن نوصل أختها إلى الإسعاف".

تأتى إلىّ امرأة، وتعبر عن قلقها بأصوات، وتخلع معطفها وتلفه حولى بحنان، كأنها تُلبس رضيعة، وتغمغم: "لا تقلقى، ستكونين بخير، وأختك على ما يرام، أوه، يا عزيزتى المسكينة".

رفعوا الفتاة من العشب ووضعوها على السرير النقال فى سيارة الإسعاف، ثم ساعدونى على الدخول وأجلسونى عكسها، وأخذونا إلى المشفى.

إنها تحملق إلى الفضاء، عيناها مفتوحتان وفارغتان، أتوقف عن النظر إليها بعد اللحظة الأولى، وينحنى المسعف فوقها، ويطمئن نفسه بأنها تتنفس، ثم يلتفت إلىّ.

"ماذا عن هذه اليد، ها؟"

تشبثت بيمناى فى يسراى، وعقلى غير مدرك للألم، لكن جسدى يفضحنى.

أخذ يدى، وسمحت له بفك أصابعى، هناك علامة منقوشة بعمق فى كفى، إنها علامة المفتاح.

يقول لى: "هذا سيُشفى، لا تقلقى، والآن هل أنت (آديلاين) أم (إيميلاين)؟"

يشير إلى الأخرى: "هل هذه (إيميلاين)؟"

لا أستطيع الإجابة، لا أستطيع الشعور بنفسى، لا أستطيع الحركة.

قال: "لا تقلقى، كلٌّ فى وقته".

يفقد الأمل فى جعلى أفهمه، ويتمتم من أجل منفعته الشخصية: "لكن مع ذلك، يجب أن ندعوك باسم ما، (آديلاين)، (إيميلاين)، (إيميلاين)، (آديلاين)، نصف ونصف، أليس كذلك؟ لا تقلقى، كل ذلك سيروح بالاغتسال".

وصلنا إلى المشفى، وانفتح باب سيارة الإسعاف، لا يوجد شىء إلا الضوضاء والصخب، أصوات تتكلم بسرعة، ثم رُفعت النقالة على حامل متحرك ودُفعت بعيدًا بسرعة، جلبوا لى كرسيًّا متحركًا وشعرت بيدين على كتفىّ: "اجلسى يا عزيزتى"، تحرك الكرسى وقال صوت من وراء ظهرى: "لا تقلقى يا صغيرتى، سنرعاك وأختك، أنت بأمان الآن يا (آديلاين)".

***

نامت السيدة "وينتر".

رأيت الضعف بفمها المفتوح، وخصلة من الشعر الجامح لم تستقم عند صدغها، وبدت خلال نومها مسنة للغاية، وشابة للغاية، أغطية السرير ترتفع وتنخفض على كتفيها الرقيقتين مع كل نفس لها، ومست حافة البطانية ذات الشريط وجهها عند كل انقباضة صدر، بدت غير مدركة لها، لكن مع ذلك انحنيت فوقها لأطوى الأغطية وأعيد لفافة الشعر الباهت إلى مكانها.

لم تتحرك، تساءلت إن كانت نائمة حقًّا أم أن هذه إغماءة؟

لا أستطيع أن أجزم لكم من الوقت راقبتها بعد ذلك، توجد ساعة، لكن حركات عقاربها بلا معنى كأنها خريطة لسطح البحر، أطبقت على موجة تلو الأخرى من الوقت وأنا أجلس بعينين مغلقتين، لست نائمة، بل منتبهة مثل أم تراقب تنفس طفلتها.

بالكاد أعرف ما يجب قوله عما حدث تاليًا، أيمكن أن التعب أصابني بالهلوسة؟ هل غفوت وحلمت؟ أم هل تكلمت السيدة "وينتر" حقًّا للمرة الأخيرة؟

"سأوصل رسالتك إلى أختك".

هززت عيني لأفتحهما، لكن عينيها كانتا مغلقتين، بدا أنها مستغرقة في النوم مثلما كانت من قبل.

لم أرَ الذئب حين أتى، لم أسمعه، لم يحدث إلا أنني أحسست بسكوت قبل الفجر بقليل، وأدركت أن التنفس الوحيد المسموع في الغرفة هو تنفسي .

# بدايات

# الثلوج

ماتت السيدة "وينتر" وظلت الثلوج تتساقط.

حين جاءت "جوديث"، وقفت معى لبعض الوقت عند النافذة، وراقبنا سماء الليل والضوء يغزوها على نحو مقبض، ثم أرسلتنى إلى سريرى حين أخبرنا تغير اللون أبيض أن الصباح قد حل.

استيقظت فى نهاية عصر اليوم.

الثلوج التى عطلت الهاتف بلغت الآن حواف النافذة، ونصف الأبواب، لقد عزلتنا عن بقية العالم كأنها مفتاح سجن، وهربت السيدة "وينتر"، كذا السيدة التى أشارت إليها "جوديث" باسم "إيميلاين"، والتى تجنبتُ تسميتها، وأصبح بقيتنا، "جوديث" و"موريس" وأنا عالقين.

كان القط مضطربًا، فقد أزعجته الثلوج، لم يحب القط هذا التغير فى عالمه، وانتقل من عتبة نافذة إلى أخرى بحثًا عن عالمه المفقود، وماء بإلحاح أمام "جوديث" و"موريس" وأنا، كأن استعادة عالمه

المفقود بأيدينا، وعند المقارنة، فقد اعتبر فقدان سيدته شأنًا صغيرًا، لو كان لاحظه من الأساس، ولم يزعجه على نحو حقيقى.

حاصرتنا الثلوج داخل امتداد جانبى من الوقت، ووجد كل منا طريقته الخاصة ليواكب الوضع، "جوديث" كانت هادئة، أعدت حساء الخضراوات ونظفت خزانات المطبخ، وحين لم تجد ما تفعله وضعت طلاء أظفارها ووضعت لوجهها مرطبًا، أما "موريس" فقد أغضبه الحبس وقلة النشاط، فلعب جولات بلا نهاية من ألعاب الورق، لكن حين اضطر إلى شرب الشاى أسود بسبب نقص الحليب، شاركته "جوديث" ألعاب الورق لتلهيه عن مرار مشروبه.

أما أنا فقضيت يومين أفرغ ملاحظاتى الأخيرة، وحين أكملتها وجدت أننى لا أكتفى بالقراءة، فحتى "شارلوك هولمز" لم يستطع الوصول إلىّ فى ذلك المكان الحبيس بالثلوج، قضيت ساعة وحيدة فى غرفتى أدرس أحزانى، محاولة تسمية ما اعتقدت أنه عنصر جديد بها، أدركت أننى أفتقد السيدة "وينتر"، لذا اتجهت إلى المطبخ باحثة عن صحبة البشر، سُرَّ "موريس" للعب الورق معى، مع أننى لا أعرف إلا ألعاب الأطفال، وأعددت الكاكاو والشاى بلا حليب إلى أن تجف أظفار "جوديث"، ولاحقًا تركتها تهذب وتطلى أظفارى.

بهذه الطريقة انتظر ثلاثتنا والقط مرور الأيام، محبوسين مع ميتتنا ومع السنة الماضية التى مدت إقامتها.

فى اليوم الخامس سمحت لأحزان واسعة بأن تغلبنى.

غسلت الصحون وجففها "موريس" وأنا ألعب مع "جوديث" بالأوراق على المائدة، كنا مسرورين جميعًا ببعض التغيير، وحين انتهى غسل الصحون، انسحبت من رفقتهما إلى المرسم، أطلت نافذة المرسم على جزء من الحديقة محجوب عن الطقس، هنا لم ترتفع الثلوج كثيرًا، ففتحت النافذة وعبرت إلى اللون الأبيض بالخارج وخطوت على

الثلـوج، الأحـزان التـى أبقيتهـا تحـت السـيطرة لسـنوات، اعتمـادًا عـلى الكتـب ورفوفهـا، جاءتنـى كلهـا الآن، أسـلمت نفـسى عـلى دكـة يحميهـا سـياج طويـل مـن الصنوبـر لحـزن يشـبه عـرض وعمـق الثلـوج التـى حـولى، وبالنقـاء نفسـه، بكيـت السـيدة "وينـتر" وشـبحها، و"آديلايـن" و"إيميلايـن"، بكيـت أختـى ووالـدتى ووالـدى، أمـا أكـثر وأصعـب مـا بكيتـه فـكان نفـسى، حـزنى هـو حـزن الرضيعـة، التـى فُصلـت للتـو عـن نصفهـا الآخـر، إنـه حـزن طفلـة منكبـة عـلى صفيحـة قديمـة، تفهـم بعـض الأوراق عـلى نحـو صـادم ومفاجـئ، وحـزن امـرأة بالغـة، تجلـس باكيـة عـلى دكـة وسـط ضـوء وصمـت الثلـوج المثـيرة للهلوسـة.

حـين عـدت إلى نفـسى وجـدت الطبيـب "كليفتـون"، مـد ذراعـه حـولى وقـال: "أنـا أعـرف، أعـرف".

بالتأكيـد لم يعـرف، ليـس حقًّـا، لكـن هـذا مـا قالـه، وارتحـت أنـا لسـماعه، لأننـى عرفـت مـا يقصـده، كلنـا لنـا أحزاننـا، ومـع أن الحـدود الدقيقـة للحـزن وثقلـه وأبعـاده مختلفـة لـدى الجميـع، فـإن لـون الحـزن موجـود لدينـا جميعًـا، قـال: "أنـا أعـرف"، لأنـه بـشر، وبالتـالى فقـد عـرف بطريقـة مـا.

قادنى إلى الداخل، إلى الدفء.

قالت "جوديث": "يا عزيزتى، هل أجلب لك الكاكاو؟"

جذب لى "موريس" كرسيًا وبدأ يغذى الموقد.

ارتشـفت الـكاكاو ببـطء، ووجـدت حليبًـا جلبـه الطبيـب حـين جـاء مـع المـزارع عـلى الجـرار.

طـوت "جوديـث" شـالاً حـولى، ثـم بـدأت تقشـير البطاطـس مـن أجـل العشـاء، أصـدر ثلاثتهـم التعليقـات بـين الحـين والآخـر -مـا قـد نتناولـه فى العشـاء، ومـا إذا كانـت الثلـوج أخـف الآن أم لا، وكـم ستسـتغرق عـودة

خطـوط الهاتـف للعمـل- وفى خضـم ذلـك، أخـذوا عـلى عاتقهـم مهمـة شـاقة وهـى ضـخ الحيـاة مجـددًا بعدمـا أوقفنـا المـوت جميعًـا فى متاهاته.

شيئًا فشيئًا، امتزجت التعليقات وأصبحت محادثة.

استمعت إلى أصواتهم، وبعد وهلة، انضممت إليهم.

# عيد ميلاد سعيد

عدت إلى المنزل.

إلى متجر الكتب.

قلت لوالدى: "ماتت السيدة (وينتر)".

سألنى: "وأنت؟ كيف حالك؟"

"على قيد الحياة".

ابتسم.

سألته: "أخبرنى عن ماما، لمَ تتصرف هكذا؟"

قال لى: "كانت مريضة جدًّا حين ولدت، لم ترِك قط قبل أن تؤخذى منها، لم ترَ أختك قط، كانت على حافة الموت، وحين استعادت وعيها، كانت جراحتك انتهت وأختك..."

"أختى ماتت".

"نعـم، لم يكـن أحـد متأكـدًا بشـأن مصـيرك، كنـت أنتقـل مـن جوارهـا إلى جـوارك، ظننـت أننـى سـأفقد ثلاثتكـم، صليـت لـكل إلـه سـمعت بـه فى حيـاتى لينقذكـن، وأُجيبـت صلـواتى، جزئيًّـا، إذ نجـوت أنـت، ووالدتـك لم تتعـافَ".

كنت بحاجة إلى معرفة شىء واحد.

"لِمَ لم تخبرنى أن لى توأمًا؟"

وجهـه الـذى التفـت إلىّ كان مدمـرًا، ازدرد ريقـه، وحـين تكلـم كان صوتـه أجشًـا: "قصـة مولـدك حزينـة، ظنـت والدتـك أنهـا أثقـل مـن أن تتحملهـا طفلـة، كنـت لأنقلهـا إليـك يـا (مارجريـت)، لـو اسـتطعت، لكنـت لأفعـل أى شىء لأجنبـك ذلـك".

جلسـنا فى صمـت، فكـرت فى كل الأسـئلة الأخـرى التـى قـد أسـألها، لكـن جـاءت اللحظـة التـى لا أحتـاج فيهـا إلى طرحهـا.

مددت يدى إلى يد والدى فى اللحظة نفسها التى مد هو يده إلىّ.

***

حضرت ثلاث جنازات فى ثلاثة أيام.

كان المعـزون بوفـاة السـيدة "وينـتر" كـثرًا، وأعلنـت الأمـة الحـداد عـلى قاصتهـا المفضلـة وخـرج آلاف القـراء لتقديـم العـزاء، أمـا أنـا فغـادرت بـأسرع مـا يمكـن، فقـد ودعتهـا بالفعـل.

كانـت الثانيـة هادئـة، لم يحضرهـا إلا "جوديـث" و"موريـس" والطبيـب، وأنـا لرثـاء المـرأة المشـار إليهـا طـوال العـزاء باسـم "إيميلايـن"، بعدهـا قلنـا وداعـات موجـزة وافترقنـا.

أمـا الثالثـة فكانـت أكـثر وحـدة، فى محرقـة للجثـث فى بانـبرى، كنـت الوحيـدة الحـاضرة حـين أشرف قـس لـه ملامـح عاديـة عـلى عمليـة تمريـر

مجموعة من العظام مجهولة الهوية إلى يدى الرب، إنها بين يدى الرب، باستثناء أننى حصلت على جرة الرماد لاحقًا: "بالنيابة عن عائلة (آنجلفيلد)".

***

ظهرت زهور الثلج بـ"آنجلفيلد"، أو على الأقل أولى علامات ظهورها، تشق طريقها عبر الأرض المتجمدة وتظهر أطرافها، خضراء ومنعشة، أعلى طبقة الجليد.

سمعت صوتًا وأنا واقفة، إنه "أوريليوس" الذى وصل عند البوابة المسقوفة، وكان يحمل زهورًا والثلوج مستقرة على كتفيه.

"(أوريليوس)!" كيف أصبح بهذا الحزن؟ وهذا الشحوب؟ قلت له: "لقد تغيرت".

"لقد أرهقت نفسى فى مطاردة بلا طائل"، عيناه اللتان تبدوان دائمًا وديعتين، انفتح لونهما إلى أزرق باهت مثل سماء يناير، تُمكِن رؤية قلبه المفطور فى عينيه الشفافتين، "طوال حياتى أردت العثور على عائلتى، أردت أن أعرف من أنا، ومؤخرًا شعرت بالتفاؤل، ظننت أن فرصة للشفاء من هذا قد تأتى، والآن أخشى أننى كنت مخطئًا".

تمشينا بطول العشب بين المقابر، وأزحنا الثلوج عن الدكة وجلسنا قبل سقوط المزيد، فتش "أوريليوس" فى جيبه وفض غطاء قطعتين من الكعك، مد واحدة إلىّ بشرود وغرس أسنانه فى الأخرى.

سألنى: "أهذا ما لديك لى؟" متطلعًا إلى علبة الجواهر، "أهذه بقية قصتى؟"

ناولته العلبة.

"أليسـت خفيفـة؟ إنهـا خفيفـة كالهـواء، ومـع ذلـك..." ومـد يـده إلى قلبـه فى محاولـة للإشـارة إلى ثقـل قلبـه، ولمـا فشـل فى التعبـير، وضـع العلبـة جانبًـا وأخـذ قضمـة أخـرى مـن الكعكـة.

حـين أنهـى آخـر قضمـة تكلـم: "لـو كانـت أمـى، لمَ لم أكـن معهـا؟ لمَ لم أمـت معهـا فى هـذا المـكان؟ لمَ أبعدتنـى إلى منـزل السـيدة (لاف) ثـم عـادت إلى منـزل يحـترق؟ لمـاذا؟ الأمـر ليـس منطقيًـا".

تبعتـه وانحـرف هـو عـن الممـر الرئيـس وشـق طريقـه فى متاهـة الحـدود الضيقـة بـين المقابـر، توقـف عنـد قـبر نظـرت إليـه مـن قبـل وتـرك زهـوره، كان شـاهد القـبر بسـيطًا.

"جوان مارى لاف".

"لا تُنسى أبدًا".

مسـكين "أوريليـوس"، كان مرهقًـا للغايـة، بالـكاد ألاحـظ وأنـا أدس ذراعـى تحـت ذراعـه، لكـن حينهـا التفـت لينظـر إلى: "ربمـا مـن الأفضـل ألا تكـون لى قصـة مطلقًـا، ذلـك أفضـل مـن قصـة تتغـير باسـتمرار، لقـد قضيـت حيـاتى كلهـا أطـارد قصتـى، ولم أعرفهـا حقًـا، كنـت أطـارد قصتـى، فى حـين أن السـيدة (لاف) كانـت لـدى طـوال الوقـت، لقـد أحبتنـى".

"لم أشـك بهـذا قـط"، لقـد كانـت أمًـا صالحـة لـه، أفضـل مـما قـد تكـون عليـه الفتاتـان، قلـتُ: "ربمـا مـن الأفضـل ألا تعـرف".

التفت من شاهد القبر إلى السماء البيضاء: "أتظنين ذلك؟"

"لا".

"إذًا فلم تقترحين ذلك؟"

سـحبت ذراعـى مـن تحـت ذراعـه ودسسـت يـدىّ الباردتـين تحـت ذراعـى معطفـى، "إنـه مـا قـد تقولـه والـدتى، إنهـا تعتقـد أن قصـة بـلا وزن أفضـل مـن قصـة بالغـة الثقـل".

"إذًا فقصتى ثقيلة".

لم أعلق، وحين طال الصمت، لم أخبره قصته بل قصتى.

قلت: "كانت لى أخت، توأم".

حولت وجهى نحوه، كانت كتفاه جامدتين وعريضتين أمام السماء، واستمع بجدية إلى القصة التى صببتها إليه.

"كنا ملتصقتين، هنا..." وحركت يدى على جانبى الأيسر، "لم تستطع العيش من دونى، احتاجت إلى قلبى لينبض من أجلها، لكننى لم أستطع العيش معها، كانت تستنزف قوتى، ففصلونا، وماتت هى".

انضمت يدى إلى يدى الثانية على ندبى، وضغطتُ بقوة.

"لم تخبرنى والدتى قط، اعتقدت أن من الأفضل لى ألا أعرف".

"قصة بلا وزن".

"نعم".

"لكنك تعرفين".

ضغطت بقوة أكبر، "اكتشفت بالصدفة".

قال: "آسف لذلك".

شعرت بيديه تأخذان يدىّ، وضمهما على شكل قبضة كبيرة، ثم جذبنى إليه بذراعه الأخرى، شعرت بنعومة بطنه عبر طبقات من المعاطف، واندفعت ضوضاء إلى أذنى، وفكرت فى أنه نبض قلبه، إنه قلب بشرى، ويقف بجانبى، إذًا فهكذا صوته. فاستمعت.

ثم تباعدنا.

سألنى: "وهل من الأفضل أن تعرفى؟"

"لا يمكننى إخبارك، لكن بمجرد أن تعرف يستحيل أن تعود بالزمن".

"وأنت تعرفين قصتى".

"نعم".

"قصتى الحقيقية".

"نعم".

بالكاد تردد، أخذ نفسًا وبدا أنه يتضخم قليلاً.

قال: "من الأفضل أن تخبرينى إذًا".

حكيت له، وتمشينا وأنا أحكى له، وحين انتهيت كنا واقفين حيث تبرز زهور الثلوج عبر بياض الثلوج.

تردد "أوريليوس" وهو يحمل العلبة بين يديه: "لدى شعور بأن هذا مخالف للقواعد".

ظننت هذا أيضًا، "لكن ماذا أمامنا غير ذلك؟"

"القواعد لا تنطبق على هذه الحالة، أليس كذلك؟"

"لا يصح غير هذا".

"هيا بنا إذًا".

استخدمنا سكين الكعكة لنحت فراغ فى الأرض المجمدة أعلى نعش المرأة التى عرفتها باسم "إيميلاين"، قلب "أوريليوس" الرماد فيها، وأعدنا التربة لتغطيه، ضغط "أوريليوس" بكل وزنه، ثم أعدنا ترتيب الزهور لإخفاء عبثنا.

قال: "سيظهر مع ذوبان الثلوج"، ومسح الثلوج عن بنطاله.

"(أوريليوس)، يوجد المزيد فى قصتك".

قدته إلى جزء آخر من باحة الكنيسة، "أنت تعرف بشأن والدتك الآن، لكنك كان لك أب أيضًا"، أشرت إلى شاهد قبر "أمبروز"، "حرفى

الـ(إيـه) والـ(إس) عـلى الورقـة التـى أريتهـا لى، كان ذلـك اسـمه، وحقيبتـه أيضًـا، كانـت تسـتخدم فى حمـل الصيـد، وهـذا يفـسر وجـود الريشـة".

سـكتُّ لوهلـة، كان ذلـك كثـيرًا عـلى "أوريليـوس"، وحـين أومـأ بعـد وهلـة طويلـة، تابعـت: "كان رجـلاً صالحًـا، أنـت تشـبهه جـدًّا".

حملـق "أوريليـوس" مبهـورًا، فكلـما عـرف أكـثر، فَقَـد أكـثر، "إنـه ميـت، أعـرف ذلك".

قلـت برقـة: "هـذا ليـس كل شىء"، أدار عينيـه ببـطء نحـوى، وقـرأت فيهـما الخـوف مـن أن قصـة التخـلى عنـه لا نهايـة لهـا.

أخذت يده، وابتسمت له.

"بعد ولادتك تزوج (أمبروز)، وأنجب مرة أخرى".

اسـتغرقه الأمـر وهلـة ليـدرك مـا يعنيـه ذلـك، وحـين أدركـه، أعـادت هـزة مـن الحـماس جسـده إلى الحيـاة: "أتقصديـن.. أن لى.. وهـى.. هـو.. هـى..."

"نعم! أخت!"

أصبحت الابتسامة عريضة على وجهه.

تابعت: "وهى لديها طفلان، ولد وفتاة!"

"ابنة أخت! وابن أخت!"

أخـذت يديـه بيـدى لأمنعهـما مـن الارتجـاف، "إنهـا عائلـة يـا (أوريليـوس)، عائلتـك، أنـت تعرفهـم بالفعـل، وهـم ينتظرونـك".

بالـكاد اسـتطعت مجاراتـه ونحـن نمـر عـبر البوابـة المسـقوفة ونمـد الخطـى عـلى الطريـق المشـجر المـؤدى إلى بيـت الحـارس الأبيـض، لم ينظـر "أوريليـوس" إلى الـوراء، ولم نتوقـف إلا عنـد بيـت الحـارس، وكان هـذا بسـببى.

"(أوريليوس)! كدت أنسى أن أعطيك هذا".

أخذ المغلف الأبيض وفتحه، والبهجة تشتته، أخرج البطاقة وتطلع إلىّ: "ماذا؟ ليس حقًّا؟"

"نعم، حقًّا".

"اليوم؟"

"اليوم! تلبّسنى شىء فى هذه اللحظة، وفعلت شيئًا لم أفعله بحياتى قط ولم أتوقع أيضًا أن أفعله، فتحت فمى وصحت بأعلى صوتى، "عيد ميلاد سعيد!"

لا بد أننى كنت مجنونة قليلاً، وعلى أيّة حال، فقد شعرت بالخجل، لا أقصد أن "أوريليوس" قد يهتم لهذا، كان واقفًا بلا حركة، وذراعاه ممدودتان إلى جانبيه، وعيناه مغلقتان ووجهه متجه إلى السماء، كل سعادة العالم تهبط عليه مع الثلوج.

فى حديقة "كارين"، حملت الثلوج آثار ألعاب المطاردة، آثار أقدام صغيرة وآثار أقدام أصغر تطارد بعضها فى دوائر واسعة، لم يكن الطفلان فى أى مكان ظاهر، لكن كلما اقتربنا كنا نسمع أصواتهما آتية من الفجوة فى شجرة الصنوبر.

"لنلعب لعبة (سنو وايت)".

"هذه قصة للفتيات".

"ما القصة التى تريد أن تلعبها؟"

"قصة عن الصواريخ".

"لا أريد أن أكون صاروخًا، لنكن قوارب".

"كنا قوارب بالأمس".

حين سمعا صوت مزلاج الباب تطلعا إلى خارج الشجرة، "هل أخبركم من هذا؟" هكذا سألت طفليها وهي تبتسم بخجل لـ"أوريليوس"، "هذا خالكم".

بدل "أوريليوس" نظراته بين الطفلين و"كارين"، بالكاد كانت عيناه كبيرتين كفاية لتريا كل شيء أراده، كان عاجزاً عن التعبير، لكن "كارين" مدت يدها مترددة، وأخذها بيده.

بدأ كلامه: "الأمر كله..."

وافقته هي: "أليس كذلك؟ لكننا سنعتاد الأمر، صحيح؟"

أومأ.

كان الطفلان يحملقان بفضول إلى البالغين.

سألتهما "كارين" لتلهيهما: "ماذا تلعبان؟"

أجابت الفتاة: "لا نعرف".

وقال أخوها: "لا نستطيع أن نقرر".

سألت "إيما" "أوريليوس": "أتعرف أيّة قصص؟"

قال لها: "واحدة فقط".

اندهشت: "واحدة فقط؟ أبها أيّة ضفادع؟"

"لا".

"ديناصورات؟"

"لا".

"ممرات سرية؟"

تبادل الطفلان النظرات، فهذه ليست قصة دسمة، على ما يبدو.

قال "توم": "نحن نعرف الكثير من القصص".

رددت هــى عــلى نحــو حــالم: "الكثــير، أمــيرات، وضفــادع، وقصــور ســحرية، وعرابــات..."

"يرقات، وأرانب، وأفيال..."

"جميع أنواع الحيوانات".

"جميع أنواعها".

خيــم عليهــما الهــدوء، مســتغرقين فى تأمــل مشــترك للعــوالم المختلفــة التــى لا تُحــصى.

شاهدهما "أوريليوس" كأنهما معجزة.

ثم عادا إلى العالم الحقيقى، قال الفتى: "ملايين القصص".

سألت الفتاة: "هل أخبرك قصة؟"

ظننــت أن "أوريليــوس" قــد عــرف مــا يكفــى مــن القصــص ليــوم واحــد، لكنــه أومأ.

التقطــت غرضًــا خياليًّــا ووضعتــه فى راحــة يدهــا اليمنــى، وقلــدت بيسراهــا حركــة فتــح غــلاف كتــاب، واســترقت نظــرة لتتأكــد مــن أنهــا تحظــى بكامــل انتبــاه رفاقهــا، ثــم عــادت عيناهــا إلى الكتــاب بــين يديهــا، وبــدأت.

"فى يوم من الأيام..."

"كارن" و"تــوم" و"أوريليــوس"، ثلاثــة أزواج مــن الأعــين كلهــا تســتقر عــلى "إيمــا" وقصِّهــا، ســيكونون جميعًــا عــلى مــا يــرام معًــا.

تراجعــت مــن البوابــة وانســللت بعيــدًا بطــول الشــارع دون أن يلاحــظ أحد.

# الحكاية الثالثة عشرة

لـن أنـشر السـيرة الذاتيـة للسـيدة "فيـدا وينـتر". ربمـا العـالم متشـوق لمعرفـة القصـة، لكنهـا ليسـت قصتـى لأحكيهـا، "آديلايـن" و"إيميلايـن"، الحريـق والشـبح، كلهـا قصـص خاصـة بـ"أوريليـوس" الآن، كـذا المقابـر التـى فى باحـة الكنيسـة خاصـة بـه، وعيـد الميـلاد الـذى يسـتطيع تحديـده بحسـب مـا يريـد، فالحقيقـة ثقيلـة كفايـة مـن دون الثقـل الإضـافى لعيـون العـالم عـلى كتفيـه، وإن أرادا، يمكنـه و"كاريـن" أن يطويـا الصفحـة، وأن يبـدآ مـن جديـد.

لكـن الوقـت يمـر، وفى يـوم مـن الأيام لـن يكـون "أوريليـوس" موجـودًا، و"كاريـن" أيضًـا سـتغادر هـذا العـالم، والطفـلان، "تـوم" و"إيمـا"، بعيـدان عـن الأحـداث التـى حكيتهـا هنـا أكـثر مـن خالهـما، وبمسـاعدة والدتهـما، بـدآ ينسـجان قصصهـما الخاصـة، قصـص قويـة ومتماسـكة وحقيقيـة، سـيأتى يـوم تكـون فيـه "إيزابيـل" و"تشـارلى"، و"آديلايـن" و"إيميلايـن"، والسـيدة و"جـون ذا ديـج"، والفتـاة التـى بـلا اسـم، قدمـاء جـدًا لدرجـة أن عظامهـم القديمـة لـن تتحـلى بأيّـة قـوة لتثـير الخـوف أو الألم، لـن

يكونوا أى شىء إلا قصة قديمة، غير قادرة على إيذاء أحد، وحين يأتى ذلك اليوم -سأكون أنا نفسى مسنة- سأعطى "توم" و"إيما" هذه الحكاية، ليقرآها، ولينشراها إن قررا ذلك.

آمل أن ينشراها، لأن إلى أن يفعلا ذلك، ستظل روح تلك الطفلة الشبح تطاردنى، ستتجول فى خواطرى، وستبقى فى أحلامى، وستكون ذاكرتى ملعبها الوحيد، لم أقدم لها الكثير بهذا الإحياء بعد وفاتها، لكنها على الأقل ليست منسية، سيكون هذا كافيًا، حتى اليوم الذى ينشر فيه "توم" و"إيما" هذا النص، وستكون قادرة على الوجود أكثر بعد موتها، أكثر مما عاشت قط.

وبالتالى، فإن قصة الفتاة الشبح لن تُنشر لسنوات عدة، إن نُشرت من الأساس، لكن ذلك لا يعنى أنى ليس لدى ما أعطيه للعالم فى الحال لإرضاء فضوله بشأن "فيدا وينتر"، لأن لدى شيئًا ما، ففى نهاية اجتماعى الأخير مع السيد "لوماكس"، كنت على وشك المغادرة حين أوقفنى قائلاً: "هناك شىء آخر بعد"، وفتح مكتبه وأخرج مظروفًا.

كان ذلك المظروف معى حين انسللت دون أن يلاحظنى أحد إلى خارج حديقة "كارين" وحولت خطاى نحو بوابات المنزل، لقد سويت الأرض من أجل الفندق الجديد، وحين حاولت تذكر المنزل القديم، لم أجد إلا صورًا فوتوجرافية فى ذاكرتى، لكن حينئذ وردت ببالى فكرة أنه بدا دائمًا مواجهًا للجهة الخطأ، لقد كان ملتويًا، سيكون المبنى الجديد أفضل، سيواجه الناظر مباشرة.

انحرفت من ممر الحصى لأعبر العشب المغطى بالثلوج إلى حديقة الغزلان القديمة والغابة، كانت أفرع الأشجار المظلمة مثقلة بالثلوج، التى تهبط منها أحيانًا كتل كبيرة لينة عند مرورى، وصلت أخيرًا إلى النقطة المرتفعة عند المنحدر، يمكنك رؤية كل شىء من هنا، الكنيسة ومقابرها، وأكاليل الزهور الزاهية على الجليد، وبوابات المنازل

البيضاء كالطباشير تحت السماء الزرقاء، واستراحة العربات المجردة من غطائها، لم يختفِ إلا المنزل، وقد اختفى تمامًا، قلص الرجال ذوو الخوذات الصفراء الماضى إلى صفحة فارغة، وقد بلغنا نقطة التحول، لم يكن ممكنًا أن يُطلق على هذا موقع هدم، فغدًا، أو ربما اليوم، سيعود العمال وسيصبح موقع بناء، هُدم الماضى، وحان الوقت ليشرعوا فى بناء المستقبل.

أخرجت المظروف من الحقيبة، لقد كنت أنتظر الوقت المناسب، والمكان المناسب.

الحروف التى على المظروف مرسومة بشكل خاطئ على نحو غريب، جرات القلم غير المتساوية إما متلاشية إلى لا شىء وإما محفورة فى الورقة، لم تعطِ أى انطباع بالسلاسة: كل حرف أعطى انطباعًا بأنه قد اكتمل على نحو فردى، وبجهد كبير، والتالى فقد رُسم كأنه مغامرة جديدة شاقة، كأن الحروف قد كُتبت بيد طفل أو شخص مسن للغاية، والمظروف موجه للآنسة "مارجريت ليا".

نقضت الظرف وأخرجت محتوياته، وجلست على شجرة مبتورة لأقرأها، لأننى لم أقرأ شيئًا واقفة قط.

عزيزتى مارجريت،

إليك النص الذى أخبرتك عنه.

حاولت أن أنهيه، ووجدت أننى لا أستطيع، لذا فإن هذه القصة التى أحدث العالم ضجة كبيرة جدًا بشأنها يجب أن تنجح على حالها، إنها شىء واهٍ: شىء من لا شىء، افعلى بها ما تشائين.

أما العناوين، فإن العنوان الذى يثب إلى بالى هو "طفلة سندريلا"، لكننى أعرف كفاية بشأن القراء لأفهم أن أيًّا كان الاسم الذى سأختار لها، ستُعرف للأبد بعنوان واحد، ولن يكون عنوانى.

لم تحمل الرسالة توقيعًا، ولا اسمًا.

لكن القصة موجودة.

كانت قصة "سندريلا"، كأننى لم أقرأها من قبل، كانت مقتضبة وصعبة وغاضبة، كانت عبارات السيدة "وينتر" شظايا زجاجية، براقة وقاتلة.

تخيل هذا، تبدأ القصة، ويوجد فتى وفتاة، الفتى غنى، والفتاة فقيرة، فى غالب الأحيان تكون الفتاة هى من لا تملك الذهب، وهذه هى الحال فى قصتنا هذه، لم تكن هناك حاجة إلى حفل، فتمشية فى الغابة كانت كافية ليتعثر كل منهما بمسار الآخر، وفى يوم من الأيام كانت هناك عرابة ساحرة، لكنها لم تبقَ إلى الأبد، وهذه القصة عن واحدة من مرات غيابها، وعربة فتاتنا عادية، تزحف إلى منزلها بعد منتصف الليل، وعلى ثوبها التحتىّ دماء لأنها اغتُصبت، ولن يأتى خادم إلى بابها بحذاء فرو فى اليوم التالى، وهى تعرف ذلك بالفعل، إنها ليست غبية، بل هى حبلى.

فى بقية القصة، تلد "سندريلا" طفلة، وتربيها فى الفقر والقذارة، وتتخلى عنها بعد بضع سنوات فى أرض المنزل المملوك لمغتصبها، وتنتهى القصة فجأة.

تشعر الطفلة بالبرد والجوع فى منتصف طريق فى حديقة لم تذهب إليها من قبل، وتدرك فجأة أنها وحيدة، وراءها باب الحديقة المؤدى إلى الغابة، والذى يظل مواربًا، ألا تزال والدتها وراءه؟ وأمامها كوخ،

يبدو لعقلها الطفولى مثل منزل صغير، مكان قد تلجأ إليه، ومن يعرف، ربما يوجد به شىء يؤكل.

باب الحديقة؟ أم المنزل الصغير؟

الباب؟ أم المنزل؟

تتردد الطفلة.

تتردد...

وتنتهى القصة هنا.

أهى أقدم ذكرى لدى السيدة "وينتر"؟ أم أنها مجرد قصة؟ أم قصة ابتكرتها طفلة واسعة الخيال لتملأ الفراغ الذى كان يجب أن تشغله والدتها؟

الحكاية الثالثة عشرة، القصة الأخيرة، الأشهر، غير المنتهية.

قرأت القصة وحزنت.

بالتدريج تحولت أفكارى بعيدًا عن السيدة "وينتر" وإلى نفسى، ربما والدتى ليست مثالية، لكن على الأقل لى أم، هل فات أوان الأمل؟ لكن هذه قصة أخرى.

وضعت المظروف فى حقيبتى، ووقفت، ومسحت غبار لحاء الشجرة عن بنطالى قبل العودة إلى الطريق.

كنت ملزمة بكتابة قصة حياة السيدة "وينتر"، وقد فعلتها، لا يوجد شىء آخر أحتاج إلى فعله لأتمم شروط التعاقد، إحدى نسخ هذه الوثيقة ستودع لدى السيد "لوماكس"، الذى سيخزنها فى خزانة بنك ثم سيرتب اللازم ليحول لى مبلغًا ضخمًا من المال، من الواضح أنه ليس مضطرًا حتى إلى تفقد ما إذا كانت الصفحات التى قدمتها إليه بيضاء.

قال لى: "لقد وثقت بك".

من الواضح أنها وثقت بى، تبدو نواياها فى العقد الذى لم أقرأه ولم أوقعه جلية جدًّا، أرادت أن تحكى لى القصة قبل أن تموت، أرادتنى أن أسجلها، ما أفعله بها بعد ذلك كان قرارى، أخبرت المحامى بشأن نواياى تجاه "توم" و"إيما"، وحددنا موعدًا لإضفاء طابع رسمى عليها فى صورة وصية احتياطية، وهذا يجب أن تكون نهاية الأمر.

لكننى لا أشعر أنى قد تجاوزت التجربة حقًّا، لا أعرف مَن سيقرأ هذا فى النهاية، أو كيف، لكن لا يهم إن كانوا قلة، ولا يهم إن حدث ذلك بعد زمن بعيد، فأنا أشعر بالمسئولية تجاههم، ومع أننى حكيت لهم كل ما تُمكِن معرفته عن "آديلاين" و"إيميلاين" والطفلة الشبح، أدرك أن هذا لن يكون كافيًا بنظر البعض، أعرف كيف يكون الأمر أن تُنهى كتابًا وتجد نفسك تتساءل بعد يوم أو أسبوع، عما حدث للجزار، أو من حصل على الماس، أو ما إذا كانت الأرملة الغنية قد اجتمعت مع ابنة أختها مجددًا، يمكننى تخيل القراء يتفكرون فى ما حدث لـ"جوديث" و"موريس"، وإذا ما كان أحدٌ ظل يهتم بالحديقة البهية، ومَن انتقل للعيش فى المنزل.

لذا، إن كنت تتساءل، دعنى أخبرك، بقت "جوديث" و"موريس" فى المنزل، والمنزل لم يُبع، فقد أضيف شرط فى وصية السيدة "وينتر" يفيد بأن يُحول المنزل والحديقة إلى متحف للأدب، بالتأكيد الحديقة هى ما تحمل القيمة الحقيقية (إنها "جوهرة غير معروفة" بحسب ما وصفتها مجلة بستنة فى وقت مبكر)، لكن السيدة "وينتر" أدركت أن سمعتها فى قص القصص ستجذب الحشود أكثر من مهاراتها فى البستنة، ولذا سيضم المتحف جولات بالغرف، ومحل شاى، ومتجر كتب، يمكن للحافلات التى تجلب السياح إلى متحف "برونتى" أن تأتى بعدها إلى حديقة (فيدا وينتر) السرية"، ستستمر "جوديث" فى

منصب مدبرة للمنزل، و"موريس" مديرًا للبستنة، مهمتهما الأولى، قبل أن يمكن بدء تحويل المنزل إلى متحف أن يفرغا سكن "إيميلاين"، فهذا لن تسمح بزيارته، لأن لا شيء به يُرى.

أما "هيستر"، وهذا سيفاجئك، فقد فاجأني بالطبع، وصلتني رسالة من "إيمانويل درايك"، ولأصدقكم القول فقد نسيت أمره تمامًا، لقد كان يباشر أبحاثه ببطء وبأسلوب منهجي، وعلى الرغم من كل الصعاب، وجدها، "لقد ضللتني الصلة بإيطاليا"، بحسب ما وضح في رسالته، "في حين ذهبت معلمتك المنزلية بالاتجاه الآخر تمامًا، إلى أمريكا!"، عملت "هيستر" لمدة عام مساعدة كتابية لمتخصص أكاديميّ في علم الأعصاب، وحين انتهت السنة، خمِّنوا من جاء لينضم إليها؟ الطبيب "مودسلي"! فقد ماتت زوجته (لا لشيء أكثر شرًا من الأنفلونزا، لقد بحثت الأمر)، وخلال أيام من الجنازة كان على متن قارب، إنه تأثير الحب، وكلاهما ميت الآن، لكن بعد حياة سعيدة ومديدة معًا، أنجبا أربعة أطفال، أحدهما كتب رسالة إليّ، وأرسلت أنا إليه النسخة الأصلية من دفتر مذكرات والدته ليحتفظ بها، أشك في أنه سيتمكن من تمييز أكثر من كلمة من كل عشر كلمات، إن طلب مني توضيحًا سأخبره أن والدته عرفت والده هنا في إنجلترا، خلال فترة زواج والده الأول، لكن إن لم يسأل، سأبقى صامتة، في رسالته إليّ، أرفق قائمة بالمنشورات المشتركة لوالديه، لقد بحثا وكتبا العشرات من المقالات ذات الشأن (لا يتعلق أي منها بالتوائم، أظن أنهما عرفا متى يجب التوقف) ونشراها على نحو مشترك: الطبيب "إي"، والسيدة "إتش جي مودسلي".

"إتش جي"؟ كان لـ"هيستر" اسم أوسط: "جوزافين".

ماذا تريد أن تعرف أيضًا؟ من اعتنى بالقط؟ حسنًا، انتقل "شادو" للعيش معي في متجر الكتب، يجلس على الرفوف، في أيَّة مساحة يستطيع إيجادها بين الكتب، وحين يصادفه الزبائن هناك يستجيب

لنظراتهم برباطة جأش هادئة، وبين الحين والآخر، يجلس عند النافذة، لكنه لا يطيل الجلوس، فالشارع يحيره، والسيارات والمارة والأبنية المقابلة، لقد أريته طريقًا مختصرًا عبر الحارة إلى النهر، لكنه يرفض استخدامه.

قال والدى: "ماذا تتوقعين؟ النهر بلا فائدة بنظر قِطٍّ من يوركشاير، إنه يبحث عن الأراضى البور".

أعتقد أنه على حق، فـ"شادو" يقفز إلى النافذة والتطلعات مسيطرة عليه، وينظر عبرها، ثم يلتفت إلىَّ بنظرة طويلة محبطة.

لا أود التفكير فى أنه يفتقد بيته.

جاء الطبيب "كليفتون" إلى متجر والدى إذ صادف أنه يزور البلدة، بحسب ما قال، وحين تذكر أن والدى يملك متجرًا للكتب هنا، فكر فى أن زيارتنا مستحقة، ليرى إن كان لدينا مجلد محدد عن طب القرن الثامن عشر كان مهتمًا به، رغم أن احتمالية ذلك ضعيفة، وما حدث هو أن كانت لدينا نسخة، ودردش ووالدى على نحو ودى عن الكتاب باستفاضة، حتى تجاوزنا موعد الإغلاق بفترة طويلة، ولتعويضنا عن البقاء لوقت متأخر هكذا، دعانا لتناول وجبة، كان الأمر لطيفًا للغاية، وبما أنه كان فى البلدة لليلة أخرى، دعاه والدى فى المساء التالى لوجبة مع العائلة، أخبرتنى والدتى فى المطبخ أنه "رجل لطيف جدًّا يا (مارجريت)، لطيف جدًّا"، عصر اليوم التالى كان الأخير له فى البلدة، ذهبنا للتمشية قرب النهر، لكن فى هذه المرة كنا كلينا فقط، فانشغال والدى بكتابة الرسائل منعه من مصاحبتنا، وحكيت للطبيب قصة شبح "آنجلفيلد"، استمع بإنصات وحين انتهيت تابعنا السير، ببطء وفى صمت.

"أذكر رؤية صندوق الكنوز هذا"، بحسب ما قال فى النهاية، "كيف نجا من الحريق؟"

توقفت مكانى أتساءل، "لم أفكر قط فى أن أسأل".

"لن تعرف مطلقًا الآن، صحيح؟"

أخذ ذراعى وتابعنا المسير.

على أيَّة حال، بالعودة إلى موضوعى، وهو "شادو" وحنينه إلى بيته، حين زار الطبيب "كليفتون" متجر والدى ورأى حزن القط اقترح أن يفتح بيته لـ"شادو". سيسر "شادو" كثيراً بالعودة إلى يوركشاير، لا شك لدى فى ذلك، لكن هذا العرض، على الرغم من لطفه، أغرقنى فى حالة من الحيرة المؤلمة، لأننى لست متأكدة إن كنت أستطيع تحمل الانفصال عنه، أنا واثقة بأنه سيتحمل غيابى برباطة الجأش نفسها التى تقبل بها اختفاء السيدة "وينتر"، لأنه قِطٌ، لكن لأننى إنسان، فقد أصبحت مولعة به، وأفضِّل لو أمكن أن أبقيه بقربى.

أفشيت واحدة من هذه الأفكار للطبيب "كليفتون" فى رسالة، ورد بأنه ربما يجب أن نأتى كلانا، "شادو" وأنا، لنقضى إجازة، إنه يدعونا لمدة شهر فى الربيع، وبحسب ما يقول فإن أى شىء يمكن أن يحدث خلال شهر، وبنهايته يعتقد أن من الممكن أن نتوصل إلى حل يناسبنا جميعًا لهذه المعضلة، ولا يسعنى إلا التفكير بأن "شادو" سيحظى بهذه النهاية السعيدة.

وهذا كل ما فى الأمر.

# استدراك

استدراك

ربما ذلك ليس كل ما فى الأمر، إذ يعتقد المرء أنه قد انتهى من شىء، ثم يكتشف فجأة أنه لم ينتهِ منه تمامًا.

جاءتنى زائرة.

كان "شادو" أول من لاحظها، كنت أدندن وأنا أحقب أشيائى من أجل عطلتنا، الحقيبة مفتوحة على السرير، و"شادو" يخطو إلى داخلها وخارجها، ويلهو بفكرة أن يصنع لنفسه عشًّا على جواربى وستراتى، حين توقف فجأة، وبدا عازمًا للغاية وهو يحملق نحو الباب ورائى.

لم تأتِ فى صورة ملاك ذهبى، ولا شبح الموت الذى يرتدى معطفًا، بل كانت مثلى: امرأة طويلة إلى حد ما، نحيفة وبنية الشعر، لن تلاحظها إن مرت بجوارك فى الشارع.

هناك مئات، بل آلاف الأشياء التى ظننت أننى أريد سؤالها عنها، لكننى كنت متأثرة لدرجة صعبت حتى نطق اسمها، خطت نحوى، ولفتنى بذراعها وضغطت على إلى جانبها.

نجحت فى أن أهمس: "(مويرا)، كنت بدأت أظن أنك لست حقيقية".

لكنها كانت حقيقية، خدها على خدى، وذراعها على كتفى، ويدى على وسطها، تلامسنا بنبدتينا، وتلاشت أسئلتى كلها وأنا أشعر بتدفق دمها إلى دمى، ونبض قلبها مع نبض قلبى، كانت لحظة مبهرة، لحظة عظيمة وهادئة، وأدركت أننى أتذكر هذا الشعور، لقد حُبس بداخلى، بعيدًا، والآن جاءت هى وأطلقت سراحه، هذا الاتصال البهيج، هذا الاتحاد كان فى السابق عاديًا، ووجدته اليوم إعجازيًا بعدما استعدته.

جاءت وكنا معًا.

أدركت أنها جاءت لتودعنى، فى لقائنا التالى سأكون أنا الآتية إليها، لكن هذا اللقاء التالى لن يحدث إلا بعد وقت طويل جدًا، ولا داعى للتعجل، يمكنها الانتظار، وأنا كذلك.

شعرت بلمسة أصابعها على وجهى وأنا أمسح دموعها، ثم، تحت تأثير السعادة، وجدت أصابعنا بعضها بعضًا وتشابكت، أنفاسها على خدى، ووجهها على شعرى، ودفنت أنفى فى انحناءة عنقها واستنشقت حلاوتها.

يا لها من سعادة.

لا يهم أنها لن تستطيع البقاء، لقد أتت، لقد أتت.

لست واثقة بكيف أو متى غادرت، أدركت ببساطة أنها لم تعد موجودة، جلست على السرير هادئة للغاية، وسعيدة للغاية، انتابنى ذلك الشعور الغريب بأن دمى يعيد توجيه نفسه، وأن قلبى يعيد

ضبط نبضه ليكفينى وحدى، لقد أعادت الحياة إلى ندبى حين لمسته، والآن، تبرد حرارته بالتدريج حتى تتساوى مع بقية جسدى.

لقد أتت ورحلت، لن أراها مجددًا فى هذه الناحية من العالم، وحياتى ملكى وحدى.

كان "شادو" نائمًا فى الحقيبة، مددت يدى لأمسده ففتح عينًا خضراء هادئة، وتطلع إلىّ للحظة، ثم أغلقها مجددًا.

# هل تؤمن بالأشباح؟



أعرف أن ذلك الشعور في مؤخر العنق شائع إلى حد ما؛ لكن هذه أول مرة أختبره. مثل الكثير من الوحيدين، حواسي معتادة على وجود الآخرين، فأنا معتادة على أن أكون المتجسِسة الخفية في الغرفة أكثر من كوني المتجسَس عليها. والآن أحد يراقبني، وليس هذا فقط، بل وكان يراقبني لبعض الوقت. لكم من الوقت ظل هذا الشعور غير القابل للشك يدغدغني؟ تأملت الدقائق الأخيرة محاولة تتبع ذاكرة جسدي مع أحداث الكتاب. أكنت أراقَب منذ أن بدأت الراهبة الحديث إلى الشاب؟ منذ أن أُرشدت إلى داخل المنزل؟ أم قبل ذلك؟ حاولت أن أتذكر من دون تحريك عضلة واحدة، كنت منكبة على الصفحة كأن شيئًا لم يحدث.

الغلاف: مويرة عادل




ISBN 978-977-313-798-4

مركز المحروسة للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات